

لذلك لا يُدِيم الله سِجِّانَهُ غِنَى أَحَدٍ أَبَدَ الدَّهْرِ ، بَلْ جَعَلَ الدُّنْيَا دُولاً^(١) بَيْنَ النَّاسِ .

إِذَنْ : فَلَوْ عَرَفَ هَذَا الْمَلَأُ الْكَافِرُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعْنَى كَلِمَةِ الْفَضْلِ^(٢) لَمَّا قَالُوا هَا ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ هُوَ الزَّائِدُ عَنِ الْمَطْلُوبِ لِلْكَائِنِ ، فِي الْمَحْسُوسَاتِ أَوْ الْمَعَانِي وَالْفَضْلُ يَقْتَضِي وَجُودَ فَاضِلٍ وَمَفْضُولٍ .

وَلْيَنْظُرْ كُلُّ طَاغِيَةٍ فِي حَيَاتِهِ لِيَرَى مَا الْفَاضِلُ فِيهَا ؟

إِنَّهُ بَعْضُ مِنَ الْمَالِ أَوْ الْجَاهِ ، وَكُلُّ مَنْ يَخْدُمُ هَذَا الطَّاغِيَةَ هُمْ أَصْحَابُ الْفَضْلِ ؛ لِأَنَّ سَيَادَةَ الطَّاغِيَةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى عَطَائِهِمْ .

فَهُمْ أَصْحَابُ الْفَضْلِ ، مَا دَامَ الْفَضْلُ هُوَ الْأَمْرُ الزَّائِدُ عَنِ الضَّرُورِيِّ .

إِذَنْ : فَحَقِيقَةُ ارْتِبَاطِ الْعَالَمِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، هُوَ ارْتِبَاطُ الْحَاجَةِ لَا ارْتِبَاطِ السَّيْطَرَةِ ، وَلِذَلِكَ حِينَ نَرَى مَسِيطِراً يَطْغَى ، فَنَحْنُ نَقُولُ لَهُ : تَعَقَّلِ الْأَمْرَ ؛ لِأَنَّكَ مَا سَيَّطَرْتَ إِلَّا بِأَنْاسٍ مِنَ الْأَرَادِلِ ، فإِظْهَارُ قُوَّتِهِ تَكُونُ بِمَنْ يُجِيدُونَ تَصْوِيبَ السَّلَاحِ ، أَوْ بِمَنْ تَدْرَبُوا عَلَى إِيْذَاءِ الْبَشَرِ ، فَهُوَ يَبْنِي سَيَادَتَهُ بِبَعْضِ الْأَرَادِلِ ، كَوَسَائِلَ لِحَقِيقِ سَيَّطَرَتِهِ .

وَقَوْلُ الْكَافِرِينَ مِنْ مَلَأَ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - :

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ .. ﴾ (٢٧)

[هود]

يَكْشِفُ أَنَّهُمْ قَدْ فَهَمُوا الْفَضْلَ عَلَى أَنَّهُ الْغِنَى ، وَالْجَاهُ وَالْمَنَاصِبُ ، وَهُمْ قَدْ أَخْطَأُوا الْفَهْمَ .

(١) الدُّوْلَةُ : اسْمٌ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَتَدَاوَلُ ، وَالدُّوْلَةُ : الْفَعْلُ وَالانتِقَالُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، لَا يَصْرَفُ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ - مَادَّةٌ : دَوْلٌ [

(٢) فَالْفَضْلُ بِمَنْهَوْمِ الْكَفَرَةِ يَخَالِفُ الْفَضْلَ فِي مَنَهَوْمِ الْمُؤْمِنِ : فَالْفَضْلُ عِنْدَ الْكَافِرِ هُوَ الْمَالُ وَالسُّلْطَانُ ، وَفِي مَنَهَوْمِ الْمُؤْمِنِ هُوَ الْإِضْطِفَاءُ وَالْعَطَاءَاتُ وَالْهَيَبَاتُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي يَصْطَفِي اللَّهُ سِجِّانَهُ بِهَا الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِهِ .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٢٦

وَيُنْهِى الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ :

[هود]

﴿.. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾

والظن^(١) هو الراجح، والمرجوح هو الوهم؛ وهذا يثبت أن في الإنسان فطرة تستبقي في النفس كومات، فالتكبر يمضي في كبره إلى أن تأتي له ومضة من فطرته ، فيعرف أن الحق حق، وأن الباطل باطل.

وحين جاءت هذه الومضة في نفوس هذا الملا الكافر ، قالوا :

[هود]

﴿.. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾

ولم يقولوا : «نعتقد أنكم كاذبون» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(٢)

﴿قَالَ يَقْوِمُ آرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَهَ الْإِنْسِي رَحْمَةً

مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَا مُكْمُوهُنَّ وَأَسْمَرَهَا كَرِهُونَ (٢٨)﴾

وقول نوح عليه السلام : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي : أخبروني إن كنت على بينة موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية ، وآتاني الحق سبحانه : ﴿رَحْمَةً﴾ أي : رسالة ، بينما خفيت هذه المسألة عنكم ، فهل أجبركم على

(١) الظن : ما يحصل في النفس عن أمار ، فهو شك راجح ، وتعلم من أفعال الراجحان . والظن :

مصدر ، والظن : اسم لهذا الحاضر الذي يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿.. إِنْ يُبْعَثُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ

الظَّنُّ لَا يَهْدِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٥)﴾ [النجم] وجميعه : ظنون . وقال تعالى : ﴿.. وَتَقُولُونَ بِاللهِ الظُّلُمَاتُ (٢٦)﴾

[الأحزاب] الظُّلُمَاتُ بألف في الوصل ، وفي الوقف ، ويغير ألف قراءة . [القاموس القويم] .

(٢) البينة : الحجة الواضحة الموضحة للحق ، والبينة : الظاهرة الواضحة التي لا شك فيها ، أو هي مبينة

للحق مؤيدة له ، مظهرة لأسره . قال تعالى : ﴿كَمْ أَنْتَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ (٢٣)﴾ [البقرة] . [القاموس

القويم] يتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٢٧

ذلك ؟ لا ؛ لأن الإيمان لا بد أن يأتي طواعية بعد إقناع ملموس ، وانفعال مأنوس ، واختيار بيقين^(١) .

وحين ننظر في قوله :

﴿ أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُورًا وَأَنْتُمْ نَهَا كَارِهُونَ ﴾ (٢٨)

[هود]

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل «نزل» ثم كاف المخاطبة ، وهنا تكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مضمور في الفعل ، ومفعول أول هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة .

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب^(٢) ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزرع الإيمان في القلوب .

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخضع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم^(٣) كما أخضع الكون كله له ، فهو سبحانه القائل :

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ... ﴾ (٢٧)

[النازعات]

فأحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر^(٤) ، وكل الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَتَّبِعَ لَهُمُ الْآخِرَ ... ﴾ (٢٥) [فصلت]

(٢) القلوب لها حكمة خاصة ، يقول الحق : ﴿ الْفَلَاحُ يَدِيرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢١) [محمد]

ويقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ (٢٥) [الأنفال] فإيمان القلوب إيمان العاقلين ، وإيمان

القوالب إيمان المكرهين والمرائين والمتأيقين ، وهناك فرق بين قبول اليقين ومتعلق المكرهين .

(٣) ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٥) [يونس] ، ويقول أيضاً : ﴿ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْنَهُمْ عَلَىٰ الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْبَاطِلِينَ

﴾ (٦٤) [الأنعام]

(٤) يقول الحق : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعْنَاهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ

﴾ (٩١) [الرحمن] ويقول الحق : ﴿ نَسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِسَبْحٍ بِحَمْدِهِ

وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٩١) [الإسراء]

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ۚ﴾ (٥٧) [غافر]
والكون كله يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .

وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال سبحانه عنهم :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) [التحريم]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد قwalب لأخضع الخلق كلهم لعبادته ، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخضع ؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :

﴿لَعَلَّكَ بَاقِعٌ^(١) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢) **إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** (٤) [الشعراء]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنْزَعٌ عن رغبة إخضاع القوالب البشرية ، بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ؛ ولذلك لا يُكْرِهُ الله سبحانه أحداً على الإيمان .

والدين لا يكون بالإكراه ، بل بالطوعية والرضا .

والحق سبحانه وتعالى هو القاتل :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ^(٢)﴾ (١٥٦) [البقرة]

وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على العقل ، فالعقل بالإدراك يفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب يتزع إلى اختياره بيقين المؤمن .

(١) يخضع نفسه ، يخضع ويخضع : فتلها ممتاً وغبطاً وحزناً . وقال تعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاقِعٌ نَفْسِكَ عَلَى ظَنَانِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْغَدِيثِ اسْمًا﴾ (٤) [الكهف] .

(٢) الغي : الضلال والانهماك في الجهل .

يقول الحق :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾

[آل عمران]

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَّبِعٍ ، أما الدِّينُ فامر يتَّبِعُ فيه الرشد ؛ لأن المنهج حين يطلب منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمي محارمك ، وحين يأمرك ألا تغتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففى هذا كله راحة للإنسان .

إذن : فما يطلبه المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت فى مطلوبات المنهج فلن تجدها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً . وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاء .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البيئة الواضحة فاصلة بينه وبين الغي .

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية فى غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلّى تجده يقول لك :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . (٢٥٦) ﴾

[البقرة]

ولك أن تقول له : لا إكراه فى الحَمَلِ على الدِّينِ والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدِّينِ فأياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين ؛ لأن الحق سبحانه لم يكره أحداً على الدخول فى الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويتدبر ؛ لأنه إن دخل فى الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب ؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضى إقامة الحد على المرتد^(١) ومعاقبة العاصي على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة في الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَيَقُولُوا لَا آسَأُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن آجِرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُكْتَفَوْنَ وَلَكِنِّي أَرَىٰ قَوْمًا يَجْتَهُلُونَ ﴾^(٢)

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففي مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴾^(٣) [الأنعام]

لأن العوض في التبادل قد لا يكون مالا ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر - كما نعلم - هو أعم من أن يكون مالا أو غير مال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

(١) حد المرتد في شريعة الإسلام هو القتل ، فقد روى البخاري في صحيحه (١٢/٢٦٧ - فتح) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من بدل دينه فاقتلوه » ، وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحضان ، وقتل نفس بغير نفس » أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٧٦) .

ولكن يجب أن يشبه إلى أنه لا يحكم بارتداد أحد إلا بعد صدوره ما يدل على كفره دلالة قطعية لا تختمل التأويل ، حتى نسب إلى الإمام مالك أنه قال : « من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه » ، حمل أمره على الإيمان . ولا يطبق حد الردة إلا بعد الاستتابة لمدة ثلاثة أيام .

(٢) أى : لا أسألكم على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله والإيمان به مالا أو غيره .

(٣) إن - هنا - نافية ، بمعنى : « ما أو « ليس » أى : ما أجرى إلا على الله .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٤١

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ﴾ (٢٩) [هود]

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغلَى الأمر .

وقول الرسول :

﴿إِنْ أَجَرِيَ^(١) إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ﴾ (٢٩) [هود]

هو قول يدل على أن الأمر الذي جاء به الرسول هو أمر نافع ؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة .

ونحن نعلم أن مبادلة الشيء بعينه أو ما يساويه ؛ تُسَمَّى شراء ، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين ، وتظل العين ملكاً لصاحبها ، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً ، فكأن نوحاً عليه السلام يقول : لقد كنت أستحق أجراً لأنني أقدم لكم منفعة ، لكنني لن آخذ منكم شيئاً ، لا زُهداً في الأجر ، ولكني أطمع في الأجر بمن هو أفضل منكم وأعظم وأكبر .

ولأن هذا الملاك الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أرذل^(٢) ؛ لذلك يأتي الرد من نوح عليه السلام :

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ﴾ (٣٩) [هود]

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير ، فاليقين الإيمانى لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة .

(١) أجره بوجره إيجاراً ؛ أجر من فلان الدار وغيرها ؛ اكترها منه ، وأجره بؤجره مؤجره استأجره . اتخذ أجيراً والإجارة : الأجر على العمل ؛ عقد غليك تقع مقصورة من العين بعرض ، والأجرة عوض العمل والانتفاع ، والأجر الذى يكفى العامل المعيش والأجر الحقيقى القوة الشرائية للثقة الذى يحصل عليه العامل والأجرة : الأجر . والأجير من يعمل بأجر وأعظم الأجر عطاء الله المعجم الوجيز ينصرف .

(٢) والأرذل جمع رذل ، وقيل : الواحد أرذل والجمع أرذل ، وقد غلبت عليه الاسمية وإن كان وصفاً (البيان فى إعراب القرآن)

وَلَا يُخْلِي رَسُولٌ مَكَانًا مِنْ أَتْبَاعِهِ الْفُقَرَاءَ لِيَأْتِيَ الْأَغْنِيَاءَ ، بَلِ الْكُلُّ
سَوَاسِيَةٌ أَمَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ^(١) يَرِيدُونَ وَجْهَ مَا عَلَيْكَ
مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
الظَّالِمِينَ ^(٢) ﴾ (٥١)

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة «أراذل» فتنة ،
فمن تكبر بسبب فقر وضعف أتباع الرسل ، فليغرق في كبره .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا ^(٣) بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ ^(٤) اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا
أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٥٢)

وأيضاً يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ،
وَأَلَّا يَنْصَرِفَ عَنْهُمْ أَوْ عَنْ أَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، فيقول الحق سبحانه :

(١) أى : نهاراً وليلاً . والمراد أنهم دائمو الدعاء لله رب العالمين .

(٢) تزلت هذه الآية في بضعة نفر من فقراء وضعفاء المسلمين منهم : ابن مسعود وصهيب وعمار والقداد
وبلال . فقد قالت قريش لرسول الله ﷺ : إننا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء قاطرهم ، فدخل قلب
رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فانزل الله تعالى الآية . أخرجه ابنسأبوري في أسباب
النزول (ص ١٢٤) .

(٣) فتنا : اختبرنا . والفتنة : الاختبار بالبار ، واستعبرت لكل اختبار شديد . وقال تعالى : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ
بِقَاتِلِينَ ﴾ (١٣١) [البصافات] .

(٤) من عليه : انعم عليه وأحسن إليه . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
... ﴾ (٦٢) [آل عمران] [الغافر من القويم] .

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ.. (٢٨)﴾ [الكهف]

جاء هذا القول حتى لا ينشأ فساد أو عداوة بين المؤمنين برسول الله ﷺ ، ولا يقال : «فلان مقرب منه» ؛ ولذلك كان ﷺ إذا جلس ؛ يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يظن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه .

وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ.. (٢٩)﴾ [مرد]

وفي هذا بيان أن نوحاً - عليه السلام - لن يطرد هؤلاء الضعاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلقون الله تعالى ، أيسمح نوح عليه السلام أن يقال عنه أمام الحق - تبارك وتعالى - إنه قد طرد قوماً آمنوا برسائله ؟ طبعاً لا .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه يحاسب رسله ، والمرسل إليهم ، فهو سبحانه القائل :

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٣٠)﴾ [الأعراف]

(١) عدت عنه عنه : تجاوزته وأعملت النظر إليه واستجشت غيره ، كناية عن الإعراض وعدم الاهتمام .
قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ.. (٢٨)﴾ [الكهف] أي : لا تركهم ولا تهملهم . [القاموس المقيّم] .
(٢) قوله تعالى : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٣٠)﴾ [الأعراف] كقوله : ﴿وَيَوْمَ نَبْأَتُهُمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٢٩)﴾ [الفصل] وكقوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ فَأُولَئِكَ لَا يَعْلَمُونَ لَأُفْكَرَنَّ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٣٠)﴾ [المائدة] فيسأل الله عن الاستجابة للرسل ، ويسأل الرسل عن المبلغ ، ومن النص القرآني نأخذ حديث رسول الله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [ابن كثير بتصرف ضد ٢٠٦ ، ج ٢] .

إذن : فتوح - عليه السلام - يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملائكة الكافر من قومه يجهلون ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٤) ﴾ [هود]

أى : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه ، ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْنِي أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾

وهنا يوضح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف ؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله - عز وجل - لحظة الحساب ، فهناك يوم لا مثلك فيه لأحد إلا الله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد يقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى ؛ لأنه القاهر فوق كل خلقه . والنصر - كما نعلم - يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهي بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع فى طرد مؤمن من حظيرة الإيمان . وفى هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾ [هود]

أى : يجب ألا تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تتذكروه . وكما جاء الحق سبحانه بالتذكُّر ، وهو الأمر الذى بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكير ، وهو التأمل لاستنباط شيء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكير ، الذى يجعل الإنسان فى تأمل يقوده إلى تقديس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق التى تكشف له معالم الطريق .

سُورَةُ هُودٍ

٥٤٤٥

وجاء الحق - سبحانه - أيضاً بالتدبير ، أى : ألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر^(١) ، بل لا بد من البحث فى حقائق الأشياء .

لذلك يقول الحق جلّ وعلاً :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ^(٢) الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

أى : أفلا ينيحون عن الكنوز الموجودة فى المعطيات الخلفية للقرآن .
والتدبير هو الذى يكشف المعانى الخفية خلف ظواهر الآيات ، والناس يتفاضلون فى تعرضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعانى .
ولذلك نجد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « تَوَرَّوْا الْقُرْآنَ »^(٣)
أى : قَلِّبُوا معانى الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها ، فمعجائب القرآن لا تنقضى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح :

(١) وقد قال عز وجل : ﴿ وَغَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس] يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧) ﴿ [الروم] وقد كان هذا تعقيباً منه سبحانه لقصة الروم وأنهم سيتصرون على القرس فى بضع سنين ، وقد استغرب الناس يومئذ ذلك ، بسبب اعتناهم بظواهر الحياة الدنيا دون النظر إلى عواقب الأمور وسير الأمم من قبل وأقدار الله فى تصريف شئون خلقه .

(٢) تدبر : تأمل لى أديار الأمور وعواقبها ونهاياتها ، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قَلْبٍ أَقْنَانُهَا ﴾ (٨٢) ﴿ [محمد] أى : هل عجزوا وعصوا فلا يتأملون معانى القرآن ويصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به . وبين همزة الاستفهام وفاء المعطف فعل محذوف دائماً والمعنى : أعجزوا فلا يتدبرون . [القاموس المقيّم] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان (مادة : ذ و ر) ، قال : « وفى حديث عبد الله : أثيروا القرآن فإن فيه خير الأولين والآخرين ، وفى رواية : علم الأولين والآخرين . قال شمر : تشوير القرآن قراءته ومناقشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : لينظر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته . »

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ^(١)
وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ
لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)

وهكذا يَسُدُّ نوح - عليه السلام - على هذا الملا الكافر كل أسباب
إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك
خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملا ، وإن طلبوا أن يكشف لهم
الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده .

ولم يدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثليهم ،
لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب .

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمَنَ مِنَ الضُّعَافِ الَّذِينَ تَزْدَرِيهِمْ
وتحتقرهم وتتهكَّم عليهم عيون هذا الملا الكافر ؛ لأن نوحاً يخشى سؤال
الله - عزَّ وجلَّ - له إن سدَّ في وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ..﴾ (٣١) [هود]

(١) غاب الشيء ، بقي غيباً وغيباً وغيباً وغيباً بعد فهو غائب ، والجمع غيب وغيبات . والغيب كل ما
غاب عنك ، وجمعه غيوب وفي التنزيل ﴿... عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ (٥٥) [المائدة] وقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ
مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهَا شَيْءٌ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَّةُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُلْقِي فِي الْوُحُوشِ
وَلَا رُحْبَ وَلَا يَابِسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩) [الأنعام]

(٢) تزدري : تحقر . والأزدراء : الاحتقار والانتقاص والغيب : [لسان العرب]

اللام في كلمة ﴿لِلَّذِينَ﴾ تعنى الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف

وهكذا أوضح نوح - عليه السلام - أنه لو طرد من يقال عنهم «أراذل» ،
 لكان معنى ذلك أنه يعلم التوايا ، ونوح - عليه السلام - يعلم يقيناً أن الله هو
 الأعلم بما في النفوس ؛ لذلك لا يضع نوح نفسه في موضع الظلم لا لنفسه
 ولا للغيره .

(٢) من أشدلة اللام بمعنى «عن أيضاً» ، قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَأَلْنَا آلَهُمُ ﴾ (١) لا حذف أي : عنهم وفي حنفهم ، لأنهم خاطبوا به المؤمنين ، وإلا لقل : «ما سألتمونا» .

(٣) اللام : حرف يجر الظاهر والمضمر ، ويؤدى عدة معان منها : انتهاء الغاية ، والحل ، وشبه الملك ، والدلالة على التحريك ، والدلالة على شبه التحريك ، والدلالة على النسب ، والتعدي المجردة ، والتعليل ، والتوكيد للمحض ، والتقوية ، والدلالة على القسم والتعجب معاً ، والدلالة على التعجب بغير قسم ، والدلالة على الساقية المنتظرة ، والدلالة على التبليغ ، والدلالة على التبيين ، وأن تكون بمعنى «عند» ، وأن تكون بمعنى «فيل» ، وأن تكون بمعنى «من اليازية» ، وأن تكون للمجازاة (بمعنى : عن) ، وأن تكون لتوكيد النفي ، وأن تكون بمعنى «مع» ، وأن تكون بمعنى «عند» . . . انظر تفصيل ذلك في [النحو الواسع : (٢/ ٤٧٢ - ٤٨١)] .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : (١)

﴿ قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرَنَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ (٢٢)

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزحزح الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو شبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة «الجدال» مأخوذة من «الجدل» أى : القتل ، وقتل الحبل إنما يأتى من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أى مادة مثل هذا أو ذلك ، ثم ضم شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بلف كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوى : «مفتول العضلات» ، أى : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أى : متداخلة ومشدودة .

وحين ننظر إلى الجهاز العضلى فأنت تتدهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذى خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتأزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهي تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

(١) جدال : خاصم بالحق والباطل . واستعمل فى الباطل فى قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا أَنَّمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي النِّعَةِ الدُّنْيَا ۖ ۞ ﴾ [النساء] واستعمل فى الحق فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادَلْتُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۞ ﴾ [٢٢٥] (التعليل) : وقد نهى الله سبحانه حجاج بيته إخراج عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم ، قال تعالى : ﴿ فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۖ ۞ ﴾ [البقرة] . [القاموس التوحيدي] .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام :

﴿ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُتِرَتْ جَدَالُنَا ۖ ۞ (٢٢) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ،
ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المراء^(١) ، لأن الجدال إنما يكون لحق ، والمراء
يكون بعد ظهور الحق .

الجدال - إذن - مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۞ (٢٥) ﴾ [التحل]

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْتِي^(٢) تَجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ۖ ۞ (١) ﴾

[الجدالة]

إذن : فالجدال مطلوب لتصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ،
لا احتكاك فيه ولا إيذاء^(٣) .

(١) المراء : المماارة والجدال . وأصل المراء في اللغة أن يستخرج الرجل من مناظره كلاماً ومعاني الخصومة
وغيرها

من : مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها . [انظر اللسان] والمراءاة بحمل معاني الشك
والريبة في الأمر مما يستدعي جدالاً أكثر وأعمق وأطول ، وهذا منهي عنه .

(٢) هي امرأة يقال لها خيولة بنت ثعلبة ، اشتكت زوجها إلى رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، أكل
مالي ، وأتني شيباني ونشرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إلى
أشكو إليك . قالت عائشة رضي الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ
الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ۖ ۞ (١) ﴾ [الجدالة] وزوجها هو : أوس بن الصامت . انظر
تفسير ابن كثير (٣١٨/٤) وأسباب النزول للواحدي (ص ٢٣١) .

(٣) يقول تعالى : ﴿ تَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۞ (٢٥) ﴾ [التحل]
أي : من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن يرفق ولين وحسن خطاب ، كقوله
تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ ۞ (٤٥) ﴾ [العنكبوت] انظر :
ابن كثير (٥٩١/٢) .

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكك الآراء ، فالتحكك كالتلحك ، وهو الرغبة في عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذي يوصل إلى الحق ، مثلما نحك الزناد يقطعة من حديد فتولد الشرر لئرى الحق ، أما التحكك^(١) فهو يوارى ويطمس الحقيقة .

والمرء هو الجدال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مرى^(٢) الضرع ، فحين يقومون بإنزال اللبن من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللبن بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهى حلب الضرع ، يظل من يحلبها ممسكاً بحلمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقى من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير « المرى » .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة « المرء » ، وهو ما بعد ظهور الحق .

وهناك بجانب الجدال والمرء ، والاحتكاك ، والتحكك ، الحجاج والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم .

وبعد أن ملكوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذى أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجيء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٦)

[مرد]

وكانهم - بهذا القول - قد أخرجوا نوحاً مخرج من بيده أن بسأى بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هى ملك لله سبحانه وتعالى .

(١) التحكك : التعرض والتعرض . وإنه ليتحكك بك ، أى : يتعرض لشرك . [اللسان - مادة : حكك] .
(٢) المرى : مسح ضرع الناقة لتلد اللبن . والمرى : الناقة يدر على من يمسح ضرعها . وقيل : هى الناقة الكثيرة اللبن . [اللسان : مادة - مرى] .

وجاء فى المصباح المنير : ماريته أسارىه عبارة ومرء : جاذبته . وتقدم القول إذا أريد بالجدال الحق أو الباطل . ويقال : ماريته إذا طعنت فى قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقالل ، ولا يكون (المرء) إلا اعتراضاً بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداءً واعتراضاً ، وامرئى فى أمر : شك فيه . بتصرف ص ٥٧٠

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَا بُنَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٢٢)

لأن الحق سبحانه هو الذى يقدر للعذاب أوأناً ، ويقدر لكل تعذيب ميلاداً ، ولا يعجلُ الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أَرَادَ .

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة فى الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبى ^(١) عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ﴾ ^(٢)

﴿ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٣)

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم قلن تنفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم ؛ لأن الآية بها تعدد الشرطين .

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طائلاً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : «إن جئتني غداً أقبل اعتذارك إن كان معك والدك» .

(١) تتأبى : تمنع وترفض الانصياع والطاعة . ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَهِي الرَّحْمَنُ عَبْدٌ ﴾ (٢٢) ﴿ [مريم] .

(٢) نصح له ونصحه نصحاً ونصيحة : تحرى ما يصلح له وأراد له الخير والنفع وذلك عليه . ونصح له الرد : أخلصه . ونصح له : أطاعه وأخلص لدينه . ونصح للرسول : صدقه وأخلص له ولم يخالف أمره مراً ولا علناً . ومن النصح معنى الإرشاد والدلالة على الخير ، يقول تعالى : ﴿ . . . وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف] ، ويقول : ﴿ . . . وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف] . [القاموس القريم] .

(٣) أغواه : أضله وأوقعه فى الغي والضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ [الصافات] .

وقول الناظر : «إن كان معك والدك» هو شرط متأخر ، ولكنه كان يجب أن يتقدم .

وفى الآية الكريمة - التى نحن بصددھا - جاء الشرط الأول متأخراً ، ولكن هل يغوى الله سبحانه عبادہ ؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والغواية هى الضلال^(١) والبعد عن الطريق المستقيم .

والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى^(٢) ﴾ [النجم]

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

﴿ .. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى^(٣) ﴾ [طه]

ونحن يجب ألا نقع فى الآفة التى يخطئ البعض بها ، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى ؛ فالألفاظ لها معان متعددة .

لذلك لا بد أن نعرض كل معانى اللفظ لناخذ اللفظ المناسب للسياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ

يَلْقَوْنَ غِيًّا^(٤) ﴾ [مريم]

(١) ضلّ : غابت عنه الحجة وعدل عن الحق . والضلال : التسيب والضباع . وضل الشيء : خفى وغاب فهو يأنى لازماً كما فى المثال السابق .

ويأنى متعدياً مثل : ضل المسافر الطريق ، وقد نفى الله عن رسوله الضلال والغواية ، وأثبت له أنه هو الناطق منه وبه وله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ غِيَّ الْهُدَى^(٥) ﴾ [إن هو إلا وحي يوحى^(٦)] [النجم] القاموس القويم مع تفسير البرهان باختصار .

(٢) غوى يغوى غيًّا ، وغوى يغوى غواية : انهك فى الجهل ، وهو ضد الرشيد . وغوى بمعنى خاب وضل ، لأنه انهك فى الجهل .

(٣) الغى : سمى به واد فى جهنم ونُشر بذلك قوله : ﴿ .. فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا^(٧) ﴾ [مريم] أى : جزاء الغى ، أو يدخلون وادى الغى فى جهنم [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٥٢٦٤٥٢

وقوله سبحانه هنا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

أى : سوف يلقون عذاباً ، لأنَّ غِيَّهم كان سبباً فى تعذيبهم ، فسمي العذاب باسم مُسَبِّبه .

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا...﴾ (١٠) [الشورى]

والحق سبحانه لا يُسِيءُ لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسَيِّئون لأنفسهم ، فسمي ما يلقاهاهم من العذاب سيئة^(١) .

وكذلك «الغى» يرد بمعنى «الإغواء» ، ويرد بمعنى الأثر الذى يترتب عن الغى من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى فى كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فأدم عليه السلام حين تَنَكَّبَ^(٢) عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألاَّ يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى فى هذا الموقف :

﴿.. وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢١) [طه]

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج فى «افعل» و«لا تفعل» ستظهر عورته وتبدو له سوءاته^(٣) .

(١) وهذا يعرف بالمشاكلة ، وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثاله قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا...﴾ (١٠) [الشورى] ، لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة . ومثله قوله تعالى : ﴿وَمَكُرُوا وَكُتِبَ اللَّهُ...﴾ (١٢١) [آل عمران] فإطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما سمع . انظر : الإتيان فى علوم القرآن (٢٨١/٣) .

(٢) تنكب عن الشيء ، وعن الطريق : عدل . وتَنَكَّبَ فلانُ عنَّا ، مَالُ عنَّا . وتَنَكَّبَ : تخلى . [انظر : لسان العرب] . ويقول تعالى : ﴿وَبِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّدَنَّ﴾ (٢٢) [المؤمنون] . أى : ماثلون متحرفون عنه .

(٣) السوءات : جميع سيئة . وهي كل ما يفتح إظهاره ويشغى بشوه . قال تعالى : ﴿لَقَدْ لَعَنَّ اللَّهُ تِرَافًا يَبْغِثُ فِي الْأَرْضِ لِبَرِيَّةٍ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعِزَّتِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الْقَرَارِ فَأَرَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَائِبِينَ﴾ (٣٠) [المائدة] .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستَعِدّاً لاستقبال المنهج والوَحْيِ .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

ولكن هل أغوى الله - سبحانه - الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِي ، ولكنه يترك الخيار للمكلف إن شاء أطاع ، وإن شاء عصَى .

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار^(١) ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووجَّهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد .

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدى ، وقادر على أن يضلَّ^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهُمْ جَمِيعًا أَذًا نَكْرَهُ النَّاسُ خَشِيَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) ﴾ [يونس] . ويقول سبحانه : ﴿ لَا نَكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (١٥٥) ﴾ [البقرة] . فإن الإنسان مخير في البدائل ، أما القضايا التي لا يستطيع تبديلها فهي خصومية الخلق ، وبهم من كلام فضيلة الشيخ أن إبليس من الجن لأنبات حق الاختيار له .

(٢) قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣٠) ﴾ [الإنسان] ، فإله قد جعل الإنسان مُهَيَّأً لأن يسلك أحد السبيلين : سبيل الهدى ، وسبيل الضلال ، ثم دلَّه سبحانه على الطريق الصواب المستقيم ، وترك له حرية الاختيار ، فإما شاكرًا لنعمة الدلالة إلى الخير ، فيكون مؤمنًا . وإما كافرًا بها فيكون كافرًا .

(١)
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي
وَإِنَّا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْرِمُونَ﴾ (٢٥)

جاء هذا القول في صُلب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام .

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمد الذي يناقض واقعاً .

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلزمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التي تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرق ؛ فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظر إلى المأخوذ منك ، بل التفت إلى المأخوذ لك .

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراءً .

ونحن نعلم أن المنهج يؤسس في المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشرع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحد من حريتك ، ولكنه في الواقع يُحقق لك منافع متعددة ، ويحميك من أن يعتدي الآخرون عليك .

(١) افترى القول : اختلقه واختبره . وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ...﴾ (٢٥) [هود] أي : يقولون : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . وقال تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَاتٍ...﴾ (٦٥) [هود] أي : مكافئيات - كما تدعون . [القاموس المفهرم] .

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثل في أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمل هو وزرُ إجرام الافتراء .

وإن لم يكن قد افتراه ، فعليهم يقع وزرُ إجرامهم ^(١) باتهامه أنه قد افتري .

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة في الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتياك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنتم براء منه ، وإن لم أفتّر فعليكم إجرامكم وأنا برى .

وجاء الحذف من شقِّ المقابل من شقِّ آخر ، وهذا ما يسمى في اللغة «الاحتياك» ^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ . . (٢٤) ﴾ [البقرة]

والفئة القليلة تكون قلَّسُها في الأفراد والعَتَاد وكلُّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرتها في العُدَّة والعَدَد وكلُّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تُغلب بإذن الله تعالى .

وهكذا بوضَّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاء الله تعالى .

(١) تمام اللُزوم فيما افتروه .

(٢) الاحتياك : من أساليب البلاغة العربية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني أن يحذف نظيره في الأول كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ . . (٢٤) ﴾ [النمل] . والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثاني «وأخرجها» . وقال الزركشي : هو أن يجمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنا برى » مما تُجرمون ﴿ (٢٤) ﴾ [هود] . والتقدير : إن افتريته فعلى إجرامي وأنتم براء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برى ، مما تُجرمون «الافتان في علوم القرآن : ٣ / ١٨٢ ، ١٨٣» .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٥٧

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ۖ ۝ (١٣) ﴾ [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل في سبيل الطاغوت^(١) والشيطان ، وهذا يسمى الإحتياك .

وهذه في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنْ أَفْرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝ (٢٥) ﴾ [مؤد]

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله ﷺ حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿ ۝ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ (٢٥) ﴾ [سبا]

فلم يقل : « عَمَّا تُجْرِمُونَ » . فلم يقابل إبداءهم القولى والمادى له بإبداء قولى .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد ﷺ :

﴿ ۝ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٢٦) ﴾ [سبا]

وهذا ارتقاء في الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التي أنزلها الله على العالم كله .

(١) الطاغوت : مصدر يدل على المبالغة ، ويسمى به الشيطان المفسد ، وكل ما غرّد من دوى الله ، وكل ما يغرى بالشر والداعى للضلال والفتنه .

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحِ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

ومجىء «إلا» هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى «غير» أى : لن يؤمن من قومك غير الذى آمن .

ولهذا نظير فى قمة العقائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴾ (٢٢) [الأنبياء]

و«إلا» هنا أيضاً بمعنى «غير» ، ولو كانت «إلا» بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه - معاذ الله - سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن نكون «إلا» للاستثناء ، بل هى بمعنى «غير» ، وتفيد معنى الوحدانية لله عز وجل وتفرده بالالوهية .

والآية التى تناولها بخواطرننا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجترأ نوح - عليه السلام - على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم تساوهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافت ، وكنائته الأربع ، نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . ولا تبتئس : لا تحزن . يقال : ابتأس الرجل إذا بلىه شيء بكرهه . والابتئاس : الحزن فى استكانة . [لسان العرب - مادة : بأس]

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٥٩

﴿.. رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْضَحُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝ (٢٧)﴾ [نوح]

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، وقال له سبحانه :

﴿.. فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ (٢٨)﴾ [هود]

والابتئاس هو الحزن المحيط ، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئْ فِي الَّذِينَ

ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ۝ (٢٩)﴾

(١) يذره : يتركه ويدعه . وهذا الفعل لم يستعمل منه في القرآن الكريم إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ أَنْذَرْتُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْضَحُوا إِلَى الْأَرْضِ ۝ (٢٦)﴾ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَا آلِهَتَكُمْ ۝ (٢٦)﴾ [نوح] أي : لا تترك آلِهَتَكُمْ . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ (٢٦)﴾ [المائدة] أي : اتركني انتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . [القاموس القويم] .

(٢) الديَّار : من سكن الدار ، أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار ، أي : ما فيها أحد . وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿.. رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ (٢٦)﴾ [نوح] . أي : لا تترك أحداً منهم حيًّا . [القاموس القويم] يتصرف .

(٣) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ولذلك لا يقال : صنع الخير كذا . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا بَاحِرًا ۝ (٢٩)﴾ [طه] أي : أن الذي صنعوه وأحدثوه كيد وسحر . وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿.. وَلَنُصْنَعَنَّ عَلَىٰ غَيْثٍ ۝ (٢٩)﴾ [طه] أي : نربِّي محروساً بعنايتي . وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۝ (٢٩)﴾ [هود] أي : تحت عنايتنا ورعايتنا . [القاموس القويم] يتصرف .

(٤) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث ، وللواحد والجمع . يقول الحق : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ لَهُ ۝ (٢٩)﴾ [النحل] والفلك : المنار تسبح فيه النجوم السماوية ، يقول الحق : ﴿.. كُلُّ فِي الْفُلْكِ يَشْعُونَ ۝ (٢٩)﴾ [الأنبياء] [القاموس القويم - باختصار]

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحي له بصنع السفينة .
ومعنى «اصنع» أى : اعمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ،
فالصنعة أن تُوجد معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ،
أو صانع النَّجَف ، أو صانع الكراسى ، أما الذى يقوم على صيانة الصنعة
فهو الحرفى .

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذى يحث الأرض
ويبذر فيها الحَبَّ ويرويها ليستنبط منها النباتات ، ويسمى صاحب هذه
المهنة «زارع» أو «فلاح» ؛ لأن اقتنيات الحياة المباشرة يأتى من الزراعة .

أما الصانع فيأتى بشيء من متطلبات الحياة ، فى تطويرها ويوجد آلة
أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً ، والحرفى هو الذى يصون تلك الآلة ، أما
التاجر فهو الذى يقوم بعملية تجمع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج
الشىء والمستهلك ، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّ﴾ .. (٣٧)

[هود]

أى : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشىء سيبصنع من شىء آخر
موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل
هذه المدة الطويلة ، وتضحمت فى الجذع والفروع .

وبدأ نوح عليه السلام فى عملية شقّ الشجرة ليصنع منها السفينة التى بلغ
طولها - كما قيل^(١) - ثلاثمائة ذراع^(٢) وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ

(١) ذكره قتادة . وفيها أقوال أخرى . واجتمع الراى على أن ارتفاعها فى السماء كان ثلاثين ذراعاً ، ثلاث
طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسقفى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور .

وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فواتها مطبق عليها . انظر تفسير ابن كثير (٤٤٤/٢) .

(٢) الذراع : مقياس للأطوال يقدر به ٧٥ سبيماً أو أقل . والذراع من الإنسان : من المرفق إلى أطراف
الأصابع .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٤٦﴾

ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابّها وهوائها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التي زرعها نوح عليه السلام قد تضخّمت جداً لطول المدّة التي قضّاها نوح في دعوته لقومه ؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائرياً بمقدار دائرة كل عام . وحين تقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوّن من دوائر ، وكل دائرة تمثّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علّمه الحق سبحانه بالوحي وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألم يُلهم الله سبحانه نبيّه داود عليه السلام في مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه - جلّ وعلا - قد أمر الجبال أن تُؤوِّب^(١) معه ، وكذلك الطير ، فالأن له الحديد^(٢) دون نار :

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (١١) أَنْ اْعْمَلْ

سَابِغَاتٍ . . . (١١) ﴿ [سيا]

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليّناً دون نار - بإذنه سبحانه - ليصنع منه داود دروعاً كبيرة مستوفية للظهر والصدر ، لتحمي معاطب^(٣) الإنسان .

(١) تؤوِّب : تسمّح معه وترجع التسبيح . قال ابن كثير في تفسيره (٥٢٧/٣) : «الناوِيب في اللغة هو الرجوع فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها» .

(٢) قال الحسن البصري رقتادة والأعشى وغيرهم : كان داود لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يغنله بيده مثل الخيوط . ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٢٧/٣) .

(٣) المعاطب : الهالك . واحدها معطب . والمعطب : الهالك يكون في الناس وغيرهم . عطب (بكسر الطاء) عطباً وأعطبه : أهلكه . [اللسان : مادة (ع ط ب)] والمراد : الأماكن التي إذا طعن فيها المقاتل قد تؤدي إلى هلاكه .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات ^(١) .

والسابقة هي المسرودة ، مثل الحصير ، حيث يوضع العود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من قرد الحصير أو لفه .

وفي نفس الآية بيّن لنا الحق سبحانه كيفية الوحي لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ^(٢) . . (١١) ﴾ [سبأ]

أى : أنك يا داود حين تنسج ^(٣) الحديد اللين - بإذن الله تعالى - لتجعله دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كى لا تكون الدرع ضيقة على صدر المقاتل فتضيق حركته ، وتقلل من قدرته على التنفس ، فيلهث بسرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال .

وكذلك يجب ألا تكون الدرع واسعة على صدر المقاتل ؛ حتى لا تساعد سعة الدرع سيف الخصم ، فيضرب الدرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن حين تكون الدرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبّل الحركة ، فهذه هي الدرع المناسبة للقتال .

(١) الدرع السابقة : الواسعة التى تطول إلى الأرض فتغطي الكعبيين . [اللسان - مادة : سج] .
(٢) السرد : نسج حلقات الدرع وإحكام صنمها . وسرد الأديم والجلد بـسرد سرداً : خرزّه وتقبه بالمخروز فى تنايع واتساق ؛ ولهذا سمي نسج الدروع سرداً ؛ لما فيه من دقة وتنايع واتساق . وقدر فى السرد : أى : أحكم العمل فى سرد الدروع ، أى : فى أثناء نسجها ، أى : أحكم السرد ، وأتقن النسج . [القاموس القويم] .

(٣) النسج : ضم الشيء إلى الشيء . ونسج الشيء نسجاً فأنسج ، ونسجت الريح التراب : سحبت بعضه إلى بعض . والريح تنسج الماء : إذا ضربت ممتنه فأنسجت له طرائق كالحبك . ونسجت الريح الورق الهشيم : جمعت بعضه إلى بعض . ومن معانى النسج : حياكة الثوب . وربما سمي الدرع (صانع الدروع) نسجاً ، [اللسان : مادة (ن س ج) بتصرف] .

وقد أقر داود عليه السلام صناعة تلك الدُّرُوع بتلك الهندسة الدقيقة التي أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له : ﴿ وَقَدِّرْ ۖ ۝١١ ﴾ وكلمة قدر تعطي معنى التقدير والإتقان .

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجه إلى الإتقان في الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان في العمل والإبداع فيه ، لتتخذ من هذا التوجيه نبزاً^(١) نسير عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صنعته وهو يقول : «الله» ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يهب الإنسان طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً في تعليمه لداود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ^(٢) ۖ ۝٨٠ ﴾ [الأنبياء]

وهكذا يلقي الله تعالى الخاطر في قلب الرسول أو النبي أن «افعل كذا» ؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كل علومها وفنونها في التخطيط والأنوان والنحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يمثلون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر في أصوله ؛ مصدره السماء .

وفي قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول :

(١) اللبّاس : المصباح ، أو الشئ المنير ، (المعجم الوسيط) بتصرف .

(٢) اللبوس : ما يلبس . والمراد بها هنا : الدروع التي تلبس في الحرب . [القاموس القويم] .

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الْدِينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ (٢٧)

ومعنى «بأعيننا» هو بحفظنا وبرعايتنا . وكلمة «بأعيننا» تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية .

ألم يقل الحق سبحانه في مسألة تخصُّ رسول الله ﷺ ؟

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .. (٤٨) ﴿[الطور]

وكذلك قال سبحانه في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿... وَلِتَصْغَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (٣٩) [طه]

وأنفذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذي كان يقتل أطفال بني إسرائيل ، وألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب زوجته الفرعون ، وقال سبحانه :

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ .. (٤٩) [طه]

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد ألقى في اليم^(١) ،

(١) الفُلك : السفينة . ولقطة الفلك تقع للمذكر والمؤنث والمفرد والمجمع . قال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَمَّنْهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (٣٣) [الشعراء] جمعه مفرداً مذكراً . وقال تعالى : ﴿وَنَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَهِ﴾ .. (٣٣) [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : «مواجر» أى : السفن .

(٢) أى : اصبر على أذاهم ، ولا تباليهم ، فإنك برأى بنا ونحت كلاءتنا ، والله بعصمك من الناس . تفسير ابن كثير (٢/٤٤٥) .

(٣) اليم : مجتمع الماء الكثير ، سواء أكان ماء عذباً أو مالحاً ، وقد ورد هذان العنيتان في القرآن :

- قال تعالى : ﴿إِذَا نُوحِيَ إِلَيْنَا مَا يَؤُوحِي﴾ (٤٨) أَنْ أَلْقَيْنَاهُ فِي الْيَمِّ فَأَنجَيْنَاهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ..

(٤٨) [طه] فهو هنا الماء العذب . والمقصود نيل مصر .

- وقال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَا مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْيَمَّ﴾ .. (٢٥٠) [الأعراف] فهو هنا الماء المالح والمقصود خليج السويس امتداد البحر الأحمر .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٦

والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالبة لموسى
الحياة :

﴿ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ ^(١) . . (٩) ﴾ [القصص]

ونحن نجد أن عدو موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش فى كنفه
ورعايته ، وكان الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم ثريون من يتولى قهركم .
وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَّ بِأَعْيُنِنَا . . (٣٧) ﴾ [هود]

أى : إنك إن توقفت لأية عقبة ، فسوف نلهمك بما تواجه به تلك
العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفلك احتاج للأواح خشبية ، ولا بد أن
تتماسك تلك الألواح ، ولم تكن المسامير قد اخترعت بعد ، فأوحى له الله
تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفى
أمريكا فى العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البردى وربطها
بالحبال المجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه فى طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ^(٢) (١٣) ﴾ [القمر]

(١) قرة عين لى ولك : أى : مبعث سرورى ولك : [الغاموس القويم] .

(٢) دسر الدسار فى الشيء : دفعه فيه بقوة . والدسار : المسنار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة
وجمعه (دُسُر) .

قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ (١٣) ﴾ [القمر] . كناية عن موصوفه هو السفينة . وقال
مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذى يضرب به الموج . وقال
الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . ذكره ابن كثير فى التفسير (٢٦٤/٤) .

أى : أن نوحاً عليه السلام قد أحضر الواحاً من الخشب وربطها بحبال مجدولة ، وأحكم الربط بقدر مقتدر بما لا يسمع بتسرب الماء إلى داخل السفينة .

مثلاً تصنع البراميل الخشبية فى عصرنا ، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة ، ويرتبها ثم يحكم ربطها بإطار قوى ، وحين يوضع فيها أى سائل ، فالخشب يتشرب من هذا السائل ويتمدد ليسد المسام ، فلا ينضج السائل من البرميل ؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التى تتمدد بالبرودة على العكس من كل المواد التى تتمدد بالحرارة .

ولذلك نجد النجار الحاذق ^(١) فى صنعته هو من يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك فى الفصول الرتيبة ^(٢) ؛ لأنه إن صنعها فى الصيف ، سجد الخشب وهو متكمش ، فإذا ما جاء الشتاء تمدد ذلك الخشب وسبب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وكذلك إن صنعها فى الشتاء ، والخشب متمدد سيأتى الصيف وتنكمش الأبواب ، وتكون لبها متاعبها ، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أى صندوق أو شباك بإحكام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴾ ^(٣) [هود]

أى : لا تحدثنى فى أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم من ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر فى القمة العقيدية ، وهى الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له ؛ لذلك استحقوا العقاب ، وهو الإغراق .

(١) الحاذق : الناهر فى عمله . حذق الشيء : مهر فيه . (انظر اللسان) .

(٢) الرتيبة : القابضة التى لا توصف ببرد أو حر .

(٣) الفرق هو أن يغمر الماء الشخص حتى يموت ، يقول الحق : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّقَ الْفَرْقَ .. ﴾ ^(٤) [يونس] أن تمكّن منه ، وغرق كفرج فهو غرق وغارق وغريق . وجمع الأخير غرقى ، وأسم المفعول منه مغرق ،

قال تعالى : ﴿ .. فَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِينَ ﴾ ^(٥) [هود] (القاموس القويم ص ٥١ ج ٢) .

وهكذا علم نوح عليه السلام أنَّ صُنْعَ السفينة مرتبط ببلون العقاب الذي سبق على مَنْ كَفَرُوا برسائله ، فهو وَمَنْ آمَنُوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كفر فلسوف يفرق .

ويبين الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٢٨)

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يَمُرُّون عليه وهو يصنع السفينة يَسْخَرُونَ منه ، بما يعنى : ها هو يعد أن ادعى النبوة يتحول إلى بُحَّار ، ثم يتساءلون : كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة .

ونحن نلاحظ فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ۚ ﴾ (٢٨) [هود]

تنفيذ الأمر الذى صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه :

﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ ﴾ (٢٧) [هود]

(١) مَلَأَ : جماعه منهم .

(٢) سَخِرَ مِنْهُ مِنْ يَابِ فَرَحٍ سَخَرَا وَسَخَرَا وَسَخَرَا وَسَخَرِيهِ : هزى به . قال تعالى : ﴿ ... قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٢٨) [هود] [القاموس القويم] .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٩ ﴾

ونلاحظ في قول الحق سبحانه : « فَسَوْفَ » ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ أن الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً ؛ لأن أي حدث - كما نعلم - له أكثر من صورة ، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه ؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت وقوع الحدث كان الفعل مضارعاً .

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضى أن تسبق الكلام عن الحدث بحرف « السين » كأن نقول : « سيعلمون » وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتى كلمة « سوف » .

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة ^(١) ؛ ولذلك جاء بـ « سوف » لتدل على أوسع مدى زمني^٢ .

وما الذى سوف يعلمونه؟ إنه العذاب ، أيائى لنوح ومن معه أم يأتى للذين كفروا من ملاء نوح ؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ .. ٣٩ ﴾ [هود]

(١) خزي يخزي : هان واقتضع وخجل . وأخزاه فلان ويخزيه : أهانه وفضحه . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا مَنْ قَدْ خَلَّيَ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. ١٢٢ ﴾ [آل عمران] .

(٢) يحل : يترن عليهم . وقال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَطْفَرُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوِيَ ٥٥ ﴾ [طه] [القاموس القويم] .

(٣) قال زيد بن أسلم : مكث نوح عليه السلام مائة سنة يفرس الشجر ويقطعها وينسبها ، ومائة سنة يعملها . ذكره القرطبي في تفسيره (٣٣٤٩/٤) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٦٤٦٩

وفى هذا القول ما يؤكد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم ؛ لأنهم كفروا وسخروا وقالوا:

﴿ .. فَأَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٢)

[هود]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٣٩)

[هود]

تجد فيه كلمة ﴿يَجْعَلُ﴾ وهى ضدُّ الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَجَعَلَ بِالْمَكَانِ ، أى : نَزَلَ لِيَقِيمَ بِهِ ، والضدُّ هو الرحيل أو الترحال .

وقول الحق سبحانه : ﴿مُقِيمٌ﴾ يعنى أنه العذاب الذى سيجلُّ بهم عذاب دائم^(١) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ^(٢) إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَاءَ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ^(٣) ﴾

(١) جاء فى تفسير الآية عند القرطبى (٤/ ٣٣٥١) ما يفيد أن هنا نوعين من العذاب :

- الأول : ﴿عَذَابٌ يُخْزِبُهُ﴾ وهو فى الدنيا .

- الثانى : ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة .

(٢) التنور : مكان تفجير الماء ، والكانون الذى يخبز فيه . قال تعالى : ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ .. ﴾ (٥٥) [هود] أى :

تفجرت الأرض بماء كثير ، أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . والتنور : مجتمع ماء الوادى . وكل ذلك يدل على كثرة الماء ، وعلى قوة اندفاعه . [القاموس القويم] .

(٣) أهلٌ من باب فرح وضرب ونصر أهلأ وأهولأ : تزوج ، وأهل المكان عَمَرَ بأهله . والأهل الأقارب

والعشيرة والزوجة ، وأهل الدار أصحابها ، وأهل النبى اتباعه ، وأهل الكتاب هم أصحاب الديانات

السمائية ، قال تعالى : ﴿ .. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ

وَأَضَلُّوا نَجِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٥) [المائدة] [القاموس القويم باختصار] .

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿أَمْرُنَا﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَكَانُوا قَلَّةً قَلِيلَةً .

إذن : ففي قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾ .. (٣٧) [هود]

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذي يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿وَفَارَ التَّوْرُ﴾ .. (٤١) [هود]

ومعنى كلمة ﴿فَارَ﴾ أى : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوى على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلى الماء نرى فقائيع الهواء وهى تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء مثوراً خارج إناء الغليان .

و«التور» هو المكان الذى تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .

وكانت العلامة هى خروج الماء من غير مَظَانِّهِ وهو التور .

واختلف العلماء^(١) فى تفسير كلمة «التور» فمنهم من قال : إن التور هو

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره هذه الاختلافات على سبعة أقوال ، فنراجع هناك (١/ ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢) ، ثم قال : «قال النحاس : هذه الأقوال ليست بمناقضة ، وهى مجتمعة فى أن ذلك كان علامة أو تدبيراً . أما ابن كثير فقد رجح قول ابن عباس أن التور هو وجه الأرض ، أى : صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التناثر التى هى مكان النار ، صارت تفور ماء . قال ابن كثير : «هذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف» وذكر باقى الأقوال ولكنه وصفها بالغرابة ، [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٥] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧١

المكان الذى كان آدم عليه السلام يخيز فيه ، أو هو المكان الذى كانت تعمل فيه
حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضر ، المهم أن فوران التنور كان علامة بين
نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التنور فعلى نوح أن يحمل من كل
زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ .. ﴾ (٤٠) [هود]

تعنى : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة ﴿ كل ﴾
المنونة - وتفيد التعميم - أى : احمل فى السفينة من كل شىء ، تطلبه حياة
الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ، حتى الخنزير كان ضمن ما
حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله
معه ، لم يفتنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض
منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .
وكلمة :

﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ .. ﴾ (٤١) [هود]

تدل على أن كلمة «زوج»^(١) هى مفرد ؛ بدليل قول الحق سبحانه :

(١) الزوج : كل واحد مع آخر من جنسه مع اختلاف المهمة لأن فى اختلاف المهمة تكامل الغاية ، يظن
على الذكر والأنثى ؛ فالرجل زوج لامرأة ، والمرأة زوج لرجل . والزوج فى الحساب خلاف الفرد ، وهو
كل ما ينقسم قسمين متساويين .

والزوج : الشكل أو الصنف يكون له نظير أو تقبض كالرطب واليابس والذكر والأنثى . قال تعالى :
﴿ فَلَمَّا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ .. ﴾ (٤٠) [هود] أى : احمل فى السفينة ذكراً وأنثى من كل نوع .
وقال تعالى : ﴿ رَأَى مِنْ شِكْلِهِ زَوْجًا ﴾ (٤١) [ص] . أى : أصناف متزاوجة ذكورة وأنوثة ، أو متناقضة
كل شىء وضده . [القاموس القويم] . يتصرف

[النساء]

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا.. (١)﴾

إذن : كلمة «زَوْج» تعنى مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً .
أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة «الزوج» على أنها اثنان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلُ الذَّكَرَيْنِ حَرُمٌ أُمُ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ ثُبُوتِي بِمَعْلُومٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ.. (١٤٤)﴾

[الأنعام]

وحين نجمع العدد سنجد ثمانية ، ولو كانت كلمة «زوج» تطلق على الاثنين لصار العدد فى تلك الآية الكريمة ستة عشر .

ويوضح القرآن الكريم أن كلمة «زوج» مفرد فى قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً (١) مِنْ مِّنِّ يَمْنَى (٢) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً (٣) فَخَلَقَ فَسَوَّى (٤)﴾

[القيامة]

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٥)﴾

إذن : فالذكر زوج ، والأنثى زوج أيضاً .

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه :

(١) نطفة ماء : سائل وفطر . والنطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة ، الذى يُخلق منه الولد . وقال تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤٤)﴾ [النحل] .

(٢) منى يمنى : يصب فى الرحم . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .

(٣) علقه : الدم الجامد الغليظ الذى يُعلق بما يسمى . وجمعها : علق . قال تعالى : ﴿فَمِمَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ رَبِّابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ فَمِنْ عُلَقَةٍ.. (٤٤)﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿وَمِمَّا خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٥١)﴾ [المؤمنون] وقال

تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٤٤)﴾ [العلق] . [القاموس القويم] .

(٤) فسوى : فعله وكمله ونفخ فيه الروح . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧٣

﴿.. أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤١) ﴿

[هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال: إنهم عاشوا في تلك السفينة عامين^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُنَهَا وَفَرَسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) ﴿

هذه هي المرحلة الأخيرة في قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

﴿وَقَارِ الشُّورُ ..﴾ (٤١) ﴿

[هود]

وحمل نوح عليه السلام في الفلك - بأمر من الله تعالى - من كل شيء زوجين اثنين ، وأهله ومن آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرَاهَا وَفَرَسَاهَا ..﴾ (٤١) ﴿

[هود]

(١) قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب ، واستنوت على الجودي لعشر خلون من المحرم . فذلك ستة أشهر . وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة . قاله القرطبي في تفسيره (٣٣٥٤ / ٤) وذكر ابن كثير في تفسيره (٤١٧ / ٢) عن ابن عباس أنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، أي : حوالي خمسة أشهر . فالله أعلم .

(٢) للبحري (فتح الرء وشمال نحو الكسرة) : مصدر ميمي بمعنى الجرى . قال تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَحْرَاهَا وَفَرَسَاهَا ..﴾ (٤١) ﴿ [هود] أي : جريها وإرساقها ببركة اسم الله وبعنايته ورعايته . [القاموس القويم] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤١)

[هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه .

والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعلَى عليه فى خدمة المُستعلَى ، فكان تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليعخدم المستعلى .

ولكن الله تعالى يقول هنا :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

ولم يقل : « اركبوا عليها » .

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة ، فقد صنعها^(١) نوح عليه السلام بروحى من الله تعالى على أفضل نظام فى البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إذن - لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

يُبين لنا أنها قد صُنعت لتُنجى من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ لئلا يمتدح

(١) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَتَّعُوا عَبْدًا مَآسِرًا .. ﴾ (٤٩) [طه] وقال تعالى : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٤١) [فاطر] ، وثانى عقب التربية والتعليم بحراستى وحمايتى كما فى قوله تعالى : ﴿ .. وَنَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٤٩) [طه] وتطلق على الأنبياء العالين والفصوص الخفية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَتَخَذُونَ مَتَابِعَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٦٧) [الشعراء] [القاموس القويم يتصرف] .

الرُّسُوءُ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان .

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوءُها بإذنه سبحانه .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

يعلمنا أن جريانها إنما يتم بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - : لجد القاضى يقول مفتتحاً الحكم : « باسم الدستور والقانون » أى : أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون .

ونوح عليه السلام يقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴾ (٤١)

[هود]

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة .

ولذلك يقال : « كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر »^(١) .

لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضلياً ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر ورؤية وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحلم .

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن نحصل على القوة فقد تقول : « باسم القوى القادر » ولكى نحصل على علم ؛ تقول : « باسم العليم » ، ونريد الغنى ؛ فتقول : « باسم الغنى » وحين نحتاج إلى الحلم تقول : « باسم الحليم » ، وعندما نحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول : « باسم القهار » .

(١) أبتر : أى مقطوع البركة ، لا خير فيه .

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذي يُغْنِي عن كل ذلك أن تنادى ربك وتبتدئ باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كل صفات الكمال والجلال .

وإياك أن تهيب أو تستحي ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ٤١ ﴾

[هود]

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبقوا - كغالية البشر - كل التكليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك قَدَّرَ الحق سبحانه ونعالي إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التي ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هي الميزة في قول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصِفُ السفينة ورؤسائها :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٢ ﴾

(١) الجرى : السير السريع . جرى الماء يجرى : سار . وجرت السفينة : سارت وأسرعت . قال تعالى : ﴿ فِيهَا عَتَانٌ حَجْرِيَّاتٌ ٤٢ ﴾ [الرحمن] وقال تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ٤٢ ﴾ [هود] وهي سفينة نوح عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَأَطْمَأْنَنُكُمْ فِي الْغَارِ ٤٣ ﴾ [الحاقة] أى : في السفينة الممهودة . وجمع الجارية : الجوارى . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ وَالْأَعْلَامِ ٤٤ ﴾ [الشورى] وحذفت الباء تخفيفاً من الجوارى في رسم المصحف . وترك تعالى : ﴿ فَالْغَارِيَّاتُ يَسْرْنَ ٤٥ ﴾ [الذاريات] قيل : هي السفن . وقيل : هي الرياح . وقيل : هي النجوم والكواكب . وقال تعالى : ﴿ وَالْفَلَكَ السَّيِّئُ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ٤٦ ﴾ [البقرة] [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٧٧

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان المروج كالجبال ، وهذا يدل على أنها مسيرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادى نوح ابنه :

﴿ .. وَتَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ^(١) يَا بَنِيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ^(٢) ﴾ [هود]

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحميه

وفي هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مراد الابن في مخالفة مراد أبيه

﴿ قَالَ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ^(٣) ﴾ [هود]

مكذبا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى ^(١) إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هي لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرق الموج بين نوح وابنه ؛ وغرق الابن .

(١) المعزل : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ .. ﴾ [هود] أي : في موضع عزل نفسه بـ جانباً ، ولم ينضم إلى ركاب السفينة مع أبيه نوح عليه السلام . [القاموس القويم] .

(٢) يعصمني : يحميني ويحميني من الماء فلا أغرق . والمعصمة : الشئ والحفظ .

(٣) حال بينهما يحول حولاً : حيز وفصل . قال تعالى : ﴿ .. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ^(٣) ﴾ [هود] أي : حيز المروج وفصل بين نوح عليه السلام ، وابنه ؛ فكان من المغرقين . [القاموس القويم] بصرف .

(٤) آوى : لجأ إلى جبل ولاذ به ؛ طلباً للحماية من الماء الغزير . وآوى إلى المكان ، وآوى إليه بأوى أويًا : نزله والنجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرَى الْفُجْةَ إِلَى الْكَهْفِ .. ﴾ [الكهف] أي : نزله والتجنى إليه . [القاموس القويم] .

وأراد الحق سبحانه أن ينهي الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلفظة استواء السفينة على الجودي .

ويقال : إن جبل الجودي يوجد في الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ^(١) وَنَسَمَاءَ^(٢) أَقْلِي^(٣) وَغِيضَ^(٤) الْمَاءِ^(٥) وَفُضِيَ^(٦) الْأَمْرُ^(٧) وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ^(٨) وَقِيلَ بَعْدَ الْقُورِ^(٩) الظَّالِمِينَ^(١٠) ۝ ١١ ﴾

والبلع هو مرور الشيء من الخلق ليسقط في الجوف ؛ وساعة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ^(١١) ۝ ١٢ ﴾ [مرد]

فانهم أن القائل هو من تُصَاع له الأرض .

ولم يقل الله سبحانه : « قال الله يا أرض ابْلعي ماءك » ؛ لأن هناك أصلاً متغيئاً وإن لم يقله ، والحق سبحانه يريد أن ينمى فينا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء .

(١) أَقْلِي : أمسى (امتلى) عن إزال المطر . [كلمات القرآن] . والإفلاج عن الأمر : البكف عنه .

وأفزع عن الشيء : كف عنه . وأففعت السماء : كفت عن المطر . [القاموس القويم] .

(٢) غِيضُ الْمَاءِ : نقص وذهب نى الأرض [كلمات القرآن] .

وغاض الماء يغض غيضاً : ذهب وأبطلته الأرض [القاموس القويم] .

(٣) أسوت على الجودي : استقرت على جبل يقرب الموصل . [كلمات القرآن] .

وقيل : إن ذلك كان يوم عاشوراء ، فصامه نوح ومن كان معه من الوحش والخلق شكراً لله عز وجل .

[مختصر تفسير الطبري] .

(٤) بعداً : أى : هلاكاً وسحقاً . [كلمات القرآن] .

ويكون أمره سبحانه للسماء : ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلَمِي﴾ أي : أن توقف المطر .
وهكذا ينهي الحق سبحانه الطوفان الذي أغرق الدنيا بأن أوقف المنصب ،
وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء .

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحي تطفح إن كان
هناك ما يسد تصريف الماء ؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذي
لا يمتص المياه ؛ ولذلك نجد الجهات المختصة تجدد طاقاتها لإصلاح مواسير
الصرف الصحي لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة .

وأقول هنا : إن حسن استخدام الماء من حسن الإيمان ؛ لأنني ألاحظ أن الناس
حين يتوضأون فهم يفتحون صنبير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للتوضوء
الشرعي ، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقي ليضيع دون جدوى^(١) .

وعلى الناس أن يدخروا الماء ، ولا يسيئوا استغلاله ؛ لأن الماء حين يتوفر
فهو يحيي الموات ، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحارى ، ونحتاج لتخفيف
الحياء على شبكات الصرف الصحي .

باختصار ؛ نحن نحتاج إلى حسن استقبال نعم الله تعالى وحسن التصرف
فيها ؛ لننعم بها ، ونسعد بخيرها .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلَمِي .. (٤٤)﴾

[هود]

أي : اتركي المطر . . ومن ذلك أخذنا كلمة «قلع» الذي يوضع فوق السفن
الشراعية الصغيرة ، وهو الشراع .

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ . فقال : ما هذا السرف ؟ فقال :
أفنى التوضوء إسراف ؟ قال : « نعم وإن كنت على نهر جار » أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٢١)
وابن ماجه في سننه (٤٢٥) قال البرصيري في الزوائد : « إسناده ضعيف ، لضعف حنبل بن عبد الله وابن
لهيعة » .

وَيُقَالُ: «أَقْلَعْتُ الْمَرْكَبَ» أَيْ: ثَرَكْتُ السَّكُونِ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ وَاقِفَةٌ عَلَى الشَّاطِئِ .

ويقول الحق سبحانه:

[هود] ﴿وَنَبِّضْ الْمَاءَ .. (١٤)﴾

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول ؛ لنعلم أن الله تعالى هو الذي أمر الماء بأن يغبض .

ومادة «غاض» تُستعمل لازمة ، وتُستعمل متعدية^(١) .

ثم يقول سبحانه:

[هود] ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى .. (١٥)﴾

أَيْ: اسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ عَلَى جَبَلِ الْجُودَى .

ويُنْهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

[هود] ﴿.. وَقِيلَ بَعْدَ لِقَايَةِ الظَّالِمِينَ (١٦)﴾

وهو بعدُ نهائيٌّ إلى يوم القيامة .

وتتحرك عاطفة الأبوة في نوح عليه السلام، ويظهرها قول الحق سبحانه:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ

الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (١٧)﴾

(١) تستعمل «غاض» لازمة ، وهي أن تكفى بشاغلها فلا تحتاج لمفعول به ، وذلك مثل : غاض الماء . أَيْ: نفص . وقد تستعمل متعدية أَيْ: تتعدى فاعلها إلى المفعول به . فنقول : أغاض الله ماءه (البشر) أَوْ: غاضه وغبضه .

(٢) أحكم : اسم تفضيل يفيد المبالغة في الصفة . أَيْ: إنه سبحانه وتعالى هو أفضل الحاكمين . وأحكم الأمر : أنقذه . قال تعالى : ﴿ثُمَّ نَحْكُمُ اللَّهُ أَمْرَهُ .. (٢٧)﴾ [الحج] أَيْ: بيئتها وجعلها مُتَّفَقَةً مُتَّعَةً مُحْكَمَةً . [القاموس الفريسي] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٨١

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قدر حاجة البنة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمل أي أب أو أي أم متاعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتباع نجد المثل في إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ^(١) ۖ ۝١٢٤ ﴾ [البقرة]

أى : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التعمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرقعها فوق قامته بالاحتتيال ، فأحضر حجراً ووقف عليه ليعلی جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ۝١٢٥ ﴾ [البقرة]

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنفذه بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ۝١٢٦ ﴾ [البقرة]

فقال الحق سبحانه :

(١) ابتلى : اختبر وامتحان . بكلمات : بأوامر ونواه . فأتمهن : أداهن لله تعالى على الكمال . [الكلمات القرآن] .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام . قال ابن عباس : ابتلاه الله بالناسك وعنه أيضاً : ابتلاه بالنظاهرة : خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس : قصر الشارب ، والمضغطة ، والامتناع ، والرك ، وقرق الرأس ، وفي الجسد : تعليم الأظفار .

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي ^(١) الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

من هذا نعلم أن النبوة ليس لها بنوة ، بل النبوة لها أتباع .
ويتضح ذلك أيضاً في قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقر في دعت
قول الحق سبحانه :

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق لمكة وأهلها :
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ
آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه
يبيّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ، فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن
والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هي للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق
سبحانه :

﴿ وَمَنْ كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

أي : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .
ونريد أن نقول إن عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن
تناسباً عكسياً ، فإن كان الابن قوياً فعاطفة الأبوة والأمومة تقل .
ومثال ذلك : أننا نجد شفيقين أحدهما غني قائم بأمر الأبوين ويتكفل
بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

(١) العهد : الزمان والوصية والوثق والثمة والأمان . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ .. (١٠٧) ﴾ [البقرة] .

وعهد إليه بالأمر بعهد عهداً : أوصاه به وجعله في دعوته وضمائه . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا
بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ .. (٥٣) ﴾ [يس] . [القاموس القريم] .

وسنلاحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغني ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب ، وكلما كان الابن في حاجة ؛ كانت العاطفة معه .

وفي تداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلاحظ أن نوحاً كان يملك المبرر طلباً لنجاة الابن ؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه لأنه من أهله ، فقال :

﴿ .. رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾
[هود]

إذن : فتوح عليه السلام يملك حق الدعاء ؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطئ ؛ لأن الابن قد غرق ، بل لا يد أن ذلك الغرق كان لحكمة .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَتُوحُّ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَأْذِنُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١)

(١) ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴾ (١٦) : أى : ليس من أهل ولايتك ودينك ، ولا ممن وعدتك أن تنجيه معك .
﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴾ (١٧) : قيل : معناه ، أن سؤالك إياي ما تسأله في ابنك المخالف لك عمل غير صالح .
﴿ .. إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٨) : فى مسائلتك إياي عن ذلك ، [مختصر تفسير الطبري] .

ووعظه بفضله وعظاً وعظة : نصيحة بالطاعة وبالحمل الصالح ، وأرشدته إلى الخير ، والموعظة : ما يوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ .. وَمَوْعِظَةُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٩) . [البقرة] . [القاموس المفيد] .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يلفت نبيه نوحاً إلى أن أهلية الأنبياء ليست
أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتباع ، وإذا قاس نوح - عليه
السلام - ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له .

ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسي : «سلمان من آل البيت»^(١) .

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هي بنوة اتباع ، لا بنوة نسب .

وانظر إلى دقة الأداء في قول الله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. ﴾ (٤٦)

[هود]

ثم يأتي سبحانه بالعلّة والحكمة لذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴾ (٤٦)

[هود]

فكان البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالذات منكورة هنا ، والمذكور هو
العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه في البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس
الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتباع بدليل أن الحق سبحانه
وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولو كان عملاً
صالحاً لكان ابنه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤٦)

[هود]

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف القرني . قال الذهبي والعجلوني :
سنده ضعيف .

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكر جيداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يريهم ربهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ^(١) أَنْ أَشْثَلَكَ مَا لَيْتَنِي لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٤٧)

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقر بأنه لما أحب أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتب سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قلبه مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى .

وقول نوح عليه السلام :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ .. ﴾ (٤٧) [هود]

يوضح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه .

ولذلك يستعبد نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) عاذ يعوذ عوداً : لاذ ولجأ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس] ، أى : ألتجأ إليه ، وألوذ به ، وأحتسب بعمادته [القاموس المفيد] .

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ
أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨)

وقول الحق سبحانه :

﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ..﴾ (٤٨)

[هود]

بدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر
مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة ، مما حمل في تلك السفينة من
كل زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى ، وأغرق
من قالوا عليهم إنهم أراذل^(١) .

وقول الحق سبحانه :

﴿أُمَرِ مِمَّنْ مَعَكَ ..﴾ (٤٨)

[هود]

تضمّن أهل^(٢) نوح عليه السلام ومن آمن به ، وكذلك أمم الوحوش
والطيور والحيوانات والدواب .

(١) البركة : زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف) [القاموس القويم ١/ ٦٥] .

(٢) بهمهم العذاب : يصيبهم ويؤذيهم . وقال تعالى : ﴿.. وَإِذَا مَسَّ الشُّرَكَاءُ يَتُوسًا﴾ (الإسراء) وقال تعالى : ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ يَكْفُرُوا فَيُنْكِفَ بِلُفُوفِهِمْ عَنكُمْ افْعَلُوا ..﴾ (هود) . [القاموس القويم] .

(٣) الأراذل : جمع أراذل : وهو الدون من الناس ، وقيل : هو الدون في منفرة وحالاته . وقيل : هو الرديء من كل شيء . وهم قد اعتبروهم أراذل لأنهم نسبوهم إلى مهنتهم كالحياكة والحجامة . فانه الزواج . [انظر : لسان العرب - مادة : رذل] .

(٤) وقد استثنى الله عز وجل منهم امرأة نوح التي قال عنها رب العزة : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (التحريم) وخيانتها لنوح كانت في الإيمان . قال ابن عباس : بازنت امرأة نوح ، إما كانت خيانتها أنها كانت تخبر أنه مجنون ، وكانت تطلع على سره فإذا آمن مع نوح أخذ تخبر الجبابرة من قوم نوح . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٣] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٨٧

أى : أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهى أمة الإنسان وإلى الأمم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية فى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ اهْبِطْ ^(١) بِسَلَامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

والمقصود بالسلاام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يعد هناك من الكافرين مما يتغص على نوح - عليه السلام - أمره ، ولن يجد من يكدر عليه بالقول :

﴿ جَادَلْتَنَا فَكُتِرَتْ جُدَالَنَا .. (٤٩) ﴾ [هود]

ولن يجد من يتهمة بالافتراء .

ومن بقي مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذى بلغهم به نوح عن الله تعالى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَكَاتٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

يعنى أن الحق سبحانه يبارك فى القليل ليجمعه كثيراً .

ويقال : «إن هذا الشيء مبارك» كالطعام الذى يأتى به الإنسان ليكفى اثنين ، ولكنه فوجئ بخمسة من الضيوف ، فيكفى هذا الطعام الجميع .

إذن : فالشيء المبارك هو القليل الذى يؤدى ما يؤدّيه الكثير ، مع ملاحظة أنه لا يفى .

(١) هَبِطَ يَهْبِطُ هَبْطًا ، من باب ضرب : نزل من علو إلى سفل ، أراحدر من علو ، وفى لغة قليلة هبط يهبط من باب فعد مبروطاً ، قال تعالى : ﴿ وَأَن مِّنْهَا لَمَاءٌ يَشْقَىٰ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَّهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] كما ذك الجبل حينما غلب الله عليه (القاموس القويم ينصرف)

وكان يجب أن تأتي هنا كلمة ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح - عليه السلام - من كل زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفى.

وقول الحق سبحانه :

﴿.. وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سَمِيعُهمْ ثُمَّ يَمَسُّهمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨﴾ [هود]

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية ، فقد كان المؤمنون مع نوح - عليه السلام - هم الصفوة ، وبمضى الزمن طرأت الغفلة على بعض منهم ، ويأتي جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة ، ثم تحيط بالأجيال التالية مثرات تفصلهم تماماً عن المنهج .

وفي هذا يقول الرسول ﷺ : «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكيت»^(١) ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المجل»^(٢) ، كجمر دحرجه على رجلك فتفط ، فتراه متبرأ»^(٣) ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلدته ! ما أظرفه ! ما أعقله ! وما في قلبه

(١) الوكيت : الأثر اليسير . قاله الهروي . وقال غيره : هو سواد يسير . وقيل : هو لون يحدث مخالف للون الذي كان قبله . [شرح النووي لصحيح مسلم - ٥٢٨/٢] .

(٢) المجل : أن يكون بين الجلد واللحم ماء . والمجئة : قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العسل . مجلت اليد : انفلتت من العمل قسرت . وصليت وقبض جلدتها وتعجز وظهر فيها ما يشبه البشر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة . [لسان العرب - مادة : مجل] .

(٣) متبرأ : مرتفعاً . وكل ما رفعت فقد تبرته . وانتبذ الجرح : ارتفع وورم . [لسان العرب - مادة : تبرأ] قال النووي في شرحه لمسلم (٥٢٨/٢) : «منه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه» .

مَثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ^(١) مِنْ إِيْمَانٍ ^(٢) .

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول ﷺ : «تعرض الفتن على القلوب كالخصير عوداً عوداً ، فأبما قلب أشربها ^(٣) نكتت ^(٤) فيه نكتة سوداء ، وأبما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً ^(٥) كالكوز مجخياً ^(٦) لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ^(٧) .

وأعوذ بالله تعالى من طروء فتنة الغفلة على القلوب .

والحق سبحانه يتحدث في هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من استطاع عليه الغفلة ، وسيتمتعهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمتاع الدنيا ، ولن يضمن عليهم ، ولكن سيلحقهم العذاب .

(١) الخردل : نوع من أنواع الحبوب التوابل . يضرب مثلاً في الصغر ، قال تعالى : ﴿وَمَا نُنْزِلُهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [النجم] .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠٨٦) ومسلم في صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

(٣) أي : خالط قلبه حب الفتن . وكأنه أسفاها . ومنه قوله تعالى عن اليهود : ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة] أي : خالط قلوبهم حب عبادة العجل من دون الله . [وراجع : لسان العرب - مادة : شرب] .

(٤) النكت : أن تضرب في الأرض بقضيب فتؤثر فيها . أي : أن الفتنة تترك أثراً في القلب . [راجع : مختار القاموس - مادة : نكت] .

(٥) مرباداً : أسود عليه غبرة . والمقصود من حيث المعنى لا الصورة . ذكره ابن منظور في لسان العرب . والشربد : التلون . يقال : لما رأني توبد لونه . أي : تراه أحمر مرة ، ومرة أخضر ، ومرة أصفر . [اللسان] .

(٦) الكوز النجس : أي : المائل الذي يكتب ويصّب ما فيه ، فالنجس هنا هو : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبّه القلب الذي لا يميّ غيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء . لأن الكوز إذا مائل انصب ما فيه . [اللسان - مادة : جج خ ي] .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤١٥) ، ومسلم في صحيحه (١٠٦٤) من حديث حذيفة بن اليمان .

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثاني : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

وتنحن نعلم أن من ذرية نوح عليه السلام «قوم عاد» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك «قوم ثمود» الذين أرسل إليهم أخاهم صالحاً عليه السلام ، وقوم لوط ، وهؤلاء جميعاً رأيت^(١) الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

وكلمة «تلك» إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم تعلم عنك أنك جلست إلى معلم^(٢) ، ولم يذكر عنك أنك قرأت في كتاب ؟ ولذلك يأتي في القرآن :

(١) وإن الشئ ريتاً : صدى ، مأخوذ من الصدا يعلو السيف يذهب بريقه ، واستعار للغشاة تنطى على القلب بسبب الذنوب ، وإن الصدا عليه : غلب عليه وغطاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين) أي : غطت غشاة الذنوب على قلوبهم . [القاموس المفيد] .
(٢) حاول مشركو قريش أن يعلموا في أن القرآن وحى من عند الله ، فقال عنهم سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِي مُبِينٌ ﴾ (النحل) أفانهمروا بالتعلم من غلام نصراني أعجمي ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا ، يقول ابن كثير في تفسيره (٥٨٦/٢) : «وما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشئ» ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشئ اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه .

سُورَةُ هُودٍ

٥٠٦٤٩١

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ^(١)﴾ [القصص: ٤٤]

رجاء:

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَعَهُمْ^(٢) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ^(٣) مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ^(٤)﴾ [آل عمران]

إذن: فما دمت يا محمد لم تقرأ ولم تتعلم عن معلم فمن علمك ؟
إنما علمك الله سبحانه .

وكان الله سبحانه وتعالى علم رسول الله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله ، وأنه سبحانه لن يسلمه إلى خصومه ولا أعدائه .

ولذلك يأتي القول الكريم: ﴿فاصبر﴾ ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذي استمر ألف سنة إلا خمسين ، ويأتي بعدها قوله سبحانه :

(١) ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ : خطاب من الله تعالى لشيء محمد ﷺ ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ : أى : بجانب الجبل أو الوادي أو المكان الغربي من موسى حين المناجاة . ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ^(١)﴾ [القصص: ٤٤] : أى : أوحينا إلى موسى - عليه السلام - الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه . [تفسير الجلالين ، ومختصر تفسير الطبري] يتصرف .

(٢) الأعلام - هنا - جمع فلم بمعنى السهم أو خشبة تشبهه ، يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه فى القمار - وتدعى الإسلام عن ذلك - وكانوا يستعملونه أيضاً فى القرعة ، ومن استعماله فى القرعة قوله سبحانه : ﴿إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَعَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ^(٢)﴾ [آل عمران] فالأعلام هنا : سهام الاقتراع ، وقد أجزيت القرعة فصار سهم زكريا - عليه السلام - فكفل مريم . [القاموس القويم] .

(٣) كفل يكفل كفلاً وكفالة : قام بالتربية والرعاية لمن يكفله . وقوله سبحانه : ﴿يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ : أى : يرعاها ويربها . وقال تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا^(٣)﴾ [آل عمران] : أى : جعله كفلاً لها . [القاموس القويم] .

[هود]

﴿ .. إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٩)

* * *

تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يرسل رسولا إلا إذا عم الفساد .

إذن : فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمت لها أسرة الأبناء بالآباء فانظمس المنهج ، وعز على الموجودين أن يقيموه .

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسلا جدد إلا إذا لم يوجد في الأمة من يرفع كلمة الله ؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانية في النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تحدثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوامة تردعه وترده إلى الإيمان .

أما إذا تصلبت ذاته ، ولم توجد لديه نفس لوامة ، فالمناعة الذاتية تختفى ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بلوامة .

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث رب العزة سبحانه برسول جديد ، وبينة جديدة ، وبرهان جديد .

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ

مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنَّمَا أَنْتُمْ لِأَمْثَلُوتَ ۚ ﴾ (٢١)

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٢٤) : « هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم ، كانت مساكنهم باليمن بالأحفاف ، وهي جبال الرمل ، وقد كان القرطبي في تفسيره (٤/٣٣٦٩) : « قيل : هم عادان : عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء هم الأولى ، وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران في قوله تعالى : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ [الفجر] » .

(٢) ﴿ .. إِنَّ أَنْتُمْ لِأَمْثَلُوتَ ﴾ [هود] كلمة (إن) هنا تامة بمعنى (ما) الشافية . أى : ما أنتم إلا أمثلوته .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٣

يفتح الحق سبحانه الآية بتحنيهم وموانستهم بالمرسل إليهم ، فيخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العنت ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به .

وحين يقول لهم :

﴿ يَا قَوْمِ .. ﴾ (٥٠)

[هود]

فهذا للإيناس أيضاً .

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء .

والله سبحانه لم يقل :

﴿ .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (٥١)

[هود]

إلا لأن الفساد قد طمَّ^(١) .

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود :

﴿ يَنْقُومِرَ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥١)

(١) يقال للشئ الذي يكثر حتى يعلو : قد طمَّ . ويقال : طمَّ الماء إذا كثر . طمَّ : غمر ، ولذلك قيل ليوم القيامة : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٢٠) [النازعات] . [راجع : لسان العرب ، والقاموس القويم] .
(٢) كلمة (٥١) في هذه الآية الكريمة ، نافية بمعنى (ما) النافية ؛ أي : ما أجرى إلا على الذي فطرني ، أو ليس أجرى إلا على الذي فطرني ، وهو الله سبحانه وتعالى . أجر فلان فلاناً - من بابي ضرب ونصر - أجر : أثابه على عمل ، أو صار أجيراً له وبالوجهين فسو قوله تعالى : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجِرَنِي لَعَنَیْ جَمِيعٍ .. ﴾ (٧٧) [القصص] وسمي المهر أجراً مجازاً - قال تعالى : ﴿ فَأَتَوْهُمْ أُجُورُهُمْ .. ﴾ (٥٢) [الطلاق] أي مهورهم - وفرله تعالى : ﴿ فَلَهُ أُجُورُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ .. ﴾ (٥٤) [البقرة] أي نوابه [القاموس القويم بتصرف]

(٣) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم ؛ فهو فاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٦٤) [الأنعام] أي : خالقهما . وقوله سبحانه : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٢٤) [الاسراء] أي : خلقكم أول مرة في الدنيا . [القاموس القويم]

وكان هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذى يشقُّ عليكم فيما أمركم به وأدعوكم إليه ، إننى أقدم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم مما ألفتكم ، ثم آخذ منكم مالا مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة ترك ما تعودتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة .

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن : فلا مشقة أكلّفكم بها ، كما أننى فى غنى عن ذلك الأجر ؛ لأن أجرى على من أرسلنى .

﴿ .. إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ^(١) أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾ [هود]

أى : أن أجرى على من خلّقنى مُعدّاً لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعنى التكوين الأساسى للإنسان .

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولا ، ونحن نعلم - أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة .

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشتري بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسمى هذه العملية بيعاً وشراءً .

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه .

وقول هود عليه السلام :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٥١) ﴾ [هود]

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوههم إليه ؛ لأن الأجر الذى تدفعونه فى المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة !

(١) فطر الله الخلق ، كنصر : خلقهم وبنّاهم ، فهو فاطر ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥١) ﴾ [الأنعام] خالقها - وفطر الشيء شقه فطراً والجمع فطور ، والاسم الفطرة قال تعالى : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهَ إِلَهِي فَطَرْتُ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٥٢) ﴾ [الروم] [القاموس القويم باختصار]

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٥

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن بقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى . فهو القادر على كل شيء .

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة ^(١) :

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ ۝٥١ ﴾

{هود}

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام : فسيدنا إبراهيم لم يقلها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها ^(٢) : لأن فرعون قال له :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ۖ ۝١٨ ﴾

{الشعراء}

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجسمة ، وهي المنهج الرسالي الذي جاء به هود عليه السلام .

ثم بقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾

(١) قالها نوح عليه السلام : {سورة يونس، آية ٧٢} ، {سورة هود ، آية ٢٩} ، {الشعراء ، آية ١٠٩} .

وقالها هود عليه السلام : {هود : ٥١} ، {الشعراء : ١٢٧} . وقالها صالح عليه السلام لقومه ثمود :

{الشعراء : ١٤٥} وقالها لوط عليه السلام : {الشعراء : ١٦٤} . وقالها شعيب {الشعراء : ١٨٠} .

(٢) وذلك أن فرعون من على موسى عليه السلام بهتاً عند طلبه خروج بني إسرائيل معه ، فقال فرعون : ﴿ .. أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَقَدْ فُتِنَّا مِنْ عَمْرِكَ مِثْلَ نِجْنٍ ۚ وَقُلْتَ لَعَلَّنَا لَقِي فَطَلَّتْ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ

{الشعراء} فلا يتأتى لموسى بعد هذا أن يقول ما قاله إخوانه من الرسل .

(٣) مدواراً : صيغة مبالغة، أي : كثير غزير متتابع . وقال الله سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ..

{٥١} {الأنعام} أي تدر عليهم مطراً غزيراً ، { الفاصموس القسم } . وقد وردت كلمة {مدواراً} في

القرآن الكريم ثلاث مرات : في الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفي الآية الثانية والخمسين من سورة هود ، وفي الآية الحادية عشرة من سورة نوح .

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول :
يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف
بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذي فاسد من ذنوب ،
فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب
المعاصي .

وعلى الإنسان أن يتذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة
هي مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسك رتبة^(١) الحياة عن مسببها الواهب لكل
النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا ، فأول ما ينزل به الرسول إلى
الامة هو أن يصحح العقيدة في قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بالله واحد
يتلقون عنه «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه «قوم عاد» ، والدعوة إلى
الإيمان بالله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الطقوس
فقط من الشهادة بوحدة الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .
ولكن عبادة الله تعالى هي أن تؤدى الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل في
ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام في حركة الحياة ، يريدون منا أن نقصر
الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل في حركة الحياة
غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس في الشرق ،
وحضارة الرومان في الغرب .

(١) رتبة الحياة : أي : سيرها على نظام واحد ، لا يتخلف ، فليدرك أنه يسير بنفسه وبذاته ونفسه وسيره
ومُسببه ، قال في اللسان (مادة : رتب) : «الراتب : الثابت الدائم ، والرتب : الشيء المقيم الثابت» .

سُورَةُ هُودٍ

٦٤٩٧

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأميين ؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أميٌّ^(١) أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول .

يريد هؤلاء - إذن - أن يوقعوا الإسلام في الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

ونقول لهم : لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حق ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثل أوامر المعبود في «افعل» و «لا تفعل» ؛ وما لم يرد فيه «افعل» و «لا تفعل» ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ وبفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون .

إذن : فالعبادة هي كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها في الطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هي التي بنى عليها الإسلام ؛ وليست هي كل الإسلام^(٢) .

إذن : فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام في أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة في الحياة ، ولا بد أن

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكد عليه رب العزة في القرآن ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ۚ ﴾ [الأعراف] .

الأمي نسبة إلى الأم ، كونه باقٍ على حالته التي وكدها مفعولاً بقطرة الله بالتلقى عنه إلهاماً ووحياً ، فما نطق من هوى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَاقِعِيُّ يَوْحَىٰ﴾ [التجم] وهذا الوصف من خصوصيات النبي ، وهي شريف له ، لأنه إذا كان أمياً وأنزل الله عليه الكتاب المعجز ، فلا شك أنه من عند الله والامية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لفيل أنه قرأ ونقل عن غيره . من أقوال الشيخ الشعراوي * م - س

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان» أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ومسلم في صحيحه (١٦) .

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حولنا .
فالعباداة تستوعب كل حركة في الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العباداة
تتخصص في باب العبادات في تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو
من العباداة أيضاً ، واستقامة الناس في المعاملات تؤدي إلى انتظام حياة الناس .
وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ (٥٢) [هود]

والاستغفار ^(١) لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله
هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التي ارتكبوها
مخالفة لمنهج الرسول الذي جاء من قبله ، أو هي الذنوب التي ارتكبوها
بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ .. ﴾ (٥٣) [هود]
والتوبة تقتضي العزم على ألا تُنشأ ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :
﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ .. ﴾ (٥٤) [هود]
ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مائلاً لكل ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه
قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن
طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه
فلا تمطر .

(١) غفر الذنوب بغيره - كضرب - غفراً وغفرانا ومغفرة . ستره وعفاه عنه ولم يعاقب فاعله ، قال تعالى :
﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ .. ﴾ (٥٥) [البقرة] والغافر : اسم فاعل وغفور وغفار : صفتان للمبالغة وكلها من
أسماء الله الحسنى ، وغفران مصدر ، والمغفرة مصدر مبني ، واستغفر طلب الغفران لنفسه ، قال
تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ .. ﴾ (٥٦) [النساء] طلب من الله أن يغفر لهم ، (القاموس القويم
ياختصار)

مثلما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ^(١) عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ^(٢) رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٣) ﴾ [الأحقاف]

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وإنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ اللهَ تعالى العبادة التي ننظم بها كل حركة في الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفّر لنفسك القُوَّةَ^(٤) باستنباطه من الأسباب التي طمرها^(٥) الله سبحانه وتعالى في الأرض .

والقوت - كما نعلم - من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ ونُمدُّ البذور جذورها الضاربة المسبّحة الساجدة لله تعالى ؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماء ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرّب إليها عبر الأرض ؛ وتأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

(١) أى : لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مفرح حراً واستبشروا به ، وقد كانوا عاجلين محتاجين إلى المطر . (تفسير ابن كثير ٤ / ١٦٠) .

(٢) وذلك أنهم قالوا المرسلهم هو عليه السلام : ﴿ .. فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُهُ إِنَّ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٦) ﴾ [الأحقاف] .

(٣) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه «قوات» . قال تعالى : ﴿ وَفَلَدَّرَ فِيهَا فُجْرَانِهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴾ [فصلت] أى : أفوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شيء حتى إلى آخر الدهر . وأفات الثبات أو الحيوان : أمده بقوته الذي يحفظ حياته . وأفات عليه : حفظه وحفظ بقاءه . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا^(٧) ﴾ [النساء] أى : غالياً مقدراً ، أو حافظاً وأتياً حياته . [القاموس الفريسي] بنصرف .

(٤) طمرها : دفنها وأودعها وخياها في باطن الأرض . والمطمرة : حفرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد حُيىء خفياً يضر فيه الطعام والمال . أى : يخبأ . [لسان العرب - مادة : طمر] .

والسَّماءُ هي كل ما علاك فأظلك^(١) ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها .

وانظروا قول الحق سبحانه :

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كُيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥) [الحج]

أى : من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أى شيء ويربطه فيما علاه ويعلن نفسه فيه ؛ ولسوف يموت ، وغيطه لن يرحل عنه .

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ .. (٥٢) [هود]

والمدرار : هو الذى يُدرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضار ، كما فتح الله سبحانه أبواب السماء بماء منهمر .

إذن : المدرار هو المطر الذى يتوالى توالياً مصلحاً لا مُفسداً .

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر : «اللهم حوالينا ولا علينا»^(٢) .

ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضر ؛ وتعمر الدنيا ؛ ونزداد قوة إلى قوتنا .

(١) قال الزجاج : السماء فى اللغة : يقال لكل ما ارتفع وعلا : قد سما يسمر . وكل سقف فهو سماء .

والسَّماء : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء . [اللسان : مادة سمو] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩٧) ، والبخارى فى صحيحه (٩٣٣) ، فعن أنس بن مالك قال : أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينما النبي ﷺ يخطب فى يوم الجمعة قام أعرابي فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا . فرفع يديه - وما نرى فى السماء قزعة - فوالذى نفسى بيده ما وضمها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ؛ ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على خبته ﷺ ، فمضرتا يومنا ذلك ، ومن الغد وبعد الغد ، والذي بلىه حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابي فقال : يا رسول الله تهدم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : «اللهم حوالينا ولا علينا» .

أما مَنْ بتولَّى ^(١) ؛ فهو يُجْرِمُ في حقِّ نفسه ؛ لأنَّ إجْرامَ العبدِ إنما يعودُ على نفسه ؛ فلا تظنَّ أنَّ إجْرامَ أيِّ عبدٍ بالمعصية يؤدِّي غيره ^(٢) .

والحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلُمُونَ ﴾ (٤٤)

[يرسم]

ويأتى الحق سبحانه من بعد ذلك بالردِّ الذى قاله قوم عاد :

﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي
الْهَيْئَةِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٢)

وهم هنا يتكرون أن هوداً قد أتاهم بيّنة أو معجزة .

والبيّنة - كما نعلم - هى الأمانة الدالة على صدق الرسول .

وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أن جوهر أى معجزة هو التحدى ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هى الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً ^(٣) وسلاماً عليه حين ألْقَوْه فيها .

ونحن نلاحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام :

(١) بتولّى : يُغْرِضُ . والتولّى : الإعراض والإدبار . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَمَّا تَرَىٰ بُدَّ ذَٰلِكَ فَأُوتِفَتْ هُمُ الْقَاسِفُونَ ﴾ (٨٧) [آل عمران] .

(٢) والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) [النساء] والائتم : الذنب ، وعاقبته إنما تعود على نفسه .

(٣) بيّنة : أى : دليل وبرهان وحجة واضحة لا شك فيها . وقال تعالى : ﴿ تَمَّ أَتْيَاهُمْ مِنْ آيَةِ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (٢١٧) [البقرة] وقال تعالى : ﴿ .. حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٥) [البينة] . [الفاموس القويم] بتصرف .

(٤) البرد : ضد الحر . قال بعض العلماء : جعل الله فى النار برداً يرفع حرها ، وحرّاً يرفع بردها ، فصارت سلاماً عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل «برداً وسلاماً» لكان بردها أشدَّ عليه من حرها ، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد . انظر تفسير القرطبي (٦/٤٤٨٢) .

﴿ .. يَا قَوْمِ إِنْ كُنَّ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ^(١) وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ^(٢) ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ^(٣) ﴾

أى : إن كنتم أهلاً للتحدى ، فهذا أنا ذا أمامكم أحارب الفساد ، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان .

وأحكموا كيدكم ؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الرباني ؛ لأن أحداً لن يستطيع إطفاء نور الله في يد رسول من رسله ؛ أو أن يخلصوا الدنيا منه بقتله ... ما حدث هذا أبداً .

إذن : فالبيئة ^(٣) التي جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر ؛ وهو تحدى القادرين عليه ؛ لأنهم أهل طغيان ؛ وأهل بطش ؛ ومع ذلك لم يقدرُوا عليه ؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا ﷺ .

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهي القرآن الكريم ؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة .

ونعلم أن غالبية الرسل - عليهم جميعاً السلام - قد جاءوا بمعجزات حسية كونية ؛ انتهى أمدها بوقوعها ، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدّقناها ، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفئ .

(١) مقامى (بضم الميم) : أى : إقامتى بينكم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم . راجع تفسير ابن كثير .

(٢) الغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه . وقال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] .

(٣) أيان الشئ : بين بياناً أى : ظهر وأنضح ، فهو بين ، وهى بيئة أى ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيئة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يفسر قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [البقرة] أى واضحة لا شك فيها ، والبيئة الحجة والبرهان بقول الحق : ﴿ .. حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [سورة الفرقان] [البيئة] وتبين الأمر ؛ وضح وظهر ، [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٢

فمثلاً شفى عيسى - عليه السلام - الأكمه^(١) والأبرص^(٢) - بإذن ربه -
فمَنْ رآه آمن به ، وَمَنْ لَمْ يَرَهُ قَدْ لَا يُؤْمِنُ ، وكذلك موسى - عليه
السلام - ضرب البحر بالعصا فانثلق أمامه ؛ ومن رآه آمن به ، وانتهت
تلك المعجزات ؛ لكن القرآن الكريم باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أى واحد من أمة محمد ﷺ قبل قيام الساعة أن يقول: محمد
رسول الله ومعجزته القرآن ؛ لأن محمداً ﷺ جاء رسولاً عاماً ؛
ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الجنس
الباقى ؛ ومع ذلك قالوا له:

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(٣) (٤٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ
جَنَّةٌ مِّنْ نُحِيلٍ وَغَيْبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ^(٤) (٤١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ^(٥) (٤٢) أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلَّا ^(٦) (٤٣) ﴾ [الإسراء]

وكل ما طلبوه مسائل حسية ؛ لذلك يأتى الرد :

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ^(٧) (٤٤) ﴾ [العنكبوت]

(١) كحه بكحه كهماء ، فهو أكمه ؛ وكذا أحمى ، أو فقد بصره فهو أكمه . قال تعالى : ﴿ وَأَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْعُورَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٥) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم] .

(٢) الأبرص : هو من أصابه داء البرص ، وهو مرض جلدى يحدث بقعا بيضا في الجلد تشوّهه ، وهو من
أعراض مرض الجذام . قال تعالى : ﴿ وَأَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي .. (٤٥) ﴾ [المائدة] . [القاموس
القويم] .

(٣) نبع الماء : خرج من العين - والينبوع : العين يخرج منها الماء غزيراً سهلاً . راجع : ينابيع . قال تعالى :
﴿ فَسَلَكْهُ يَنْبِيعٍ فِي الْأَرْضِ .. (٤٩) ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم] .

(٤) كسفاً : قطعاً . والكسفة : القطعة . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا .. (٤٠) ﴾ [الطور] .
وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَدَا نَحْشَفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٤١) ﴾ [سبأ] [القاموس
القويم] .

(٥) التنبيل : الجماعة أو العشيرة أو الأعوان المناصرون . قال تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلَّا ^(٦) (٤٣) ﴾
[الإسراء] معك ليؤيدوك . [القاموس القويم] .

ومع ذلك كذبوا.

وأضاف قوم عاد :

﴿ .. وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٢) ﴿ (مرد)

هم - إذن - قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة» ؛ لأن الإله هو مَنْ يُنْزَلُ مِنْهُجاً يَحْدُدُ مِنْ خِلَالِهِ كَيْفَ يُعْبَدُ ؛ وَلَمْ تُقَلِّ الْأَصْنَامُ لَهُمْ شَيْئاً ؛ وَلَمْ تُبَلِّغْهُمْ مِنْهُجاً .

إذن : فالقياس المنطقي يُلغِي تَصَوُّرَ تِلْكَ الْأَصْنَامِ كَأَلْهَةٍ ؛ فَلِمَ إِذَا عَبَدُوهَا ؟
لقد عبدوها ؛ لأن الفطرة تنادي كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها ؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تُحَدُّ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ ، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر .

وهذه هي حُجَّةُ كُلِّ ادِّعَاءِ نُبُوَّةٍ أَوْ ادِّعَاءِ مَهْدِيَّةٍ ^(١) فِي هَذَا الْعَصْرِ ،
فَيَدَّعِي النَّبِيُّ الْكَاذِبُ النُّبُوَّةَ ، وَيَدَّعُو لِلَاخْتِلَافِ مَعَ النِّسَاءِ ، وَشَرِبِ
الْخَمْرِ ، وَارْتِكَابِ الْمُوبِقَاتِ ^(٢) ، وَيَسْمِي ذَلِكَ دِيناً .

ونجد مثل هذه الدِّعَاوَى فِي الْبَهَائِيَّةِ ^(٣) وَالْقَادِيَانِيَّةِ ^(٤) ؛ وَغَيْرِهَا مِنْ
الْمَحْتَقِدَاتِ الزَّائِفَةِ .

(١) المقصود هؤلاء الذين يدَّعون أنهم المهدي المنتظر الذي جاء ذكره في أحاديث رواها البخاري في صحيحه ، أنه يأتي في آخر الزمان ، ويكون معاصراً لنزول عيسى بن مريم .

(٢) الموبقات : المهلكات . أوبقته : أهلكه . وقال تعالى : ﴿ .. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَرِيقاً ﴾ (٥٢) ﴿ [الكهف] أي : جعلنا تواصلهم في الدنيا مريباً ، أي : مهتكا لهم في الآخرة . [لسان العرب - مادة : وبق] .

(٣) البهائية : طائفة ذات عقائد فاسدة ، نسب لها «الميرزا حسين علي آقا نذراتي» تربى بطنبران ، ولد عام ١٢٣٣ هـ ، أفكاره خليط من البوذية والمزدكية واليهودية والإسلام والمسيحية . انظر : حقيقة قباية والبهائية - د . محسن عبد الحميد ١٩٨٥ م .

(٤) القاديانية : تُنسب لميرزا غلام أحمد من قاديان بلاهور من إقليم البنجاب بين باكستان والهند ، ولد ١٢٥٢ هـ ، وادَّعى النبوة . (القاديانية ، نشأتها وتطورها ، د . حسن عيسى - دار القلم / الكويت

١٩٨١ م) .

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ .. ﴾ (٥٣)

[هود]

بمعنى : وما نحن بتاركي آلِهتنا بسبب قولك .

وقولهم : ﴿ .. وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٤)

[هود]

أى : وما نحن لك بمصدقين ، لأن (أمن) تأتى بمعانى متعددة ^(١) .

فإن عديتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤)

[قريش]

وإن عديتها بحرف «الباء» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ .. ﴾ (٦٤)

[البقرة]

فالمعنى يتعلّق باعتقاد الألوهية .

وإن عديتها بحرف «اللام» ؛ مثل قول الحق سبحانه :

(١) آمن بأمن : اطمأن ولم يخف . وأمن منه : سلم . وأمن على كذا : اطمأن إليه ووثق به . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ (١٢١) [يوسف] .

وآمن : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. ﴾ (٢٥) [إبراهيم] . أى : بأمن من يحل به . وآمنة من خوف : يجعله آمناً غير خائف . ومعانى المادة كلها ترجع إلى الثقة والاطمئنان . قال تعالى : ﴿ .. وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) [قريش] أى : جعلهم آمنين لا يخافون ؛ لأنهم جيران الحرم الأمن فى البلد الأمن .

والمؤمن : من أسماؤه الله الحسنى ، أى : واهب الأمن وياخذ الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ؛ فلا خوف لمن يلجأ إليه سبحانه . قال تعالى : ﴿ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ (١٢) [الحشر] .

وآمن له : أذعن وانخفض عن ثقة وحب وتقدير . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا لَوْ لَوْطَ .. ﴾ (١٢٢) [التكوير] . وآمن به : صدّق به ووثق به عن اقتناع . قال تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ (٢٦) [يس] . والإيمان : الإذعان والتصديق . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَفْعَلُ نَفْسٌ إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .. ﴾ (١٢٤) [الأنعام] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ...﴾ (٨٣)

[يونس]

تكون بمعنى التصديق .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُم مِّن بَرِيٍّ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ (٨٤)

و«إن» التي تُمْتَحِنُ بها الآية الكريمة أداة شرطية ، وأداة «إن» الشرطية يأتي بعدها جملة شرط ، وجواب شرط ، فإن لم تكن كذلك فهي تكون بمعنى النفي ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿إِن أُمَمَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ...﴾ (٧)

[المجادلة]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ^(١)...﴾ (٥١)

[هود]

أي : «ما نقول إلا اعتراك» .

وهكذا نعلم أن كلمة «إن» هنا جاءت بمعنى النفي .

و«إلا» هي أداة استثناء ، وقبلها فعل هو «نقول» ، وإذا وجدت أداة استثناء ، ولم يذكر المستثنى منه صراحة ، فاعلم أنه واحد من ثلاثة : إما أن يكون مصدر الفعل ، وإما أن يكون ظرف الفعل ، وإما أن يكون حال الفعل^(٢) .

(١) عراه يعرؤه : ألم به أو غشيه وأصابه . قال تعالى : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...﴾ (٥١) [هود] أي : أصابك . قال القراء : كانوا كذبيوه - يعني : هوداً عليه السلام - ثم جعلوه مختلطاً ، وادعوا أن آلِهَتُهُمْ هي التي شبّهت لهبه إياها ، قال القراء : معناه : ما نقول إلا منك بعض أصنامنا ينجون لسبك إياها . [لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) يسمى النحاة هذا النوع من أساليب الاستثناء «الاستثناء المفرغ» وهو ما حذف منه المستثنى منه ، والكلام غير موجب (أي : منفي) مثل : ما نكلم إلا واحداً . ويقول تعالى : ﴿إِن نُّظَنُّ إِلَّا ظَنًّا...﴾ (٣٧) [الجنّة] أي : ما نظن إلا ظناً عقيماً . انظر تفصيل ذلك في النحو الوافي [٢/ ٣١٧ - ٣٣٧] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٠٧

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة :

وما نقول لك إلا أن آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سَفَّهْتَهُمْ وَأَبْطَلْتَ
الْوَهْيَتَهُمْ ، وجئتَ بآله جديد من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء - يراد به
الجنون .. فأخذتَ تَخْلُطُ في الكلام الذي ليس له معنى .

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء في نفس الآية :

﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا ^(١) إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ^(٢) ﴾ [هود]

وهو يُشْهَدُ الله الذي يثق أنه أرسله ، ويحمي ذاته ، ويحمي عقله ؛ لأن
عقل الرسول هو الذي يدير كيفية أداء البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولا ولا يحميه .

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد ﷺ أنه مجنون ؛ فأنزل
الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿ مَا أَنْتَ بِمَعْنُونِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ^(١) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ^(٢) ﴾
وَأَنْتَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ^(٣) [القصم]

ونحن نعلم أن المجنون لا خُلِقَ له ، وفي هذا بيان أن رسول الله ﷺ
في قمة العقل ؛ لأنه في قمة الخلق الطيب .

وهنا يُشْهَدُ هود عليه السلام قومه ويطلب إليهم أن يرجعوا إلى الفطرة
السليمة ، ويحكموا : أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه برىء من
تلك الآلهة التي يُشْرِكُونَ بعبادتها من دون الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام :

(١) طلبه للشهادة هنا ليس لأنهم أهل للشهادة ، ولكن المعنى : وأشهدكم نهاية للتقرير ، أي : لنمرنوا أنني
برىء من عبادة الأصنام التي تعبدونها . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٧٠) .

(٢) غير ممنون : أي : غير مقطوع ، بل هو دائم ، ويحتمل أنه غير مكذّر بالحق والتقريع والفخر به ، والمعنيان
لا يتعارضان [الفهم من القويم ٢/ ٢٤٠] .

﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ (٥٥)

وقوله : ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أى : من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلبوه ، وهو - عليه السلام - هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم ، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدى .

والتحدى هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو - عليه السلام - متأكد من قوله :

﴿أَشْهَدُ اللَّهَ .. (٥٤)﴾

[هود]

الذى قاله فى الآية السابقة ، ولا يمكن أن يرمى مثل هذا التحدى جزافاً ؛ لأن الإنسان لا يجازف بحياته فى كلمة .

وهو لم يقل : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ (٥٥) إلا إذا كان قد أوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة .

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨)﴾

[آل عمران]

(١) كان فلاناً مكيداً كيداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكافرين ، ومعاقتهم على ما دبروه من كيد ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٩) وَأَكِيدُ كَيْدًا (٢٠)﴾ [الطارق] ، والكيد مصدر ويطلق على العمل أو التوسيلة التى يتذرع بها الكائد بقول الحق : ﴿فَأَجْبِهرَا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُوا صُلْحًا .. (٢١)﴾ [حد] (القاموس القويم بتصرف)

سُورَةُ هُودٍ

٦٥.٩

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم^(١) ، والله سبحانه وتعالى حين شهد نفسه فإنما يطمئنتنا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذٌ لا محالة .

وقد أشهد هود عليه السلام ربه سبحانه ، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولا ليمكن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ^(٢)
أَخَذُ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٣) ﴾

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ .. ﴾ (٢٤) [أن عمران] .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه الذكر والمؤنث وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ .. ﴾ (١٣٤) [البقرة] تشمل الإنسان وغيره . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تُحْسِلُ وَرَقَهَا اللَّهُ بِرِزْقِهَا وَيُرْسِلُهَا فِيهَا رَسُولَهُمْ ﴾ (٢٥) [التكوير] الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل كلمة ﴿ وَيُرْسِلُهَا فِيهَا رَسُولَهُمْ ﴾ فانهطف يقتضى انفاذ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ ﴾ (٢٦) [الأنفال] تشمل الحيوان والإنسان الكافر .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ .. ﴾ (٢٥) [الشورى] والدابة هنا تشمل الكائنات الحية في الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن في السماء كتابات حية وعاقلة . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الناصية : ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً « ناصية » . وأخذ ناصية فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيئِهَا .. ﴾ (٢٦) [هود] أى : المسيطر عليها ممالك أمرها متصرف فيها ، وقوله تعالى : ﴿ .. فَلْيَأْخُذْ بِالْقَوَامِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ (٢٥) [الزحمر] أى : يُجَرِّمُ المجرمون من نواصيهم وأقدامهم ، فتربط ناصية المجرم مع قدميه ، ويؤخذ فيلقى في النار عاجزاً مهاناً . وقوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٌ كَذَابَةٌ عَاطِيَةٌ ﴾ (٢٥) [العلق] مجاز مرسل علاقته الجوزية ، أى : صاحبها كاذب خاطيء . [القاموس القويم] .

(٤) الصراط : لغة في السراط ، وبهما قرئ - بالصاد - والسين - وهو السيل والطريق للتخفيف والنشر . فمن الخير قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) [الفاتحة] وقوله تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢٢) [هود] . ومن الشر والهلاك ، قرله تعالى : ﴿ .. فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (٢٢) [الصافات] والتعبير بقوله تعالى : ﴿ فَأَهْدُوهُمْ ﴾ على سبيل التهكم والسخرية . [القاموس القويم] .

يعلمن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكل على الله تعالى الذي لا يعلوهم فقط ، ولا يوزنهم وحدهم ، بل هو الأخذ بناصية كل دابة تدب في الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هي مقدم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشده منها .

واحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَاهُمْ ^(١) فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٥٤) ﴾ [الرحمن]

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا ^(٢) بِالنَّاصِيَةِ (٥٥) ﴾ [العلق]

إذن : فكيف لم يجزؤ قوم عاد على أن يسלטوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المنوحشة - مثلاً - على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

﴿ .. مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

ونحن نلاحظ أنه عليه السلام قال في صدر ^(٣) الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ .. (٥٦) ﴾ ، وفي عجز ^(٤) الآية قال : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي (٥٦) ﴾ ،

والسبب في قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُمْ .. (٥٦) ﴾ أنهم كانوا قادمين ^(٥) في مسألة ربوبية الحق سبحانه .

(١) السيماء والسيما والسيمة : العلامة ، وسوم الشيء : أعلمه يسومه أي : بعلامة . [القاموس القويم] .

(٢) نسفع بناصيته : قبض عليها فاجتذبها . أي : لتجذبه من ناصيته إذلالاً له ، وذلك كناية عن الإذلال والقهر والإهانة . [القاموس القويم ٣١٦/١] .

(٣) الصدر : مقدم كل شيء وأوله . والمراد : بداية الآية الكريمة .

(٤) عجز كل شيء : مؤخره . والمراد : نهاية الآية الكريمة .

(٥) الفتح في الشيء : الغيب فيه وانقضاؤه ، [راجع اللسان - مادة : فتح] .

لذلك قال عليه السلام في مجال السيطرة: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أما في عجز الآية فقال:

﴿... إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٦﴾ [هود]

أى: أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة، ولم يأت هنا بشيء يخص أربابهم؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه.

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم في منتهى قدرته، وقهره وسيطرته، ولا شيء يُقِلُّ منه، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره في الظلم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخِيفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ٥٧﴾

الفعل «تَوَلَّوْا» أصله: «تَوَلَّوْا»، وفي اللغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقْتَصَرُ على تاء واحدة.

وهكذا يكون المعنى:

إن تَوَلَّوْا فقد أَبْلَغْتُكُمْ المنهج الذي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، ولا عُدْرَ لَكُمْ عندي؛ لأن الحق سبحانه لا يَعَذِّبُ قَوْمًا وهم غافلون؛ لذلك أُرْسِلُنِي إِلَيْكُمْ.

(١) ولى عن الشيء: انصرف عنه، أو أعرض عنه. وقال تعالى: ﴿... رَلُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ تُفْجَرُوا ٥٦﴾ [الإسراء] أى: أعرضوا. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْقَمُوا فَقَدِ احْتَمَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ... ٥٧﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم].

(٢) حَفِيفٌ: من أسماء الله الحسنى. والحَفِيفُ: الحافظ الأمين الذي يحفظ عباده ويحييهم. قال تعالى: ﴿... وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ٥٧﴾ [سبا] [القاموس القويم - يتصرف].

أو أن الخطاب من الله سبحانه ليهود عليه السلام ليبين له : فإن تولّوا فقل لهم : ﴿ أَبَلَمْتَكُم مَّا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. ﴾ (٥٧) ﴿ [هود]
والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء^(١) لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ﴾ (٥٩) ﴿ [مريم]
والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيباً :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (٥٥) ﴿ [النور]
إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .
وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُفْقَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ
فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣٨) ﴿ [محمد]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا .. ﴾ (٥٧) ﴿ [هود]

(١) خلفه بخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه . والخلف القرن من الناس أي الجيل بعد الجيل . والخلف الولد قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ .. ﴾ (٥٩) ﴿ [مريم] والخليفة من يخلف غيره وجميعها خلفاء وخلائف ، يقول الحق : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (٦١) ﴿ [الأعراف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٣٨) ﴿ [ناظر] [القاموس القويم ص ١٠٣ ، ٢٠٤ ج ١]

سُورَةُ هُودٍ

٦٥١٢

لأن المنهج الذي نزل على الخلق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصالح العباد ، وهو سبحانه خلق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف^(١) .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعضية :

أنتم ألقتم التمرد ؛ إما التمرد في القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرّد أحدكم على المرض ، ويقول : « لن أمرض » ؟ ولماذا لا يتمرّد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت ؟

إذن : فما دُمتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . واختر سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم بالتوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ . . وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ (٥٧) [هود]

فالله سبحانه رقيب ؛ لأنه فيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس^(٢) والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

(١) يقول رب العزة في الحديث القدسي : يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني . ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد في مسنده (١٥٤/٥) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضى الله عنه .

(٢) النواميس : القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون .

ولهؤلاء نقول : لا ؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر ، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه :

﴿ لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ ^(١) وَلَا نَوْمٌ ﴾ (٢٥٥) ﴿ [البقرة]

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد ؛ ليناموا ويرتاحوا ؛ لأنه سبحانه مُتَرَّءٌ عن الغفلة أو النوم ، بل هو سبحانه قَيُّومٌ .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ^(١) ﴾ (٥٨)

وساعة نسمع ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ فأنت تعرف أن هناك أمراً وأمرأً مُطَاعاً ، وبمجرد صدور الأمر من الأمر سبحانه يكون التنفيذ ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ^(٢) ﴾ (٢) ﴿ [الانشقاق]

إذن : فهي بمجرد السمع تَفَعَّلَتْ أمر الحق سبحانه .

(١) السنة : النعاس وهو أول النوم . والنعاس ما كان من العين ، فإذا صار في القلب صاوا نوماً . وقد فُرق المفضل الضمين بينهما فقال : السنة من الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب . [راجع تفسير القرطبي ١/٢ : ١١٩٦] .

(٢) عَذَابٌ غَلِيظٌ : أى : كبير كثير شديد صعب . [القاموس القويم] .

(٣) حق له (بالبناء للمجهول) : أثبت له . قال تعالى : ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا رُحُوتٌ ^(٢) ﴾ [الانشقاق] أى : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله ، [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥١٥

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنجي موسى عليه السلام من الذبح الذي أمر به فرعون ؛ أوحى الله سبحانه لإمّ موسى قائلاً :

﴿ .. فَإِذَا خِفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ^(١) وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ^(٢) ﴾
[القصر] وكيف تفعل أمّ ذلك ؟

إن كل أم إنما تحرص على ابنها ؛ والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء في البحر موت محقق ^(٣) ، لكن أم موسى استقبلت الوحي ؛ ولم تتردد ؛ مما يدل على أنها لم تناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهام وارد إليها من الله سبحانه ؛ إلهام لا ينازعه شك أو شيطان .

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :
﴿ فَلْيَلْقِهْ يَمِّمٌ بِالسَّاحِلِ ^(٤) .. ^(٥) ﴾
[طه]

وقد استقبل البحر الأمر الإلهي ؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

في قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . وقد ورد المعنيان في القرآن ، فقال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ^(٦) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر .
وقال تعالى لموسى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ^(٧) أَنْ أَقْلِقِيهِ فِي الْفُتُورِ فَأَقْلِقِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهْ يَمِّمٌ ^(٨) بِالسَّاحِلِ .. ^(٩) ﴾ [طه] فاليم هنا هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم] ..

(٢) أم موسى عاشت في خوف مظنون مصحوب بقلق ، فقد وعدت وقد لا يحدث ، كما عاشت في خوف محقق وهو إلقاء ابنها في البحر ، فالبحر يعني الفرق .. ولكن بجانب الإلهام جعلها تستقبل الخوف المحقق بالإيمان التضرع ، فالبحر استقبله ، والموج بداعبه ، والشاطئ يقبله ، والعدو يربيه ، وغبن الله نرعا .

(٣) الساحل : شاطئ النهر ؛ لأن الموج يأكل منه وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيَلْقِهْ يَمِّمٌ بِالسَّاحِلِ .. ^(١٠) ﴾ [طه] أي : بشاطئ النهر . [القاموس القويم] ..

سُورَةُ هُودٍ

٦٥١٦

[هود]

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۖ ۝٤٧﴾

وحدث الطوفان ؛ ليغرق الكافرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ۖ ۝٤٨﴾

يعنى : مجيء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تناسب فى دقتها مع عظمة الأمر بها سبحانه وتعالى .

فحين تأتى ريحٌ صَرْصَرٌ^(١) أو صَيْحَةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بشروحيه الله ؛ فقد يعمُّ المكذِّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدقون به وبرسالته ، فكيف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط ، وتخرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير .

إن مَوْجَهَ الصيحة قد حدَّد لها مَنْ تُصيب ومن تترك ، وهى صيحة مَوْجَّهَةٌ ، مثلها مثل حجارة سجِّل^(٢) التى رَمَتْهَا طير أَيْبِيل^(٣) على أبرهة الحبشى وجنوده ؛ مع نَجاة جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعضُ من المتفلسفين .

(١) الصَّر: البرد الشديد. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ۖ ۝٤٧﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ ۝٤٨﴾ [الحاقة] [القاموس القويم].

(٢) السَّجِّل: الطين المتحجر. قال تعالى: ﴿.. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ ۖ ۝٤٩﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿لَنَرِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۖ ۝٥٠﴾ [الغيل] [القاموس القويم].

(٣) أَيْبِيل: جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها، وهى نفيد الكثرة. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَيْراً أَيْبِيلَ ۖ ۝٥١﴾ [الغيل] [القاموس القويم] .

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشيء واحد ؛ ولكنه يُنجي
المؤمن ؛ ويعذب الكافر ؛ فلا يوجد تاموس يحكم الكون بدون قدرة
مسيطرة عليه .

يقول المتنبي ^(١) :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنْ بَيَضَ أَوْجُهَهَا وَمَا تُسَوِّدُ بَيَضَ الْعَيْنِ وَاللِّمَمِ
وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً لَوْ احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ ^(٢)

وهكذا يضرب المتنبي المثل بأن جلوس الواحد منا في الشمس ؛ يجعل
بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر ، لكنك إن تركت
شيئاً أسود في الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض ؛ ويحدث ذلك رغم
أن الفاعل واحد ؛ لكن القابل مختلف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ رَلَّمَا جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيتَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا .. (٥٨) ﴾

[هود]

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام ؛ لأن هذه هي الرحمة .
والرحمة - كما نعلم - هي ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر ؛ أما
الشفاء فهو يعالج الداء .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

(١) هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة في محلة تسمى «كندة» عام ٣٠٣ هـ ،
نشأ بالشام ، ادعى الشيعة في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ولذلك سمى بالمتنبي ؛ ثم رجع عن
دعواه بعد أمره ، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً . (الأعلام لخبر الدين الزركلي) .

(٢) المتنبي رغم أنه أدب له قدرة على إدارة المعاني ، فقد تعرض لحقيقة علمية يؤخذ منها الأسرار الخفية ،
التي تجعل العقل مستخيراً بتوحيد القدرة الله سبحانه .

ونحن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر في نفس الآية الكريمة نجائين :

النجاة الأولى : من العذاب الجامع ؛ الريح الصرصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاغية ، يقول سبحانه :

﴿ .. نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ ﴾ [هود]

والنجاة الثانية : هي نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا رغم قسوته ، إلا أنه موقوف بعمر الدنيا .

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية ، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة .
وغلظ الشيء يعطى له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم .

ولذلك حينما يُمْلِكُ الحق سبحانه رجلاً بُضِعَ^(١) امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالمشاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعرض ، ولم يُمْلِكِ الرجل النفعية المطلقة من المرأة^(٢) التي يتزوجها ؛ فالزواج يُمكن من عورة زوجته بعقد الزواج .

يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٦١ ﴾ [النساء]

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ .

(١) البضع : النكاح والجماع ، والمباذعة : المجامعة ومباشرة الرجل للمرأة ، (لسان العرب - مادة : بضع) .

(٢) فللمرأة - مثلاً - ذمة مالية خاصة بها ، ليس من حق زوجها الاستيلاء على مالها ، أو التدخل في كيفية استثماره إلا بعد موافقتها بإرادتها الحرة .

(٣) ميثاقاً غليظاً : أي : عطيماً كبير الشأن ، هو ميثاق الزواج . [القاموس القويم] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩)

و«تلك» إشارة إلى المكان الذي عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا
للمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال
سبحانه : ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ (٥٩) فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم .

و«عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات
التي عاشت في المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ ﴿تلك﴾ فهي إشارة إلى
الديار ، والديار لم تحدد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى :

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ (٥٩) [هود]

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان .

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهي الأمور المعجبية الملفتة للنظر
التي تأتي بوحى بإيمان بما تنص عليه .

(١) جحد الحق سبحانه جحوداً : أنكره ، وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها .. وجحد الآية :
كفر بها . قال تعالى : ﴿.. وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣) . [الأنعام] . [القاموس المفيد] .

(٢) جاءت (رسله) هنا بصيغة الجمع ، لا المفرد . قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٧٣) : «يعنى هوداً
وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّبَائِبِ
..﴾ (٥٩) [المؤمنون] . يعنى : النبي ﷺ ، لأنه لم يكن في عصره رسول سواه ، وإنما جمع هذا لأن من
كذب رسولاً ونحداً فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هوداً والرسول قبله ، وكانوا يحثوا لو أرسل
إليهم ألف رسول لجحدوا الكل » .

(٣) الجبار : العنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يدعنه له . [تفسير القرطبي ٤/ ٣٣٧٣] .

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله
الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس
والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التي في القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتي مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولا من عند
الله تعالى ، وهي المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التي يريد بها الله سبحانه بمنهج لضمان صحة
حركة الحياة في خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا
تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحودا بإعراض^(١) .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ...﴾ (٤٩)

[هود]

وهود عليه السلام هو الذي أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو
المعنى بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ^(٢) النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...﴾ (٨١)

[آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل
رسول يُرسل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) الجحود لا يتأتى إلا عند إغلاق القلب وشروء الفكر وضعف النفس .
(٢) الميثاق والموثق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿رَأَوْا تَعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ...﴾ (٢٠) .
[الثالثة] أي : عهده الذي عاهدكم عليه والزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢ / ٣١٩] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٢١

﴿ كُلُّ آمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ

[البقرة]

... (٢٨٥) ﴿

فهم قد انقسموا إلى قسمين : لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ .. وَعَصُوا رُسُلَهُ وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ^(١) (٥٩) ﴾ [هود]

أى : أن هناك متبعا . ومتبعا .

والمقصود بالجبار العنيد هم قوم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثانى هم من اتبعوا الجبابرة .

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفرق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضال في ذاته ، وهناك مضل لغيره .

والمضل لغيره عليه وزران ^(٢) : وزر ضلّاله في ذاته ، ووزر إحلال غيره ^(٣) .

أما الذين اتبعوا فلهم بعض العذر : لأنهم اتبعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبيّنة .

(١) العنيد : صيغة مخالفة . قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْضُوا وَخَلَبْ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) ﴾ [إبراهيم] القاموس القويم ص ٢٩٠ ج ٢

(٢) الوزر : الحمل الثقيل والذنب . وجزاء الذنب وعقوبته ، والهم والكرب . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (٥٩) ﴾ [مله] أى : حملاً ثقيلاً هو ذنبه أو جزاء ذنبه . وقوله تعالى : ﴿ وَوَحِّدًا عَلَيْكَ وِزْرُكَ (٦٠) ﴾ [الشرح] أى : همك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق ، فلما جاءت الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يحمل إلا هم أمته ، أو يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه نبياً لشدة حبك لله وخوفك إياه ، وقد وضعه عليك وغفره لك . قال تعالى : ﴿ لِيُخْذِرَكَ اللَّهُ مَا تَقْلَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ .. (٦١) ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى الهفوات الصغيرة تنوياً كبيرة فوضعها الله عنه بالمغفرة . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٢] .

(٣) قال تعالى عن الذين يضلون غيرهم : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارُ الَّذِينَ يُحْمِلُونَ يَوْمَ نَبْذِرُ الْفِرَاقَ مَا يُزِيدُ (٦٠) ﴾ [النحل] . وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَمُوتُ (٦١) ﴾ [التكوير] والاتقال هى الثنوب ، ويحملون أثقال من أضلّوهم فاتبعوهم فى ضلالتهم [راجع : القاموس القويم ، مادة ثقل] .

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيحدث عن الفئة التي ضلت في ذاتها ويقول :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانِيٍّ ^(١) وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ^(٢) ﴾

[البقرة]

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلّة فيقول :

﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. ^(٣) ﴾

[البقرة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ الْعَادِ قَوْمِ هُودٍ ^(٤) ﴾

والزمان بالنسبة للخلق ثلاثة أقسام : حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ ^(٥) ، وساعة يعثون هي الزمن الثالث .

(١) الأمانى : جمع أمنية ، وهي ما يرغب الإنسان فيه من الخير ، فعلمهم من الكتاب ليس أمانى كاذبة في دخول الجنة دون أن يصدقوها عملهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ .. ^(١) ﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢ / ٢٤١] بزيادة يقتضيها المقام .

(٢) اللعنة : اسم مرة ، وتستعمل بمعنى المصدر ، قال تعالى : ﴿ .. أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ^(٢) ﴾ [هود] أي : سخطه وغضبه وطرده منصب على الظالمين . [القاموس القويم] .

(٣) البرزخ : الحاجز بين الشيئين . قال تعالى : ﴿ مَوْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ^(٣) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ^(٤) ﴾ [الرحمن] أي : بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلا منهما عن مجراه فلا يبغي ولا يطفى على الآخر . وقال تعالى : ﴿ .. وَزَيْنَ وَآلِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُخْفُونَ ^(٥) ﴾ [المؤمنون] أي : حاجز يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا حتى يوم القيامة وتسمى فترة القبور فترة البرزخ . من مات فقد دخل البرزخ إلى يوم القيامة [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٢٢

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء^(١) ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هي الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨)

[البقرة]

هذه هي الأزمنة الثلاثة - حياة ، وبرزخ ، وبعث - وكل وقت منها له ظرف .
ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه في البحر :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا^(٢) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦)

[غافر]

وفي هذا دليل على عرض الجزاء في البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار»^(٣)

إذن : فهنا زمانان : زمن عرضهم على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وزمن دخولهم النار .

(١) قال تعالى عن عذاب آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٢٨) [غافر] فهذا عرض للجزاء عليهم ، وهو في حد ذاته عذاب .

(٢) الغدو : الدخول في الغداة ، أو السير أول النهار . قال تعالى : ﴿ غَدُوًّا نَهْرًا^(٤) .. ﴾ [سبا] أي : مدة سير الرياح في وقت الغداة تقطعها القوافل في شهر .

ويقابل الغدو بالعشى وبالأصال ، قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا .. ﴾ (٢٨) [غافر] وقال تعالى : ﴿ .. سَبَّحْ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٢٥) [النور] . [القاموس المبرس] .

(٣) أخرجه الأثر مبدئ والطبراني في الكبير عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن أبي هريرة وسندهما ضعيف . وانظر مجمع الزوائد (٤٦/٣) ومسنَد الفردوس للديلمي (٢٣١/٣) .

وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار^(١) ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .
وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب في الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود]

وكلمة «ألا»^(٢) هي أداة تنبيه - كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يليق به المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذي يقود زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتي كلمة «ألا» كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً في الدنيا بالريح العقيم^(٣) ، ثم أتبعوا لعنة في البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحيثية هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبين بكلمة «ألا» أي : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

(١) من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٧٩) ومسلم في صحيحه (٢٨٦٦) .

(٢) ألا : أداة استفهام وهي مركبة من همزة الاستفهام ومن لا النافية ، وتكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها وتقريره كقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ ﴾ [البقرة] وتكون للعرض والتخصيص والحث ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَا تَجِبُونَ أَنَّ بِطَرَفِ اللَّهِ تُكْمَلُونَ ﴾ [النور] [القاموس الغويص ٢٧/١] .

(٣) ذلك كان عذاب قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات] والريح العقيم هي التي لا خير فيها - بل هي تهلك وتدمر - وذلك وصف على المجاز بالاختصار [القاموس الغويص ص ٣١ ج ٢] .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث في الدنيا ، وهو كفر في القمة ؛ لذلك نالوا عقاباً في الدنيا .

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم في البرزخ ، ثم تأتي لهم لعنة الآخرة .
وهم لم يكفروا بنعمة ربهم ، بل كفروا بربهم .

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف ، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التي لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهي الأجزاء العادل .

وقد أوضح لهم هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ^(١) إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ^(٢) ﴾
[هود]
أي : أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛
ولذلك يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ^(٣) ﴾
[هود]
فأنت لا تكفي بلعناتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى .

ولسائل أن يقول : ولماذا يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ^(٤) ﴾
[هود]

(١) الناصية : ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً ناصية - وأخذ بـ ناصية فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه ، قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. ^(٢) ﴾
[هود] مسيطر عليها ومالك أمرها متصرف فيها ، [القاموس القويم] تصرف ص ٢٧٠ ح ٢٤ .

ونقول : لقد قال الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن :

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم]

وهذا يوضح لنا أن «عادًا» كانت اثنتين : عاداً الأولى ، وهم قوم عاشوا وضلّوا فأهلكهم الله ، وهناك عاد الثانية ^(١) .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنِّي نُمُودًا أُولَىٰ بِصَلَاتِهِمْ قَالَ بِتَقْوَىٰ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) أنها عادان ، عاد الأولى ، وعاد الأخرى ، فهؤلاء - أي : قوم هود - هم الأولى ، وأما الأخرى فهي أقوام عاشت في جزيرة العرب ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿إِذْ ذَاتَ الْعَمَادِ﴾ [الفجر] ، ويقول (٣/ ٢٧٥٢) : «كان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء . وكانت عاد فيما روي ثلاث عشرة قبيلة ، يتزلون رمال عاليج ، وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت فيما روي بنو احيى حضر موت إلى اليمن ، وكانوا يعبدون الأصنام ، ولحق هود - حين أهلك قومه - من آمن معه بمكة ، فلم يزلوا بها حتى ماتوا» .

(٢) نمود : قبيلة من العرب الأول . ويقال : إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح . [راجع : لسان العرب - مادة نمدا] .

(٣) أنشأ الشيء : أوجده وأحدثه وخلفه . وأنشأ الله السحاب : كوّنه وأظهره في السماء . قال تعالى : ﴿... وَتَفْشِي السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد] أي : يكون السحب المثلثة بالماء . وأنشأكم من الأرض : خلقتكم منها . [القاموس القويم] ينصرف .

(٤) عمر فلان اندار : بناها ، وعمر القوم المكان : سكنوه ، فهو معمور . وعمرت الدار بأهلها : قهرت عامرة . قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾ [التوبة] أي : يقيم فيها الصلاة ويجلس فيها للعلم ويسكن للاعتكاف ، ويبنيها ويحافظ عليها ؛ فكل ذلك من عمارتها . وقوله تعالى : ﴿اجْعَلْنِي مِغَافَةَ النَّجَاحِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾ [التوبة] أي : أن عِمَارَةَ المسجد بغير إيمان لا وزن لها ، فالإيمان هو أساس لقبول الأعمال . واستعمره في المكان : جعله يعمره . قال تعالى : ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود] : [القاموس القويم ٢/ ٣٥] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٢٧

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه يبين لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام.

وجاء الحق سبحانه بلفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾ لبيان العلاقة التي بين صالح - عليه السلام - وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فلماذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه - فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج.

وناداهم صالح عليه السلام : ﴿يَا قَوْمِ﴾ ، وهي من القيام ، يعني : يا من تقومون للأمور . والذي يقوم على الأمر عادة هم الرجال ؛ لأن أمر النساء مستور - دائماً - في طي الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتي فيه ذكر المرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، والنساء مضويات على الستر في ظل الرجال ، والرجل يشقى ويكدح ، والمرأة تدير حياة السكّنى وتربية الأولاد .

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل .

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلنثت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجل ، وهو رعاية الأسرة ؟

وكذلك نجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقوم لمن يفعل ذلك : إذا كُتبت لم تنتقد التمهتك في الملابس ، ووَصَفَتْهُ بأنه «حرية» ، فلماذا تتدخل في أمر الحجاب ، ولا تعتبره «حرية» أيضاً .

ونعود إلى الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنّا عنها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ . (٦١) والعبادة تقتضى تلقى أوامر الإله المعبود بـ «افعل» و «لا تفعل»^(١) فى كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شيء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد ، ولا يسمع أحداً مخالفته .

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ . (٦١)

[ثمود]

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر غير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ . (٦١)

[ثمود]

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شيء ، ويقال : أنشأ ، أى : أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر .

لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه «أنشأ» لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه ؛ فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشئ من عدم .

والوجود من عدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة بموجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ، وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

(١) إن مدار التكليف فى حياة الناس لا يخرج عن الأمر والنهى ، فمن الأمر تأخذ الفرض والسنة والمسحب والتدب والتطوع والواجب والحلال ، وكل ما يرضى الله لسعادة البشرية . والنهى : يكون عن الحرام والمكروه . وحركة الحياة منوطه بالفعل كإمر ، ولا تفعل كنهى ، وفى النهى عند الاستجابة سعادة ، وعند المخالفة شقاء .

والحق سبحانه جلّت مشيئته في الإنشاء ، فهو ينشئ الإنسان من
الثقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى في
آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة
الأرض ، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمضى الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذي هو خلاصة
الأغذية وهي تأتي من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض ،
أو أبقيتها في ذريته ، فكل شيء مَرَدُّهُ إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ^(١) فِيهَا .. ﴾ (٦١)

[هود]

لجد فيه كلمة «استَعْمَرَكُمْ» وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها
للطلب^(٢) ، وهكذا يكون معنى كلمة «استعمر» هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتل بلاداً أخرى : «دول
الاستعمار» .

أقول : إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعني أنهم
يرغبون في عمارة الأرض ، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يخربون في
الأرض ؛ ولذلك كان يجب أن تسمى «دول الاستخراب» .

(١) استعمركم فيها : أذن لكم في عمارتها واستخراج قوامكم منها وجعلكم عمارها . [راجع اللسان : مادة
عمر] .

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي : تأتي كلمة استعمل في لسان العرب على معان :
- منها : استعمل ، بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أي : طلبت منه حملاتاً .
- وبمعنى : اعتقد ، كقولهم : استعملت هذا الأمر ، أي : اعتقدته سهلاً ، أو وجدته سهلاً . واستعملته
أي : اعتقدته عظيماً ووجدته .

- وبمعنى : أصبت ، كقولهم : استجدته أي : أصبته جيداً .
- ومنها بمعنى : فعل ، كقوله : فر في المكان واستقر . نقله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٧٥) .

﴿اَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى : طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين : أن يبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً .

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأواني المستطرقة^(١) ، فقد كان الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأواني المستطرقة ، فاستغلها الناس فى بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواشير تدخل لكل بيت .

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل ، وهكذا يزداد فى الأمر الصالح صلاحاً .

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فتحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة فى عدد السكان .

وما دام عدد السكان فى زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح ؛ لأن الأزمة التى نعانى منها الآن ، هى نتيجة للغفلة التى مرت علينا ، فزاد التكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضى أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة فى السكان .

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض ،

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلّى على الخلق بصفات من صفاته ، فالقوى يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنى ؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه ومرهوبة منه لنا .

(١) الأواني المستطرقة: عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأنسكان ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد . [المعجم الوسيط] .

والدليل على ذلك أن القوى فينا يصير إلى ضعف ، والغنى منا قد يصيبه الفقر ؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل .

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل ؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً - على سبيل المثال - فعليه أن يتذكر أن الذي زرع له النخلة^(١) هو من سبقه ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين - وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً- وليستفيد بها من يأتي من بعده .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه «ثمود» في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (٦١) [هود]

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة^(٢) .

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم :

(١) النخل شجر الرطب والتمر والبلح ، واحده نخلة ، وجمع النخلة نخيل قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ذِي النُّخْلِ بَاحِدٌ لِّكَ تَافُؤٌ عَلَيْكَ وَطَبَا جَبَا ﴾ (٦٢) [مريم] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ النُّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ (٦٣) [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَذْكُرْكُمْ أَن تَكُونُوا مِنْ خَلْقٍ مُّغْتَابٍ .. ﴾ (٦٤) [البقرة] .

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله : «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٤٠) وقال : حديث غريب لا تعرفه إلا من هذا الوجه» وقد أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤ / ٥) والدارمي في سننه (٣٤٢ / ٢) من حديث أبي ذر الغفاري .

﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ
تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^(١)

كانوا ينظرون إلى صالح - عليه السلام - بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم
لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره .

والمرجُوُّ هو الإنسان المؤمل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وآية
خصلة من الخصال التي تبشر بأن له مستقبلاً حسناً .

ولكن ما إن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله سبحانه وتعالى
أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يقصد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

وقد أوضح لهم صالح - عليه السلام - ما أوضحه الرسل من قبله ومن
بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس الهة تُعبد هو أمر
خاطيء ؛ لأن العبادة تقتضي أوامر ونواهي ينزل بها منهج ؛ يتبعه من
يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج .

وأضاف قوم ثمود :

﴿.. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^(٢) [هود]

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً . وقوله تعالى : ﴿فَدَكُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا..﴾^(١) [هود] أي : كنا
نرجو أن تكون فينا سيداً . [مختصر تفسير الطبري] و[القاموس القويم] .

قبل : كان صالح يصيب آلهتهم ويشنّوها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا
انقطع رجائنا منك . انظر القرطبي (١/٣٣٧٧) .

(٢) أراه : أوصله إلى الشك وأدخل الشك في نفسه ، واسم الفاعل : مرّيب . وقوله تعالى : ﴿.. وَإِنَّهُمْ لَفِي
شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾^(١) [هود] على سبيل التوكيد ، أي : في شك موصل إلى شك . وكذلك قوله تعالى
على لسان قوم ثمود : ﴿.. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^(٢) [هود] ، وأراه الرجل فهو
مرّيب : صار موضع ريبه وشك لا يطمئن إليه الناس . قال تعالى : ﴿مَتَاعٌ لِلْفِرَاقِ فَقَدْ مُرِيبٍ﴾^(٣) [ق] .
[القاموس القويم] .

والشك هو استواء الطرفين : التقى والإثبات .

إذن : فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هي عبادة صادقة ، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون في أمر تلك العبادة ؛ وهذا يظهر أن خصال الخير في صالح عليه السلام جعلتهم يترددون في أمر عبادتهم ^(١) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود :

﴿ قَالَ يَبْقَومُ زُرْعَتِي وَأَنْبَثُهُمْ عَلَى يَدَيْهِمْ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ^(٢) ﴾

(١) وأيضاً فإنهم في شك من دعوة صالح عليه السلام إلى عبادة إله واحد ، فخطابهم هنا موجه لصالح (عما تذهون) أي : يا صالح ، كانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام ، وأصل إليها آخرهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فسألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء عنبرها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء شخص ، فأخذ عليهم صالح العهد والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليرضون به وليتبعنه ، فقام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت الصخرة وانسفت عن ناقة يشرك جنينها بين جنبيها وكانت الناقة تشرب من البئر يوماً وتركه لهم يوماً وكانوا يشربون من حلبها ويملأون ما يشاءون من أوعيتهم ، ولكن تسعة نفر اتفقوا على قتلها ، فعقروها ، فنزل بهم عقاب الله بعد ثلاثة أيام . [تفسير ابن كثير ٢٢٧/٢ - ٢٢٩] باختصار شديد .

(٢) أن آيتهم : أي : أخبروني . [كلمات القرآن] .

(٣) بينة : يقين وبرهان وبصيرة . [كلمات القرآن للشيخ حسن بن محمد مخلوف] . وهي الحجة الواضحة الموضحة للحق التي تحمل الحق ظاهراً للبيان .

(٤) رحمة : أي : نبوة . [تفسير الجلالين] . وقد سبق قول نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتْلَى رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ .. ﴾ (هود) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٣٤٣) : أي : نبوة ورسالة . عن ابن عباس ، وهي رحمة على الخلق ، وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين ، وقيل : الإيمان والإسلام .

(٥) خسره : جعله يخسر ، وخسره تخسيراً : أبعد عن الخير ، وأهلكه . وقوله تعالى : ﴿ .. فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (هود) أي : غير إبعاد عن الخير ، أو غير إهلاك بعذاب الله [القاموس القويم] وجاء في تفسير الجلالين : (غير نخسر) أي : غير تضليل . وجاء في مختصر تفسير الطبري ﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (٥) يقول : ما تزدادون أنتم إلا خساراً ، يخسركم حظوظكم من رحمة الله عز وجل .

وكان صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال: أخبروني إذا كنت أنا على بينة من ربي ويقين بأنه أرسلني وأبذني ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسي ، فهل أترك ما أكرمني به ربي وأنزل إليّ منهجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم؟ هل أترك يقيني بأنه أرسلني بهذه الرسالة ﴿ وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ ۖ ۝٦٣﴾ وهي النبوة ؟

﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ ۝٦٣﴾ [هود]

وساعة يستفهم إنسان عن شيء في مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شيء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام:

﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٤﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال . فهل التخصير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه ؟

إن ثراء الأسلوب القرآني هنا يوضح لنا هذه المغايب كلها ، فإن أطاعهم صالح - عليه السلام - وعصى ربه ، فهو قد أزداد في خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهديين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى .

إذن: فالتخصير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح - عليه السلام - وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام:

سُورَةُ هُودٍ

٥٢٥

﴿ وَيَقَوْمٍ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَُا ^(١) ^(٢) ^(٣)
تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ ^(٤)
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ٦٤ ﴿

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبياً فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة ^(١) ما ، وهم قوم كانوا نابغين في نحت بيوتهم في الجبال . ومن يزرُ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح ، وهي منحوتة في الجبال .

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ^(٦) ﴾ (١٤٩) ﴿ [الشعراء]

(١) الناقة : أنثى الجمال ، ونسبت ناقة صالح لله ، لأنها ناقة فقراء الله تبيحهم لبنها ، أو لأنها من ذرية لله وإن الله حاميا وراعيا ، أو لأنها ناقة رسول الله ، ونسبت لله تشريقاً لها . [القاموس القويم] .
(٢) آية : معجزة دالة على صدق نبوة صالح عليه السلام . [كلمات القرآن] .

(٣) ذرُّوها : دعوها أو اتركوها . وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر : فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ مُوسَىٰ وَلِقَوْمَهُ لِبَعْثِنَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٢٥) ﴿ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَا آلِهَتَكُمْ .. ﴾ (٥٥) ﴿ [نوح] أي : لا تترك آلِهَتَكُمْ . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (٥٥) ﴿ [المدثر] أي : اتركني أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقوآن ، وهو أسلوب تهديد ورعييد . وقوله تعالى : ﴿ .. فَرَأَيْنَا تَكَنُّمُ الْعَاقِبِينَ ﴾ (٥٥) ﴿ [التوبة] أي : اتركنا . [القاموس القويم] بصرف .
وجاء في مختصر تفسير الطبري : ﴿ فَذَرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. ﴾ (٥٥) ﴿ [هود] أي : اتركوها تأكل من أرض الله ، ليس عنكم رزقها ولا مؤنتها .

(٤) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. ﴾ (٥٥) ﴿ أي : لا تقاتلوا ولا تقاتلوا بها . [مختصر تفسير الطبري] .
(٥) قال القرطبي في تفسيره (٣٣٧٨/٤) : « قيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكابية » .

(٦) قرء : أشتر ويطر فهو قرء ، وقرء فراخه وفروعة : حلق ومهر ونشط وشغف فهو قرءة . وقرئ : بهما قوله تعالى : ﴿ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ (١٤٩) ﴿ [الشعراء] أي : حاذقين نشطين ، وقرئ : (فارهين) أي : بطرين أشرين . [القاموس القويم] .

هم - إذن - قد حددوا الآية ، وهى خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهى حامل .

وبعد أن وجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطبقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام :

﴿ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. ﴾ (٦٤)

[هود]

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه .

مثلاً نقول : «بيت الله» ، وهذا القول إن أطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه : «بيت الله» فنحن نبني عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكِرَتْ لتكون مُصَلًى ، ولا يُزَاوَل فيها أى عمل آخر .

هكذا تكون الكعبة هى بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هى بيوت لله باختيار خلق الله .

ولذلك فبيت الله - باختيار الله - هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن : فإن أضيف شيء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. ﴾ (٦٤) وهى ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو .

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشيء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه .

ومثال ذلك : ابن أبى لهب^(١) ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله ﷺ وحين اشتد عناد أبى لهب للرسول ﷺ ، قال أبو لهب لابنته : طلق بنت

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتبة . ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨) وقال أيضاً : كانت أم كلثوم بنت رسول الله تحت عتيبة بن أبى لهب ، وكانت رقية تحت أخيه عتبة بن أبى لهب .

شُكْرُهُ

٦٥٣٧

محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء^(١) ، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال : «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه^(٢)» .

فقال أبو لهب : إني لأتوجس شراً من دعوة محمد .

ثم سافر ابن أبي لهب مع بعض قومه في رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً في وسط رجال الركب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله ﷺ ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد ، فهنا تسب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله فقال : «أكلت كلب من كلاب الله» فكان كلب الله أسداً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها يوضح لهم صالح عليه السلام : هذه الناقة هي الآية التي طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتي لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التي طلبوها وهي من جنس الحيوان .

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الجنس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الجنس والحركة والفكر فيصير إنساناً .

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل (ثبت يدا أبي لهب) قال أبو لهب لابنه عتبة رعية : رأسى رزؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد ، وسأل النبي ﷺ عتبة فطلق رعية ، وسأله رعية ذلك وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية - وهي حمالة الخطب : طلقها يا بني لأنها قد صبت فطلقها . وطلق عتبة أم كلثوم ، وجاء النبي ﷺ حين غرق أم كلثوم فقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبني ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فتقتل نفسه ، فقال ﷺ : «أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه» . دلالة النبوة للبيهقي (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩) وعزاه الطبراني بمرسلة وقال : فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف ، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبي عفر بن وصححه . وحسنه ابن حجر في الفتح (٤/ ٣٩) .

(٢) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع التايح . ولقد يكون التكلب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين ﴾ [المائدة] ، فقد دخل في هذا الفهد ، والبازي ، والهيقر ، والشاهين ، وجميع أنواع الجوارح ، [انظر : اللسان مادة : كلب] وانظر فتح الباري (٤/ ٣٩) .

وكان من الممكن أن يأتي لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل في الوقت نفسه .

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها . وقال لهم :

﴿ .. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) ﴾ [هود]

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وإن مسّوها^(١) بسوء ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر .

إذن : فلا بد أن يأتي العذاب القريب إن هم مسّوها .

وهم قد مسّوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ (٦٥) ﴾

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴿

(١) المس : الجنون على تخيل أن الجن مسته كقوته تعالى : ﴿ كَمَا يَقُولُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .. ﴾ [البقرة] أى : المصروع الذى لا يعي مسه وماسه عاسة أو مساساً من كل منها الآخر مضاعفة من الجنائين وقام الزوجان تلاقى بشركتهما ومن جلد كل منهما جلد الآخر ، ومسّه من باب فرح مسّاً أجري يده عليه من غير حائل ومسّه النار أصابته ومسّه المرض : أصابه على إعجاز ، وقوته تعالى : ﴿ لَا يَنْسِفُهُ إِلَّا الْمُظْهِرُونَ (٦٥) ﴾ [الواقعة] أى : لا يمسك بالمصحف إلا الطاهرون من الحداث الأكبر . [القاموس القويم] تصرف ص ٢٢٦ ح ٢ .

(٢) العقر : أصل كل شيء ، وعقرته : أصيبت عقيره ، كعقرته بعاني : ﴿ فَعَقَرُوهَا .. ﴾ [هود] أى : أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . [القاموس القويم] .

(٣) تمتع واستمتع بمعنى واحد . ومتع بالشيء : التمتع به . والمتاع : مصدر يسمى به الشيء المنفعة به ، والمتاع : كل ما يتفع به من طعام وأثاث وأداة ومال . وقال تعالى : ﴿ ذَرُوهْهُمُ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيَهْتِمُوا بِالْأَمَلِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٥) ﴾ [الحجر] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (٦٦) ﴾ [محمد] . [القاموس القويم] يتصرف .

(٤) وعد غير مكذوب : أى : وعد صادق واقع لا محالة وهو من قبيل تأكيد الشيء بنفى نقيضه .

وجلسوا في منازلهم ثلاثة أيام^(١) ثم جاءهم العذاب.

ولفائل أن يقول: ولم الإمهال بثلاثة أيام؟

ونقول: إن العذاب إذا جاء فالألم الحسى ينقطع من المعذب، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا في ذلك الألم طوال تلك المدة حتى يتألموا حسياً، وكل يوم يمر عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذى قال فيه الله تعالى:

﴿... وَعَدُّ غَيْرِ مَكْنُوبٍ ﴾ (٦٥)

الحق سبحانه هو الذي يَعِدُّ ، وهو القادر على إنفاذ الوعد ، ولا تقوم قوة أمامه ؛ لذلك فهو وعد صادق غير مكذوب .

على عكس الإنسان منا حين يَعِدُ بشيء ، فمن الممكن أن يأتي وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع .

لذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٢٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . ﴿٢٣﴾ ﴿

لأنك إن قلت : «أفعل ذلك غداً» ، وتعد إنساناً بلفظائه لكذا وكذا ؛
فقل : «إن شاء الله» ؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمان يأتي ، وإنما
يجب أن يردف من يربط الأمور «بشيئة القوى القادر» حتى إذا لم ينجز
ما وعده ؛ يكون قد خرج عن الكذب ، لأن الله تعالى لم يشأ ، لأن
الإنسان إذا وعده ، فهو لا يعتمد على إرادته ، ولكن شيئة الله تعالى
كل شيء .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٧٩) أن عقربها كان يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت. وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما قاموا ثلاثة أيام، لأن الفصيل دغا ثلاثاً، فاصفرت ألوائهم في اليوم الأول، ثم احمرت في الثاني، ثم اسودت في الثالث. وهكذا في الرابع. وانتظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٩).

والفعل - كما نعلم - يقتضى فاعلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً دافعاً ، وقدرة تمكن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحد شيئاً من كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من بعده أن يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للقاء ؛ فربما انتهى السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على إنفاذ السبب .

إذن : فإذا قال : « أفعل ذلك غداً مع فلان » ؛ يكون قد جازف وتكلم فى شيء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل : « إن شاء الله » ، أى : أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر .

ويعطى الحق سبحانه فى كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على خلقه فهو سبحانه القائل :

﴿ فَعَقَرُوهَا ^(١) فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

وقوله : ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً فى مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد من سفر ، فتتبعهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما نزل على المكين منهم فى أى مكان .

(١) العقر : أصل كل شيء . وعقرته - من باب نصر : أصيبت عقره كقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ (٦٦) ﴾ [الأعراف] أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . وعقرت المرأة : أصيبت بالعقم ، فهى لا تلد نهى عاقر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ عَاقِراً (٦٧) ﴾ [مريم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٤١

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبر رغال»^(١)، وكان يحج إلى بيت الله، فلم يتبعه عذابه في بيت الله؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمن من دخل بيته، فهو سبحانه وتعالى أولى بأن يؤمن من دخل البيت الحرام^(٢)، وظل الحجر الذي سيضرب به، أو الصيحة التي كان عليها أن تأخذه، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه... وعمّ العذاب الكافرين من قوم صالح، وتمنع من في الديار إلا هذا الرجل، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب^(٣).

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذي عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يؤمن إلى أن يخرج، وكانوا يُضَيِّفُونَ عليه، فلا يطعمه أحد، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصانة.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال في البيت الحرام، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية.

(١) عن جابر بن عبد الله قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعفروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعفروها فأخذتهم صيحة أيمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله، فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أبر رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) والحاكم في مستدرکه (٢/٣٢١، ٥٦٧) وصححه إسناده. قال الهيثمي (٥٠/٧): رجال أحمد رجال الصحيح، قلت: هم أيضاً رجال الإسناد الأول.

(٢) يقول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً... (٩٧) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَنَاتٌ لَّهُنَّ مِمَّا يَنْصَرِفُ عَلَيْهِمْ عَصَاهُ لَبِيقًا إِذْ دَخَلُوا مِن بَابِهِمْ فَوُتِّدَ لَهُنَّ أَنَّ يَمْشُوا عَلَى عَوْنِهِمْ فَمِنْهُمْ قَوْمٌ مُّكْذِبُونَ﴾ (٩٨) ولذلك قال تعالى: ﴿لَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُمْسِكُ النَّاسُ مِنْ حَرَمِهِمْ...﴾ (٩٩) [العنكبوت].

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/٢٢٩) أن جارية كانت مقعدة واسمها كلبية ابنة السلق ويقال لها: الذريعة. وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلعت رجلاها، فقامت تسعى كاسرع من شئ، فأنت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت.

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضى زماناً ، ويقتضى مكاناً .
 وكان العرب دائمى الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه
 أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخص البيت الحرام بذلك ، وأراد
 سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لأن
 الحرب قد تكون سجالاً^(١) بين الناس وتوقف فيهم الحمية والأنفة^(٢) والعزة .
 وكل واحد منهم يحب فى ذاته أن ينتهى من الحرب ، ولكنه لا يحب أن
 ينجين أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من
 الزمان ومن المكان ، فحرم القتال فى الأشهر الحرم .
 وما إن تأتى الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر
 الحرم لكنت قد أنزلت بخصمى الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليدارى
 كبرياءه ؛ لأنه فى أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .
 وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربة :
 لو لم يدخل الحرم ؛ لأذقته عذاب الهزيمة .
 وبمضى الزمان وبالمكث فى المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما
 عشقوه فانتهوا من الحرب .
 ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
 مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ١١ ﴾

(١) الحرب بينهم سجال : أى : تصرفت بها بينهم متداولة ، مرة لهم ، وأخرى عليهم . [المعجم الوسيط]
 بتصرف .
 (٢) الأنفة : العزة والحمية والكرامة . [المعجم الوسيط] بتصرف .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٤٣

فحين شاء الحق أن ينزل العذاب بثمود ، بعد مُضى المدة التى أنذروا بنزول العذاب بعدها ، نجى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .
هذا الذل وتلك الفضيحة التى حاقت ^(١) بثمود .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء ، وفى هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ^(٢) (٦٧) ﴾

ويسمى الحق سبحانه هنا العذاب الذى نزل على ثمود «الصيحة» وسمّاه فى موضع آخر «الطاغية» :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلَكُوا بِالتَّائِغَةِ (٦٨) ﴾ [الحاقة]

وسمّاه فى موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه :

(١) حاق به الشيء أو العذاب يحق حيقاً : نزل به وأصابه وأحاط به . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْلَاهِ .. (٢٢) ﴾ [قافراً] .

(٢) جثم جثوماً : نزم مكانه لاصفاً بالأرض . قال تعالى : ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٦٨) ﴾ [هود] .
كتابة عن مرنهم بحالتهم ، فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ (٦٣)

[فصلت]

وفي سورة الأعراف بسماء «الرجفة» ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة^(١) تؤدي معنى الحدث الذي يَدْهَمُ^(٢) ، ولا يمكن الفكاك منه .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا : «وأخذت الذين ظلموا الصيحة ؟» لماذا اختفيت ثاء التانيث من الفعل ، وقال سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. ﴾ (٦٧)

[هود]

ونقول : إن الذي يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن نفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فثاء التانيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح .

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين ، فقال : «أخذ» ولم يقل : «أخذت» .

ثم قال سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (٦٧)

[هود]

أي : يُلْقُونَ على رُكَبِهِمْ وعلى جباههم بلا حركة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) رجف برجف رجفاً ورجفاناً : تحرك واضطرب بشدة . قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ..﴾ (٥٥) [الزمل] والرجفة : اسم مرة من الرجف . قال تعالى : ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرُّجْفَةُ ..﴾ (٦٧) [الأعراف] [القاموس القويم] .

(٢) دَهَمَ أمر دهماً : فجاء وغشبه . ونهَمَ القوم : جاءوه مجتمعين مرة واحدة . وأدهمهم : ساء وأرغمهم . والداهمهم : العدد الكثير . وجيش دهم : كثير . [المعجم الوسيط] .

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ (٦٨) لَشَمُودَ

ومادة «غنى»^(١) .. «غنى» ، أو «غناء» كلها متساوية ؛ لأن الغناء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغنى عن شيء ، قالغنى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين ، والأغنية التي يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها مما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغناء هو للإقامة .
والحق سبحانه يقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا^(٢) كَانَ لَمْ تَغْنِ^(٣) بِالْأَمْسِ .. (٦٤)﴾
[يونس]

أى : كأنها لم توجد من قبل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٦٨)﴾ [هود]

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها : قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٦٧) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٦٨)﴾ [هود] . [القاموس القويم] .

(٢) غنى يغنى غناء وغنى : كثر ماله ، فهو غان وغنى . والغنى : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ .. (٦٢)﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم] .

(٣) حصيد الزرع يحصده حصيداً وحصاداً : قطعه عند نضجه . ويستعمل الحصد مجازاً بمعنى الإهلاك والإبادة . قال تعالى : ﴿.. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (٦٣)﴾ [الأنبياء] أى : جعلناهم كالزرع المحصود ، أى : أهلكناهم . وقال تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (٦٤)﴾ [هود] . أى : منها باق ، ومنها هالك . [القاموس القويم] .

(٤) غشيت الدار بأهلها : عمرت بهم ، قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ .. (٦٤)﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم ١/٦١] .

أى: لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ تُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨) ﴾ ، وهذه هى حيشة العذاب الذى نزل بهم .

وعادة ما تتعدى كلمة «كفر» يالاء ، ويقال: كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ أَلَا إِنَّ تُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨) ﴾ [هود]

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى «كَفَرُوا رَبَّهُمْ» أى: ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به .

وقول الحق سبحانه: «كَفَرُوا رَبَّهُمْ» يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكبر منه فى الذنوب .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلَا بَعْدُ لَتَمُودَ (٦٨) ﴾ [هود]

أى: أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرده من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم .

ويأتى الحق سبحانه فى الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهى جزء من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ^(١) قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ ^(٢) أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ^(٣)﴾

وكلمة «رسل» جمع «رسول» ، والرسول هو المرسل من جهة إلى جهة ، وأي إنسان تبعته إلى جهة ما ؛ اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعى للرسول : أن يكون مُرسلاً من الله .

ويقول الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي ^(٤) مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج]

واصطفاء الملائكة كرسول لتيسير التلقى عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التي تتلقى عن الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه .

لذلك يأتي لنا الله جلّ علاه بالرسول ، فيصطفى من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقى لينزلوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة .

(١) البُشْرَى والبشارة : ما يُعطى للبشر بالخبر السار . والبُشْرَى مصدر بمعنى البشارة والبشرى ، ويطلق كل منها على الخبر السار . وبُشْرَهُ : أخبره بما يسره . قال تعالى : ﴿قَالَ الْبُشْرَىٰ مُنِى عَلَىٰ أَنْ تُبَشِّرَ فِيمَ يُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر] .

(٢) لبث : أقام واستقر . وما لبث أن فعل كذا : ما قعد وما ثوانى ، أى : أسرع إلى فعله بغير أى توان . وقوله تعالى : ﴿.. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ (٧٥)﴾ [هود] أى : أسرع فأتى به ، وهو دليل العناية والحفاوة بالضيف . [القاموس القويم] .

(٣) خَنِيذُ الفحم يحنّده خنذاً : شواء على الحجارة ، فهو خنيز أى : مشوى . قال تعالى : ﴿.. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ (٧٥)﴾ [هود] ، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ في الماء . [القاموس القويم] .

(٤) اصطفاه : اختاره وأقره وفضّله . قال تعالى : ﴿.. يَا مُرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [آل عمران] أى : اختارك وقطّعتك . وقال تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج] أى : يختار الأفضل منهم لرسالاته . [القاموس القويم] يتصرف .

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقى من الله تعالى ،
ولا كل البشر بقادرين على التلقى عن الله أو عن الملائكة .

وهذه الحلقات في الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتؤهل للضعيف أن
ياخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك في حياتهم .

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفىء نور المنزل ، لكننا نترك
ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم
بمناجاة البيت ، فيحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نصاب نحن إن
اصطدمنما بما هو أقوى منا .

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوي .

وكذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأتي بمصطفى من الملائكة ، يتلقى
عن الحق سبحانه ويبلغ الملك من هؤلاء الرسول المصطفى من البشر .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ^(١) أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ^(٢) أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا ^(٣) فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. ﴾ (٥١)

{الشورى}

وهنا يقول الحق سبحانه :

(١) الوحي : يطلق على الأمر الموحى به من إطلاق المصدر على المفعول به .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ .. ﴾ (٥١) {الأنبياء} أى : بالقرآن الذى أوحاه الله إلى . ويطلق
الوحي على الملك الذى أرسله الله إلى الرسول ليبلغه ما أمر الله به ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ
يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا .. ﴾ (٥١) {الشورى} أى : إلهاماً من الله ، وفدفاً وإلقاء فى قلب الرسول فى مرة
وإحفاء . {القاموس القويم} ٢/ ٣٢٥ .

(٢) ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .. ﴾ (٥٢) {الشورى} أى : فاصل بين الألوهية والبشرية ، وبطريقة لا يعلمها إلا الله
تعالى . {القاموس القويم} ٢/ ٣٢٥ .

(٣) ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا .. ﴾ (٥٣) {الشورى} مثل جبريل عليه السلام ، فيوحى إلى الرسول بإذن من الله
بما أمر الله به {القاموس القويم} ٢/ ٣٢٥ .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٥٤٩﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِٔ .. ﴾ (٦٩) ﴿

[هود]

والبشرى هى الإخبار بشىء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهى عكس الإنذار الذى يعنى الإخبار بشىء محزون قبل أوانه .

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم - عليه السلام - البشارة التى جاءوا من أجلها ، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن ، فمن أدب الدخول إلى أى مكان أن نسلم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ^(١) وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. ﴾ (٢٧) ﴿

[النور]

ولذلك يأتى الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

﴿ قَالُوا سَلَامًا .. ﴾ (٦٩) ﴿

[هود]

وجاء سبحانه برّد إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ سَلَامٌ .. ﴾ (٦٩) ﴿

[هود]

ونحن نلاحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء بالرفع ، وقولهم : ﴿ سَلَامًا ﴾ دل على فعل يوضح التجدد ، والرد جاء بكلمة ﴿ سَلَامٌ ﴾ بالرفع ؛ ليدل على الثبات والإصرار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا خِيتِمُ بُحَيَّةٍ فُحِّيرَ أَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّهَا .. ﴾ (٨٦) ﴿

[النساء]

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) استأنس : ذهب توجّسه ، واستأنس به وإليه ، والهمزة والسين والتاء تطلب فى الغالب . فبقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَسْأَلُوا وَيَسْأَلُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. ﴾ (٢٧) ﴿ [النور] أى : حتى تطلبوا الأئس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأئس وتعلموه [القاموس القويم ٢٧/١] .

[مود]

﴿ .. فَمَا لَبِثَ ^(٦٦) أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ^(٦٧) ﴾

والعجل هو ولد البقر .

وهناك آيات كثيرة في القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع من مواضع القرآن ، لا يقصد التكرار ، ولكن لأن كل لقطة في أي موضع هي لقطة مقصودة لها دلائلها وأسرارها ، فإذا جُمِعَت اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام في شمول متكامل .

وعلى سبيل المثال : يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ^(٧٥) ﴾ [الأنعام]

وفي موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية البنيوية التي أرادها لإبراهيم ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ ^(٧٦) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ^(٧٧) قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ^(٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا ^(٧٧) قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ^(٧٨) قَالَ لَا أَكُونُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ^(٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ^(٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ^(٧٩) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ^(٧٩) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٧٩) ﴾ [الأنعام]

(٦) ما لبث أن جاء : أي : أسرع بإعداد الطعام وإحضاره لضيفه ، وهذا فيه دلالة قوية على الجود والكرم الذي انصف به إبراهيم عليه السلام . [القاموس القويم] ينصرف .

(٧) جَنَّ الشيء : بجنه جنًّا : ستره ، ويتضمن الفعل معنى كلمة : أظلم ؛ لأن الظلام يسر كل شيء . وجَنَّ الليل : أظنم . [القاموس القويم] .

(٨) أفَلَ : غاب وغرب تحت الأفق [كلمات القرآن] .

(٩) بازعًا : طالعا من الأفق متشر الضوء . [كلمات القرآن] .

(١٠) نظر الشيء : شقه . ونظر الله الخلق : خلقهم وبداهم فهو فاطر أي ابتداء خلق السموات والأرض . [القاموس القويم ٢ / ٨٤] .

(١١) حنيفًا : مائلاً عن الباطل ، مستقيماً على الحق . [لسان العرب] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٥١

إن هذه الآيات تبين وظيفة الخواص إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه في موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطب عمه باحترام لمكانته التي تساوي منزلة الأب .
يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾ [مريم]

فهذه الآية تبين رفق الداعي مع جمال العرض .

فأصرَّ العمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧)﴾ [مريم]

وبعد ذلك يتبرأ منه لإصراره على الكفر .

ثم هناك لقطة من يُحاجج إبراهيم في ربه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ (١) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وكانت تلك سفسطة (٢) في القول نابجة عن عجز في التعبير ، فليس

(١) حاجبه : نازعه الحجبة ، فهي مفاعلة من الجانبين ، أى : قدم كل منهما حجته ؛ ليقلب بها الآخر . قال تعالى : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُجَادِلُونِي فِي اللَّهِ .. (٥٥)﴾ [الأنعام] [الفاء من القويم ١/ ١٤٣] .

(٢) السفسطة : المغالطة والتفصيل بفرض إتمام الخصم وإسكاته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ... ﴾ (٢٥٨)

[البقرة]

وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتي في موضع آخر من القرآن ليبين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَبْصُرُونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾

[الشعراء]

وفي هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾

[الشعراء]

يقول رب العزة سبحانه في سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥٦) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٧) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٨) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٦٠) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٦١) ﴾

[الأنبياء]

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٥٢

هذه هي التربية الیقينية^(١) التي أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام
ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصل
إلى عبادة مَنْ خَلَقَهُ وَخَلَقَ الْكَوْنُ ، وهو الصانع الذي يضع قانون صيانة
ما يصنع سبحانه وتعالى .
ولذلك نلاحظ قوله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء]

فلم يقل : «الذي خلقني يهديني» لأن هذه دعوى ؛ ستُدعى ، وسيضع
الناس قوانين لأنفسهم ، فبين الحق سبحانه أن الذي خَلَقَ هو الذي يَهْدِي .
وجاء الحق سبحانه بكلمة «هو» لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق
خالقهم فيه ، لكن الأمر الذي لم يُدَّعَ ، لم بات فيه بكلمة «هو» كقوله :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

فما لا شراكة فيه عند الخلق يأتي به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن
في الأمر الآخر يأتي بتأكيد الضمير كقوله :

﴿ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء]

فقد يقال : «إن الطبيب هو الذي يشفيني» ، ولكن ذلك غير حقيقي ؛ لأن
الله سبحانه هو الذي يضع العلم ، وهو الذي خلق الداء وخلق الدواء^(٢) .

(١) اليقين : العلم الثابت الواضح الذي لا شك فيه ، ويقال خير يقين لا شك فيه ، ويكفى به عن الموت ؛
لأنه لا شك فيه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٢٢) ﴾ [الحجر] أي : الموت وقال
تعالى : ﴿ فَسُحَّتْ غَيْرُ نَعِيمٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءً يَقِينٍ (٢٧) ﴾ [النمل] وأيقن الأمر
وأيقن به : علمه علماً ثابتاً واضحاً لا شك فيه [المقاموس القويم ٢/ ٣٧١ ، ٣٧٢] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» أخرجه
البخاري في صحيحه (٥٦٧٨) وابن ماجه في سننه (٣٤٣٩) .

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه في قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ^(١) مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

إذن : فكل مناسبة تأتي لتأكيد معنى من معاني الإيمان تأتي معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام ، وإذا جُمِعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد ﷺ القصص ، فذلك لتثبيت فؤاده ﷺ :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠)﴾ [مروء]

لأن النبي ﷺ يتعرض لكثير من الأحداث ، فيذكره الله سبحانه بما حدث للرسول عليهم السلام ويأتي باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول ﷺ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿.. فَأَنذَرْتُكُمْ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِئِدٍ (٦٩)﴾ [مروء]

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه :

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ^(٢) (٥٢)﴾ [الحجر]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن هذا الموقف :

﴿فَأَوْجَسَ^(٣) مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلَامٍ عَلَيْكُمْ (٢٨)﴾

[الذاريات]

(١) القواعد : جمع قاعدة ، وقاعدة البناء : أساسه الذي يقوم عليه . [القاموس القويم ١٢٧/٢] .

(٢) وجل يوجل : فرع وخاف . قال تعالى : ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ .. (١٠٠)﴾ [الحجر] أى : لا تفرع ولا تخف ، وهو وجل ، أى : خائف . وقال تعالى : ﴿ .. قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾ [الحجر] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (١٠)﴾ [الأنفال] .

(٣) أوجس في نفسه : أضمر الخوف في نفسه . قال تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٢٧)﴾ [طه] وقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨)﴾ [الذاريات] أى : أحس الخزع والخوف . [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٥٥

أى : أحس فى نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجهيد ^(١) ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل ؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس فى نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام .

والشرع لا يتدخل فى الإدراك أو المواجهيد ، ولكنه يتدخل فى النزوع ، إلا فى أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال فى المرأة .

لذلك أمر الشرع بغض البصر ^(٢) ؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فيتزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفورى ؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك .

وهنا بين الحق مواجهيد إبراهيم عليه السلام حين قال :

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ ۝ (٧) ﴾ [هود]

وجاء بالمعنى النزوعى حين قال :

﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ۖ ۝ (٨) ﴾ [هود]

وهو حين التأكيد والتثبيت .

وقال الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ۝ (٩) ﴾ [هود]

وهو : العجل السمين المشوى على الحجارة ؛ لأن الشواء - كما نعلم - قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة .

(١) المواجهيد : جمع مواجهة ، وهى ما يحس به القلب ويجده الإنسان فى نفسه من مشاعر الفرح والحزن والرضا والغضب وغيرها .

(٢) ودليل هذا قوله عز وجل : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْعَامِهِمْ وَبِحَقِّهَا فَرُوهُمْ ذَلِكَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَلَّفَ خَيْرٌ يَمَا يَصْنَعُونَ ۝ (٥٥) ﴾ [التور] .

(٣) أن : بمعنى حتى ، قاله كبار النحويين ، حكاه القاضى ابن العربى ، والمعنى : أى : ما أبطل عن مجيئه بعجل ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٢) .

ومثل ذلك يحدث في البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جداً ، ويحمونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما بضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر ؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم ؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء .

أو أن كلمة : ﴿ .. يَعَجِّلْ خَيْدَهُ ٥٩ ﴾ [هود]

أى : ينزل منه الدهن بعد الشواء .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ٥٩ ﴾ [هود]

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم . ومن عادة الكرام أن يُعَجِّلُوا بإكرام الضيف^(١) ، وتقديم الطعام له ، والكريم هو من يفعل ذلك ؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام ، فإن كان الضيف جائعاً ؛ أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك . ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ٧٠ ﴾

(١) وقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الضيف ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٦٠١٨) وكذا مسلم في صحيحه (٤٧) .

(٢) نكره : استوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . [القاموس الفريسي] نقول : نكرتك وأنكرتك واستكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته . راجع الفرطى (٤/٣٣٨٤) .

(٣) وجس وأوجس : فرح . وأوجس في نفسه : أضمر الخوف في نفسه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ٥٩ ﴾ [هود] أى : أحس الفرع والخوف . وقال تعالى : ﴿ فَأَرَجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُرْسًى ٥٩ ﴾ [طه] . أى : أضمر الخوف في نفسه حين رأى أعمال السحرة . [القاموس الفريسي] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٥٧

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شراً ونكرهم ، أى : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدّمه لهم ، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .

وقد بين ذلك قول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ٥٢ ﴾ قَالَوا لَا تَوَجَلْ إِنَّا مُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ٥٤ ﴾ قَالَوا بَشْرُنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ٥٥ ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٦ ﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٥٧ ﴾ قَالَوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ٥٨ ﴿

[الحجر]

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ٨١ ﴾

[هود]

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

﴿ ... لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ٧٠ ﴾

[هود]

أى : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ، لأن الملك قد يتشكل فى هيئة إنسان ، مثلما تشكل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد ﷺ .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل فى صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

(١) القانترون : الذين انقطع عنهم فى الخبر أو نسوا منه . والقنوط : صيغة مبالغة ، أى : شديد اليأس . معذور الأمان . [القاموس القويم] .

أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إن عفريتاً من الجن تعلّت^(١) البارحة ليقطع علىّ صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَنِيُّ ﴾ (٢٥)

[ص]

فرددته خاسئاً^(٢) .

إذن : إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن نضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

وحُكْم الصورة عند تشكل الجنى هي التى نحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجنى متشكلاً فى صورة إلا لحظة قصيرة ليختفى على الفور ؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمت أن الصورة التى تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به ؛ لذلك فالجن يخافون من البشر .

وإن شاء الخلق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفرغ الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. ﴾ (٧)

[مزد]

(١) نقلت : أى : تعرض لى قلته أى : بغتة .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ومسلم فى صحيحه (٥٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة ﴿نَكِرْهُمْ﴾ تقتضى أن ننظر فى مادة «النون والكاف والراء» وكلمة «نكر» وكلمة «أنكر» كلتاهما مستعملة فى القرآن ^(١).

والشاعر يقول:

وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَأَنَّ الَّذِي نَكِرْتُ ^(٢) مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَامَا
والاستعمال اللغوى يدل على أن المقاييح من ألوان السلوك تسمى
منكرات ، أى: ينكرها الإنسان بفطرته.

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيد
نكرهم ، وأوجس فى نفسه خيفة ، فلاحظوا ذلك ، وقالوا:

﴿.. لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ^(٣)﴾ [هود]

وهكذا عرف لمن جاءوا ، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه
العذاب ، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول: إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت
له: ألا تنضم ابن أخيك إلى كنفك ^(٤) هنا؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب.

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّتْ من
فراستها ^(٥) ، وتيسمت لأنها تنبئت إلى هذه المسألة.

(١) كلمة «نكرو» وردت فى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا رَأَيْتُ لَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرْهُمْ.. ^(٦)﴾ [هود]. وقال تعالى عن
سليمان: ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرَشُهَا.. ^(٧)﴾ [النمل]. أما أنكر ، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ لَيَاتِهَ قَائِي آيَاتِ
اللَّهِ تَنَكَّرُونَ ^(٨)﴾ [شأنهم] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ الْأَشْرَابِ مَنْ يُنَكِّرُ بَعْضُهُ.. ^(٩)﴾ [الرعد] ، وقوله
تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُكُمْ أَكْفَارُونَ ^(١٠)﴾ [النحل].

(٢) جمع الشاعر بين اللغتين . ويقال: نكرت لما تراه بعينك وأنكرت لما تراه بقلبك . قاله القرطبي فى تفسيره
(٣٣٨٤/٤).

(٣) الكنف والكلفة: ناحية الشئ.. وكنف الرجل الرجل جعله لى كنفه أى: فى حفظه وإعائته. وكنفك
الرجل: حطته وضيقه. [راجع لسان العرب].

(٤) الفراسدة: الفطنة فى النظر والشبه والتأمل للشئ. والبصيرة: أن تتوهم أمراً ما فى شخص ما
فيكون كما توهمت ، وهذا يكون بأحد أمرين:

١- ما يرفعه الله فى قلوب أوليائه بنوع من المكاشفات.

٢- ما يتعلم بالذلاتى والتجارب فتعرف بها أحوال الناس.

[راجع لسان العرب] مع زيادة من عندنا.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۚ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ۚ (٣٢)
مُسَوِّمَةً ^(١) عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۚ (٣٣) ﴾

[الذاريات]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَمْرًا تَقَابُحَةً فَفَشَلَتْ بِفَشْرِئِهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ
وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۚ (٣٤) ﴾

فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف ^(٢) ، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم ، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً ، وبشّرتها الملائكة بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب .

فبعد دفع العذاب ، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين ، تأتي البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان ^(٣) إليه ، وإن كان أوانها فدغات ؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من

(١) ﴿ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۚ (٣٣) ﴾ [الذاريات] أى : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . وسومٌ على القرم : أعار عليهم نعات نهبهم بالإفساد والإهلاك . قال تعالى : ﴿ ... يُعَذِّبُهُمْ رَبُّكُمْ بِخُمْسَةِ أَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُّسَوِّمِينَ ۚ (٥٦) ﴾ [آل عمران] أى : معلّمى أنفسهم وخيلهم بعلامات ، أو مقيرين على الكفار . وقوله تعالى : ﴿ وَالْغَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ ۚ (٥٧) ﴾ [آل عمران] أى : الرسالة للرمى ، أو المعلمة بعلامات . وقوله تعالى : ﴿ نَسِيتُهُمْ فِي رُجُومِهِمْ ۚ (٥٨) ﴾ [الفتح] أى : علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم] .

(٢) هى : سارة امرأة إبراهيم عليه السلام من قومه ، وهى أم إسحاق عليه السلام جاءها الولد وهى فى سن كبيرة ، بعد أن ولدت هاجر - لإبراهيم - إسماعيل عليه السلام .

(٣) عن سهل بن سعد أن أباً أسيد الساعدي أنى رسول الله ﷺ فدعاه فى عرسه فكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهى العروس . قال : تدرون ما سمعت رسول الله ﷺ ؟ أنقعت ثمرات من الليلة فى تور ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٧٦) ، وأحمد فى مسنده (٤٩٨/٣) وابن ماجه فى سننه (١٩١٢) .

(٤) صبا يصبو صبواً وصبواً : مال وأحب . قال تعالى : ﴿ ... وَلَا تُعْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۚ (٣٤) ﴾ [يوسف] . أصبو : أميل . وصبا إلى الشيء : حنّ واشتاق إليه . [القاموس القويم] .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه :

﴿قَالَتْ يَوَئَلَيَّ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢)

والشيء العجيب هو الذي يخالف نوااميس الكون المعتادة ، ولكن هناك فرقاً بين النوااميس^(١) وخالق النوااميس ، الذي هو قادر على أن يخرق النوااميس .

وها هو سيدنا إبراهيم يقول في موضع آخر :

﴿أَبَشِّرْهُنِي عَلَى أَنْ مَسِّيَ الْكِبَرُ ..﴾ (٥٤) [الحجر]

ولم يأت هنا يقول امرأة إبراهيم التي قالت :

﴿يَا وَيَلَيَّ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ..﴾ (٧٢) [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة ؛ لأن البعل هو الذي يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد .

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوموا به ، وهو الإحساس بالأثوثة والإخصاب ، وهو أهم ما تطلبه المرأة .

وأيضاً سُمي النخل بالبعل ، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه ، وإنما يكفي النخل بما يمتصه من الأرض ، وما ينزل له من مطر السماء^(٢) .

(١) البعل : الزوج والزوجة ، فهو مصدر سمي به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعلولة . قال تعالى : ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ..﴾ (٥٤) [هود] . وقال تعالى : ﴿وَبَعُولَتُهُنَّ أَخَوُ بَرَدِهِنَّ ..﴾ (٥٥) [البقرة] أي : وأزواجهن أخق بردهن بعد الطلاق الرجعي ، وبعد طلقه بائنة أو طلقتهن بائنتين بعقد جديد . [القاموس القويم ١/ ٧٦] .

سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . والمباعدة : المباشرة . والبعل : النكاح . تبعلت المرأة : أطاعت بعلها . وتبعلت له : تزينت . وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعة لزوجها منجبة له . [لسان العرب] .

(٢) النوااميس : القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون .

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب (مادة : ب ع ل) : استبعل الموضع والنخل : صار بعلاً واسخ العروق في الماء مستغنياً عن السقي وعن إجراء الماء في نهر أو عائنور إليه . (العائور : هو البشر)

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٦٣

وكذلك سُمِّي نوع من القول «بالقول البعلی»، وهو الذي لا يحتاج إلى إرواء.

إذن: فالبعل هو الزوج الذي يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره في أي شيء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شيء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ

وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٢﴾﴾

والمعجب - إذن - إنما يكون من قانون بشري، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة في أن يحرق الناموس . . . ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية.

والقصة التي حدثت لإبراهيم عليه السلام وأمراته تكررت في قصة زكريا عليه السلام، والحق سبحانه هو الذي أعطى مريم عليها السلام إشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها:

﴿أَتَأْتِي^(١) لَكَ هَذَا . . . (٣٧)﴾ [آل عمران]

فقالت مريم:

(١) أتى: اسم استفهام بمعنى: من أين، وتأتى بمعنى: كيف مثل قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا خِرْتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . . . (٣٧)﴾ [البقرة] أى: كيف شئتم بشرط اتباع الفطرة المستقيمة التي تشير إليها الآية في قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا خِرْتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . . . (٣٧)﴾ [البقرة] وجاءت في بعض الآيات صالحة للسمعين مثل قوله تعالى: ﴿أَتَى يَكُونُ لِي غَلَامٌ . . . (١٠)﴾ [آل عمران]، [القاموس القويم ص ٤١ ج ١].

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٦٤

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

[آل عمران]

إذن: فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم ، لا بين الخالق - سبحانه - وخلقهم.

ولذلك يأتي قول الحق عز وجل:

[آل عمران]

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴾ (٣٨)

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكر بقول مريم:

[آل عمران]

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

فمن حقه أن يدعو:

[آل عمران]

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً .. ﴾ (٣٨)

فاوحى له الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (٣٧)

[مريم]

أى: أن الحق سبحانه لم يرزقه الاين فقط ، بل وسماء له أيضاً باسم لم يسبقه إليه أحد.

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر ، فإن كان بعض البشر قد سماوا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الفأل^(١) الحسن في أن يعيش الابن.

(١) الفأل: ضد الطيرة ، والجمع: فتول وأقول. ومنها: التفاوض ، وهو الاستبشار بالخبر ، [مختار القاموس] بتصرف.

شُكْرُهُ

٦٥٦٥

لكن الحق سبحانه حين يسمي اسماً ، فقد سماه «يحيى» ليحيا بالفعل ،
ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتي الموت ؛ لذلك قُتل^(١) يحيى وصار شهيداً ،
والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتي إليه موت أبداً^(٢) .

وهذا عكس تسمية البشر ؛ لأن الإنسان قد يسمي ابنه «سعيد» ويعيش
الابن حياته في منتهى الشقاء .

والشاعر يقول عن الإنسان الذي سمى ابنه «يحيى» :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ لِرَدِّ قَضَاءِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلٌ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هي التي نهت إلى قضية الرزق
من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن^(٣) وأن
زوجه عاقر .

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل
شيء أزلاً^(٤) ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه
سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتي قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) قال ابن كثير في قصص الانبياء (ص ٣٩٠) : «ذكروا في قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك
الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج بعض سحارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن
ذلك فبقى في نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى . فوهبه لها
فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها» .
(٢) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا تَحْزَنْ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْثَلُ بِلْ أَحْيَاءٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ
(١١٩)﴾ [آل عمران] .

(٣) قال زكريا : ﴿... رَبِّ إِنِّي وَهِنَ الْعَظْمِ مِنِّي وَانْتَقَلَ إِلَيَّ الظُّلُمُ لَمْ أَكُنْ بِدُعَاكَ رَبِّ شَهِيداً (١)﴾ [مريم] وقال
بعد تبشيره يحيى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَكُونُ فِي غَلَامٍ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٢)﴾
[مريم] قال مجاهد : عتياً يعني : تحول العظم . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٢) : «لم يبق فيه لقاح
ولا جماع» .

(٤) الأزل : القدم . أصلها «لم يزل» ، قال أبو منصور : ومنه قولهم : هذا شيء أزلي ، أي : قديم ، (اللسان
العرب) .

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ... (٩)﴾ [مريم]

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى قرّر ، فلا رادّ لما أَراده ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿...هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

وهكذا توالى الأحداث بعد أن نهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خرق النواميس التى تعرضت هى لها بعد ذلك ، حينما تمثّل لها الملك بشراً ، وبشرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهى التى لم يمسسها بشر - فيذكرها الملك بأنها هى التى أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق فى أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

﴿...إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران]

وكان لا بد من طمأننتها ؛ لأن إيجابها للمسيح عيسى - عليه السلام - دون أب هى مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهى آمنة ، غير مرتاب فيها ولا متهمّة .

والآية التى نحن بصددّها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدره الله تعالى وأرادّه ، خلافاً للناموس الغالب فى خلقه ؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء فى غير الأوان المعتاد ^(١) .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

(١) قال الفرطى فى تفسيره (٢٣٨٩/٤) : « من تلك الهبات والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة » . يتصرف

﴿رَحِمْتُ اللَّهُ بِبَرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .. (٧٣)﴾ [هود]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿.. إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)﴾ [هود]

أى : أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده ، فلا حد لخيره وإحسانه ، ولله تعالى مُطلق صفات المجد .

وكلمة «حميد» - فى اللغة - من «فَعِيل» وتَرَدُّ على معنيين : إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا : «الله رحيم» بمعنى أنه راحم خلقه . وإما أن تكون بمعنى مفعول ؛ كقولنا : «قتيل» بمعنى «مقتول» .

وكلمة «حميد» هنا تأتى بالمعنيين معاً : «حامد» و«محمود» ؛ مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه «الشكور» ؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته . والله سبحانه «حميد» ؛ لأنه حامد لمن بطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه «محمود» ممن أنعم عليهم نعمه السابغة .

والله سبحانه هو المجيد الذى يعطى قبل أن يُسأل .

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل ، فأخرج كيساً ووضع فيه يده ، ثم رجع إلى أهله يبكى ، فقالت له امرأته : وما يبكيك وقد أدبت له حق سؤاله ؟ قال : أنا أبكى لأنى تركته ليسأل ، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا ، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل ، ومثال ذلك : هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين فى بطن أمه ، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال .

والحق سبحانه وتعالى في كل لقطة من لقطات القرآن يعطى فكرة اجتماعية مأخوذة من الدين ، فيها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الخنيز للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال : لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، فلك أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه في تناول الطعام .

ويروى بعض العارفين ^(١) أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ألا تأكلون ؟ قالت الملائكة : لا نأكل إلا إذا دُعينا ثمن الطعام . فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحى الإلهام : ثمنه أن تُسموا الله أوله ، وتحمده آخره ^(٢) .

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت في أوله : «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا انتهيت منه وقلت : «الحمد لله» ؛ تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨)

[التكاثر]

وهكذا بين لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هي مكلفة بتعذيب قوم لوط .

(١) هو عمرو بن دينار الجمحي بالولاء ، أبو محمد الأثرم ، فقيه ، كان مفتى أهل مكة ، فارسي الأصل ، مولده بصنعاء ٤٦ هـ ووفاته بمكة (١٢٦ هـ) عن ٨١ عاماً . قال شعبة : ما رأيت أثبت في الحديث منه .
الأعلام للزركلي (٧٧/٥) .

(٢) ذكر هذا الأثر السيوطي في اندر المشور (٤/ ٤٥٠) وفي آخره أن الملائكة نظرت لبعضها البعض وقالوا : «هنا اتخذك الله غليلاً» . وعزه لابن المنذر عن عمرو بن دينار .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَ نَهُ الْبَشَرِىَّ ^(١)

يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ^(٢) ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّةً من مقابل ، وتعطيه حُجَّةً ، لتصل إلى حق .
والجدل يختلف عن المراء ^(٣) فالمرء يعنى أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل
لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق .

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون
الجدال بالتي هي أحسن .

وهنا يبين لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته
البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بعلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم
ذاهبون لتعذيب قوم لوط :

﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ^(٤) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ^(٥)

مُسَوَّمَةً ^(٦) عِنْدَ رَبِّكَ .. ^(٧) ﴾ [الذاريات]

(١) راعه الشيء يروعه ، روعاً : أصاب روعه ، أى : قلبه ، والروع : القلب - بضم الراء - وقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ .. ^(٤١) ﴾ [هود] أى : ذهب عنه الخوف والغزع . [القاموس القويم] .

(٢) الجدل : المنازعة فى الرأى وثلة الخصومة . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جِدْلاً ^(٤٢) ﴾ [الكهف] أى : أكثر مبالغة فى الخصومة وتأيداً للباطل بغير حق . [القاموس القويم] .

(٣) مراء يماريه بمراء ومراء : ناظره وجادله . قال تعالى : ﴿ .. فَلَا تَمَارِقِهِمْ ^(٤٣) إِلَّا مَرّاً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ

فِيهِمْ أَحَدًا ^(٤٤) ﴾ [الكهف] أى : فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أهل الكهف إلا جدالاً واضحاً يسيراً .

وقال تعالى : ﴿ قِيَامُ آيَاتِكَ تَفَارِقُ ^(٤٥) ﴾ [الجم] أى : تشكك . [القاموس القويم] .

(٤) مسومة : أى : عليها خواتم بأسماء المعذيين . قال تعالى : ﴿ وَالْعِلَلُ الْمُسَوَّمَةُ .. ^(٤٦) ﴾ [آل عمران]

أى : العلامة بعلامات ، أو الرسالة للرعى . وقال تعالى : ﴿ سَيُجَاهِدُ فِي وَجْهِهِمْ .. ^(٤٧) ﴾ [الفتح] ،

أى : علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم] .

ومجادلة سيدنا إبراهيم في عقاب قوم لوط ، لم تكن رداً لأمر الله ،
ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون ؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام ؛
قلب رحيم .

ولذلك يأتي الحق سبحانه بالعلة في المجادلة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾^(١)

إذن : فالعلة في الجدل أنه حلیم لا يُعَجِّلُ بالعقوبة ، وأواه ؛ أي : يتأوه
من القلب ، والتأوه رقة في القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعني
الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو
رحمة ورأفة .

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم
لوط لعلهم يؤمنون ، وتأوّه هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجهلة بما
ينتظرهم من عذاب أليم .

وقال الحق سبحانه في صفات إبراهيم أنه «منيب» أي : يرجع إلى الحكم
وإلى الحق في قضاياہ .

ألم يقل الحق سبحانه في موضع آخر من كتابه العزيز :

(١) أوّاه : صيغة مبالغة ، أي : كثير التأوه ، وغلب على معنى التضرع إلى الله في العبادات ، والندم على
الذنوب . [القاموس القويم] .

(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه ، وقاب ، وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ ... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ ﴾^(١)
﴿ هود ﴾ [أي : إليه أتوب وأرجع ، ومنيب : اسم فاعل . وقال تعالى : ﴿ مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْقَلْبِ
وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾^(٢) [أي : بقلب راجع إلى الله . وجاء جمع «منيب» في قوله تعالى : ﴿ مِنْنِيبِينَ
إِلَيْهِ وَأَتَقَوْهُ ... ﴾^(٣) [البرزخ] [أي : راجعين إلى الله تائبين إليه ، أي : كونوا تائبين وكونوا متقين .
[القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٧١

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ ^(١) وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. ﴾ (١١٤)

[التوبة]

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأناب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. ﴾ (١١٤)

[التوبة]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خراطرتها عنها والتي أوضحت تأوّه إبراهيم لله عز وجل وتأوّهه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - في الجدل ما قاله الحق سبحانه في سورة العنكبوت :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنِ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ^(٢) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. ﴾ (٣٢)

[العنكبوت]

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبي من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿ .. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُجِيبَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ^(٣) ﴾ (٣٢)

[العنكبوت]

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعده : أخبره أنه سيحفظه له ، أو سيعطيه إياه ، وهو فعل يتعدى المفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به .

والموعدة : مصدر ميمي ، واسم زان أو مكان . قال تعالى : ﴿ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. ﴾ (١١٤) [التوبة] أي : عن وعد واحد في مرة واحدة . [القاموس الفريسي ٢/ ٣٤٢] .

(٢) من الغابرين : أي : من اليافين المتخلفين في القرية للهلاك . أو كانت من الماضين الذاهبين أي : من الهالكين . يقال : مضى وذهب بمعنى مات . وهلك . [القاموس الفريسي] .

وكان إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، يبيح له الجدال عن أهل القرية جميعاً .

ويتلقى إبراهيم الرد هنا في سورة هود في الآية التالية :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٧٦)

وقول الملائكة :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. ﴾ (٧٦) [هود]

يعنى إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُتَّهٍ ومحسوم ، فهم قد جاءوا ليتفلخوا ، لا ليهددوا ؛ وأبلغوا إبراهيم :

﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .. ﴾ (٧٦) [هود]

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه « مُنْهَبٌ » يعلم أن أى أمر من الله تعالى لا يد أن يُنْقَدَ ، فلا بد أن يتقبل - أمر الحق سبحانه :

﴿ .. وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (٧٦) [هود]

أى : لا أحد يقادر على أن يرد عذاب الله ، وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب^(١) ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود^(٢) .

(١) أَعْرِضْ : فعل أمر من الإعراض ، وهو الانصراف عن الشيء . وأعرض عن الشيء : ولَّى متصرفاً عنه غير راغب فيه . قال تعالى : ﴿ أَعْرِضْ وَتَأْتِ بِحَاجَّتِهِ .. ﴾ (٥٩) [الإسراء] . [القاموس القويم ١٦ / ٢] .

(٢) جاء هذا في حق قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وذلك أن الله ترحمهم بالملك والتمتع في دارهم ثلاثة أيام بعدها يأتيهم عذاب الله بسبب عقرهم الناقة . يقول سبحانه : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ فِثْمُومٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَذَابٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ (٥٢) [هود] .

(٣) غير مردود : أى : غير مصروف عنهم ولا مدفوع . [تفسير القرطبي ٤ / ٣٣٩٢] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٧٢

وَيُرَوَّى^(١) أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جِدَالِهِ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ لُوطٌ خَمْسُونَ قَدْ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، أُنْعَذِبُونَهُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ عَشْرَةٌ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، أُنْعَذِبُونَهُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ وَاحِدٌ هُوَ لُوطٌ؟ فَرَدَّتِ الْمَلَائِكَةُ:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ..﴾ (٤٢) [العنكبوت]

وانتهى الجدل ، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)

أى: أن لوطاً شعر بالسوء ، وضاق بهم ذرعاً ، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وتدفع بها الأشياء ، وأى شيء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به ، وإن لم تطله ذراعك ؛ قلت : «ضقت به ذرعاً» أى: أن يدي لم تطله ، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي ، وفوق ما أتاني الله من الآلات ومن الحيل .

وما الذى يسمى لوطاً فى معنى الملائكة ؟

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٦٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حذيفة بن اليمان .

(٢) يقال : ضاق بالامر ذرعاً ، وذراعاً: أى: لم يطقه ولم يقوَ على احتماله واشتد عليه بسبب الضيق . قال تعالى: ﴿.. وضاق بهم ذرعاً﴾ (هود) أى: اشتد عليه الضيق بسبب وجودهم خوفاً عليهم من قومه . [القاموس القويم] ، وضاق بهم ذرعاً : ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .

(٣) يوم عصيب : شديد شدة وبلاؤه . [كلمات القرآن] .

قيل: لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال ، فحين يُقال: «فلان ملاك» ، أى: أن شكله جميل^(١).

ولوط - عليه السلام - يعلم أن آفة قومه هي إتيان الذكور ، وامراته تعلم هذه الآفة ، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط ، فهي ترحب بتلك الآفة .

ويُقال: إنها تنبّهت لمجيء الرجال الحسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح المنزل ، وصفقت لعل القوم يتبّهون لها ، فلم يلتفت لها أحد ، فأشعلت ناراً فانبه لها القوم ، وأشارت لهم بما يعير عن مجيء ضيوف يتميزون بالجمال^(٢).

وهنا قال لوط عليه السلام:

﴿.. هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾

[هود]

أى: يوم شديد المتاعب.

ويقال: «يوم عصيب» و «يوم عصبصب»^(٣)، ومنه «العُصْبَةُ»^(٤) وهم جماعة يتكاثفون على شيء، ويقوى الفرد بمجموعهم، وقد صدق ظن لوط.

وفى هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك:

(١) وهذا هو ما قاله صريحيات يوسف عليه السلام ، عندما أدخلته امرأة العزيز عليهن: ﴿.. فَلَمَّا رَأَتْهُ أَعْرِضَتْ وَتَطْعَمُ أَبْدِينَ رَقْلَنَ حَاضِ لَلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٥٠)﴾ [يوسف].

(٢) وتلك كانت عيانتها لزوجها لوط عليه السلام ، أنها كانت تدل قومه على أهياف لوط ليفعلوا معهم المنكر ، وقد قال رب النزة عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ غِطَّتَيْنِ مِنْ عِبَادَةٍ مَنَاحِنٍ فَمَا تَأَمَّنَا .. (٥٦)﴾ [التحریم].

(٣) قال الفراء: يوم عصيب ، وعصبصب: شديد ، وقيل: هو الشديد الحر . وقال أبو العلاء: يوم عصبصب بارد ذو سحاب كثير ، لا يظهر فيه من السماء شيء . [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

(٤) العصبية والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين . قال تعالى: ﴿وَتَحْنُ عُصْبَةٌ .. (٥٦)﴾ [يوسف] قال الأخفش: والعصبية والعصابة جماعة ليس لها واحد . [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾^(١)
 قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ
 فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ^(٢) ﴿٧٨﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. ﴾ (٧٨)

أى : يسرعون إليه فى تدافق ، والإنسان إذا لم يكن قد مرّن على الشر وله به
 دربة ، يكون متردداً خائفاً ، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط .

وكلمة «يهرعون» هى من الالفاظ العجيبة فى اللغة العربية ، والفاظ
 اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل ، كقولنا : «يضرب زيدُ عمرو» أى : أن الضارب
 هو «زيد» والمضروب هو «عمرو» ، ونقول : «يُضْرَبُ عمرو» أى : أننا بينا
 الفعل للمجهول ، وسمى عمرو «نائب فاعل» .

أما فى الفعل «يُهْرَعُ» فلا نجد أحداً يقول : «يُهرع» إلا ويكون بعدها فاعل
 وليس نائب فاعل ، مثلها مثل الفعل «جُنَّ» فهل هناك من يأتى لنفسه
 بالجنون ، أم أن الجنون هو الذى جاءه ؟ لا أحد يعرف سبب الجنون ؛
 ولذلك بُيئت الكلمة للمجهول ، ولكن ما يأتى بعدها يكون فاعلاً . وهذا
 من إعجاز البيان القرآنى .

(١) الهرع : المشى فى اضطراب وسرعة ، وأقبل بهرع ، وأهرع - مجهولاً - فهو مهرع : يهرع من ضعف ،
 أو خوف . والمهروع : المجنون يضرع . [مختار القاموس] .

(٢) الرشيد : من أسماء الله الحسنى ، وتم يوصف الله به فى القرآن . ورشد يرشد رشداً ورشاداً : أصاب
 وجه الصواب والخير والحق . والرشد : ضد النى والضلال . والرشد : ضد السفه وسوء التدبير . وبلغ
 رشده : بلغ كمال عقله وحسن تصرفه للأمر . قال تعالى : ﴿ قَدْ قَبَّلَ الرَّشْدَ مِنْ الْقَمَرِ .. ﴾ [الزمر : ٢٢]
 [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. ﴾ [البقرة : ١٢٨] [الأنبياء] أى : هديناه إلى الحق والخير
 والصواب . وقال تعالى - ما جاء على لسان الكفار - : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [مرد] .
 وقصد بهم الاستهزاء بنى الله شعيب - عليه السلام - بوصفه بأنه وحده من بينهم الخليم الرشيد ، وهم
 يعتقدون عكس ذلك . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] يتصرف .

وكذلك نقول: «زُكِمَ فلان» فمن الذى أصابه بالزكام؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام.

إذن: فإذا جُهِلَ الفاعل فتجن نبى الفعل للمجهول ، ولكن ما يأتى بعده يكون فاعلاً.

وقوله تعالى:

﴿يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨)﴾ [هود]

يُبين أنهم أقبلوا باندفاع ، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه ؛ لأن كلاً منهم له دربة على ذلك الفعل المشين ، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تهيب ، باندفاع من نفسه ودفع من غيره ، مثلما تقول: «سنوزع تمويناً بالمجان» ؛ هنا تجدد الناس يتدافعون ، كل منهم من تلقاء نفسه ، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء.

وقوم لوط كانوا على دربة بتلك الفاحشة.

يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. (٧٨)﴾ [هود]

أى: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة ، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم ، ولا حياء يمنعهم عنها ،

فالحياء يعنى أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها ، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة ، فلن يخجل أحد من الآخر^(١).

(١) وليس أدل على حبيهم الشديد لهذه الفعلة وعدم حيائهم من إتيانهم إياها أنهم كانوا يأتون بها فى ناديتهم وهو مجلسهم حيث يجتمعون للحديث والتشاور ، قال الحق: ﴿أَتَيْتُكُمْ فَاتُّبِتُ الْبُحَارَ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] وما كانوا يأتونه أيضاً فى مجالسهم: الضراط ، والصغير ، ولعب الحمام ، والسخرية من أبناء السبيل ، [القاموس القويم] ، والدر المشور للسيوطي [١٦١/٦].

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٧٧

وماذا يكون موقف لوط - عليه السلام - في هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفي كوكبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكر لوط - عليه السلام - في أن يصرفهم انصرافاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .. ﴾ (٧٨) [هود]

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العرف في أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد زوج رسول الله ﷺ إحدى بناته لعتبة بن أبي لهب ، وأخرى لأبي العاص بن الربيع؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل : إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين؟

وقيل : إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيههم بهذا الزواج ؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفي هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. ﴾ (٧٨) [هود]

وكلمة «ضيف»^(١) - كما نعلم - جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق

(١) ضائه بضمه ضيفاً : نزل عنده فهو ضائف أو ضائف : مضيف . والضيف : مصدر يضيف به بلفظه فلا يتى ولا يجمع ولا يؤث ، وقد يجمع على ضيوف ، وضيوفان . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (٥٥) [الحجر] أي : هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني بالتعدى عليهم ، و«ضيف» هنا بلفظ المفرد وهو لعدد من الملائكة . [القاموس القويم] .

أيضاً على الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول : « هذا ضيفي » ، وإن جاء اثنان تقول : « هذان ضيفي » ، وإن كانت امرأة تقول : « هذه ضيفي » ، وإن كانتا امرأتين تقول : « هاتان ضيفي » ، وإن جاءت جماعة تقول : « هؤلاء ضيفي »^(١) .

والحق سبحانه يقول :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (١٤) [الذاريات]

وهناك ألفاظ أخرى كذلك في اللغة مثل : كلمة « طفل »^(٢) فهي مفرد ؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة « طفل » وُجِدَ لها جمع هو « أطفال » .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا يَدِينُ زَيْنَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدِينُ زَيْنَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاؤَ بُعُولَتِهِنَّ^(٣) أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونَّ (١٤) ﴾ [الحجر] .

(٢) الطفل (بكسر الطاء) : هو الصغير من كل شيء ، والطفل من الإنسان : الولد ما دام صغيراً . ويستوى فيه المفرد وغيره ، وجاء الجمع في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّبَاءِ . . . ﴾ (٢٣) [التور] أي : الأطفال ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . . ﴾ (٥) [الحج] أي : أطفالاً . وجمع الطفل : أطفال ، وجاء في القرآن : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا . . . ﴾ (٥٩) [النور] [القاموس القويم ١/ ٤٠٣] يتصرف .

(٣) بعولتهن : أزواجهن .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٧٩

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ^(١) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ
لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴿

[النور]

إذن: فكلمة «طفل» تطلق أيضاً ، ويراد بها الجماعة.

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه^(٢) في ضيفه ، والخزى
فضيحة أمام النفس وأمام الناس .

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيء ما لم يره أحد ،
أما أن يراه الناس ، ففي هذا فضح له ؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة
الناس ، والهوان أن يكون العمل السيء بينه وبين نفسه .

ويتساءل لوط عليه السلام :

﴿ .. أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (٧٨) ﴿

[هود]

أي : ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة^(٣) ، يمنع هذه
المسألة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) الإرب: الحاجة التي تقتضى الاحتيال لها وكذلك الأربة والمأرب . قال تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ
مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ .. ﴾ [النور] (٣١) ﴿ أي : غير ذوي الحاجة إلى النساء ، أي : الذين ليس لهم شهوة
لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . وقوله : ﴿ .. وَلِي فِيهَا مَكْرِبٌ أُخْرَى ﴾ (٣٨) ﴿ [طه] أي : حاجات وأغراض
كثيرة أخرى كأنشاء ضرر أو غير ذلك .

(٢) أخزاه فلان : أهانه وفضحه . قال تعالى : ﴿ وَنَا إِلَكَ مِنَ النَّارِ فَتَقَدْ أَخْرَبْنَا .. ﴾ [آل عمران] (١٣٢) ﴿
ومن دعاء الفران : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُخْرُونَ ﴾ (٨٨) ﴿ [الشعراء] ، وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِيهِ
صَلْبِي .. ﴾ [هود] (٥٨) ﴿ أي : لا تهينوني ولا تنفضحوني بإهانة ضيفي ، وحذقت ياء التكلم من كلمة
تخزونى رسماً ونطقاً وتخفيفاً . [القاموس القويم ١/ ١٩٢] .

(٣) ومن معاني الرشد أيضاً أن يكون شديداً بأسر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويكون صالحاً مصلحاً هادياً
مستقيماً مرشداً حكيماً . انظر تفسير القرطبي [٤/ ٣٣٩٦] .

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٣٧)

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفقهاء من قوم لوط ؛ فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا في بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمحيثنا .

وكان هذا يعنى الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا فى هيئة رجال يلغوا مبلغ الكمال فى الجمال .

ويأتى الحق سبحانه برد لوط عليه السلام :

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَرْءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٣٨)

وساعة نقرأ كلمة «لو» فهذا هو التمنى ، أى : رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولنا : «لو أن زيدا عندك لجتت» ، لكن نجد هنا شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : «لو أن لى بكم قوة لفعلت كذا وكذا» .

(١) اختلف العلماء فى المقصود بـ «بنات» : هل هن بنات لوط فعلاً من صلبه ؟ أم أن المقصود بهن نساء قومه ، فالنبي أب لأمته نساء ورجالاً . انظر تفسير ابن كثير (٤٥٣/٢) والقرطبي (٣٣٩٥/٤) والقرطبي المشهور للسير (٤٥٧/٤) .

(٢) قال ابن كثير : «أى : إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن . يستهينن . وبنات لوط .» تفسيره (٣٣٩٧/٤) : «أن قوم لوط خطبوا بناته فردهم ، وكما . استهينهم أن من رذ فى خطبة امرأة لم يحل له أيداً» .

(٣) «أوى» المكان ، وأوى إليه يأوى أوياً : نزله والتجأ إليه . «ال تعالى» : «إذ أوى القبط إلى الكهف ..» (٥) ﴿ال كهف﴾ أى : نزله والتجأوا إليه . (القاموس القويم)

(٤) ركن الشيء : جانبه الأخرى . وقوله تعالى : ﴿... أو أوى إلى ركن شديد﴾ (٥) ﴿مرد﴾ أى : ألبنا إلى حصن قوى يحمينى ، أو إلى رجل قوى يحمينى ويصرنى عليكم كأنه ركن ممتنع حصين . (القاموس القويم ١/ ٢٧٦) .

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له : إن ركنك لشديد^(١) ، ولذلك قال :

﴿ .. أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٨٠) ﴿

[هود]

والشيء الشديد هو التجمع فجمعاً يصعب فصله ، أو المختلط اختلاطاً
ممزج يصعب فصله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء ؛ فلما أن تجمع أشياء أجناسها
منفصلة ، ولكنك تربطها ربطاً قوياً ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة
برباط قوى ، لكن كليهما - المصلوب والشجرة - منفصل عن الآخر وله
ذاته ، وهناك ما يُسمى خلطاً ، وهناك ما يُسمى مزجاً ، والخلط هو أن
تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ،
أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء المترجة ببعضها .

ومثال ذلك : أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع خبثات من الفول
السوداني ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض ؛ لأنك جمعتهما
على استئصال . ولكن إن قُمْتَ بعصر ليمون على كروب من الماء المحلى
بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حله .

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن في مَنَعَةٍ من قومِه ، أهل
«سدوم» ويقال : إنها خميس قرى قريبة من «خمص» .

وقد تعجب رسول الله ﷺ من قول لوط ، فقال - فيما رواه البخاري - :
«رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد»^(٢) .

فلهلول ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم
أنه لا يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى .

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/٤٥٩) وعزاه لابن جرير الطبري عن وهب بن منبه . وركنه الشديد
هنا هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٧٥ ، ٤٦٩٤) وأحمد في مسنده (٢/٣٢٦ ، ٣٢٢ ، ٣٥٠) وابن
ماجه في سننه (٤٠٢٦) من حديث أبي هريرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالت الملائكة للوط عليه السلام :

﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمَرَ أَنَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ، ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم .

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ .. ﴾ (٨١) فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسرى بأهله ليلاً أى : اخرج بأهلك فى جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال^(١) يقوم لوط هو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١) [هود]

(١) القطع والقطعة : الجزء المقطوع . قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ .. ﴾ (٨١) [هود] والقطع : جمع «قطعة» . وقوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَتَتْهُمْ وَأَوْفَواهُمْ فِطْرًا مِنَ اللَّيْلِ مَغْلَبًا .. ﴾ (٣٧) [يونس] قطعاً - بكسر القاف وفتح الطاء - ومغلباً : حال من الليل ، وقرئ «قطعة» - بكسر القاف وسكون الطاء - أى : جزءاً ، وتعرب مغلباً - على هذه القراءة - نعتاً لقوله : «قطعة» أو حالاً من الليل . [القاموس القويم ١٢٥/٢] .

(٢) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (٢٥) [النازعات] أى : عليه الله عذاباً شديداً بعد عيرة نعيه فى الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٦) [البقرة] أى : جعلها الله - بالمذاب الشديد - عبرة لأهل زمانها ، ولئن بأتى بعدها ، وللمتقين فى كل زمان . وقال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ .. ﴾ (٢٤) [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله تعالى ليعتظ بها الناس . [القاموس القويم] .

لذلك قالوا:

[هود] ﴿فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ .. (٨١)

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير في نصف الليل الذي بعد ربع الليل الأول وينتهي عند ربع الليل الأخير ، وقيل : إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف .

ثم يقول الحق سبحانه :

[هود] ﴿وَلَا يُلْقِفْ^(١) مِنْكُمْ أَحَدٌ

والاتفات : هو الانصراف عن الشيء الموجود قبالتك ، ويسمى الانصراف عن المقابل : فهل المقصود هو الاتفات الحسى أم الاتفات المعنوى ؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه ؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألفوه من مقام ومن حياة ؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تنجس قلوبهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم ، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم .

هذا هو المقصود بعدم الاتفات المعنوى ، وأيضاً مقصود به عدم الاتفات الحسى .

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه ؛ لأنها خائنة بمولاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب .

(١) التفت الرجل : أبال وجهه ونظر يمينه أو يسره ، أو انحرف ورجع عن وجهه . قال تعالى : ﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يُلْقِفْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود] أى : لا يلقيف يمينه ولا يسره ، ولا إلى الخلف ، فيرجع وينصرف عن السير معك . [القاموس القويم ١٩٦/٢] .

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط ، وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت : وا قوماء ورجعت لتمدك معهم ، ولينالها العذاب الذي نالهم في الموعد الذي حددته الملائكة وهو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ^(١) أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالا .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ^(٢) ﴾ (٨٢)

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالمأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس : قرية «سدوم» وقرية «دادوما» وقرية «الضعوة» ، وقرية «عامورا» وقرية «قتم» .

وقوله تعالى :

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا .. ﴾ (٨٢)

[هود]

أى : انقلبت انقلاباً تاماً ^(٣) .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) : «يحتمل أن يكون جعل الصبح ميفاتاً لإهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع» .

(٢) السجّيل : الضيق المنحجر ، قال تعالى : ﴿ .. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ (٨٢) [هود] ، [القاموس المقوم ١/ ٣٠٤] .

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء نهيق حميرهم وصياح ديكهم ، لم تنكفئ لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم تكسروا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة» .

ويقول القرآن في موضع آخر :

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ ^(١) أَهْوَى ^(٢)﴾ [النجم]

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمد ، أى : قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك ^(٣) إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .

كذلك المؤتفكة ، أى : القرى التى جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع .

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجر .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى ^(٤) ﴿... حِجَارَةً مِّن طِينٍ ^(٥)﴾ [الذاريات]

وكلمة «حجارة» تعطى الإحساس بالصلابة ، أما كلمة «طين» فتعطى إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذى نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . . . أى : يتتابع فى نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

(١) المؤتفكة : القرى المنقلبة عند خسفها . قال تعالى : ﴿وَأَمْحَاهُم بِغَمٍّ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ... ^(٢)﴾ [التوبة] هى المنضوقات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها ، وهى المؤتفكة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ^(٣)﴾ [النجم] أى : أسقطها وخسفها ، [القاموس القويم] .

(٢) الإفك : الكذب ، وأفك : صيغة مبالغة أى : كثير الكذب ، قال تعالى : ﴿نَزَّلْنَا عَلَى كُلِّ أَفْكٍ نَّجْمًا ^(٤)﴾ [الشعراء] . وقال فى سحرة فرعون : ﴿... فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ^(٥)﴾ [الأعراف] . أى : ما يكذبون ويدعون أنه حق ، وهذا يدل على أن السحر تخيل وإيهام ، وليس قلباً لحقائق الأشياء ، فالخيل جيل والتعبان لغبان ، ولكن الساحر يوهم الناس أنه عمل شيئاً وهو لم يعمل شيئاً . [القاموس القويم] .

(٣) كان ذلك فى شأن قوم لوط أيضاً ، قال تعالى فيما قاله إبراهيم عليه السلام للملائكة المرسلين إليه : ﴿قَالَ فَمَا خَبَّكُمْ أَنَّهُ الْمُرْسَلُونَ ^(٦)﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ^(٧) يُرْسِلُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ^(٨) مَسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ^(٩)﴾ [الذاريات] .

﴿مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢)

وكلمة «مُسْوَمَةٌ» أى : مُعَلِّمَةٌ ، وكان كل حجر قد تم توجيسته إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذلك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى : الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهى مُرْتَبَةٌ ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿.. سَجِيلٌ مُنْضُودٌ﴾ (٨٢) [هود]

ووردت كلمة (سَجِيل) أيضاً فى قول الحق سبحانه :

﴿.. طَيْرًا أَبَابِيلَ (٢) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ (٤)﴾ [القبيل]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿.. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٢) [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تنابعت فى الموكب الرسالى وخاتمها هو محمد ﷺ .

ونحن تعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسليية وثباتاً بيقين لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ..﴾ (١٢٠) [مرد]

(١) نضد الشئ ، بنفسه : جعل بعضه فرق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام ، فهو منضود ونضيد ، أى : منظم . قال تعالى : ﴿وَالنَّحْلُ بَاسِطَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (٥)﴾ [ق] أى : مرصوص بنظام . ومثله قوله تعالى : ﴿وَطَلْعٌ مُنْضُودٌ (٦٥)﴾ [الواقعة] . أما قوله تعالى : ﴿.. مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ (٨٢)﴾ [هود] أى : متتابع منظم المنقوط عليهم . [القاموس القويم] .

وتحكى القصص المآرك التى قامت بين كل رسول مُؤيّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المآرك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكَلِّفُوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ، فالسما هو التى تتدخل لتأديب المخالفين .
والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ (٧) ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَاكْتَبَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ (١٣) عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادٍ (١٤) ﴾ [الفجر]

(٦) إرم : اسم قبيلة منها عارة ، وقيل : هى مدينة كبيرة لهم ، وزعم الكندى فى كتابه «فضائل مصر» أنها مدينة الإسكندرية . وقوله تعالى : ﴿ .. ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر] يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/ ١٨] .

(٧) عبادهم يجوبه جنوباً : قطعه . وقوله : ﴿ .. جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر] أى : قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم ، وحذفت ياء «الوادى» فى رسم المصحف . [القاموس القويم ١/ ١٣٥] .
(٨) الأوتاد : جمع وتد . والوتد : قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت فى الأرض ثم يشد بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد ، لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . قال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالِ أَوْتَادُ (٧) ﴾ [النبا] وقال أيضاً : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر] قبل : هم الجنود الذين يثبتون ملكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس ، ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون ، تشبه الجبال . [القاموس القويم ٢/ ٣١٨] .

(٩) السوط : الخلد الذى يغرب به ، وسُي سوطاً لأنه يخلط الدم باللحم . وقوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر] وعبر عن الضرب بالسوط بالفعل «صب» ليفيد دوام الألم وشموله ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صباً فأغرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيعمه . أو السوط : الخلط ، فالعذاب مختلط متنوع ، نصب عليهم من العذاب أخلاطاً متنوعاً . [القاموس القويم] .

(١٠) المرصد : اسم مكان الرصد ، كالمُرْصَد . قال تعالى : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. (٥) ﴾ [التوبة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٥) ﴾ [النبا] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادٍ (١٤) ﴾ [الفجر] والمراد : أن الحق سبحانه رقيب عليهم ويحصى جميع ذنوبهم - مهما صغرت - ليعاقبهم عليها . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف .

ولكن الأمر يختلف بمجىء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذى تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمورون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ؛ لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .
والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ^(١) لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١١٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فكل واحد من أمة محمد ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إنساناً فى الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبي الذى يملك القلوب .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(٢) نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) إِنْ تَشَأْ نُثَرِّقْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إذن : فالحق سبحانه يريد قلوباً تخضع ، لا أعناقاً تخضع .

(١) الوسط : مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به المفرد وغيره ، بلفظه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١١٦) ﴾ [البقرة] . أى : أمة فاضلة خيرة ، خير الأمم ، فالوسط خير الطرفين ، ويزيده قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (٢٠٠) ﴾ [آل عمران] .
(٢) باخِع نفسه بخعاً وبخرعاً : قتلها هماً وغبطاً وحزناً . قال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آلَائِهِمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٤) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٨٩

وهكذا قُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ تفويضين: قُوِّضَتْ في نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال ، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذي يليه .

وها هو ﷺ يقول: «نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها ، فربُّ مُبْلَغٍ أوعى من سامع»^(١) .

وقُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ في أن تقف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض الدين ولكن لتحمي حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفِعَ سيفٌ في الإسلام ليفرض ديناً ؛ بل رفع السيف ليحمي حرية اختيار الإنسان للدين .

يقول سبحانه :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ .. ﴾ (٢٩) [الكهف]

فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعب للدخول في الإسلام ، فمن أين يأتي ادعاء فرض الدين على المخالفين ؟!

إذن : فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين : الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، والإيمان الثاني أن يبلغ الدعوة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل»^(٢) .

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط ؛ لا ، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة ، ويتساح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والبيهقي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٢) أورده السيوطي في الدور المنتثرة (٢٩٣) وقال : لا أصل له . قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٢٨٦) : قال ابن حجر والزرخشى : لا أصل له . وانظر كشف الخفاء للمجلون (٢/٨٣) .

ويؤخذ من الحديث أن توفّر من العلماء الصدق والأمانة في البلاغ والذكاء في العرض .

بالدعوة فى الأرض ليعلم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً فى اختيار الدين .

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ لأية قوة تحارب حرية اختيار الدين .

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده ﷺ .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى ﷺ وهو فى مكة ، فصرخ بالدعوة ، لا فى أذان القبائل الواهية فى أطراف الجزيرة ، ولكن فى أذان سادة الجزيرة ، حتى لا يقال : إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به ، ولم يحرق على السادة ، وهم قريش ، التى أخذت السيادة بحكم إقامتها فى مكان البيت العتيق ، وكان كل العرب يحججون إلى البيت الحرام ، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش يسوء ، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحججون إلى البيت الحرام .

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت .

إذن : فالبيت هو الذى صنع السيادة لقريش ، وهو الذى صنع السيادة للآلهة المدعاة من الأصنام حين يأتى كل قوم بإلههم من الحجر ؛ ليضعوه فى البيت ؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت .

إذن : فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام ، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة ، وسفّه^(١) أحلامهم ، ولم يُبالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة .

(١) سفّهت أى : رميته بالسفّه ، ونسبت إلى الطيش والجهل ، وسفّه نفسه : حملها على الجهل والطيش فكانته جعل نفسه سفّوهاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ . (البقرة : ١٣٥) . وسفّه أحلامهم : اتهمهم بالسفّه والجهل . والأحلام - هنا - هى العقول (الفاموس القويم ١/ ٣١٧) .

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش في مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعَلِّمَ الدنيا كلها أن العصية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد .

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصرروا الدعوة ؛ فكان الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصية لمحمد للحق الممثل فى رسالة محمد ، ولم تخلق العصية لمحمد إيماناً به وبرسالته .

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيّن لهم أن المكان الذى قُلِبَ عليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟

والظلم - كما نعلم - هو مجاوزة الحق للغير ، أى : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذى حق ، فإذا كان ظلماً فى الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً فى إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء فى الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم .

والله سبحانه يريد أن يذكر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجىء ، أو أمر الله حين يأتى ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرِضْتُمْ أَنْ يُنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِكُمْ الْعَذَابُ كَمَا أَنْزَلَ بِهَذِهِ الْقُرَى ؛ وهى غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تسدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمحرون عليها فى كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام^(١) .

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ لَوْ طَالَتْ لَيْلُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٢٢) إِذْ تَجْتَأُّوْهُ وَأَتٰهُهُ أَجْمَعِينَ (٢٢٣) إِلَّا عَجُوزًا لَّمْ يَلْمِ الْفَٰئِرِينَ (٢٢٤) ثُمَّ دَبَرْنَا الْآخَرِينَ (٢٢٥) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ (٢٢٦) وَبِالْأَلْبَانِ أَفَلَا تَتَّقُوْنَ (٢٢٧) [المصافات] .

إذن : فهي قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها :

﴿وَأَنَّهَا لَبَئِلٌ مُّقِيمٌ (٧٦)﴾ [الحجر]

أى : بطريق تمرّون عليها ، لا يجرفها سيل ، ولا يغير معالمها ريح .
بل هي طريق ثابتة مقيمة تمرّون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام ، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لمقطة وعبرة ؛ حتى لا تقعوا فى ظلم آخر .

وقد نهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ (١) آيَةً تَعْبَثُونَ (٢٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ (٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (٢٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية ، وكان من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم ، وأن تتبهاوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى .

(١) الرّيع - بكسر الراء - : الجبل ، أو ما يشبهه من المياني المرتفعة أو المكان المرتفع . قال تعالى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (٢٢٨)﴾ [الشعراء] . [القاموس القويم] .

(٢) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (٢٢٩)﴾ [الشعراء] أى : أبنية عالية ونصوراً مثينة لحسنتون صنعها راجين أن تخذلوا فيها ، ولستم بخالدين . [القاموس القويم] .

(٣) بطش به بطشاً : أخذه بعنف وشدة . قال تعالى : ﴿إِنَّا بَطَشْنَا بِكَ لَعْنَةً (٢٢)﴾ [البروج] . والجبر : القهر . وجبره : أهزه وأكرهه على أمر . والجبار : صيغة مبالغة . والجبار من الناس : العانى المتمرد المسلط . وقال تعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَهُم مُّقْتَصِدُونَ (٢٦)﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿... وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عِيدٍ (٢٧)﴾ [إبراهيم] . [القاموس القويم ١/ ٧٢] بنصرف .

ويلفتنهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام .

وقد أخذت قريش مهايتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

[الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحول الحجاج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول .

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش :

(١) كيدهم : سعيهم لتخريب الكعبة . تضليل : تضييع وإبطال وخسار . طيراً أبابيل : جماعات متفرقة متتابعة . سجيل : طين متحجر محرق (أجر) . كعصف مأكول : كتين أكلته الدواب فرائته . [كلمات القرآن - للشيخ حسين مخلوف] .

﴿لَا إِلَافَ^(١) قُرَيْشٍ (١) إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قریش]

إذن: كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة ، وأنهم - وإن كانوا يمرون على هذه الديار يقصد التجارة وهي سر معاشهم - إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقتربون ظلماً جديداً آخر .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢)﴾ [هود]

أو : أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذي نزل بهؤلاء القوم المشركين ، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً ، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوماً يصيبه في مكانه الذي يكون فيه .

والسطحيون - في اللغة - يخطئون فيأخذون على القرآن مأخذ ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة في اللغة ، ويقولون : كيف يقول الله :

﴿... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢)﴾ [هود]

وكلمة «ما هي» مؤنثة ، وتقتضى أن يقول : «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد» ، أي : أن يكون القول : «وما هي من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى ، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة ؛ لأن «فعل» إن جاءت بمعنى «مفعول» ، فهذا يستوى المذكر والمؤنث .

(١) لا إلاف قريش : أصحبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت [كلمات القرآن] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٥٩٥

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ^(١) ﴾ (٤)

[التحريم]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ ^(٢) مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦)

[الأعراف]

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذي جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التى جاء بها الله فى

هذه السورة لموكب الرسل ، فأتى بقصة شعيب عليه السلام ، ويقول سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن مَّدِينٍ أَهْلٍ شَعِيبًا قَالَ يَنْقُورُوا عِبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَقْصُصُوا أَلْكَيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيتُكُمْ بِخَيْرٍ

وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ^(٣) ﴾ (٨٢)

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يماونه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (٦٦) [سبا]

وقال تعالى : ﴿ .. وَلَوْ كَانَتْ بَيْنَهُمْ لُجُجٌ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨) [الإسراء] أى : معينة مساعداً . وقال تعالى : ﴿ ..

وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (٩٥) [الفرقان] أى : معاوناً أعداء الله ضد الله وضد كتبه وضد رسله -

وتعالى الله عما يُفَعَّنُونَ . [القاموس القويم ١/ ٤١٨] .

(٢) قرب الشيء من الشيء ، يقرب قريباً : دنا منه فهو قريب قرب مسافة ، فيستوى فيه للذكر والمؤنث ، قال

تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦) [الأعراف] أى : مكانها قريب منهم ، وأما قرابة

النسب فتطابق الموصوف فتقول : هو قريب لى وهى قريبة لى فى النسب والرحم . [القاموس

القويم ٢/ ١٠٨] .

(٣) قال الفرطى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٤) : فى تسيسنهم بذلك قولان : أحدهما : أنهم بنو مدين بن

إبراهيم ، فليل : مدين ، والمراد بنو مدين . كما يقال مضر والمراد بنو مضر .

الثانى : أنه اسم مدينتهم ، فليسوا [ليها] . قال النحاس : لا يتصرف مدين لأنه اسم مدينة .

(٤) كان القمح يكيله كيلاً : قدره بمكيال ، وهو وعاء له سعة معلومة اتفق الناس على التقدير به . قال تعالى :

﴿ .. وَأَوْقُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ .. ﴾ (٩٥) [الإسراء] والكيل : مصدر «كال» ، ويطلق على المكيال . والمكيال

يستخدم لكيال الجيوب . وإذا نقص المكيال نقص ما يكال به ، فآله سبحانه وتعالى ينهى عن أن ينقص

المؤمن شيئاً عما يبيعه للناس ، أو ما يكيله لهم . [القاموس القويم ٢/ ١٨٢] يتصرف . وجمع مكيال :

مكاييل . وجمع كيل : أكيال . والكيل : وعاء يكال به الجيوب ومقداره الآن ثمانية أقداح ، والجمع :

كيلات . [النجم الوسيط] .

(٥) يوم محيط : مهلك . [كلمات القرآن] .

و«مدين» هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التي تناسلت منه سُميت باسمه ، وكذلك القرية التي أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ؛ لأن القرية لا بد لها من سكان .

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

والمقصود «أسأل أهل القرية»^(١) .

إذن : فمرة يطلق الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين . وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك في كل الرسالات .

والحق سبحانه يقول :

﴿شَرَعَ^(٢) لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي^(٣) إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ [الشورى]

إذن : فقمة الدين هي قضية العقيدة الإيمانية ، وهي عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية «افعل»

(١) الآية فيها مجاز بالحذف ، وهو أحد فنون البلاغة .

(٢) شرع الشيء : بينه وأوضحه . والشرعة والشرعية : ما شرعه الله ويؤتى من المعائد والأحكام . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الاجتباء : الاختيار والاستخلاص والاصطفاء . [القاموس القويم ١/ ١١٧] .

وكذلك كل شيء يقوله رسول الله ﷺ فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها ؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم في القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى في تكليفه .
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا شَعِينًا قَالُ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ (٨٤) ﴿

[هود]

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة في الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هي الأركان الأساسية^(١) التي يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف^(٢) ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلت صنعة من صانع فعلى ولي الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة .

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٨) وكذا مسلم (١٦) .

(٢) التكاليف تنحصر في الأمر والنهي . والأمر نأخذ منه الفرض والواجب والسنة والمستحب ، سواء كان تعديداً أو اجتماعياً ، والنهي نأخذ منه الحرام والمكروه ، وعلى اتباع الأمر واجتناب النهي يكون للمجتمع الصالح بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۖ﴾ (٧) ﴿ [الحشر] ونزل تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا ۖ﴾ (٣٧) ﴿ [فصلت] .

وقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام:

﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. ﴾ (٨٤)

[هود]

أى: إياك أن تأخذ حكماً تكليفاً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى ، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وإياك أن تستدرك^(١) من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى ، وتظلم نفسك وتقول: «لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم ، ولنا في أنفسنا بحكم جديد»^(٢) .

إياك أن تستدرك حكماً على الله . افهم الحكم أولاً ، فإن جاء حكماً محكماً فخذ ، وإن كان غير محكم بأن جاء مجملاً ، أو غير مبين ، فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل .

ولذلك نحمد رسول الله ﷺ يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله . قال: فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ . قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال: أجتهد رأى ولا آثر ، قال: فضررب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ »^(٣) .

وبعد أن دعا شعيب - عليه السلام - آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده، وهذا هو الأمر المشترك بين جميع الرسل - عليهم السلام - تأتى الأحكام الأخرى،

(١) استدرك ما فات : تداركه . واستدرك الشيء بالشيء : تداركه به . واستدرك عليه القول : أصلح خطئه ، أو أكمل نقصه ، أو أزال عنه لبساً . [المعجم الوسيط] .

(٢) يقول الحق : ﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. ﴾ (٣) [المائدة] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣١ / ٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٢٥٩٢) كتاب الأقضية من حديث معاذ بن جبل .

فمن يعمل قاحشة له علاجه ، ومن ينقص في الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر .

لأن العالم القديم كان عالم انعزال ، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وأفة في مكان ، ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة في مكان آخر .

وكل رسول يأتي ليعالج عيباً محدداً في المكان الذي أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً ﷺ جاء - وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين - جاء ﷺ والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيماني ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث في عصرنا الآن بقارة أمريكا نجد عندنا في نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد ﷺ هو خاتم الرسل .

وكانت خيبة آل مدين هي عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيصة التطفيف^(١) في الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام :

﴿وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ ..﴾ (٨٤) [هود]

وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون^(٢) ، لأنه لو شاء لقال : «ولا تنقصوا المكيل أو الموزون» هذا

(١) طقف الكيل : طول أعلاه وجعل له طفاً فوقه ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه ، ليمتص الحب الزائد من التساقط لم يسرع بوضعه في إناء ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . قال تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلْمُتَقَلِّبِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يَخْسِرُونَ (٣)﴾ [التطففين] فهم مطففون في الحالتين لأنهم يأخذون أكثر من حقهم ويسلمون غيرهم حقه ناقصاً . [القاموس القويم ٤٠٣/١] .

(٢) المكيل : اسم مفعول من (كال) ، وهو كل شيء يكال بالمكيال سواء أكان قمحاً أو غيره . واسم الفاعل : «كائل» . والموزون : اسم مفعول من (وزن) وهو كل شيء يوزن بالميزان . واسم الفاعل : «وازن» .

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذي حق حقه ، أن يأخذ المشتري حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه في الربح .

إذن : فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشتري معاً ^(١) .

والكيل - كما نعرف - هو تعديل شيء بشيء ، فإِنْ كَانَ فِي الْخَفَةِ وَالثَقَلِ ؛ فَالْأَمْرُ بِحْتَاجِ إِلَى مِيزَانٍ ، وَإِنْ كَانَ تَعْدِيلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ فِي الْكَمِّ ، فَهَذَا بِحْتَاجِ إِلَى الْكِيلِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْمَشْهُورُ فِي الْكِيلِ وَالْمِيزَانِ ، وَأَيُّ تَعْدِيلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ بِحْتَاجِ إِلَى مَا يَنْسَبُ ؛ فَالْقِمَاشُ مَثَلًا - يَتِمُّ تَعْدِيلُهُ بِالْمِثَرِ ، وَالْأَرْضُ يَتِمُّ تَعْدِيلُهَا بِالمِسَاحَةِ ؛ أَيْ : قِيَاسِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ ، وَبَعْضُ الْأَشْيَاءِ تُبَاعُ بِالحِجْمِ ، وَهَذَا يَعْنِي قِيَاسِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ وَالْإِرْتِفَاعِ وَاسْتِخْرَاجِ النَّاتِجِ بِعَمَلِيَّةِ ضَرْبِ كُلِّ مِنْهُمُ فِي الْآخَرِ .

إذن : فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً ، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذي حق حقه .

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمر أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ؛ كزهد من أكلت حقوقهم في العمل .

وأنت حين تعطى للإنسان أقل مما يستحق ، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر ، تجده يبطئ في العمل ، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل .

ولذلك أقول : إن إعطاء كل ذي حق حقه يزيد من جودة الأداء في العمل .

(١) كما يفهم من مراد الشيخ أن إعطاء الحقوق هو التوازن لميزان الحياة .

وعليها أن نترك صاحب الطموح ليعمل ؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكتنزه ؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم - حتى وإن كان لا يفكر في ذلك - فالذي يبنى عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجي المواد اللازمة للبناء - دون أن يقصد - وسيتنفع العامل الفقير - دون أن يقصد صاحب العمل - وربما انتفع كل الفقراء بما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل .

إذن : فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه ؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»^(١) .

وهكذا نعلم أن الدين في ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفي واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذي يؤثر^(٢) غيره على نفسه - ولو كان به خصاصة^(٣) - لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد أثر الآخر على نفسه في ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى^(٤) .

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (٢٤٤٢) من حديث ابن عمر ، قال أبو حمير في زوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان . وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبراني في معجمه الصغير (٢٠/١) من حديث جابر ، وأبو نعيم في الحلية (١٤٢/٧) من حديث أبي هريرة - فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل في صحيح البخاري عن أبي هريرة - كتاب البيوع .

(٢) أثره : اختاره وفضله . قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ لَئِنْ آتٰنَا اللّٰهُ عَلِيًّا .. ﴾ (٥٦) ﴿ يوسف ﴾ وقال تعالى : ﴿ بَلْ تَرْتَوْنَ النّٰحِيَةَ الدّٰنِيَةَ ﴾ (٥٧) ﴿ الأعلى ﴾ أي : تفضلونها على الآخرة . وقال تعالى : ﴿ وَيَتَوَفَّوْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ﴾ (٩١) ﴿ الحشر ﴾ أي : يفضلون غيرهم على أنفسهم كرماء ومروءة وتقوى : [القاموس القويم ١/٧] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . وأصل ذلك من الفرجة أو الحلة لأن الشيء إذا افترح وهى واعتدل [لسان العرب : مادة خصص] .

(٤) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تَمَلَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آمَوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ كَمَلَّ حَبَّةُ أُنْثَىٰ سَبْعَ سَنَآئِلٍ فِي كُلِّ سَبْتٍ لِّبَاقَةِ حَبَّةٍ وَاللّٰهُ يَضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٠) ﴿ البقرة ﴾ .

وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهي النفعية التي يعاملنا بها الله سبحانه ؛ وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع في المجتمع .

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواتمها عرفنا أن شعباً قال لأهل مدين :

﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ .. ﴾ (٨٤) [هود]

أي : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشتري إنما يملك نقوداً ، فاكتفوا بالخير الذي عندكم ، وليأخذ كل ذي حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ؛ فالذي يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش في الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره في الأصناف الأخرى التي تلزمه لحياته .

وإن اشتغل واحد في إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك في كل ما يخص حياته ؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقى مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب عليه السلام : ما الذي يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير؟ ثم يقول محذراً :

﴿ .. وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ ^(١) يَوْمٌ مُحِيطٌ ﴾ (٨٥) [هود]

لأنك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشتري ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك .

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشتري ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشتري فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٠٥) : اختلف في ذلك العذاب فقيل : هو عذاب النار في الآخرة . وقيل : عذاب الاستئصال في الدنيا . وقيل : غلاء السعر .

يحاول المشتري أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة في البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأي شيء مهما كثر ، فهو موقوت بعمر الإنسان في الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذي يغش ويخدع إنما يُعرض نفسه لعذاب الله سبحانه في الآخرة ^(١) ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلم الإنسان نفسه لفائدة قليلة في الدنيا الزائلة ، ثم يلقي عذاباً لا ينتهي في آخرة غير زائلة .

والعذاب في الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت في الدنيا بإمكانك أن تختار في النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك في الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة ^(٢) ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

وَيَقُولُ أَتَوْأَ الْمَكِّيَّالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثُوا

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ^(٣)

(١) وهناك عذاب آخر في الدنيا جاءت به أحاديث رسول الله ﷺ ، فقد أورد القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٤٠٥) عن رسول الله ﷺ : « ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقسط والغلاء » .

(٢) الخلَّة : الصداقة الخالصة المنيبة التي تخلت القلب ، وجمعها : خلالات . [الفاموس القويم] . وقال تعالى : ﴿ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ (٥٠) [إبراهيم] .

(٣) بالقسط : بالعدل ، بلا زيادة ولا نقصان .

لا تبخسوا : لا تنقصوا .

لا تعثوا : لا تفسدوا أشد الإفساد . [كلمات القرآن] . والعثر في الأرض هو الإنلاف والإضلال .

وفى الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْصُرُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ (٨٤)﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص فى الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشتري .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين]

ذلك لأن البائع قد يقول لك : أنت مأمون فزن أنت لنفسك أو كل أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حقتك ؛ وقد يفعل البائع عكس ذلك ، وفى مثل هذا بؤس للثنين .

وهنا يقول شعيب عليه السلام :

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ (٨٥)﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإبقاء .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ۚ (٨٥)﴾ [هود]

(١) ويل : عذاب أو هلاك أو واد فى جهنم . للمطففين : المنقصين فى الكيل أو الوزن .
اكتالوا : اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن . يستوفون : يأخذون حقهم كاملاً .
كالوهم : أعطوا غيرهم الوزن . وزنوهم : أعطوا غيرهم الوزن .
بخسرون : ينقصون الكيل والوزن . [كلمات القرآن] يتصرف .

وهذا كلام عام لا ينحصر في مكيل أو موزون ، فقد يأتى مشتر ليخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطف ما ليس حقاً له ، أو يغتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعنى : أخذ غير حق بوسائل متعددة .

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعنى أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجرى ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشيء ، لكن المغتصب يأخذ الشيء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شيء فاختمسه ، والمرتشى هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هي حق لمن يطلبها .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ.. (٨٥)﴾ [هود]

تضم أشياء متعددة .

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كم ، أو كيف .

وكلمة «أشياء» مفردتها : «شيء» ، ويقولون عن الشيء : «جنس الأجناس» فالشجرة يقال لها : «شيء» ، وكل الثمر يقال له : «شيء» .

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا يغربنا أى شيء مهما كان قليلاً .

ونحن نلاحظ هنا أن كلمة «الناس» جمع ، وكلمة «أشياءهم» جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع اقتضت القسمة أحاداً . أى : لا تبخس الفرد شيئاً ، وإن قل .

ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطية^(١) من خان^(٢) ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذي يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها . فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؟ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصل بها إلى مكان في اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقى مع صاحبها أن أبحث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس في ذلك الزمان يجففون الخبز الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المکتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار . ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوم^(٣) فقال صاحب الجدار : والله لورعك^(٤) لا أقوم ، أى : أنه قد تسامح في هذا الأمر .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٥٥) [هود]

(١) المطية من الدواب : ما يُستطى أى : يُركب [تذكر وتؤنث] فالعير مطية ، والناقة مطية . والجمع : مطايا ، ومطى . [المعجم الوسيط] .

(٢) الخان : الخجر ، أو الخانوت ، وقد تطلق على الفندق ، أو الأمير ، أو غيره . وهى كلمة معربة . [المعجم الوسيط] .

(٣) القوم هنا بمعنى : تقدير ثمة لشيء منه . والقيمة : ثمن الشيء بالتقويم . ويقال : كم قامت ناقتك ؟ أى : كم بلغت ؟ [انظر لسان العرب - مادة قوم] .

(٤) الورع : انقضاء الشبهات ، ولا يتم الورع إلا بحفظ اللسان واجتناب سوء الظن واجتناب السخرية وغض البصر عن المحارم وصدق اللسان والاعتراف بحق الله وإنفاق المال في الحق ، وترك الكثير المحافظة على التكاليف والاستقامة ، الغنى للجيلاني ص ١٢٤ بتصرف .

وكلمة عشا^(١)، يَعْنِي ، ويعشو ، وعشى . يعنى ؛ كلها تعنى : زاول فساداً ، أى : أن يعمد الإنسان إلى الصالح في ذاته فيفسده ، مثل طمر بثر ماء ، أو حفر طريق يسير فيه الناس ، وهو كل أمر يخرج الصالح - في ذاته - عن صلاحه .

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاولة الفساد، ولو طُبّق كل واحد ذلك لصار المجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيره غير مفسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(٢)﴾

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ^(٣) ﴿٨٦﴾

أى : ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم ؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطئ ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام ؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه .

وأنت تسمع من يقول : «فلان هذا إنما يحيا في بركة» ، أى : أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويربى أولاده بيسر ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنياً من غير حلال ، لكنه يحيا في ضنك^(٤) العيش .

(١) عشا يعنى ، وعشى يعنى ، عشواً وعشياً : أفسد أشد الإفساد . قال تعالى : ﴿... وَلَا تَقْبَلُوا فِي الْأَرْضِ مُضْتَدِينَ^(٢)﴾ [هود] ومضدين حال مؤكدة لمعنى عشوا . [القاموس القويم ٧/٢] .

(٢) البقية : مابقى من الشيء أو ما استحق أن يبقى لما فيه من النفع والخير للناس . ونطلق البقية على الشيء الباقي . قال تعالى : ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ^(٣)﴾ [هود] أى : ما أبقاء الله وأخبره لكم من الثواب خير . [القاموس القويم ١/٧٩] .

(٣) حفيظ : رقيب عليكم ويحازيكم بأعمالكم . [كلمات القرآن] بتصرف .

(٤) ضنك الشيء : ضائق . والضنك : الضيق من كل شيء وهو مصدر يرصف به ؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره . قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً^(٤)﴾ [طه] أى : ضيقة غير مشعة . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصند همومه ، لأن الله سبحانه قد جرّأ عليه مصارف سوء متعددة .

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً^(١) .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴾ (٨٦) [هود]

أى : أن الله تعالى يُذهب - عمن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء .
وسبق أن قلنا قديماً : فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛ لأن الناس في غالبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذى جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يراعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء^(٢) .

ومن يُربون أولادهم من سُحت^(٣) أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً . فتجد - على سبيل المثال - ابن المرتشى يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المنضبط والملتزم بتحصيل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٢) [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. ﴾ (٥٤) [النساء] ، ويقول عز وجل : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. ﴾ (٥٦) [الأنفال] .

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى ﴾ (١٧٤) قال رب لم حشرتني أعْمى وقد كنت بصيراً (١٧٥) قال كذلك أتتك آباءنا فقَرِئَتْهُمُ وَكَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ تَكُنُ [طه] .

(٣) السحت : المال الذى يكتسب من رجه حرام كالرشوة وما أخذ بالغلش والخداع ، قال تعالى : ﴿ سَاعِدُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثِلُونَ لِّلْمُحْتِ .. ﴾ (٤٦) [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ رَأَوْهُمُ الْمُحْتِ .. ﴾ (٤٧) [المائدة] . [القاسوس القويم] يتصرف .

الكسب الحلال مقبل على العلم ونجاح . أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الخرام زوجة لا يرضيها أى شيء ، بل تطمع فى المزيد دائماً ، بينما يعطى الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيوم ؛ فلا تأخذ حقاً غير حقك ؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. وَمَا آتَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ (٨٧) ﴾ [هود]

أى : أن شعباً ١١١ قد أوضح لأهل مدين : أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ بَقِيتُ ^(١) اللَّهَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة .

وهذه هى فائدة الإيمان : ما يأمر به وما ينهى عنه .

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى ؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكانها تحميهم من الوقوع تحت طائلته . أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية .

(١) جاءت التاء فى (بقيت) فى رسم القرآن مفتوحة التاء ، قال الزركشى فى «البرهان ١/ ٤٦٣» : امتدت نازله ، لأنه بمعنى ما يبقى فى أموالهم من الربح المحسوس ، لأن الخطاب إنما هو إليها من جهة الملك .

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
وَلَا تَتَّقُوا الْكَيْدَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة في المجتمع كله ،
والمجتمع إن لم تُصنَّ حركته يفسد ؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه
حركة تكاملية ، لا تكرار فيها ؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى
مواهب غيره .

والمصلحة العامة تقتضى أن يحتاج كل إنسان إلى مواهب الآخر ، فمن
يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكتسب الشارع ، ومن يعالج الناس
ليشفاهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجارى .

وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾

(١) الحليم : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ووصف الله
خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ نُّوَّابٌ مُّذِيبٌ (٢٦٥) ﴾ [هود] وأما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ
لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم
شعيب عليه السلام . (القاموس القويم ١/ ١٧٠).

أى : أيا مارك إلهك ودينك أن ترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولفائل أن يقول : ولماذا قالوا : «أصلاتك» ؟

نقول : لأن الإسلام بُنى على خمس ^(١) : أولها شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ويكفى أن يقولها الإنسان مرة واحدة فى حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكى به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة فى حياته ، ولا يبقى فى أركان الدين إلا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها : «عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين» ^(٢) ؛ لأنها الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً فى الولاء لله .

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أى إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛ ^(٣) فله أن يصلى بزموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك زموش عينيه فليجبر الصلاة على قلبه ، حتى فى حالة الحرب والمسياسة ^(٤) .

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) .

(٢) قال الحافظ العراقي فى تخرجه للإحياء (١/ ١٤٧) : «رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث حماد» . وقال الملا على الفارنى فى الأسرار المفروضة (حديث ٥٧٨) : «قال ابن الصلاح فى «مشكل الوسيلة» : إنه غير معروف . وقال الترمذى فى التقييد : إنه مشكوك باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ج ٢٧٩) .

(٣) من حصل له عذر من مرض ونحوه لا يستطيع معه القيام فى الفرض يجوز له أن يصلى قاعداً ، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه بومى بالركوع والسجود . راجع فقه السنة (١/ ٢٣٤) .

(٤) إذا اشتد الحرف والتحدث المعروف صلى كل واحد حسب استطاعته راجلاً أو راكباً مستقبلاً القبله أو غير مستقبلها بومى بالركوع والسجود كيفما أمكن ، ويجعل السجود أخفض من الركوع ويسقط عنه من الأركان ما عجز عنه . [فقه السنة - ١ / ٢١٠] .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٦١٣

فالإِنسان المسلم يصلى صلاة الخوف^(١) .

إذن : فالصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً ، ويكرَّر فى اليوم خمس مرات ، وقد أعطاه الحق سبحانه فى التشريع ما يناسبها من الأهمية .

وكل تكليفات الإسلام جاءت بروحى من الله سبحانه وتعالى ، فجبريل عليه السلام يحمل الوحى إلى الرسول ﷺ ؛ ويبلغنا الرسول ﷺ إياه ، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلَّف بها النبى ﷺ فى أثناء وجوده فى الملأ الأعلى ؛ عند سكرة المنتهى^(٢) ، وذلك لفرط أهميتها .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الرئيس فى أى موقع من مواقع العمل ؛ وهو يستقبل البريد اليومى المتعلق بالعمل ، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقتراح بخصوصه اقتراحاً ، وإذا وجد الرئيس أمراً مهماً قادماً من أعلى المستويات ؛ فهو يستدعى الموظف المختص ؛ ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها ؛ وإذا كان هذا يحدث فى الأمور البشرية ، فما بالناس بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول ؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة - لأهميته - هو التكليف الوحيد الذى نال تلك المنزلة ؛ لأنها الركن الذى يتكرر خمس مرات فى اليوم الواحد ؛ ولا مناص^(٣) منه .

(١) ثبت صلاة الخوف بكتاب الله ، فقال : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَمْ يَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَعَلُوا صَلَاتَهُمْ إِذَا سَجَدُوا فَليَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَقَدْ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيُحْذَرُوا حَذَرَهُمْ وَأَسْلَحَتْهُمُ الرَّسُولُ كَفَرُوا تَوَّظُّونَ عَنْ صَلَاتِكُمْ وَأَعْتَصِمُوا عَلَيْكُمْ مِثْلَ رَاحِمَةَ .. ﴾ [النساء] قال الإمام أحمد : أثبت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أبها فعل المرء - جازء . وذكر الشيخ السيد سابق ستة كيفيات لصلاة الخوف فى فقه السنة (١/٢٠٨ - ٢١٠) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢/٣٢٢ - ٣٢٣) .

(٢) فرضت الصلاة مباشرة ليلة الإسراء والمعراج لشرفها ، ولأنها جماع العبادات ، ففيها الشهادة والزكاة والصوم والخرج ، لذلك لم تسقط عن المكلف . من مفهوم خواطر الشيخ .

(٣) لا مناص : لا بد ولا غهرب . وناص : يتوخى : قرهانياً . وناص من المكره : نجاة منه وخلص . قال تعالى : ﴿ .. وَلَآتِ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص] أى : ليس الحين حين فرار وهروب من العذاب المحيط بهم ، أو ليس الحين حين نجاة وخلوص من العذاب . [القاموس الفوري] بتصرف .

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها في كل صلاة .

وفي الزكاة تضحّي ببعض المال ؛ وأنت لم تولد ومعك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت في بطن أمك ؛ ولا بد أن تزكّي من مالك ؛ والمال لا يأتي إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت في الصلاة تضحّي بالوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة .

وفي الصيام أنت تمتنع عن شهوتي البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة ؛ أما في الصلاة فأنت تصوم عن شهوتي الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك في الصيام .

وفي الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت في كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام .

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام في الصلاة .

وأهل مدين هنا - في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها - قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فذل كفار قريش مع رسول الله ﷺ .

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام :

﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. ﴾ (٨٧)

[هود]

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتهكمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم - كفار قريش - يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى .

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ﴾ (١٥) [المنكورات]

إذن : للصلاة (١) أمر ، وللصلاة نهى ، وما دام قد ثبت لشيء حكم ؛ ثبت له مقابله ، وأنت تسمع من يقول لآخر : أنت تصلى لذلك فأنا أثق فى أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله : كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة ؟ (٢)

وكثير من الناس يغفلون عن أن التقابل فى الجهات إنما يحل مشاكل متعددة ؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى .

ولذلك أقول : ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير (٣) .

ومثال آخر : لجده فى قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون :

﴿فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ۚ﴾ (٢٩) [الدخان]

(١) الفحشاء : الفحش هو العمل القبيح المنكر . قال تعالى : ﴿الشُّعْرَانِ يَعْذِرُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ ۚ﴾ (٢٥) [البقرة] أى : يأمركم بالبخل أو فعل القبيح - عامة - ومنه البخل . والفاحشة : الفعلة القبيحة . والقواحش : الأنور القبيحة . وقد فُحِشَ وفُحِشَ فُحُشاً فهو فاحش : أى : جاوز الحد ، وتُعمل القبيح . [القاموس القويم ٢ / ٧٣] .

(٢) لأن الصلاة فعلت استجابة لأمر الأمر ، وهى تشمل على آيات القرآن الكريم ، والآيات إما آيات أمرة ، وإما آيات ناهية ، وما فيها من إحرام وركوع وسجود يدل على استقبالها بقلب منيب فى استجابة تخاضعة ، فكل ما فيها هو نافع لك أمر أو نهياً ؛ لذلك كانت الصلاة مدرسة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً » أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٥٤ / ١١) وعزه ابن كثير لابن أبى خاتم فى تفسيره ، وذكره الهيثمى فى المجمع (٢٥٨ / ٢) وقال : فيه لبس بين أبى سليم ثقة مدلس .

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلاناً يضل بالليل ، فإذا أصبح سرق ، قال : « إنه سينهاه ما تقول » أخرجه أحمد فى مسنده (٤٤٧ / ٢) والبيهاق (٣٤٦ / ١) - كشف الأستار (وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمان) . قال الهيثمى فى المجمع (٢٥٨ / ٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففي المقابل فلا بد أنها تبكى على قوم آخرين^(١) ؛ لأن السموات والأرض من المسخرات للتسييح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ^(٢) عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .. ﴾ (٧٢)

[الأحزاب]

وبهذا القول اختسارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبحة، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ^(٣) مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴾ (١٤)

[الإسراء]

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسَبِّحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً، معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبك على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكى إلا على المهديين .

وقد حلّ لنا الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - هذه المسألة ؛ فقال : « إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في الأرض ، وموضع

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله في السماء يابان : ياب يخرج منه دُقه ، وياب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقدها وبكى عليه وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا يَكُنْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ .. » [الدخان] - وذكر - أنهم لم يكونوا يعملوا على الأرض عبداً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتقنقدهم فتبكي عليهم .

(٢) الأمانة : مصدر أسّ فهر أمين ، وتطلق الأمانة على الرديعة نفسها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا .. ﴾ [النساء] أي : الودائع . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [الأحزاب] قالامانة هنا مستعارة للتكاليف الشرعية من أوامرو نواه وأحكام وعقائد وعبادات وأخلاق . [القاموس القويم ١/ ٣٥] .

(٣) إن - هنا - نافية بمعنى «ما» أو «ليس» . أي : ما من شيء خلقه الله إلا يسبح بحمد الله تعالى .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦١٧

فى السماء ، أما موضعه الذى فى الأرض ؛ فمصلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله ^(١) .

لأن موضعه الذى كان يصلى فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلى فيه ، وأما موضعه الذى كان يصعد منه عمله ؛ فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح .

فإن أردت بالصلاة الدين ؛ وهى رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين ، وهى الأمر بالإيمان الحق ، لأن الإيمان المقلد لا نفع له .

إذن : فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألا يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألا ينقصوا الكيل والميزان ؛ وألا يخسوا ^(٢) الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم ، وألا يعثوا ^(٣) فى الأرض مفسدين .

وقالوا : أتنهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١٤/٧٤٢) وعزاه لابن ابن حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل يبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له : لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [الدخان] .

(٢) يخسه حقه يخساً : نقصه حقه ولم يوف . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَخْسُوا النَّاسَ أَسْثِيَاءَهُمْ .. ﴾ (٨٥) [هود] . [القاموس المفهرس ١/٥٦] .

(٣) عثا يعثو : أفسد أشد الإفساد . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَقُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة] ، فكونهم لا يوفون المكيال ولا الميزان بل يخسونه ، ويخسون الناس أشياءهم هذا هو قمة الإفساد فى الأرض .

فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ ومستصطدم
المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٨٧) [هود]

استمرار في التهكم الذي بدءوه بقولهم :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. ﴾ (٨٧) [هود]

مثلهم في ذلك مثل منافق المدينة الذين قالوا للأنصار :

﴿ لَا نُنْفِقُوا عَلَى مَنْ ^(١) عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ^(٢) .. ﴾ (٧) [المنافقون]

وكانوا يريدون أن يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا :
﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ تهكماً ؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين ،
ومثلهم - أيضاً - مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفاحشة ؛
فقالوا تهكماً منه وعن آمن معه :

﴿ .. أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ^(٣) ﴾ (٨٢) [الأعراف]

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم
لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع في حياتنا من يقول : « لا تستعن بفلان لأنه حنبلي » .

(١) المقصود بهم : المهاجرون الذين كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهم وبين الأنصار بعد قدومه إلى المدينة ،
وكان زعيم هذه المفالة هو عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان من مقتضى هذه المؤاخاة أن يشارك المهاجر
الأنصاري في ماله وداره ، بل إن بعض الأنصار وصل به الأمر أن عرض أن يطلق إحدى زوجاته
ليزوجها المهاجري . انظر كتب السيرة وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٠) .

(٢) أية حتى ينفضوا من حول رسول الله ﷺ وينصرفوا عنه . يقال : انفض الناس : تفرقوا وانصرفوا ،
[راجع القاموس القويم ٨٤/ ٢] .

(٣) قال مجاهد : أي : إنهم يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . قالوا هذا لشهزاء بهم . وقال قتادة :
عابوهم بغير عيب ، وذموهم بغير ذم . انظر : الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٩٦) .

وفي كُلِّ من القولين تهكم وسخرية ، وكذلك قولهم في الآية التي نحن
بصددها :
بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم :

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ ^(٨٨) الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود]

يعنى التساؤل : كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تشورت
وتقول لنا :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على
دعوته لهم بعدم إنقاض الكيل والميزان .

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف في المال ، والعلة التي
برروا بها كل هذا السَّفه أن شعيماً حليماً رشيداً ؛ فكيف يدعوههم إلى
ما يخالف أهواءهم ؟

ويأتى الحق سبحانه بما قاله شعيب - عليه السلام - فيقول جلَّ شأنه :

(١) الحليم : الأنبل وضبط النفس والعقل ، فهو حليم أى : مثأن عاقل ضابط لنفسه بعيد عن الجهل والحمق
والعيش .

والحليم : من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَخَذْنَاهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) ﴾

[هود] أما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على

سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام . [القاموس المبرور ١/ ١٦٩ ، ١٧٠]

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ بِكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨)

وهنا يعلن لهم شعيب - عليه السلام - أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فأمر حياته ميسورة ^(١) .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ بِكُمْ عَنْهُ .. ﴾ (٨٨) [هود]

أي : أنتى أطبق ما أدعوكم إليه على نفسى ؛ فلا أنقص كيلاً أو أخسر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً شيئاً ؛ لأننى لا أعبد غير الله .

(١) بيته : حجة وبرهان . بيان الشيء ببياناً ؛ ظهر واتضح فهو بين ، وهى بيته ؛ أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبيته بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسر قوله تعالى : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴾ (٢١١) [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هى بيته للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره . [القاموس القويم] .

(٢) إن - هنا - نافية ، بمعنى «ما» أو «لا» أى : ما أريد - أو لا أريد - إلا الإصلاح .

(٣) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . وقوله تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٨٨) [هود] أى : إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم] .

(٤) الرزق الحسن : الواسع الخلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والنوفيق ، والعلم والمعرفة . قاله القرطبي فى تفسيره (٣٤٠٨/٤) .

وكلمة «أخالف»^(١) تدل على اتجاهاين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكي تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «إلى» كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلاً تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «عن» كذا .

فشعيب - ﷺ - يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذي لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بآلا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذي أوحى له بالمنهج ، وهو الذي أنزل عليه الرسالة .

وشعيب - ﷺ - لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يروثه خيراً ؛ فليس في نقص الكيل والميزان ؛ أو الشرك بالله أدنى خير ، فكل تلك الأفعال هي الشر نفسه .

ويوضح لهم شعيب - ﷺ - مهمة النبوة ؛ فيقول :

﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. ﴾ (٨٨) [هود]

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم^(٢) الفساد ، ويأتى النبي المرسل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال «افعل» و «لا تفعل» ويكون النبي المرسل هو الأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنجوة^(٣) ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه .

(١) قال أبو حيان في قوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ ..﴾ [هود] المعنى : لست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه ، من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال . قال ابن عطية وقتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم أرتكبه ، فعلى هذا الظاهر أن قوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ ..﴾ [٨٨] [هود] في موضع المفعول لأريد ، أى : ما أريد مخالفتكم ، أى أكون خلفاً متكم ، ويكون خالف بمعنى خلف تحو جاوز وجاز وتعلق إلى ما خالفتمكم ، وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه (تفسير البحر المحیط ١٩٨/٦ باختصار) .

(٢) طم الشيء : عظم وعلا . وطم الماء إذا كثر ، وجاء السيل فطم كل شيء أى : علاه . والمقصود أن يكثر الفساد ويتشرب ويصبح فساداً عاماً يعم البلاد والعباد ، وانظر [لسان العرب - مادة : طم] .

(٣) النجوة : ما ارتفع من الأرض فلم يعله السيل ، أى : أنه مكان مرتفع . والمقصود : أنك بعيد عما تأمر به . [وانظر لسان مادة : بجر] .

ولذلك قال شعيب - عليه السلام - :

﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. ﴾ (٥٥)

[هود]

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما يدخل في طوعها.

ويقول شعيب - عليه السلام - بعد ذلك :

﴿ .. وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٥٦)

[هود]

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق في العمل ؛ لأن جوارحك قد تشغل بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندئذ لا يأتي التوفيق من الله .

أما إن أقبلت على العمل ؛ وفي نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدي هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوب لك أي خطأ تقع فيه ؛ وستجز العمل بإتقان وتشعر بهجمال الإتقان ، وفي الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ أي : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت «على الله توكلت وعليك» ؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله^(١) .

ونجد في القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام :

﴿ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ .. ﴾ (٥٦)

[هود]

(١) عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤ / ٥) وأبو داود في سننه (٤٩٨٠) والحاكم في مستدرک (٤٦٢ / ٣) ؛ قال النووي في الأذكار (ص ٣١٨) : « هذا إرشاد إلى الأدب ، وذلك أن الواو للجميع والتشريك ، ولم للعطف والتراخي ، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه » .

ويجوز لك هنا أن تعطف .

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين ^(١) : «اللهم إني أستغفرك من كل عمل قصدتُ به وجهك فخالفتني فيه ما ليس لك» .

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلتك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تنيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب عليه السلام : «وإليه أنيب» .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿وَيَقْوِرْ لَا يَخْرِجَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طِرَ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ^(٢)

يقول لهم شعيب عليه السلام : أرجو ألا تحملكم عداوتكم لي على أن تجرموا جرماً ؛ يكون سبباً في أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم

(١) هو : مطرف بن عبد الله بن الشيخير : كان بليس الصوف ويجلس مع المساكين ، وقد أورد أبو نعيم هذا الأثر في حلية الأولياء (٢/ ٢٠٧) وابن رجب الحنبلي في جامع العلوم (ص ٢٧) ، وقد أوردناه تاجاً والعطف فيه من تمام الدعاء ، وليس عطفاً مغايراً .

(٢) جرم الشيء : جرمياً : قطعه ؛ وغلب على فعل الشر . يقال : جرَّم : أذنب وجنى جناية . وجرم الملك : كسبه من أي وجه . وجرمه : حسله على فعل شر أو ذنب أو جرم . قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاذُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَتَدَلَّوْا ..﴾ [المائدة] أي : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أي : التزموا العدل حتى مع من تكرهوهم . أي : اعدنوا دائماً ، فالعدل أقرب للثقوى .

وأجرمه : دفعه وحمله على فعل الجرم والشر . وقرئ : (وَلَا يُجْرِمَنَّكُمْ) - بضم الباء من الرباعي المزيد بالهزة - أي : لا يحملنكم على فعل الجرم والظلم . [القاموس القويم] .

(٣) شاقه مشاقفة وشقاقاً : خالفه . ومنه قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴾ [الأنفال] . وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا لَنُلَاقَنَّاهُمْ فِي شِقَاقٍ ..﴾ [البقرة] أي : في خلاف وتراخ . [القاموس القويم ١/ ٣٥٣] .

وشعيب عليه السلام ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكونون له العداء ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدها أبائهم ؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ؛ وسبق أن عذب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب - عليه السلام - بأقرب من عذبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط .

وَأَسْتَغْفِرُكَ وَأَرْبِيكَمُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيَّ إِنَّ رَبِّي

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصي - حتى المصير -
على شيء من المعصية - باب التوبة.

ويقول رسول الله ﷺ : « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط ^(١٧) على
بعيره وقد أضله في أرض فلاة ^(١٨) » .

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ يَأْتِيهِمْ فَعَنَّهُمْ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْ الصَّبْحَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١﴾ [العنكبوت].

(٢) اللودود: من أسماء الله الحسنى، وهو صيغة مبالغة أى: كثير اللود. [القاموس القويم ٢/ ٣٢٦] والود: الحب، قال تعالى: ﴿... سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٤٦)﴾ [مريم] أى: محبة منه تعالى ومحبة من خلق الناس.

(٣) سقط على يديه: أي: ضاذه وعثر عليه من غير قصد فظفر به، ومنه قولهم: على الخير سقطت. قاله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١١/١٠٨).

(٤) الضلالة: الصحراء ليس بها ماء ولا أنيس. وهي: القفر من الأرض لأنها غابت عن كل خير أو نظمت وعزلت. [لسان العرب].

(۵) متفق علیه . أخرجه البخاری فی صحیحہ (۶۳۰۸ ، ۶۳۰۹) ، وأخرجه مسلم فی صحیحہ (۲۷۴۴) .
عن عبد الله بن مسعود . واللفظ للبخاری .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بغيره ؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورحله ؛ ثم يعثر الرجل على بغيره هذا .

لايد - إذن - أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه .

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب - عليه السلام - لقومه :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. ﴾ (٩٠)

[مرد]

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتتوبون إليه ؛ بالآلة تعودوا إلي ارتكابها مرة أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد من قصد بابه : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٩٠) لأن مغفرته تسر العذاب ، ورحمته تمنع العذاب .

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعاني : المغفرة ، والرحمة ، ومعهما صفة «الدود» ؛ وهي من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضي العطف على قدر حاجة المعطوف عليه .

ولله المثل الأعلى ؛ نرى الأم ولها ولدان ؛ أولهما قادر ثرى يأتي لها بما تريد ؛ وثانيهما ضعيف فقير ؛ فتجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضعيف الفقير ؛ وتحسن قلب القوى القادر على الفقير الضعيف .

ونجد المرأة العربية القديمة تحب على من سألها ؛ أي ابنائك أحب إليك ؟ فتقول : الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى . إذن : فالحب يقتضي العطف على قدر الحاجة .

ويقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

«يا بن آدم ؛ لا تخافن من ذي سلطان ؛ ما دام سلطاني باقياً ؛ وسلطاني لا ينفد»^(١) . يا بن آدم لا تخش من ضيق رزق ؛ وخزائني ملكة ، وخزائني

(١) لا ينفد : لا ينتهي . ونقد ينفد نقداً ونقاداً : فنى وانقطع ولم يبق منه شيء . قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ .. ﴾ [النحل] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ مَنَّا لَرِزْقًا مَّا لَهُ مِنْ نِعَامٍ ﴾ (٩٠) [ص] . أي : أنه رزق دائم لا انقطاع له . [القاموس الفوري] .

لا تنفذ أبداً . يا ابن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب ، وضمنت لك رزقك فلا تتعب ، فوَعَزَّتِي وجلالي إن رضيت بما قسمته لك أرحمت قلبك وبدنك ؛ وكنت عندى محموداً ؛ وإن أنت لم ترض بما قسمته لك ؛ فوَعَزَّتِي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا ، تركض فيها ركض^(١) الوحوش في البرية^(٢) ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعمى^(٣) بخلقهن^(٤) ؛ أيعينى رغيـف عيش أسوقه لك ؟ يا ابن آدم لا تسألنى رزق غد كما أطلب منك عمل غد . يا ابن آدم أنا لك مُحِبٌ ؛ فبهـقى عليك كن لى مُحِباً^(٥) .

وهذا الحديث الكريم يبين مدى مودة الله سبحانه خلقه ؛ تلك المودة التي لا تستوعبها القلوب المشركة .

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - بعد ذلك بقول أهل مدين ردّاً على شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ ﴾

(١) الركض : الجرى والعدو . قال تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلُوا فِيهَا أَنثَاهُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يجرون ويفرون كناية عن الفزع والخوف الشديد . والركض : الضرب بالرجل . قال تعالى : ﴿ أَرْكُضْ بِرَجُلِكَ .. ﴾ (١٢) [ص] أى : اضرب بها . [القاموس القويم] .

(٢) البرية : الصحراء . والجمع : البرارى . والبر : ضد البحر . [راجع : مختار الصحاح - مادة : برء] .

(٣) لم أعمى بخلقهن : لم أعجز عنه ولم أطق إحكامه . والإعياء : الكلال والتعب . [من لسان العرب] .

(٤) نفقه : فهمه . وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات ، وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ لَا تَقْفُوهُنَّ تَسْمِيحَهُمْ .. ﴾ (١٤) [الأنبياء] . [الإسراء] أى : لا تفهمونه . وقال تعالى : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا إِلَى الدِّينِ .. ﴾ (١١) [الشورى] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلّموها . [القاموس القويم ٢ / ٨٦] .

(٥) الرهط : جماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته ونسبته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. ﴾ (١١) [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ تِسْعَ رَهْطٍ .. ﴾ (٤٨) [الشع] من إضافة الشئ إلى ما يبينه . [القاموس القويم ١ / ٢٧٨] .

وهذا يضاهي قول مشركي قريش لرسول الله ﷺ ، فقد قالوا :

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ۖ ﴾ (٥)

[فصلت]

والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلىء بالباطل ؛ ليحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل ، فهي غير قادرة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقول تلك القلوب من الباطل ، وناقشت العقول كلاً من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب .

ولذلك لجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختتم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

ولم يكنف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل همدوا شعبياً وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَقَوْلَا رَهْمَتُكَ لَرَجْمَتِكَ رَمَّا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴾ (٩)

[هود]

وهذا التهديد يحمل تحدياً ، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم ينفضون حياته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهي أن رهطه - أي : قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التي يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيفضب لأي ضرر يصيب شعبياً ؛ وتناسوا أن الذي أرسل شعبياً - ﷺ - لا بد أن يحميه ، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله - عز وجل - بأن يسخر الكفر لخدمة الإيمان .

ومثال ذلك : هو بقاء عم النبي ﷺ أبى طالب على دين قومه ؛ وقد ساهم هذا الأمر في حماية محمد ﷺ في ظاهر الأسباب .

ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك برّد شعيب عليه السلام على قومه ؛ فيقول :

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا رَهْطِي - أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٩٢ ﴾

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار : أوضعتم رهطى فى كفة ؛ ومعزة الله تعالى فى كفة ؟ وغلبتم خوفكم من رهطى على خوفكم من الله ؟ !
ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه ؛ لأنه أعلن - من قبل - توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً .

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا التفكير فى الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم :

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا .. ﴾ (٩٢) [هود]

أى : لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم ؛ فلم يأبهوا بعزة الله ؛ ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزة فوق معزة الله .

ولم يقل : (ظهيراً) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمن نقول : يمنى . ونقول : يمانى ، فالنسب هنا إلى الظهيرى ، وهى المنسى والمثروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، يعنى جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً . إذن : فهناك تغييرات تحدث فى باب النسب (٣) .

(١) الظهيرى : المنسى المثروك وراء الظهر ، يقال : جعله ظهيراً ، أى : جعله نسبياً منسياً . قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا .. ﴾ (٩٢) [هود] أى : سبىتم الله وحقوقه عليكم . [القاموس المفيد ١/ ٤١٩] .

(٢) المحيط : من أسماء الله الحسنى ، أى : المسيطر على كل شىء . وقال تعالى : ﴿ .. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] . أى : المسيطر عليهم لا يملكون منه هرباً ولا فراراً . [القاموس المفيد ١/ ١٧٨] .

(٣) النسب باب من أبواب علم الصرف .

ويذكرهم شعيب عليه السلام بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٩٢)

[مرد]

أي : أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل في نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يُقال له : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال .

وقد شرف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه .

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَقَوْمِ أَكْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ^(١) إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّخْرِجٌ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٩٣)

إذن : فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أمرٌ من رهنه ؛ وباعتزازه بربه قد آوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم : افعلوا ما في وسعكم ، وما في مكنتكم هو ما في مكنة البشر ، وساعمل ما في مكنتي ، ولست وحدي ، بل معي الله سبحانه وتعالى ؛ ولن تشامى فونكم الحادثة على قدرة الله المطلقة .

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذي أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلني الذي أرسلني ؛ وما دمتم تريدون الوقوف في نفس موقف الأمم السابقة التي

(١) المكانة ؛ رفعة الشأن والوزانة والنودة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴾ (١٧٥) [الأنعام] أي : برزاة ونودة وتبصر . وقرأ : «على مكاناتكم» بالجمع . [القاموس المقيّم ٢ / ٢٣٢] .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٦٣١

تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصير^(١) ، وبالقذف بأي شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تنهضوا أنى أتودد إليكم ؛ فأننا على بينة من ربى ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يقل شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله رداً على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا دَهْطُكَ^(٢) لَرَجَمْنَاكَ .. ﴾ (٩١)

[هود]

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ﴾ (٩٢)

[هود]

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدي ، لأنى سأعمل على مكانتى ، و﴿ .. سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (٩٣)

[هود]

أى : أن المستقبل سوف يبين مَنْ مَنَّا على الحق وَمَنْ مَنَّا على الضلال ، ولن سيكون النصر والغلبة ، ومن الذى يأتيه الخزي ؛ أى : أن يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ وَمَنْ مَنَّا الكاذب ، وَمَنْ على الحق .

وكان لا بد أن تأتى الآية التالية :

(١) الريح الصر والصر ضر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . قال الزجاج : الصر والصرقة شدة البرد . [قاله ابن منظور فى اللسان] .

(٢) الدهط : الجماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. ﴾ (٩١) [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴾ (٩٢) [النمل] من إضافة الشيء إلى ما يبينه . [القاموس القويم] . [٢٧٨/١]

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ^(١) فَأَصْبَحُوا
فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ^(٢)﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد أورد في هذه السورة : أسلوبيين منطوقين
أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٤٤)﴾ ، في قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثاني : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٦٦)﴾ [هود]

في قصة اثنين من الرسل^(٣) .

وقصة شعيب هي إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾
ولم يأت بـ «الفاء» لأنها - كما نعلم - تقتضى التعقيب بسرعة ، وبدون
مسافة زمنية ؛ وتسمى في اللغة «فاء التعقيب» ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ^(٤)﴾ (٦١)﴾ [عبر]

(١) الصيحة : اسم مرة من الصياح ، وهو الصوت الشديد . والصيحة : العذاب الذي يصحبه صوت
شديد . قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَسْمَعُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٤٦)﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

(٢) جثم جثوماً : لزم مكانه لا صفياً بالأرض ، قال تعالى : ﴿... فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ (٦٦)﴾ [هود]
كناية عن موتهم بخالتهم فهم هامدون لا صفون بالأرض . [القاموس القويم] .

(٣) هما نبي الله صالح ، ونبي الله لوط عليهما السلام . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ .. (١١)﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حَيْلًا مِنْ سَجْدِ
مُطْعَدٍ (٦٢)﴾ [هود] .

أما ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فقد جاءت في نبي الله هود في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ .. (٤٤)﴾ [هود] ، وكذلك نبي الله شعيب في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ .. (١١)﴾ [هود] .

(٤) قبره وأقبره : دفنه في قبر . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ
(٦١)﴾ [عبر] وجمع القبر : قبور . وقال تعالى : ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُخِرَتْ (٤)﴾ [الأنفطار] . [القاموس
القويم ٩٥ / ٢] . يتصرف .

أما «ثم» فتأتى لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾^(١) (٢٢) ﴿

[عبس]

وقد جاءت «الفاء» مرة فى قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذى ينزل فيه العذاب ، وقال :

﴿... إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الْيَسُّ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) ﴿

[هود]

فكان لا بد أن تسبق «الفاء» هذا الحديث عن عذابهم ، فقال :

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾

[هود]

مَنْصُودٌ (٨٢) ﴿

أما هنا فى الآية التى نحن بصدد خراطنا عنها ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...﴾ (٩٤) ﴿

[هود]

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ...﴾ (٩٤) ﴿

[هود]

وكل أمر يقتضى أمراً ؛ ويقتضى مأموراً ؛ ويقتضى مأموراً به .

(١) أنشره : أحياء وأوجده . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ (٢٢) ﴿ [عبس] أى : يبعثه من قبره . وقال تعالى : ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهٖ بَلَدًا مَيْتًا ...﴾ (٧٧) ﴿ [الزحرف] أى : أحييناها بما جاء المطر ؛ لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم] .

(٢) السجّيل : الطين المتحجر . والمنصود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . ويقول تعالى : ﴿وَالْمُحَلِّ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (٧٧) ﴿ [ق] أى : مرسوم بنظام . [القاموس القويم ١/ ٢٠٤] .

والأمر هنا هو الله سبحانه ؛ وهو القادر على إنفاذ ما يأمر به ،
ولا يجزؤ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه ؛ فالكون كله يأتمر
بأمر خالقه .

إذن : فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم ؛
فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر ؛ ولم يتخلف العذاب عن المجيء ؛ لأن
التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر بمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجزؤ العذاب
على المخالفة لأنه مُسَخَّر ، لا اختياري له .

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكوني والأمر التشريعي ؛ فإذا
قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله في القرآن ؛ فتبين من أنه
حادث لا محالة ؛ لأن القضية الكونية هي من الحق سبحانه وتعالى ،
ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعي يسعد به مَنْ
يُطِيقه ؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالا لهذا في قصة أم موسى . . يقول جلّ شأنه :
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي
الْيَمِّ ۚ ۝ (٧) ﴾ [القصر]

فمنطلق البشر يقول : كيف نقول لامرأة : إذا خفت على ابنك ألقيه في
البحر ؟ كيف تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟
هذا وإن كان مخالفاً لسنة العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله
سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتي لها معارض في الذهن .
والحق سبحانه كما أمرها بالقاء وليدها في اليم ، فقال :

(١) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۚ ۝ (٩٥) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَأَلْقِيهِ
فِي الْيَمِّ ۚ ۝ (٩٦) ﴾ [طه] النهر العذب [القاموس القويم ص ٣٧٢ ح ٢] .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٦٦٢

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَمَرَكَ مَا يُوحَىٰ (٢٨) أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ . . (٢٩)﴾ [طه]

كذلك أمر الحق - سبحانه وتعالى - اليم باللقاء التابوت - وفي داخله موسى - للساحل ، ولذلك فيقين أم موسى في أن أوامر الله لا تتخلف ، جعلها تسارع في تنفيذ ما أمرها الله به .

والحق سبحانه يريد أن يُرَبِّبَ الإيمان ، أي : يزيده في قلوب عباده ، فَهَبْ أَنْ الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس ؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٢)﴾ [الصفات]

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غلبوا فافهموا أن شرط الجندية لله قد تخلف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة .

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ في البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع هذه المخالفة ؟

إذن : فقد انهزم المسلمون الذين احتلت فيهم صفة من صفات جنديتهم لله .

ولا بد أن تلتقى القضيتان : القرآنية والكونية ؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب .

وسمى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال :

﴿ . . وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ (٩٤) ﴾ [هود]

وسمى الحق سبحانه في سورة الأعراف العذاب الذى لحق بهم :
«الرجفة» ؛ فقال :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (٩١)

[الأعراف]

وسماه في قصة قوم عاد :

﴿ .. بِرِيحٍ عَاصُورٍ ^(١) عَاتِيَةٍ ﴾ (٦١)

[الحاقة]

وسماه بالحسيف في عذاب فارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهي أن العذاب كان يتقى القوم الكافرين فقط ؛
ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴾ (٩٤)

[مرد]

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر ؛ يُصَرِّفُ الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة «نجينا» : من النجاة ؛ أى : أن يرجد بنجوة ؛ وهى المكان
العالى ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ؛ فقد كانوا يقيمون فى اليمن
ثم بعثهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ^(٢) فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (٥٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

(١) العاصر ، والعصر : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ قَهَاقِهَا ^(١) ﴾ [آل عمران] . والريح :
الهواء المتحرك فى الجو ، وأصلها «روح» نبت الواو ياء لكسر ما قبلها . والجمع : رياح ، وتجمع أيضاً
على «أرواح» - على الأصل - وقال تعالى : ﴿ .. بِرِيحٍ عَاصُورٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة] أى : شديدة
مدمرة - على سبيل الاستعارة - كأنها إنسان جبار طاغى عاتى : [القاموس القويم] .

(٢) سبأ : اسم رجل يجمع عدة قبائل نشأت فى اليمن ، وسميت باسمه مدينة كبيرة باليمن ، كانت عاصمة
ملك اليمن . قال تعالى : ﴿ .. وَجَنَّاتٍ مِنْ سَبَأٍ يَنْفَسِينَ ﴾ [النمل] . [القاموس القويم ٢٩٩/١] .

الْعَرَمِ ^(١) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ ^(٢) وَأَثَلٍ ^(٣) وَشَيْءٍ مِّنْ
سِدْرٍ ^(٤) قَلِيلٍ ^(٥) ﴿١٦﴾

[سبأ]

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا في الجزيرة العربية ، وكانوا
يخافون من الماء - رغم أنه سر الحياة ؛ وفضلوا الثعب في البحث عن الماء
لشرب لهم ولأنعامهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء
جاءت كلمة «نجا» أى : صعد إلى مكان مرتفع .

واستخدمت كلمة «نجا» في كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر
الداهم ^(٦) ، فيقال : «نجا من النار» ؛ «نجا من العدو» ؛ «ونجا من الحيوان
المفترس» ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أى : المكان المرتفع . ويقال في
الفعل (نجا) : نجا فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب .

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى
مَنْ يُنْجِيهِ ، ويُقال : «أنجاه» ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة
صعبة لتحقيق الفوز .

(١) السيل : الماء الكثير يجري ويسيل على الأرض . رسيل العرم : أى : سيلان العرم ، وهو سدر اليمن ،
أو سيل المطر الشديد . [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٢) الخَمْطُ : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعانقه النفس . قال تعالى : ﴿ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ
سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] لما غضب الله على سبأ جعل طعامهم هذه الأشياء ، وذلك كناية عن شدة الفقر .
[القاموس القويم ١/ ٢١١] .

(٣) الأَثَلُ : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان ، أوراقه دقيقة ، وثمره خبُّ أحمر مُرٌّ لا يؤكل . قال
تعالى : ﴿ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ] كناية عن ضيق العيش وشدة الفقر .
[القاموس القويم ١/ ٧] .

(٤) السدر : شجر النبق ، وهو شجر شائك له ثمر ، فيه حلاوة قليلة ، واحلته سدره ، وهو كناية عن ضيق
العيش ، فقد ضيق الله عليهم الرزق لعدم شكرهم . [القاموس القويم ١/ ٣١٧] .

(٥) كل ما غشيك فقد دهمك . ويقال : يدهمهم أى : يقعوهم . راجع لسان العرب .

ونسب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال «جينا» .

ويأتى الحق سبحانه فى مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ^(١) ۝ ﴾ [القدر]

فكل شىء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتى الله فيه بضمير الجمع : إِنَّا .
أما إذا كان الشىء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتى بضمير الأفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ۝ ﴾ [طه]

وقد أنجى الحق سبحانه شعباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعباً عليه السلام
قال لقومه :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. ۝ ﴾ [هرد]

وكان عمل شعب عليه السلام فيه صحة وعزيمة التوكل ؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أى عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من التجاح والرفعة .. والمفتاح فى يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال فى الحديث القدسى :

«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملاخيره منه» ^(٢) .

(١) أنزلناه : ابتدأنا إنزال القرآن العظيم . ليلة القدر : ليلة الشرف والعظمة . [كلمات القرآن للمشيخ حسين مخلوف] .

(٢) تمام الحديث : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسه ، وإن ذكرني فى ملاخيره فى ملاخيره منه ، وإن اقترب إلى شبراً تغربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » من حديث أبي هريرة .

إذن : فالمفتاح في يد العبد .

والحق سبحانه هو القائل :

«ومن تقرب إلى شبراً تقربتُ إليه ذراعاً» .

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد ، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى ، فإنه سبحانه يتقرب إلى العبد أكثر وأكثر .

ثم يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي :

«ومن جاءني يمشي أتيتُه هرولة»^(١) لأن المشي قد يُتعب العبد ، لكن لا شيء يُتعب الحق سبحانه أبداً ؛ لأنه مُتَزَّهٌ عن ذلك .

إذن : فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية في الالتحام بمعية الله تعالى ، ليصفى علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله^(٢) .

وانظروا إلى سيدنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار . . يقول الحق سبحانه :

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. (٤٠)﴾ [التوبة]

أي : أن رسول الله ﷺ ينهي صاحبه عن الحزن بعلّة معية الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن ؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه ، بل من قانون كوني ، حين قال لرسول الله ﷺ : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا» لكن رسول الله ﷺ لا يتكلم عن القانون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) والإمام أحمد في مسنده (٣١٥/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) صفات الجمال هي الصفات المعبرة عن الرحمة والمغفرة والأمن والسلام مثل : الرحيم ، الغفور ، السلام ، المؤمن . أما صفات الجلال فهي الصفات المعبرة عن القهر والجبروت والضر مثل : القهار ، الجبار ، الضار ، المصير .

الكوني ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكون سبحانه ، فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ »^(١) .

فبعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار^(٢) .

وقد ألجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ، والرحمة ألا يصيبك شيء .

ومثال ذلك : إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من الداء .

ولذلك انتبهوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين : شفاء ، ورحمة ، فإذا كان هناك داء وترجمه إلى منهج الله ، فالحق سبحانه يشفيه ، والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية .

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. (٦٧) ﴾ [هود]

وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. (٦٨) ﴾ [هود]

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليعلى قريشاً ؛ ولكن لأن لغة قريش كانت مُصفاة من جميع القبائل العربية ، فهي تلك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعني أن نطمس بقية القبائل .

(١) منقول عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٢٠﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴾ [الأنعام] .

ولذلك جاء في القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطى لقريش سيادة في الإسلام كما كان لها سيادة في الجاهلية ، لذلك يأتي بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتي بناء التأنيث ومرة لا يأتي بها .

والتأنيث إما أن يكون حقيقياً^(١) أو مجازياً^(٢) . والتأنيث الحقيقي هو المقابل للمذكر ، مثل : المرأة . والتأنيث المجازي مثل : «الصبيحة» و«الحجرة» . وكانت القبائل العربية تتجاوز في المؤنث المجازي ؛ فمرة تأتي «النساء» ومرة لا تأتي^(٣) .

وإن كان هناك فصل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التأنيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ .. (١٧) ﴾ [هود]

(١) المؤنث الحقيقي هو الذي يلد ، ويتناسل ، ولو كان تناسله من طريق البيض والتفريخ . ولا يبدأ في لفظ المؤنث الحقيقي من علامة تأنيث ظاهرة أو مقدرة مثل : فاطمة ، ليلى ، هند ، عصافير ، بقر ، ... الخ . قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَوْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي .. (٣٥) ﴾ [آل عمران] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَعَلَّةَ يَنَاقُهَا الْمَلَأْتُ إِذْخُلُوا سَائِكُكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] .

(٢) المؤنث المجازي هو الذي لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان لفظه مختوماً بعلامة تأنيث ظاهرة ؛ مثل : ورقة ، وسفينة ، ... ، أم مقدرة ، مثل : دار ، وشمس . ولا سبيل لمعرفة المؤنث المجازي إلا من طريق السماع الوارد عن العرب .

(٣) يجوز التأنيث وتركه إذا كان الفاعل حقيقياً والتأنيث ولم يتصل بالفاعل - أي : فصل فاصل بين الفعل والفاعل المؤنث - مثل قوله تعالى : ﴿ فَعَجَّاهُ إِحْدَاهُمَا فَتُفِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ .. (١٢) ﴾ [القصص] وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُسْتَأْذِنَاتُ فَمُهَاجِرَاتٍ فَاذْهَبْنَ .. (١٣) ﴾ [الممتحنة] وإذا كان الفاعل مؤنثاً مجازياً ، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. (١٥) ﴾ [محمد] ، وأن يكون الفاعل جمع تكسير ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِنَّمَا .. (١١) ﴾ [الحجرات] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ بَشْرَةُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٤) ﴾ [يوسف] . وهناك تفصيلات كثيرة أخرى انظرها في

[١] النحو الزاوي العباس حسن (٤/ ٥٨٦ ، ٥٨٧) . والنحو المصنف للدكتور محمد عبد (ص ٤٠٢ - ٤٠٦) .

فكان الصيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسل الصيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد .

وَيُنْهِى الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (٩١)

[هود]

ونلاحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

[هود]

ومثل قوله الحق :

﴿ .. فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (١٧٧)

[الصافات]

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذي لم يغادر النوم بعد^(١) ، مثل زُؤَارِ الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ (٩١)

[هود]

ولم يقل سبحانه : « فأصبحوا في دارهم جائعين » ؛ لأن بعضهم قد لا يكون في بيته ، بل في مكان آخر لزيارة أو تجارة .

ومثال ذلك : قصة أبي رغال ، وكان في مكة ، لكن الحجر الذي قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه في البقاع ولم يتزل عليه الحجر في مكة ؛ لأن

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ (١١٥) [القمر] والبكرة أول النهار . ويسمى للإسراع إلى الأمر في أي وقت . [القاموس القويم] .

الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر في البيت الحرام ، الآمن ، وكان الحجر قد تَبَّعَهُ ، مثلما تتبعت الصبيخة الكفار من أهل مدين^(١) .

ونلاحظ في الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهي «جاثمين» أن حرفي «الجيم» و«الهاء» حين يجتمعان معاً - يصرف النظر عن الحرف الثالث - ففيهما شيء من الهلاك ، وشيء من الفناءية . ومعنى «جاثمين» أي : مُلقون على بطونهم بلا حراك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ^(٢) ... ﴾ (٥٨) ﴿

[الجاثية]

أي : يركع كل من فيها على ركبتيه . ويقال عن الميت : «الجثّة» .

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ «الجثّة» تعبيراً عن أي «ميت» عظيماً كان أم وضيعاً^(٣) ، ثم توضع جثته في القبر ، لتختضنه أمة الأولى : الأرض .

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعفروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعفروها فأخذتهم صبيحة أحمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله . فبقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : أبو رغال ، فلما أخرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، فأخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) وإلخاكم في مسنده (٣٢٠/٢) . ٥٦٧ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) جثا يجثو جثواً ، وجثى بجثى جثياً : جلس على ركبتيه فهو جاث . وهي جاثية . قال تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ... ﴾ (٥٨) [الجاثية] كناية عن المعجز والتخوف والترقب كالسجين ينتظر المحاكمة . وقال تعالى : ﴿ ... ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ﴾ (٥٨) [مریم] تصويراً لحالهم في ذلك ومهانة يتظفرون العذاب الشديد . [القاموس القويم : مادة (جثى)] .

(٣) الوضيع : الأدنى من الناس ، وهو ضد الشريف . والضعة : الذل والهوان والذناء . [لسان العرب - مادة : وضع] .

ومن يرغب في تهدئة إنسان ملتاع^(١) وغاضب لموت عزيز عليه ، فليقل له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : « لا » .

إذن : فبمجرد أن يتزع الله سبحانه السر الذي به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يرم^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصبيحة من أهل «مدين» :

﴿كَانَ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ الْآبَعْدُ الْمَدِينُ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ^(٣)﴾

أى : أن من يمر على أهل «مدين» بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .
والحق سبحانه يقول :

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا ..﴾ (٢٤)

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقه الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يبعده الإنسان لو لده وخيمه من الحرقه وشدة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوح] .

(٢) الرميم : البالى من كل شيء . رم الميت : بلى جسمه ، قال تعالى : ﴿ .. مَنْ يَخْشَى الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٢٥) [يس] والرمة : العظم البالى . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طاق مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْبَصِيرُ ﴾ (٢٦) [هود] .

(٤) بعد بعداً وبعداً : هلك . قال تعالى : ﴿ .. الْآبَعْدُ الْمَدِينُ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٢٧) [هود] أى : ملائكة مدين كما هلكت ثمود . [القاموس القويم : مادة (بعد)] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهي غير الجنة التي ينال فيها الإنسان ما يشتهي بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ ۝ (٩٥) ﴾ [هود]

ومادة «الغنى» منها : الغناء - بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدي إلى الشيء الذي يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكتفى عما في أيدي الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذي يعجبه ، والمُلقِّن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذي يغنيك عن غيره .

والغناء ، أى : الإقامة فى مكان إقامة تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ ۝ (٩٥) ﴾ [هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۚ ۝ (١٠٠) ﴾ [هود]

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ قَامَتْهُمْ فِي دِيَارِهِمْ جَالِمِينَ ۝ (٩٥) ﴾ كأن لم يغنوا فيها .. [هود] وقد غنيت الدار بأهلها : غمرت بهم . قال تعالى : ﴿ لَمَّا نَسَبْنَا وَحْشِدًا كَانَ لَمْ تَفْرَ بِالْأَنْسِ ۚ ۝ (٩٥) ﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة (غنى)] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿ وَفَرَّ قَائِمٌ يَعْلَى فِي الْبَحْرِ ۚ ۝ (٩٥) ﴾ [أل عمران] وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَوَى نَقَصْنَا عَنْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۚ ۝ (٩٥) ﴾ [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزروع ، ومنها ما هلك فصار كالزروع الحصيد . [القاموس القويم : مادة (قوم)] .

أى : أن الأطلال ^(١) قائمة بما تحويه من أحجار ورسوم ^(٢) ، مثل معابد قدماء المصريين ، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة ، بل تجد عموداً منتصباً ، وآخر ملقى على الأرض ، وباباً غير سليم ، ولو كانت كلها حصيداً ؛ لاختفت تماماً ، ولكنها بقايا قائمة ، ومنها ما اندثر ^(٣) .

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات ، لأنها لو ذهبت كلها ؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلَا بَعْدُ لِمَدَّيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفتاح» ليلفت السامع وينصت ، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم ، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد .

وكلمة «بُعْدُ» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد ؛ لأنها هلكت بالفعل ، ومادة كلمة «بُعْدُ» هى : «الباء» و«العين» و«الذال» وتستعمل استعماليين : مرة تريد منها الفراق ؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها :

﴿ .. كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة .

(١) الأطلال : جمع طلل ، وهو ما شخص من آثار الديار القديمة . وقيل : طلل كل شيء شخصه . [انظر : لسان العرب] .

(٢) الرسوم : جمع الرسم . وهو بقية الأثر . وقيل : هو ما لصق بالأرض منها . ورسم الدائرة ما كان من آثارها لاحقاً بالأرض .

(٣) اندثر : اندرس وانحاه الذكر ، وكل شيء امحى وذهب أثره ففقد أثره . [اللسان بتصرف] .

والشاعر^(١) يقول :

يَقُولُونَ لَا تَبْعُدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَنِي
وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا
فهذا هو البعد الذي يذهب إليه الإنسان ولا يعود^(٢).

ولماذا خُصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ، وقد سبق أن قال سبحانه عن
أقوام آخرين : «ألا بعداً؟»

لأن الصيحة قد جاءت لثمود^(٣) ، وبذلك اتفقوا في طريقة العذاب .

وتنتهي هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين ، ونلاحظ أن لها مساباً برسل
مثل موسى عليه السلام ، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام .

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت ، أي : أن كل واحد منهم
أُرسل إلى بيئة معينة ومكان معين . ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله
كلهم ؛ لذلك أُرسل لكل بيئة رسلاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة .

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام ، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام .
وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون .

(١) الشاعر هو : مالك بن الربيع المازني ، شاعر من الظرفاء الأدباء القُنتاك ، اشتهر في أوائل العصر
الأموي ، شهد فتح سمرقند ونيسابور ومرض في مرو وأحسن بالتوث ففاز قصيدته التي منها هذا البيت
وعندها ٥٨ بيتاً أوردها أبو علي الفاي كاملة في أماليه (٣/ ١٥١ - ١٥٤) توفي عام ٦٠ هجرية . انظر
الأعلام للزركلي (٥/ ٢٦١) .

(٢) البعد : الهلاك . بعد : هلك . تقوله تعالى : ﴿ .. أَلَا بَعْدُ لِمَنَيْنِ كَمَا بَعْدَتْ لُثُودُ ﴾ (٢٥) [مرد] أي :
هلاكا مدينين كما هلكت ثمود . والبعد : خلاف القرب ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا جُعِلَ قَسَمٌ لِّكُمْ أَنَّمَا تَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِهِمْ لَا أَنْ يَكُونَ ثَمَرًا عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُونُوا فِي سَعْيِهِمْ مُعْشَرِينَ ﴾ (٢٥) [الزخرف] أي : مقدار بعد أحدهما عن الآخر . [القاموس القويم] .

(٣) قال رب العزة سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ (٢٥) [الحاقة] أي : أملاكوا بالصيحة التي تجاوزت
الحد في قوتها . والطغيان : تجاوز الحد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (٢٥) [الحاقة] أي : زادت وتجاوز الحد فأغرق البلاد . [القاموس القويم ١/ ٤٠٢] .

ونحن نعلم أن الأماكن في الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش في موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى .

لكن حين أزال الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه ألا أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن في أي مكان في العالم ، يتنقل إلينا عبر الأقمار الصناعية في ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ،

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون ؛ لأن الأصل في القصص القرآني أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسل ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحي لتناسب الموقف الذي يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد^(١) .

وبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم في النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوبه جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس في القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسل ﷺ .

ولنا أن نلاحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهي إلا بأن تأتي فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تِلْكَ الْبَيْتَ بِهٖ نُوَادُّكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَخُرُجُكَ وَذِكْرُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود] . ثبت الأمر : ربيع واستقر ضد نزول واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ تَبَيَّنَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ۚ ﴾ [زمر] أي : بقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك ثبت معنوي . [راجع : القاموس المقيّم ١/ ١٠٥] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٤٩

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين:
اللقطة الأولى: هي الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية: هي خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى :

﴿ يَاقُومُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدْهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ (٩٨) وَأَنْتُمْ فِي هَذِهِ لَعْنَةٌ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه في قوله :

﴿ .. نَجَّوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبتته وهياً له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثماني حجج أو أن يتجها عشر حجج^(١) ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عِنْدَكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْرَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

(١) الحجج - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً ، وجمعها : حجج . قال تعالى : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي

ثَمَانِي حَجَج .. (٢٧) ﴾ [القصص] أى : ثماني سنوات كاملة . [القاموس القويم] .

(٢) أجر فلان فلاناً أجراً : أثابه على عمل أو صارا أجيراً له ، وبالوجهين قُرِ قولُه تعالى : ﴿ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي

ثَمَانِي حَجَج .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسُمِّيَ المهر أجراً مجازاً . وقال تعالى : ﴿ فَاتَّوَفَّيْنَاهُ أَجْرَهُمْ .. (٢١) ﴾

[النساء] أى : مهووه . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (١٠٥) ﴾ [البقرة] أى : ثواب عمله .

[القاموس القويم ١/ ٨] .

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة في قصة موسى عليه السلام.

ومن هذا ومن ذلك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنيات قد تلتقي مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قسَّ الحق سبحانه الطلاق في الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مرَّ العاناة .

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل في القرآن قانون السماء الذي بقي الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى في كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه .

وفي قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فيها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرعة عين له ^(١) ، رغم أن فرعون كان يُقتل أطفال تلك الطائفة ^(٢) .

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه ^(٣) .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَئِكَ لَا تَقْلُوهُ عَسَى أَنْ يَفْعَلَا أَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣٠) [القصص] .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلًا سِيعًا بِسْتَظْفِرُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّيْبُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤٦) [القصص] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لَوَادِّ أُمِّ مُوسَىٰ فَإِنِ كَادَتْ لَتَفْدِيَ بِهٖ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٥) وَقَالَتْ لِأَخِيهِ لَعَنَهُ فِرْعَوْنُ بِهٖ عَنِ حُبِّ وَهْمٍ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٦) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاعِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (٢٧) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنُنَكِّمَنَّ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) [القصص] .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٦٥١

وقد صورَ الشاعر هذا الموقف بقوله :

إِذَا لَمْ تُضَافِ فِي بَيْتِكَ عَنَاءُ

مِنْ اللَّهِ فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِي وَخَابَ الْمَأْمُلُ

فَمُوسَى (١) الَّذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ

وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة ، في البداية وفي النهاية ؛
ليبين لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من
الرسل ، وهو موسى عليه السلام .

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث - هو ماء مدين ، فحدث ما يمكن
أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهي رأس الحربة التي
تُوجّه إلى المجتمعات الإسلامية ؛ لأن البعض يريد أن تبذل المرأة في
مفاتها ، لإغواء الشباب في أعز أوقات شراسة المراهقة .

لكن القرآن حلَّ هذه المسألة في رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه
عن موسى :

﴿وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ
امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (٢١) . . (٢٢)﴾ [القصص]

أي : تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه ، وكان هذا المشهد مُلفتاً لموسى
عليه السلام ، وكان من الطبيعي أن يتساءل : ألم تأتيا إلى هنا لتسقى الماشية ؟
وقال القرآن السؤال الطبيعي :

(١) موسى السامري الذي رباه جبريل خالف أمر ربه بغتة ، فعزل اجتماعياً وكتب عليه العذاب ، بخلاف
موسى الرسول عليه السلام .

(٢) ورد برد ورداً وقروداً : حضر أبو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله . وورد الماء : فصله ويذغ
ووصل إليه . واسم الفاعل مت : وبرد . واسم المفعول : موزود . [القاموس القويم] .
أمة من الناس : جماعة كثيرة منهم . [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .
تذودان : تمنعان أئناهما عن الماء . [كلمات القرآن] .

[الفصص]

﴿ مَا خَطَبُكُمَا ^(١) .. (٢٣) ﴾

فتأتيه الإجابة من المرأتين:

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ^(٢) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ^(٣) ﴾ [الفصص]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بفرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظننا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى ﷺ ليمارس مهمة الرجل :

[الفصص]

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. (٢٤) ﴾

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قري ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام .

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضى الرجل المسلم لها حاجتها .

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام ١٩٥٠م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التي لم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما خطبكما : ما شأنكما ؟ أو ما مطلوبكما ؟ . [كلمات القرآن] .

(٢) يصدر الرعاة : يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء . [كلمات القرآن] .

والصلور : الرجوع والانصراف . يقال : ورد إلى البشر ثم صدر عنها أي : وجع . وصدر دوابه : أرجعها بعد ورودها . [القاموس القويم] .

(٣) شيخ الإنسان بشيخ : أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من جاوز الخمسين من عمره . وله جموع كثيرة منها : أشياخ ، وشيوخ ، ومشايخ ورد منها في القرآن جمع واحد هو : شيوخ . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَبَلُوا أَعْدُكُمْ ثُمَّ لَكُمْ شُيُوعًا .. (٥٥) ﴾ [غافر] . [القاموس القويم ١ / ٣٦٣] .

نفس الباب . وقال لى : إن هذه هى عادة أهل مكة ، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز ؛ فعليه أن يفعل ذلك ؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب .

وهذا كله مأخوذ من كلمة :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ۖ ٢٤ ﴾

[القصص]

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجتود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم .

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التى تخرج إلى مهمة عليها ألا نستمرى^(١) ذلك ، بل تأخذها على قدر الضرورة ، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة ، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب :

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ٢٥ ﴾ [القصص]

ويُنهى شعيب رضي الله عنه هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول لموسى :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ ٢٦ ﴾

[القصص]

فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ ٢٧ ﴿

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يُلْقَى بابتته هكذا دون مهر^(٢) ،

(١) استمرى الطعام : وجده مربباً أى : جيداً مستساعاً . واستمرى الشيء : أحبه واستزاد منه . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) المهر : الصداق ، والجمع : مهور . وهو الصدقة جمعها صدقات . قال تعالى : ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ٢٨ ﴾ [النساء] . قال فى فقه السنة (٢ / ٢١٨) : لم تجعل الشريعة حداً لثقله ، ولا لكثرة ، إن الناس يختلفون فى الثنى والغفر ، ويتفاوتون فى السعة والفقير ، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها ، وكل التصرف جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة ، يقطع النظر عن القلة والكثرة ، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله ، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم .

لا .. بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها مجرمة عليه ^(١) .
وهذه القصة وضعت لنا مبادئ تحل كل المشكلات التي يتشدد بها
خصوم الإسلام .

وها نحن نجد في الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء
في المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال
المرأة في أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهي تربية الأبناء .

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل
الكائنات ، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم .

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ^(٢) ﴾

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت في القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء :

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراهما كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار
والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

(١) الجمع بين الأختين من المحرمات محرماً مؤقتاً ، يزول التحريم بزوال أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت
طلاقاً باتناً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثانية هي وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ .. ﴾ ^(١٧) إلى قوله : ﴿ .. وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴾ ^(١٨) [النساء] . وانظر فقه السنة (٢ / ١٦٩) .

(٢) سلطان مبين : برهان بين على صدق رسالته . [كلمات القرآن] .
والسلطان : الملك والقوة والقهر والحجة والبرهان . يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ..
﴿ [النحل] أي : فهو الشيطان وغلبيه وتسلطه على الذين يتولونه ويتبعونه ، وقال تعالى :
﴿ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانُهُ ﴾ ^(١٩) [الحاقة] أي : قوتي زالت وغلبي وقهري فلا أستطيع الدفاع عن نفسي ،
[القانون من التقريم] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٥٥

وربت^(١) ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر في أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتي لبيان صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات مثل : ناقة ثمود المبصرة^(٢) ، وشفاء عيسى عليه السلام^(٣) للأكمه والأبرص^(٤) بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التي تبين مطلوبات المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٤٦ ﴾ [هود]

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تقنع العقل .

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يقهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قوالب ؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ نَعْلَمُكَ بِأَخِي ۝٤٧ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٤٨ إِن نَّشَاءُ نُنْزِلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤٩ ﴾ [الشعراء]

(١) يقول تعالى : ﴿ . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ۝٤٦ ﴾ [الحج] . وأي : فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات وحيث بعد موتها ، وربت أي : ارتفعت ، ثم أتبنت ما فيها من الألوان والفتون من ثمار وزروع ، قاله ابن كثير في تفسيره (٢٠٨/٣) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا . ۝٤٧ ﴾ [الإسراء] .

(٣) قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْمِزْنَا الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأَجِيسَ الْمُتَوَتِّي بِإِذْنِ اللَّهِ . ۝٤٨ ﴾ [آل عمران] . والكمه : أن يولد أعمى ، أو يفقد بصره ، والأبرص : من أصابه مرض جلدي يحدث بقعا يضاء في الجلد تشوّهه [القاموس القويم] .

(٤) يخع نفسه بخعاً وبخوعاً : قتلها هماً وغبطاً وحرناً . قال تعالى : ﴿ نَعْلَمُكَ بِأَخِي نَفْسِكَ عَلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يُؤْمِرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٤٩ ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ نَعْلَمُكَ بِأَخِي نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٤٨ ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم ٥٦/١] بتصرف .

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتي إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه .

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجّة ؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل . . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطاناً من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجّة ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ ^(١) عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ^(٢) ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ^(٣) لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية في موسى عليه السلام ، وطارئة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، يدلل الاحتياط في قوله تعالى :

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِثْلَ بَيْضَاءِ ^(٤) .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه]

أما العصا فهي الحجّة التي دفعت فرعون إلى أن يأتي بالسحرة ، ليغلبهم موسى أمام الفرعون والملأ ، فيتبع السحرة سجداً قالوا آمنا برب موسى وهارون ^(٥) .

(١) حقيق على أن : حريص على أن ، أو خليق بأن . . . [كلمات القرآن] .

(٢) مبين : أى : ظاهر أمره لا يشك فيه . [كلمات القرآن] .

(٣) ونزع يده : أخرجها من طرق قميصه . بيضاء : غلب شعاعها شعاع الشمس . [كلمات القرآن] .

(٤) إلى جناحك : إلى جنبك تحت العضد الأيسر . [كلمات القرآن] .

(٥) قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ مُوسَى وَمُوسَى ^(٥) ﴾ [طه] .

سُورَةُ هُودٍ

٥٧٦٦

ونحن تعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى ﷺ بتسع آيات هي :
العصا التي تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير
سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص في الأنفس والشمرات ، لأن
الجذب بمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق
سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقمل والضفادع ، هذه هي
الآيات التسع^(١) التي أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم
إيمانهم برسالة موسى ﷺ .

وهناك آيات أخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى
ﷺ ؛ هي تنق الجبل^(٢) ، وضرب البحر بالعصا^(٣) ، ثم ضرب الحجر
بالعصا لتنفجر اثنتا عشرة^(٤) عيناً ، وكذلك نزول التوراة في ألواح^(٥) .

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَأَسَاءَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ [الاسراء] . وقال تعالى :
﴿ فَاتَّخَذُوا عَصَاَ لَدُنَا مِنِّي ثُلُثَ آيَاتِهِمْ فَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَلْعَنُونَ ۖ ﴾ [الاعراف] . وقال تعالى :
﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۚ ﴾ [النمل] .
وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ۖ ﴾ [الاعراف] . فإذا جاءتهم العسرة
قالوا لئن لم نلِ هذه وإن تصبهم سيئة يطروا بموسى ومن معه إلا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون [٢٤٠]
وقالوا فيها تأييداً به من آية لتسخرنا بها فما نحن لك بمؤمنين [٢٤١] فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين [٢٤٢] ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع
لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولترسلن معك بني إسرائيل [٢٤٣] فلما كشفنا عنهم
الرجز إلى أجلهم بآلهم إذا هم يفترون [٢٤٤] فأنطقنا من أهلهم بأنهم تكذبوا بأننا وكناؤها
غافلين [٢٤٥] [الاعراف] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَفَخْنَا فِيهِ لَهْلَهًا فَوَافِقُ الْجِبَلِ لَهْلَهًا فَوَافِقُ ۖ ﴾ [الاعراف] . ونفخه : رفعه من مكانه وحركه
وحذبه . [القاموس القويم] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۖ ﴾
[الشعراء] . والطود : الجبل الثابت العالي [القاموس القويم ١/٤٤٠] .

(٤) قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اضْرَبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ أَتَفْجَرُ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَ عَيْنًا ۖ ﴾ [البقرة] .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْجَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ۖ ﴾ [الاعراف] . والألواح : جمع لوح ،
وهو الصفحة العريضة من خشب أو غيره يكتب عليه . [القاموس القويم ٢/٢٠٦] .

إذن : فالكلام فى الآيات التسع المقصود بها الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل .
ولذلك نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا فى آخر السورة بالخلاف بين موسى ﷺ وبنى إسرائيل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ . . (١٦٠) ﴾ [هود]

إذن : فقصة مع بنى إسرائيل تأتى بعد إيتائه الكتاب ، أى : التوراة ، وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى ﷺ مع فرعون فيقول :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَمَلْطَانٍ مُبِينٍ (١٦١) ﴾ [هود]

أى : سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاً^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّي فِرْعَوْنُ وَمَلَأِي بِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ
وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (١٦٢) ﴾

والملا : هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصددرون المجالس .
ويقال : « فلان ملء العين » أى : لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر .

(١) الفكاك : فكاك الزهن والأسير : ما قك به . والمراد به هنا : الهروب [المعجم الوسيط] بتصرف .
(٢) الرشيد : ضد الغى والضلال ، وضد السفه وسوء التدبير . ورشد فلان : أصاب وجه الصواب والخير والحق . ونفى الرشيد نفى للحق والخير والصواب . [القاموس الغويم ١ / ٢٦٥] بتصرف .

فالملا - إذن - هم أشراف القوم ، وهم - عادة - الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْتَخَفَّ ^(١) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ^(٥٤) ﴾ [الزخرف]

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملا والقوم ، نجده يبين ويفصل بين الملا من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملا من جهة ، والقوم من جهة أخرى . . فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبين لنا الله سبحانه أن الملا قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذى يصفه الحق سبحانه بقوله :

﴿ . . وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ^(٩٧) ﴾ [هود]

والرشد يقابله الغي ، وهذا القول يدلنا على أن الملا من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأن ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

وبين الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى :

﴿ يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ^(٢)
وَيُبَشِّرُ الْمُورِدُ ^(٣) الْمُورِدُ ﴾

(١) خف الحمل : قل ولم يكن تقيلاً . ومن المجاز : خف عقله : طاش وحمق . ومنه : استخفه : أى : استضعف عقله وسخره وسيره على هواه وحمله على الطيش والحمق . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ . . ﴾ [الزخرف] [الغاموس القويم ١/ ٢٠٠] .

(٢) يقدم قومه : يتقدمهم كما يتقدم الوارد . فأوردهم النار : أدخلهم فيها بكفره وكفرهم . الورد المورود : المدخل المدخول فيه ، وهو النار . [كلمات القرآن] .

وكلمة «يقدم» هي من مادة «القاف» و«الدال» و«الميم». وعند استخدام هذه المادة في التعبير قولاً أو كتابة ، فهي تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: «قدم فلان» دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: «أقبل فلان» فهذا يعنى الإقبال بشيء من العزم. و«قدم القوم يقدمهم» أى: أنهم يتقدمون فى اتجاه واحد ، ومن يقودهم يتقدمهم.

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملا ، والقوم اتبعوا الملا وفرعون ، وما داموا قد اتبعوه فى الأولى ؛ فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة.

ويأتى القرآن بآيات ويبيّنُها ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا^(٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ حَشَدٌ عَلَيْهِمُ الرِّحْمَنُ عَنِيَّا^(٦٩) ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا^(٧٠)﴾ [مریم]

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة ، ويلقيه فى النار ، لأنه أعلم بمن يجب أن يصلى السعير.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا^(٧١) كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا^(٧٢) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا^(٧٣)﴾ [مریم]

(٦٨) جثياً: ياركبن على ركبهم لشدة الهول. عنيّا: عصياناً ، أو جرأة أو فجوراً. صلياً: دخولاً أو مقاساة لجرها. [كلمات القرآن].

(٧٢) واردها: أى: بالغ النار ، وواصل إليها ، فممنهم من يردها ليدخلها ، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورويتها ليدرك مقدار نعمة الله سبحانه عليه بالنجاة منها. [القاموس القويم ٢/ ٢٣٠] ، وورد فى [كلمات القرآن]: واردها ، أى: بالمرور على الصراط الممدود عليها.

(٧٣) حتم الله الأمر حتماً: أرجبه ، وهذا أمر حتم: أى: لا زام لا بد منه ولا فكلك عنه. والحتم: القضاء النافذ. قال تعالى: ﴿.. كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا^(٧٣)﴾ [مریم] أى: أن ورود المخاطبين من الكفار النار ليعذبوا فيها هو قضاء نافذ لازم. وقيل: يردها المؤمنون أيضاً ليدركوا مقدار نعمة الله عليهم بالنجاة منها. مقضياً: أى: محكوماً به مفرغاً من ، لا راد له ، ولا معقب عليه. [القاموس القويم ١/ ١٤١].

سُورَةُ هُودٍ



ولم يقل الحق سبحانه : « وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » .

وإنما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴾ (٧١) [مریم]

وبذلك عمّم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل .

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون :

﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ^(١) ﴾ (٩٨) [هود]

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن «الورود» ، وهو الكتاب الذي نزل بلسان عربى مبين ، لمجد أن الورود يأتي بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت : «ورد يرد ورودا» ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل : «ورد يرد ورودا» بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا :

﴿ .. وَيَسَّى الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ^(٢) ﴾ [هود]

أى : أنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه .

إذن : فكلمة «الورد» تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله :

﴿ وَتَسْأَلُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا ^(٣) ﴾ (٨٦) [مریم]

(١) يسى الورد المورود : أى : يسى الموضع الذى يرمه الإنسان فيلقى فيه العذاب الأليم . [القاموس القويم ٢٣٠ / ٢] .

(٢) الورد : الماء أو موضعه ، أو الإبل الواردة على سبيل اللجاز . قال تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا ^(٤) ﴾ [مریم] أى : جماعة يردونها ويدخلونها كما ترد الإبل الماء . [القاموس القويم ٣٣٠ / ٢] .

وقد قال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى^(١) في معلقته :

فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَامَهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ^(٢)

والشاعر هنا يصف الركب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أي شيء يعكرها أو يكدرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً في يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَرَكْتُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا نَارٌ أُخْرَى^(٣) ﴾ (١٨)

[طه]

ويقول الشاعر^(٤) :

فَأَلْقَيْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى^(٥) كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ^(٦) الْمُسَافِرُ

(١) حكيم الشعراء في الجاهلية ، من قبيلة مضر ، ولد في بلاد امزينة بنواحي المدينة ، كان أبوه وخاله وابناه كعب ويحيى شعراء ، وكذلك أخته سلمى والحسناء . توفي عام (١٣٠ ق هـ) . [انظر : الأعلام لخبر الدين الزركلي] .

(٢) الجماع : ما اجتمع منه في البئر والحوض وغيرها . ووضع العصى : كناية عن الإقامة ، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا أعصيتهم . والمتخيم : ابتداء الحبيبة . [راجع : شرح المعلقات السبع للزوزني - ص ٨٢] . والمعلقة من بحر الطويل .

(٣) هش الشجر بهشه هشا : ضرب به بعضاً يسقط ورقه لتناكله الغاشية . قال تعالى : ﴿ وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي .. ﴾ (طه) أي : أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها .

ومأرب أخرى : أي : حاجات وأغراض كثيرة أخرى كإبقاء ضرر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١٧/١] بتصرف .

(٤) هو : معقر بن حمار . [قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة : نوى] .

(٥) النبية والنوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد . والنبية والنوى جميعاً : البعد . والنوى : الدار . والنوى : التجول من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . وقد أورد ابن منظور هذا البيت في اللسان مادة : نوى .

(٦) الإياب : الرجوع والعودة . أبيا يؤب : يرجع . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ﴾ (٥٥) [الغاشية] أي : يرجعونهم . والمآب : المرجع ، اسم زمان واسم مكان . [القاموس القويم ١٧/١] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٦٣

فساعة رأى الركب المياه زرقاء ، فهذا يعنى أنها مياه غير مكذّرة .

ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقَة إن كانت خالية من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتعكس عليها صورة السماء الزرقاء .

والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافى وتوقفوا وأقاموا فى المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعنى الذهاب إلى الماء دون الشرب منه . والورد للماء يُفرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء لا شك أنه يعانى من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَبَشِ الْوَرْدَ الْمُرْوَدَ 》 (٩٨)

[هود]

وفى هذا تهكم شديد ، لأنهم -- قوم فرعون -- ساعة يرون الماء يشعرون بقرب رى الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبش ما يشربون ، فهو يطمعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك .

كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِنْ يَسْتَفِثُوا يَفْثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ 》 (٢٩) ﴿ [الكهف]

فهم ساعة يسمعون كلمة «يفثوا» يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ، فإذا ما علموا أنه ماء كالجهل يشوى الوجوه ، عاثوا من مرارة التهكم .

ولله المثل الأعلى : فأنت قد تجد من يدعوك لأطياب الطعام ، وبعد ذلك تغسل يديك ، فيلج عليك من دعاك إلى تناول الجلولى ، فتستشرف نفسك

(١) كالمهل : مثل ددى الزيت أو كالمذاب من المعادن . [كلمات القرآن] . والمهل : المعدن المذاب والفطران وعكر الزيت المثللى ، والقيح . (القاموس القويم ٢/ ٢٤٢) .

إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دعاك قد أوصى الطباخ أن يخلط
الحلوى بنبات «الشطة» فيلتهب جوفك ؛ أليس في هذا تهكم شديد ؟
والحق سبحانه يبين لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن
أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذي
يأكله أهل النار .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ^(١) ﴾ (٢٦)

[الحاقة]

وهكذا تصير النكة نكتين .

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا زَادُهَا .. ﴾ (٧١)

[مرم]

بمعنى أنهم جميعاً سرف يردون جهنم .

ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ ثُمَّ لَنَنْحُنَّ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلًا ^(٢) ﴾ (٧١)

[مرم]

إذن : فالحق سبحانه يعطى لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون
النار وتسعروها ^(٣) ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف نجّتهم كلمة الإيمان منها
فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) الغسلين : غسالة أيذان أهل النار ، أو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح وغيره مما تعافه النفس
وتكرهه . قال تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ^(١) ﴾ [الحاقة] . [القاموس الموزن ٥٤ / ٢] .

(٢) سعرت النار : اشتعلت ، وأسعروها : أوقدها وميجها . وسعروها - بالشديد - : هيجها . قال تعالى :
﴿ وَإِذَا الْجُحِيمُ سَعَتْ ^(٢) ﴾ [التكوير] أي : أوقدت بشدة . [القاموس الموزن ٣١٣ / ١] .

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَيْتُسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾^(١)

أى : أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ،
ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهى لعنة يوم القيامة : ﴿يَيْتُسُ الرِّفْدُ
الْمَرْفُودُ﴾^(٢) والرقد : هو العطاء ، فهل تعد اللعنة فى الآخرة عطاء ؟

إن هذا نهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَيْتُسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾^(٣) [هود]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^(٤)

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب ؛ لأنها كذبت أنبياءها .
والخطاب موجّه لرسول الله ﷺ لتثبيت فؤاده ، والحق سبحانه إنما يبين
له أن الكافرين لن يكونوا ينجى من العذاب ؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم
السابقة الكافرة بالعذاب .

وقول الحق سبحانه :

(١) رفته يرفده رقدًا : أعطاه وأعانه . والرقد : العطاء والمعونة . قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
يَيْتُسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود] أى : العطاء المعطى لهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ،
وسمى اللعنة رقدًا نهكمًا وسخرية . [القاموس القويم ١ / ٢٧٠] .
(٢) قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود] أى : منها باقى ، ومنها
هالك . وقال تعالى : ﴿ .. حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء] أى : جعلناهم كالزروع
للحصاد ، أى : أهلكناهم . [القاموس القويم ١ / ١٥٦] .

[هود]

﴿نَقْصُةٌ عَلَيْكَ .. (١٠٠)﴾

يتطلب أن نفرّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقي لها ، فبعض الناس يقول : إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تقتلّى بالتوسع ، ونوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحكمة .

ولهؤلاء نقول : أنتم لم تفهموا معنى كلمة «القصة»^(١) في اللغة العربية ، لأنها تعنى - فى لغتنا - الالتزام الحرفى بما كان فيها من أحداث ، فهى مأخوذة من كلمة : «قص»^(٢) الأثر ، ومن يقص الأثر إنما يتشبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشيء المراد .

إذن : فقصاص^(٣) القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُلح عليه فى عرف العامة أنه قصص ، بما فى تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمى - لغوياً - بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً .

وقصاص الإهلاك للآم التى كفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رواء القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التى اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر .

(١) قص الكلام أو الأخبار ، بقصها قصاً وفصصاً : تتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى : ﴿لَمَّا جَاءَهُ وَقْعُ عَلَيْهِ الْقَصَصُ قَالَ لَا تُخَفِّ .. (١٢٥)﴾ [القصص] أى : قص عليه أخباره وجذته بها . وقال تعالى : ﴿وَرَسُولًا قَدْ فَصَّصْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ رُوسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. (١٢٦)﴾ [النساء] أى : ورسلاً ذكرنا لك أخبارهم ، ورسلاً لم نذكر لك أخبارهم . [القاموس القويم ١٢٠ / ٢] .

(٢) قص الأثر قصصاً : تتبعه . ومنه قوله : ﴿.. فَارْتَبْنَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (١٢٦)﴾ [الكهف] أى : بتتبعنا آثارهما تتبعاً . [القاموس القويم ١٢٠ / ٢] .

(٣) القصص : مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار . قال تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي قصصهم عبرة لأولئك الذين آمنوا﴾ [يوسف] ، وقال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (١٢٥)﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مَا نَمُوتُ بِهِمْ فَالِقِ الْيَأْسِ .. (١٢٦)﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ١٢٠ / ٢] .

میرزا محمد

ونحن نجد في آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم .

ولذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن:

﴿وَإِنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٢٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَقْلًا تَعْقُلُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

[الصفات]

أى: أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم.

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى :

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ
عَنْهُمْ إِلَهَهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ
أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١١﴾

وَيُبَيِّنُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ هَذَا أَنَّهُ حِينَ أَخَذَ تِلْكَ الْأَقْوَامَ بِالْعَذَابِ لِمَ يَظْلِمُهُمْ ؛
لأن معنى الظلم أن يكون للإنسان الحق ، فتسلبه هذا الحق .

وفى واقع الأمر أن تلك الأمم التى كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هى التى ظلمت نفسها بالشرك ، وكذبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفى يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة .

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه مُتَرَّعٌ عن أن يظلم أحداً .

(١) التائب: الإهلاك والخمسير. والتائب: الهلاك. قال تعالى: ﴿... وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٦٧﴾ [غافر: ٦٧] وَتَبَّه تَبَيَّأً: أهلكه. قال تعالى: ﴿... وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَبْيِئٍ ۝٦٨﴾ [هود: ٦٨]. [القاموس القويم]

وهم حين أشركوا بالله - تعالى - آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك
الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمي من آمنوا بها ١٩

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التي عبدوها تلعنهم ، وهم في النار ،
وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار .

والحق سبحانه يقول عن النار :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ ۞ (٦٤) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما نجّوا ،
بالجهل على هذا الإنسان الذي عبده أو تلك الأحجار التي صلّوا لها
أو قدّسوها .

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور - وكلاهما من الأحجار -
فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحي على الرسول ﷺ ، وغار ثور
حمى رسول الله ﷺ حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر في أثناء الهجرة
من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ يَرَى الرُّوحَ آمِيناً يَغْزُوكَ بِالْأَنْوَارِ

فَحِرَاءُ وَثُورٌ صَّارَا سَوَاءَ بِهِمَا تَشْفَعُ لَأُمَّةِ الْأَحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد ﷺ ، لكن
غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول في الهجرة .

(١) الوقود : ما تشتعل به النار من حطب وغيره . قال تعالى : ﴿ النَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ (٥) ﴾ [البروج] أي : ذات
الحطب الذي يلقى فيها ليزيدها اشتعالاً ، وذلك يدل على حرص الكفار القاعدين حولها على زيادة
اشتعالها ليعذبوا بها المؤمنين أشد العذاب - كما حدث في قصة أصحاب الأخدود - ولكن النار في
الآخرة يكون وقودها الناس والحجارة ، والمراد بالناس هنا : الكفار والعصاة الذين يكون مصيرهم إلى
النار . قال تعالى : ﴿ .. وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ (٦٤) ﴾ [آل عمران] . (القاموس القويم ٢/ ٢٤٨) يتصرف .

ويقول الشاعر على لسان الأحجار :

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لِلَّهِ مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ^(١)
قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلًا كَمَا قَدْ تَجَنَّنَا عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِي^(٢)
لِلْمُغَالِي جَزَاؤُهُ وَالْمُغَالِي فِيهِ تُنَجِّيه رَحْمَةُ الْقَقَارِ

وهكذا لا تُغنى عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء أكانت بشراً أم حجارة ،
لم تُغنى عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذى تلقوه عقاباً فى الدنيا
وسعيراً فى الآخرة ، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله فى الدنيا ، فحين
جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميمهم من العذاب .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ۝١٠١ ﴾ [هود]

أى : أن تخلّى تلك الآلهة التى أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من
دون الله . . هذا التخلّى يزيدهم ألماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً ، لأن التتبير
هو القطع والهلاك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْبَى لَهُبٍ وَتَبَّ ۝١٠٢ ﴾ [المسد]

(١) الأسحار : جمع السحر ، يفتح السين والحاء . وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال
تعالى : ﴿ .. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٧ ﴾ [آل عمران] ، وقال : ﴿ وَالْأَسْحَارُ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٥٨ ﴾
[الذاريات] . [القاموس القويم ١/ ٢٠٥] .

(٢) الحواري : هم الحواريون ، وهم الخلفاء والأصفياء للأنبياء . قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَتَعْبَرُ
اللَّهُ .. ۝٥٧ ﴾ [آل عمران] والحواري : الخالص الذى من كل شيء . [القاموس القويم ١/ ١٧٧] .

(٣) تب يتب تباً وتباً : خسر وهلك . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْبَى لَهُبٍ وَتَبَّ ۝١٠٢ ﴾ [المسد] وهو دعاء عليه
بالخسران والهلاك . ودعاه عليه أولاً بأن نهلك بداه لأنهما آلة البطش والإيذاء . [القاموس القويم
١/ ٩٦] .

كذلك الأخذ الذي أخذ الله به القرى التى كذبت أنبياءها .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ
إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٤)

أى : أن الإخذ الذى أخذ به الله القرى الكافرة ، إنما هو مثل حى لكل من يكفر .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥﴾ [الفجر]

أى : أن الحق سبحانه يقسم لكل صاحب عقل بمتوعب ضرورة الإيمان ، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب ، فيقول سبحانه :

(١) الأليم : المؤلم شديد الإيلام والوجع . قال تعالى : ﴿... وَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [أنقرة] .

[أنقرة] . - والألم : الوجع الشديد . [القاموس القويم ٢٦/١] بتصرف .

(٢) والفجر : قسم من الله تعالى بالوقت المعروف (وقت الفجر) .

وليل عشر : العشر الأول من ذى الحجة .

والشفع والوتر : يوم النحر ، ويوم عرفة .

والليل إذا يسر : إذا يغشى ويذهب أو يسافر فيه .

هل فى ذلك : أى : فى المذكور الذى أقسمنا به .

قسم لذي حجر ؟ : مقسم به حقيق بالتعظيم لذي العقلاء - نعم - (وجواب القسم) للمذنب الكافرين .

[كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد مخلوف .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٧١

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَآكَلُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادٍ (١٤) ﴾ [القصص]

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر .

وقوله سبحانه هنا :

﴿ وَكَذَلِكَ .. (١٠٦) ﴾ [هود]

أى : مثل الأخذ الذى أَخَذْتُ به القرى التى كَذَّبَتْ رسلها ، فظلمت نفسها .
والأخذ هنا عقاب على العمل ، بدليل أنه أُنْجِيَ شعباً عَلَيْهِمُ وَاخْذُ قَوْمِهِ
بسبب ظلمهم ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذى يستحق العقاب .

ومثال ذلك : نجده فى قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

فالذى وضع ابن نوح فى هذا الموضع هو أن عمله غير صالح ؛ لذلك
فلا يقولن نوح : إنه ابنى .

(٦) عاد : قوم هود ، سُموا باسم أبيهم .

إرم : هو اسم جدهم وبه سميت القبيصة .

ذات العِمَاد : الشدة ، أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد .

جَابُوا الصَّخْرَ : قطعوه ونحتوا قبه بيوتهم .

ذِي الْأَوْتَادِ : الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه .

سَوْطَ عَذَابٍ : عذاباً شديداً مؤلماً دائماً .

[إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادٍ : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها . [كلمات القرآن] .

فليس الإهلاك بعلة الذات والدم والقراية ، بل الإهلاك بعلة العمل ، فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن نعلم أن البتة للأنبياء ليست بتة الذوات ، وإنما بتة الأعمال .

وكذلك نجد الحق سبحانه ينه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين كرم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله سبحانه :

﴿ .. لَا يَتَّٰلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وظلت هذه القضية في بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البتة للأنبياء ليست بتة ذوات ، بل هي بتة أعمال .

(١) قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة] أي : قدوة يقتدى بك الناس . ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْـَامِهِمْ ۚ ۞ (٧٦) ﴾ [الاسراء] أي : برسولهم فيقال : يا أتباع إبراهيم ، وأمة موسى ، وبأمة محمد - أو بكتبهم ، فيقال : يا أمة التوراة ، وبأمة الإنجيل ، وبأمة القرآن . [الفاسوس القويم ٣٣ / ١]

(٢) الذرية : للمفرد والثنى والجمع والمذكر والمؤنث من نسل الإنسان . قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ذُرِّيَّتُكَ ضَرْفًا ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۚ ۞ (٦١) ﴾ [الحج] وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنِّي أُعِيذُكَ بِكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۚ ۞ (٣٥) ﴾ [آل عمران] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ ۚ ۞ (١٢٥) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا مُّزَكَّاةً ۚ ۞ (٦٧) ﴾ [الفرقان] بالجمع ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَإِخْرَاجُهُمْ ۚ ۞ (٦٧) ﴾ [الأنعام] بالجمع ، ورسمت بغير ألف في المصحف . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخْبَرْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتِ فَاتَمِّهِنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّـٰلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۚ ۞ (١٢٤) ﴾ [البقرة] . [الفاسوس القويم ٢٤٢ / ١] بتصرف .

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله في وادٍ غير ذي زرع ،
وقال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. ﴾ (١٢٦) [البقرة]

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ .. ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس ؛ لأن الرزق عطاء ربوبي يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية ^(١) وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فأنت يا إبراهيم دعوت برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعي الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية في التكليف ، وعطاء الربوبية في الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر .

إذن : فأخذ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف تناول لمخالف ، ونختلف قوة الأخذ بقوة الأخذ ، فإذا كان الأخذ هو الله سبحانه ، فهو أخذ عزيز مقتدر .

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق ؛ لأن الحق سبحانه حين يحرم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرم عليك أيضاً ظلم نفسك .

(١) عطاء الربوبية عام ، وعطاء الألوهية خاص ، فالعطاء العام لكل مخلوق ، والعطاء الخاص لآمن التكليف عن الإيمان السخى واليقين النقى . من حكم الشيخ .

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله :

﴿ .. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٢) [هود]

أى : أن أخذه موجه على قدر طلاقة قدرته سبحانه .

وهب أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٠٣) [التحل]

حتى لا تبيت انفعالاتك عندك فهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر في قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (١٣٤) [آل عمران]

إذن : فإما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، وإما أن تكظم غيظك ، أى : لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوعى ، وإما أن ترتقى إلى الدرجة الأعلى وهي أن تغفروا لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو^(١) .

(١) حاقبه عقاباً : جازاه سوءاً بما فعل . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٠٢) [التحل] .

والعقاب والمعاقبة : إيقاع الجزاء على المذنب . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١٠٢) [فصلت] . [القاموس القويم ٢ / ٢٩] .

(٢) الكاطمين الغيظ : الحاسبين غيظهم في قلوبهم . [كلمات القرآن] . وكظم الغيظ : إمساكه وحبسه في النفس والصبر عليه . [القاموس القويم ٢ / ١٦٣] .

(٣) يقول الله سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٣٧) الذين يتفكرون في السراء والعسراء والكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَالِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٣٨) [آل عمران] . ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢٥) [فصلت] .

77Vo

(٢) القرى: جمع قرية وهي البلدة الكبيرة. وتكون أقل من المدينة، أو هي كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا...﴾ [يوسف: ٨٦] أي: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَتَى قَوْمَهُ مِنْ قَرِينِكِ الَّتِي أَخْرَجْتِكِ عَنْهَا فَخَرْنَاكَ فَلَا تَنْصَرِفِينَ﴾ [محمد: ٢٥] والمراد أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ...﴾ [هود: ٦٦] أي: أخذ أهلها وهم الظالمون. [القاموس الغريب: مادة (ق ر ي)].

أى: أخذٌ موجعٌ على قدر قوة الله سبحانه ؛ وهو أخذٌ شديد ؛ لأن الشدة تعنى: جمع الشيء إلى الشيء بحيث يصعب انفكاكه ؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبيضهما بحيث يصعب تحلل أى منهما عن الآخر.

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ^(١)

ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ^(٢)﴾

من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التى تخبر عن الذى حدث للامم السابقة . إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل.

ومن يسمع لقصص الاقوام السابقة ؛ ويعتبر بما جاء فيها ؛ وينتفع بالخبرة التى جاءت منها ؛ فهو صاحب بصيرة نافذة ؛ فكل ما حدث للاقوام السابقة آيات ملقطة.

ولذلك يقال: «إن لكل آية مواليد ؛ هى العبر بالآيات» ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

(١) مجموع: اسم مفعول من جمع، والامن الجامع: الامر العظيم الذى يجمع الناس له. والجامع: اسم فاعل من جمع، وهو من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿وَمَا إِلَهُكَ إِلَّا جَمِيعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ...﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَمِيعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْأَلُوهُ...﴾ [النور] [القاموس القويم: مادة (ج م ع)].

(٢) مشهود: اسم مفعول، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود] أى: حضره الناس، وشاهدوا موله أو حضرته ملائكة العذاب، وقوله: ﴿إِنْ فَرَأَدْتَ الْفَجْرَ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء] أى: إن قرأت الفجر تشهده الملائكة وتسجل ثوابه. ومشهد: اسم مكان، واسم زمان ومصدر بمعنى: كما فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم] [القاموس القويم: يشترط من ٢٥٩ ج١]

سُورَةُ هُودٍ

﴿ ٦٦٧٧ ﴾

﴿ وَكَأَيِّنْ ^(١) مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ^(٢) ﴾ (٦٠٥) ﴿

[يوسف]

إذن: فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولى الأبواب ^(٣)؛ فلا ندخل في دائرة من لا يضافون العذاب؛ أولئك الذين يتلقون العذاب خزيًا في الدنيا وجحيمًا في الآخرة؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ .. ذَلِكَ يَوْمٌ مُّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (٦٠٢) ﴿

[هود]

أي: أن الفضيحة في هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر؛ من لدن آدم إلى آخر البشر؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان؛ وأمام من لا يعرفهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مُّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ .. ﴾ (٦٠٢) ﴿

[هود]

وكلمة «مجموع» تقتضي وجود «جامع»؛ و«المجموع» يتناسب مع قدرة «الجامع»؛ فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى.

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه؛ فالحق سبحانه يقول:

(١) ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ .. ﴾ (٦٠٥) ﴿ [يوسف]: أي: كم من آية، أو كثير من الآيات. [كلمت القرآن للشيخ حسين مخلوف].

(٢) معروضون: اسم فاعل من «أعرض»، وأعرض عن الشيء: رلى منصرفاً عنه غير راغب فيه. قال تعالى: ﴿ أَعْرِضْ وَتَأْتِ بِخَبَرِهِ .. ﴾ (٦٢) ﴿ [الإسراء]. [القاموس القويم: مادة: ع ر ض].

(٣) الأبواب: جمع لب، وهو المغل. وقد وردت في القرآن ١٦ مرة. يقول تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا يَذْكُرُ آوْتُوا الْأَبَابَ ﴾ (٥٥) ﴿ [الرعد].

﴿... إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (١٤) [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿وَأَقْرَبُ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ (٩٧)

[الأنبياء]

وهنا يقول سبحانه :

﴿... وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٠٢) [هود]

أى: أن كل الخلق سيشهدون هذا الفضيحة المخزية لمن لم يعتبر بالآيات.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك فى ميعاد هذا اليوم:

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ (١٠٤)

وهكذا نعلم أن تأخر مجيء يوم القيامة لا يعنى أنه لن يأتى ؛ بل سوف يأتى - لا محالة- ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم فى تتابع مواليدكم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ ..﴾ (١٠٤) [هود]

يتطلب أن نعرف أن كلمة «الاجل» تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته.

(١) معدود: اسم مفعول من الفعل (عد). قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مُّعَدَّدَةٌ...﴾ (١٥) [البقرة] أى: محسوبة قليلة، هى أيام شهر رمضان. وقال تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ (١٠٤) [هود] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْضَيْنَاهُمُ وَعَدْنَاهُمْ عِدًّا﴾ (١٥) [مريم]. والاجل: مدة الشيء وغاية الوقت ووقت الحياة أو وقت الدين أو وقت الموت والمراد به هنا يوم القيامة. [القاموس القويم: (مادة ع د د) ، و(مادة ا ج ل)] بتصرف.

سُبْحَانَكَ

٦٦٧٩

والحق سبحانه يقول:

﴿.. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ^(١)﴾ (٣٨)

[الزهد]

وتطلق كلمة «الأجل» مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿.. فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ^(٢)﴾ (٣٩) [الاعراف]

ولنعرف جميعاً أن كل أجل - وإن طال - فهو معدود ، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً؛ لذلك فلتنقل أن كل معدود قليل، ما دُمنا قادرين على إحصائه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

وَسَعِيدٌ﴾ (١٥)

(١) الكتاب: له عدة معانٍ منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والرسالة، ومصدر كتب، ويسمى به ما كتب وسجل في صحف، ومصدر كاتب. قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ..﴾ (٢) [البقرة] وقال تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ..﴾ (٣٥) [النمل] . وقال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ..﴾ [الأحزاب] أي: في حكمه وتفسيره أو في القرآن الكريم في آيات التوارث. وقال تعالى: ﴿تَوَلَّوْا كِتَابَ مَنِ اللَّهُ سُبْحَ ..﴾ (٤٥) [الأنفال] أي: وتولوا قضاء من الله من قبل سجله سبحانه عنده؛ فلا تغيير له، وهو (بأحة القضاء). وقال تعالى: ﴿.. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨) [الزهد] أي: هوعد مكتوب مسجل عند الله. وقال تعالى: ﴿.. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (٢٣٦) [البساء] أي: قرضاً مسجلاً عنده سبحانه، كل صلاة في وقت وفي ميعاد محدد معين. [القاموس القويم: مادة (ك ت ب)] بتصرف.

(٢) تأخر واستأخر ضد تقدم. قال تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٩) [سبا] أي: لا تستأخرون ولا تطلبون التأخير، ولا التأجيل، ولا تستقدمون لأنه محدد بوقت معلوم يستحيل تقديمه أو تأخيره. [القاموس القويم: مادة (أ خ ر)] -.

(٣) شقى شقاءً وشقاءً وشقاوة؛ ساءت حاله المادية أو المعنوية، قهر شقى، واسم التفضيل: أشقى. قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ..﴾ (٤٥) [المؤمنون] أي: حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. والشقى: المحروم من الخير. قال تعالى: ﴿.. وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٤٢) [مريم]، أي: لم يسبق لي أن كنت محروماً من الخير حين أدعوك. [القاموس القويم: مادة (ش ق ي)] -.

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة في حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا ۖ ۝ (١٠٥) ﴾ [هود]

يعنى : لا تتكلم أى نفس^(١) إلا بإذن الله . وقد كانوا يتكلمون فى الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التى منحهم إياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم .

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح ؛ فتجد الأخرس الذى لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذى لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذى لا يبصر ، وغير ذلك .

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هى أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسألة ذاتية فيهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ ۖ ۝ (١٠٥) ﴾ [هود]

يبين لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا فى الدنيا ؛ فهى ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا فى إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح .

وقد سلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۖ (٢٨) ﴾ [النبا]

(١) النفس : الروح وذات الشئ ، وحقيقته ممدداً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ ۝ (٥٨) ﴾ [الأعراف] هى نفس آدم عليه السلام ، وقوله : ﴿ تَكَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي ۖ ۝ (٥٣) ﴾ [المائدة] أى : ما استرته فى ضميرى ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْغَمْنَا نَفْسِي ۖ ۝ (٤٢) ﴾ [يوسف] أى : ذاتى وقوله : ﴿ رِزْقًا قَلِيلًا نَفْسًا فَأَفَارَتْهُمْ فِيهَا ۖ ۝ (٧٢) ﴾ [البقرة] أى : إنساناً والنفس لها حالات ، فتكون أفسارة ، وتكون لوامة ، وتكون مطمئنة وراغبة ، وترتفع برجتها لتكون مرضية قد رضى الله عنها وأرضاه ، وقوله تعالى : ﴿ رَبِّحَلْوَكُمُ اللَّهُ نَفْسًا ۖ ۝ (٢٨) ﴾ [آل عمران] أى : غضبه [القاموس القويم ص ٢٧٨ ج ٢]

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى.

إذن: فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفارقة؛ فوقت يتكلمون فيه ؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون، ويأمر الحق سبحانه الجوارح المنفصلة أن تتكلم وتشهد عليهم^(١).

ويقسم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين، كما فى قوله تعالى فى آخر الآية:

﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ^(٢) وَسَعِيدٌ^(٣) ﴾ [هود]

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين: «شقى» و«سعيد» ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نعت بالشقى ؛ والسعادة ثابتة لمن نعت بالسعيد^(٤).

ثم يبين لنا الحق سبحانه منازل من شقوا ، ومنازل من سعدوا ؛ ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ^(٥) ﴾

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٦)﴾ [النور] وقد أورد السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٦٥) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُرفَ الكافر بعمله ففسد وخاصم. فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول: كذبوا. فيقال: أهلك وعشيرتك . فيقول: كذبوا. فيقال: أحلفوا . فيملقون، ثم يصمّتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم، ثم يدخلهم النار. عزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه.

(٢) شقى - من باب فوح - شَقًا وشَقَاءًا وشَقَاوَةً: ساءت حاله المادية أو المعنوية فهو شقى، واسم التفضيل: أشقى.. وسَعَدَ: كفح وسَعَدَ [ككرم] يَسْعُدُ ويسَعُدُ سَعْدًا وسَعُودًا وسعادة نال الخير:

﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ^(٧) ﴾ [هود] [القاموس القويم: (١/٣٥٣)، (١/٣١٢)] بتصرف مختصر.

(٣) من عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ^(٨) ﴾ [هود] سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله فعلام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «بل على شيء قد فرغ وجرت به الأقدام يا عمر، ولكن كل مُبَسَّر لما خُلِقَ له». أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١١) وابن أبى عاصم فى السنة (١/٧٤) وأحمد فى مسنده (١/٦) قال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) زفير: إخراج شديد للنفس من الصدر. وشهيق: رد النفس إلى الصدر. [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف].

017AR

والحق سبحانه يقول:

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

(٢) اللعنة: السخط والإيذاء من الرحمة. فاللعن: السب والدعاء بالطرد من رحمة الله. [القاموس القويم: مادة لعن].

﴿... فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٤) [هود]

ونحن نعلم أن الذي يتنفس في النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلاً يأخذ الشهييق ساخناً .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى ووصف ما يتلقاه أهل الشقاء في النار ، فيقول سبحانه :

﴿خَلْدِيتَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧)

وكلمة «الخلود» تفيد المكث طويلاً ؛ مكوثاً له ابتداءً ولا نهاية له ؛ وإذا أبد فهو تأكيد للخلود .

والذين شقوا إنما يدخلون النار ؛ بدءاً من لحظة :

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ (١٠٥) [هود]

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين .

وأما عذاب المسلم العاصي على ما ارتكب من آثام ؛ فبدايته من لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهي فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ؛ ويدخل الجنة من بعد ذلك .^(١)

(١) فعل يفعل فهو فاعل، وفاعل، اسم فاعل من فعل، وفعلال، صيغة مبالغة من فعل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكَاعَةِ مُأْفَكُونَ﴾ (٢٦) [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿... إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧) [هود]، [القاموس القويم : مادة (ف ع ل)] ينصرف.

(٢) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأما أنهم الله إمامة حتى إذا كانوا قحماً أذن لهم في الشفاعة فيجيء بهم ضبائر ضبائر فيثبوا على أبواب الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبهون نبات الجنة تكون في حميل السيل». أخرجه مسلم في صحيحه حديث (١٨٥) ، وأحمد في مسنده (١١٠٥ / ٢) .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٥

ولهذا قال الحق سبحانه:

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٧)﴾ [هود]

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لانصاف المؤمنين، فالحق سبحانه ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧)﴾ ولا يحكمه أى شىء.

وإياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ؛ فالقدر فعله ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عما يفعل ، لأن ذات الله هي الفاعلة ؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاص في النار ؛ فالنقص يكون في النهاية ؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده في الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفى عقابه.

وبهذا التصور ينتهى الإشكال الذى اختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يخلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيعطل فيها أبداً ، ولن يلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأى إنما يسوئ بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رآيه بالآية الكريمة التى جاءت في سورة الجن ، والتى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿إِلَّا يَلَاغُ مِنَ اللَّهِ رِيسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

فنحن نقول: إن الحق سبحانه يربب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصي حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأييد الخلود في العذاب لم

يرد إلا في آيتين ^(١) وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسعة عقوه سبحانه.
ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ إنه رحمة الله للعالمين ؛ وكلمة
«العالمين» جمع «عالم» والعالم هو ما سوى الله تعالى.
ولذلك هناك رحمة للكافر ؛ هي عطاء الله له في الدنيا.

ومكذا نعلم أن الله سبحانه هو الذي يملك نواويس الكون ،
ولم يتركها تفعل وحدها ، بل يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام
القدر هو فعله سبحانه ؛ فهو يغير فيه كما يشاء.

فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة. ومادام هو رب كل شيء
فإنه فعال لما يريد، وهنا تخضع ابدية الزمان لمراده ومشيبته.
وقول الحق سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (١٠٧) [هود]

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما
ويظللهما ، ولا بد أن يوجد فوق أرض ما.

وإذا قال قائل: إن الحق سبحانه قد ذكر في القرآن أن السماء
سوف تمور ^(٢) وتتفطر ^(٣).

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (١١) خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا
نصيراً (١٢) [الأحزاب] وكذلك في سورة الجن: ﴿... وَمِن بَعْضِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا...﴾ (١٣) [الجن].

(٢) ماز الشيء يَمُورُ مَوْرًا: تحرك وذهب وجاء في سرعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (١) [الطور] [القاموس القويم: مادة (مور)].

(٣) يتفطر الشيء وينفطر: يتشقق. قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) [الانفطار] أي: انشقت يوم
القيامة. وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ...﴾ (٢) [مريم] أي: يتشققن من هول كفرهم
وإغاثتهم إن لله ولداً - كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٣) لقد جئتم شيئا إداً (٤)
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجْعَلُ الْجِبَالُ هُدًى (٥) [مريم] [القاموس القويم: مادة
(فطر)] ينصرف.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٧

نقول رداً عليه: لا تأخذ آية في القرآن إلا بضميمة ^(١) مثيلاتها.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ^(٢) .. (٤٨)﴾ [إبراهيم]

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ؛ لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبِئُوا ^(٣) مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار.

ومن العجيب أن الإنسان المخدم بالمادة الجامدة ؛ وبالنبات النامي؛ وبالحيوان الذي يحس ويتحرك ؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخرة لخدمته ؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر.

(١) الضميمة: المضموم، أو المضموم إلى غيره. [المعجم الوسيط: مادة (ضمم)]. والمراد ضم الآيات المتعاقبة وفهمها فهماً شاملاً.

(٢) يبدل الشيء: غيَّره، وبدل الكلام: غيَّره أو حوَّله بحيث يؤدي معنى غير المراد منه. قال تعالى: ﴿تَبْدُلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ .. (٤٨)﴾ [البقرة] أي: غيَّروه بكلام آخر، أو حوَّله ليؤدي معنى آخر غير المراد منه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَبْدُلُ سَنًا بَعْدَ سَنٍ .. (٥٥)﴾ [النمل] أي: جعل الخير والحسن بعد عمل السوء. وقال سبحانه: ﴿.. وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٥٦)﴾ [الإنسان] أي: جعلناهم بدلاً منهم. كقوله تعالى: ﴿.. إِنْ نَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (٥٦)﴾ [إبراهيم] [القاموس القويم: مادة (بدل)].

(٣) يؤا: أسكنه، وبواه في الأرض: مكَّن له فيها. قال تعالى: ﴿وَأَوْثَقْنَا إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٥٦)﴾ [الحج] أي: هيَّأناه له ومكَّناه منه. وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا خَيْبًا يَشَاءُ .. (٥٦)﴾ [يوسف] أي: ينزل في أي مكان يريد من أرض مصر، وهذا كناية عن اتساع جاحه. [القاموس القويم: مادة (ب و آ)] بتصرف.

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان في الآخرة : فكانه سبحانه يعطى الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (١٠٧) [هود]

وإذا علق الله سبحانه شيئاً على شيء ؛ فلا بد أن يوجد هذا التعليق.

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ^(١) .. ﴾ [الأعراف]

فهو سليل الجمل في سمّ الخياط ؟ إن ذلك محال.

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات في نطاق أنه سبحانه :

﴿ .. فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (١٠٧) [هود]

وقد جاء في الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام :

﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١١٨) [المائدة]

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم.

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، يعقول البشر ، أما ببلاغة

(١) السم - مثثة السين - : الشقب الضيق ، قال تعالى : ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. ﴾ (١١) [الأعراف] أي : ثقب الإبرة . [القاموس القويم : مادة (س م م)] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٨٩

الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فأمر التعذيب أو الغفران موكول لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لم فعل هذا ؟ ولم ترك هذا ؟ لذلك كان هذا هو معنى العزة ؛ ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم في أي أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة . لذلك جاء سبحانه بالخاتمة التي تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة .

ففي تعذيب الكافرين قال سبحانه ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ﴾ .

وفي الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ۝١٠٨ ﴾

فالحق سبحانه يعطي المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم في الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع ،

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ

ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ۝١٠٩ ﴾

(١) جذ الشيء ، نجده جذاً : قطعناه أو كسرناه ، أو فتنناه ، والجناد : القطع المكسرة المفتحة والحطام . قال

نعماني : ﴿ فَنَجَلَهُمْ جُذَاءً ﴾ أي كبروا لهم .. (١٠٨) ﴿ [الأنبياء] والمَجْذُورُ : المَقْطُوع . قال تعالى : ﴿ .. عَطَاءٌ

غَيْرَ مَجْذُورٍ ۝١٠٨ ﴾ [هود] أي : أنه عطاء دائم غير مقطوع . [القاموس القويم : مادة (جذد)] .

(٢) المرية - بكسر الميم ، وبضمها - : الجدل والشك . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

.. ۝١٠٩ ﴾ [هود] وقرئ مرية - بضم الميم . [القاموس القويم : مادة (م ر ي)] .

(٣) النقص : مصدر نقص . قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْغُفْرِ وَالْجُودِ وَنَقَصَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

وَالْأَمْوَاتِ .. ۝١٠٩ ﴾ [البقرة] . وعَنْقُوصٌ : اسم مفعول منه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّا لَمُوقِفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ

مَنْقُوصٍ ۝١٠٩ ﴾ [هود] أي : كاملاً ، لا ننقص منه شيئاً . [القاموس القويم : مادة (نقص)] .

فهل كان الرسول ﷺ فى مرية ؟

هل كان الرسول ﷺ فى شك؟

لا ، ولكنه قول الأمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله ﷺ فى صدد هذا الأمر ؛ وبذلك ينصرف أمر الحق سبحانه إلى الدوام.

مثلاً قال الحق سبحانه للنبي ﷺ :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء]

وكان الرسول ﷺ يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع.

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه فى خطاب النبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب]

فهل كان رسول الله ﷺ لا يتقى الله ؟

نقول: لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر، وهو خطاب للرسول وأمته، فللرسول الدوام والترقى والحصانة، ولأمته الاتباع لعنهج الله.

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٩١

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين، فإذا نُودي عليهم بهذه الصفة فهي علامة السمو المقبول.

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها، وفي الاستمرارية ارتقاء.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ مَا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ .. (١٠٩) ﴾

[هود]

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة^(١) : لأن معنى العبادة ائتمار عابد بأمر معبود. وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسير عليه من آمنوا بها.

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (٢) .. ﴾

[الزمر]

(١) عبد الله يعبده، عبادة وعبودة: أطاعه فهو عابد اسم فاعل. وعبده بالتضعيف: سخره وأذله. يقول الحق سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدْتُ نِي إِسْرَافِيْلَ (٣٥) ﴾ [الشعراء] والعبد بالنسبة للناس الرقيق المملوك، ويجمع على جموع منها: عباد، وعبيد وعبد - وعبد، والعبد بالنسبة لله: الإنسان الحر أو الرقيق. فكلامهما مملوك لله خاضع لحكمه وإرادته، وعبداء الأصنام هم عباد لأفكار هي تخريف وتحريف عن النطوة التي فطر الله الناس عليها، وكل عابد لفكرة منحرفة، فهو منحرف عن الحقيقة [القاموس القويم ١/ ٢ ، ١ - بتصرف].

(٢) الزلفى: القرب ، والمنزلة، والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي نَقْرِبُكُمْ عِدَّتَا زُلْفَى .. (٣٥) ﴾ [سبا] أى: قريبا. مفعول مطلق مرادف، أو تقريبيكم درجة ومنزلة قريبة منا. [القاموس القويم: مادة (ز ل ف)].

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي: أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الأبناء ، فأيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع .
ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النُسب في الكون إما ليثبت نسبة (إيجابية) أو نسبة سلبية ^(١) .

﴿ مَا يَعْبُدُونَ .. ﴾ (١٠٩) [هود]

أي: على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ ، وعبادتهم هي عبادة تقليدية للأبناء ؛ ولذلك قالوا:

﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا ^(٢) عَلَيْهِ آبَاءُنَا .. ﴾ (١١٠) [البقرة]

وإذاً يقرر الحق سبحانه هنا جزاءهم ، فيقول تعالى:

﴿ .. وَإِنَّا لَمَوْفُونَ ^(٣) بِمَا نَصِيحُهُمْ ^(٤) غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ (١١٩) [هود]

(١) فالكون فيه الكسافة مفردة تعرب معانيها مثل: السماء، والأرض، ونفهم تصور الشيء، أما عندما نذكر لهذا الشيء صفة فهذا معناه النسبية، مثل قولنا: الأرض كروية، [مستنبط من كلام فضيلة الشيخ].

(٢) الفى الشيء، وجده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَفْرَاقٌ أَنَا هُمْ ضَالِّينَ﴾ (٢٢٥) [المائدة]، وقال تعالى: ﴿وَأَفْقَيْنَا سَبِيلًا لَهَا الْآبَاءُ ..﴾ (٢٥) [يوسف] أي: وجدنا، [القاموس القويم: مادة (ل ف ي)].

(٣) وفى إليه حقاً: أومضه إليه كاملاً، ويشهدون لعقولهم فيقال: وفاء حقّه، واسم الطاعل مؤفّاً، اسم منقوص، [القاموس القويم: ٢/٢٤٧].

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٤٢٢):

«فيه ثلاث أقوال:

أحدها: نصيحتهم من الزرق، قاله أبو العالية.

الثاني: نصيحتهم من العذاب، قاله ابن زيد.

الثالث: ما وعدوا به من خير أو شر، قاله ابن عباس.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٩٢

أى: ستعطيهم جزاءهم كاملاً ؛ لأنهم يفسدون فى الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار فى أن يفعل الشيء أو لا يفعله ، وإن لم تنضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعى يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذى يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا فى طريق إفساد الكون ؛ لذلك يؤفئهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة «النصيب»^(١)، أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفى هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾

(١) النصيب: القسم والحصة من الشيء . قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۖ﴾ [البقرة] أى: لهم حظ وقسم وحصة من حق لهم من كسبهم . [القاموس القويم: مادة (ن ح ب)].

(٢) سبق: يسبق سبقاً: تقدم، فهو لازم، وصيغته: تقدمه، فهو متعد، واسم الفاعل: سابق، واسم المفعول: مسبوق. قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ ۖ﴾ [الأنفال] أى: تقدم وثبت فيه الحكم من قبل، وهو اللوح المحفوظ. [القاموس القويم ٢٠١/١]. والكلمة: قضاء الله وحكمه السابق فى اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [هود] أى: قضاؤه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (س ب ق)]. (ك ل م) [يتصرف].

(٣) الريب: الشك. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۖ﴾ [البقرة] ورأيه الأمر، يريبه ريباً وريبية: شك فيه. والريب: حادث الدهر المفاجئ. وريب الموت: الموت. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرٌ نَّتَرَبَّعُ بِهِ رَبُّهُمْ ۖ﴾ [الطور] أى: حادث الموت. وقال تعالى: ﴿لَا زَالٌ يُنَادُّهُمْ أَلَيْسَ بِنَا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۖ﴾ [التوبة] أى: مصدر شك وفاق. ورأيه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه. واسم الفاعل: مريب. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۖ﴾ [هود] على سبيل التوكيد أى: فى شك موحى إلى شك. ورأى الرجل: فهو مريب: حار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿مَتَاعٌ لِلْغَيْرِ مَعْدُورٍ ۖ﴾ [ق] [القاموس القويم: مادة (ر ي ب)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٩٤

وسورة هود هي السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد ^(١) ، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه:

﴿ يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٩٨)

[هود]

أي: أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذي انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورد قومه النار.

ثم ياتى الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته ؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. ﴾ (١١٠)

[هود]

ونحن نعلم أن ذكر موسى عليه السلام في البداية كان بمناسبة ذكر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذكر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون.

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هي أن يرسل معه بنى إسرائيل ^(٢) ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كاملاً تبعيًّا ، لأن

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٩٧) إلى فرعون ومعه قاتلها أمر فرعون وما أمر فرعون برشده ﴿ [هود]. ﴾

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٥) حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جعلكم بيته من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴿ [الأعراف]. ﴾

رسالة موسى ﷺ لم تكن إلا لبني إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بني إسرائيل منهجاً ، أما في الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون.

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل: نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم - عليهم جميعاً السلام - وجاء الحديث فيها عن موسى ﷺ مرتين: مرة في علاقته بفرعون ، ومرة في علاقته ببني إسرائيل.

وفي كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهي للناس عموماً ، من أول آدم ﷺ إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتي باللقطة التي تعالج داءً موقوتاً عند القوم.

فالقُدْرُ المشترك في دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ ۝٥٩﴾ [الأعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد في كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات ^(١) تلك

(١) ما - هنا - تافهة بمعنى: ليس. أي: ليس لكم إله غيري.

(٢) الداء: المرض ظاهراً أو باطناً، والعيب ظاهراً أو باطناً. ويقال: قتلان ميت الداء: لا يعتقد على من يسوء إليه. وداء الأسد: الحمى. وداء الطي: المسحة والنشاط. وداء الملوك: النقرس. وداء الكرم: الدين والفقر. وداء الضرائر: الشر الدائم. وداء البطن: الفتنة العمياء. وداء الذئب: الجوع، والجمع: أدواء. [المعجم الوسيط مادة (د و ا)] ويجوز التأنيث فيقال: داءة وجمعها: داءيات وهي الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٦

الامة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة في القرآن كمنهج للبشرية^(١).

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآني للتبليغ ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنتلطف العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التي بعث إليها ليعالج داءها.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر^(٢) ، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما.

وقوله سبحانه: ﴿ فَاخْتَلَفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ يصح أن يكون الاختلاف في أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف في أمر الكتاب ، والخلاف في واحد منهما يؤدي إلى الخلاف في الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى ﷺ ، والكتاب الذي أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان: أمر الرسالة في الكتاب ، وأمر الرسول في الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحسق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

(١) يقول الحق: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] إذن : جمعت قيم الأديان في الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والخير والسلام.

(٢) مقصود فضيلة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هي آخر الأمم منذ بعثة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل.

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٩٧

واحد : لأن الرسول لا يفصل عن منهجه.

وقوله الحق : ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١١) ﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، والله^(١) ذات ، والله صفات ، والله أفعال.

وهو سبحانه مُنَزَّه في ذاته عن أى تشبيه ، والله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلي لا يندم ، وأنت موجود طارئ يندم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١١) ﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعل صدر عنه بقوة سبحانه غير النهائية.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١١) ﴾ [هود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرته ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل: وما دام موسى عليه السلام قد أوتى الكتاب ، واختلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الاقوام الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

(١) ترجيد الذات من لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتجريد لله، يقول الحق: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَسَلَّمْتُ وَنَحَّيْتُ وَمَعَّيْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٦) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٧) ﴾ [الأنعام] وللذات عطايات كلما ذكرته موحداً فانت في رقى دائم وتستحق من الله عطاء الصفات - فتستحق الرحمة من الرحيم، والرزق من الرزاق، والجبر من الجبار، فمن أحب الذات وهبت له عطايات الصفات، وفي أسمائه الحسنى الزاد المطلوب - [من مفهوم الخواطر].

ونقول: ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم : بل لأن الحق سبحانه قد جعل عذابهم أجلاً^(١) ، وهو يوم الحساب.

ولذلك قال سبحانه في الآية نفسها:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (١١٠) [هود]

وبذلك حكم الحق حكماً فاصلاً ، كما حكم على الأمم السابقة التي كانت مهمة رسلهم هي البلاغ ، ولم تكن مهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ؛ ولذلك كانت السماء هي التي تتدخل بالأمر النهائي.

لكن اختلف الأمر في رسالة موسى عليه السلام ، فقد سبق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (١١١) [هود]

كأنهم في شك من يوم القيامة ، وفي شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه في أول الآية عن الاختلاف في الكتاب وموسى عليه السلام:

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ^(٢) ﴾ (١١١)

(١) وهذه هي الكلمة التي ذكرها الله سبحانه هنا: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. ﴾ (١١٠) [هود] قال

القرطبي في تفسيره (٣/٤٢٢): «الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لَقُضِيَ بينهم أجلهم بأن يشيب المؤمن ويعاقب الكافر».

(٢) الخبير: من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١١٥) [الأنعام]. والخبير: العالم ببواطن

الأمور. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (٥٤) [الفرقان] [القاموس القويم : مادة (خ ب و)].

إذن: فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما في بدء رسالة موسى ﷺ فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة.

ويبين الحق سبحانه: لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعنى الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه أت - لا محالة ^(١) - ونوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفرًا أو إيمانًا ، صلاحًا أو فسادًا ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة.

وهنا وقفصة في أسلوب النص القرآنى، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كملكة ^(٢)، كما فهمها العرب الأقدمون.

ونحن نعلم أن العربى القديم لم يجلس إلى معلم، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ؛ لأنه من أمة مقطورة ^(٣) على الأداء البيانى الدقيق ، الزقيق ، الرائع .

فاللغة - كما نعلم - ليست جنسًا ، وليست دما ، بل هى ظاهرة اجتماعية . فالمجتمع الذى ينشأ فيه الطفل هو الذى يحدد لغته ، فالطفل الذى ينشأ فى مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ،

(١) المعال: ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون فى جسم واحد. والمحال من الأشياء: ما لا يمكن وجوده. والمحال من الكلام: ما عدل به عن وجهه. والمَحْصَالَةُ: الصيلة. والجمع: محال، ومُحَاوَل - بفتح الميم فيهما - ويقال: لا محالة من ذلك. أى: لا بد منه. [المعجم الوسيط: مادة (ح و ل)] بتصرف.

(٢) الملكة - بفتح الميم واللام والكاف - : صفة راسخة فى النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحدق ومهارة ، مثل الملكة العددية، والملكة اللغوية. [المعجم الوسيط: مادة (ملك)].

(٣) فطر الشيء، فطرًا: شقّه. والجمع: فطور. والاسم: الفطرة. قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَيُّهُنَّ فِطْرَ النَّاسِ عَلَيْهَا..﴾ [الروم] أى: خلقته الله خلق الفاس عليها. وقوله تعالى: ﴿.. هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك] أى: من جدوع، أى: هل ترى من خلل أو فساد فى السخيل ، والاستفهام هنا للنفي، أى: لا ترى أى خلل. [القاموس القويم: مادة (فطر)].

والطفل الذي يوجد في مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ؛ لأن اللغة هي ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن.

وكانت غالبية البيئة العربية في الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة.

أما العربي الذي عاش في حاضرة مثل مكة ، ومكة - بما لها من مكانة - كانت تستقبل أغراباً كثيرين ؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية ؛ حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية.

ولنقرب هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك في حياتنا الآن لغتين: لغة نتعلمها في المنازل والشوارع ونخطب بها، وتسمى «اللغة العامية»، ولغة أخرى نتعلمها في المدارس، وهي اللغة المصقولة^(١) المميزة بالفصاحة والضبط.

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتتقن الأذن الفصاحة^(٢)، وكانت اللغة الفصيحة هي «العامية» في البادية ؛ ولم يكن الطفل في

(١) المصقول: اسم مفعول من الفعل «صقل». وصقل الشيء صقلاً وصقلاً: جلاه. يقال: صقل السيف والرمح ونحوهما. ويقال: صقل كلامه: هذبه وتمقه. وصقل الدابة: تعيدها بالتربية. وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن إجادة شيء مثل اللغة ، والموهبة ، فيقال: صقل لغة ، أي: تدرب عليها حتى أجادها. وصقل موهبته بالدراسة ، أي: تدرب على استخدامها حتى أجادها. [المعجم الوسيط : مادة (صقل)] ينصرف.

(٢) ومما يبين أن اللغة العربية في الجزيرة العربية مصاحبة للفطرة السليمة والملكة الراسخة ما حكى ابن سناء أسر ابنه أن يمسك بقم قرية الماء. فقال الغلام لأبيه: «يا أبت إن القرية غلبني فوها أدرك فاما لا طافة لي بفيها» وفي هذا المنطق قواعد لإعراب الأسماء الخمسة أو الست فهي تُعرب بالواو زفعاً، وبالألف نصباً، وبالباء جرّاً. والأمثلة لا حصر لها وفي المراجع مزيد لكل من أراد.

البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها : لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة.

وكانت هذه هي اللغة التي يتفوق فيها إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهي تختلف عن السلف التي نكتسبها الآن ، ونصقلها في مدارسنا ، وهي لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالناس بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين، ويتعلمون اللغة على كبر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا في القرآن ، وادعى بعض من أغبيائهم أن في القرآن لحنًا ^(١) ، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله ﷺ وهم أهل الفصاحة، لم يجدوا في القرآن لحنًا ، ولو أنهم أخذوا لحنًا على القرآن في زمن نزوله : لأعلنوا هذا اللحن : لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة ، صناعتها الكلام.

ولأمر ما أبقي الله سبحانه صنائيد ^(٢) قريش وصناديد العرب على كفرهم لفتره ، ولو أن أحدا منهم اكتشف لحنًا في القرآن لأعلنه.

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً

(١) لحن لفلان يلحن لحنًا: كلمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية، أو تعريض، أو إشارة خفية، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد] أي: إنك ستعرف المنافقين في أسلوبهم في القول بإخفائه وتعريفه، أي: ستعرفهم في خطأ القول وزلات اللسان. ولحن في كلامه: أخطأ. وفي « المعجم الوسيط » : لحن القول: فحواه، وما يفهم السامع المتأمل فيه من وراء لفظه، ويمكن أن يفسر بذلك أيضاً، والعماد باللحن في اللغة: الخطأ فيها والخروج عن قواعدها، [القاموس القويم : مادة (لحن) بتصرف].

(٢) الصناديد: الشديد، والجمع: صناديد، ويقال: يوم حامى الصناديد: شديد الحر. ويقال: برد صناديد، وريح صناديد، ومطر صناديد، أي: شديد. وصناديد القندر: دواهيته، [المعجم الوسيط : مادة (صندد)] بتصرف.

فيه. ولو كان عند أحدهم مَهْمَزٌ لما منعه كثره أن يبين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين عاشوا في القرن العشرين أن يجدوا لحناً في القرآن ، وهم لم يمتلكوا ناصية اللغة ملكة ، بل تعلموها صناعة، والصنعة عديمة الإحساس الذوقي.

ومثال ذلك: عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فالحق سبحانه يقول:

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُ بِهِمْ^(١) رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^(٢)﴾

[هود]

أى: أن كل واحد من الذين صدّقوا أو من الذين كذّبوا ، له توفية في الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصي العقوبة.

وكلمة «إِنْ» - كما نعلم - هي في اللغة «حرف توكيد» في مقابلة مَنْ يَنْكَرُ ما يَجِيء بعدها.

والإنكار - كما نعلم - ضراحل ، فإذا أردت أن تخبر واحداً بخبر لا يعلمه ، فانت تقول له مثلاً: «زارنى فلان بالأمس».

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالي، فإن قال لك: «لكن فلاناً كان بالأمس في مكان آخر» فانت تقول له: «إن فلاناً زارنى بالأمس».

(١) وفى الشيء يَفْكُ: يَفْكُ: تم ولم يذهب منه شيء. وفى الرجل بالعهد وفاء: قام به وفقته، فهو واقف. واسم التفضيل: أوفى. قال تعالى: ﴿رَمَى أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة] أى: أن الله أعظم وقاءً ممن سواه. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْزَاءُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ [الحجم] أى: الجزاء الاتم الاكمل. وفى إليه حقّه: أوفى إليه كاملاً. ويتعدى هذا الفعل لمفعولين فيقال: وفّاه حقّه. واسم الفاعل: موفّ. واسم منقوص. قال تعالى: ﴿... وَإِنَّا لَنَرُوهُمْ لَمُسْجَبِينَ غَيْرَ مُنْقُوصِينَ﴾ [هود] [القاموس القويم: مادة (وفى)].

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٧.٢

وحين يرد عليك السامع: «لكننى قابلت فلانا الذى تتحدث عنه أمس فى المكان الفلانى».

وهنا قد تؤكد قولك: «والله لقد زارنى فلان بالأمس».

إذن: فأنبت تاتى بالتوكيد على حَسْبِ درجة الإنكار^(١).

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس فى الدنيا ، قد يقول غافل: لعل الله لم يعد يعذب أحداً.

ولذلك بين الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع المصدق ، والعاصى المكذب ، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤَيِّنْهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۖ ۝١١١ ﴾ [هود]

والذين لم تستقم لهم اللغة كاملة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا: لماذا جاء بالتثوين فى كلمة «كلًّا» ؟

وهم لم يعرفوا أن التثوين^(٢) يغنى عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التثوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه:

(١) إن التوكيد المنكر من فنون البلاغة. يقول الإمام السيوطى فى الإتقان (٣/ ١٩٢): «ويقلوب التاكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه. كقوله تعالى حكاية عن رسول عيسى إذ كذبوا فى المرة الأولى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ (١١١) [يس] ، فاكد بأن وإسمية الجملة ، وفى المرة الثانية: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا مِنَ الَّذِينَ خَافُوا رَبَّهُمْ غُرُورًا﴾ (١١٢) [يس] ، فاكد بانقسام وإن واللام وإسمية الجملة، لمبالغة المخاطبين فى الإنكار حيث قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ لَا تُكْذِبُونَ﴾ (١١٣) [يس]».

(٢) التثوين فى اللغة : هو نون ساكنة تتبع آخر الاسم لفظاً. وتعارفه خطأ. وهو أنواع منها تثوين الفمكين والتثكير والعرض والترنم . [راجع : شرح الأشعوش على الألفية (١ / ١٨)].

﴿ قُلُوبًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ^(١) وَأَنْتُمْ حِينًا تَنْظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة]

و«كلاء» فى الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها توجز أن كلاً من الطائعت المؤمن ، والعاصى الكافر ، سوف يلقي جزاءه ثواباً أو عقاباً.

أما قوله سبحانه: ﴿لَمَّا﴾ فى نفس الآية، فتحن نعلم أن «لما» تستعمل فى اللغة بمعنى «الحين» و«الزمان» مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ^(٢) وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ .. (١١٢)﴾ [الاعراف]

ومثل قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ ^(٣) يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف]

[يوسف]

أى: حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ .

(١) الحلقوم: الحلق . والحلقوم علمياً الآن: من تجويف خلف تجويف الفم، وقبـه ست فتحات: فتحة الفم، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة؛ ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المريء. أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة، قال تعالى: ﴿قُلُوبًا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٤)﴾ [الواقعة] كناية عن الاحتضار للموت، أى: بلغت الروح الحلقوم وهى خارجة من الجسد، [القاموس القويم: مادة (ح ل ق)].

(٢) الميقات: الوقت المحدد لعمل من الأعمال. قال تعالى: ﴿فَبِمِ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٢٩)﴾ [الاعراف] أى: كم الزمن المحدد لمناجاة ربه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٦)﴾ [الدخان] . أى: وقتهم المحدد لبعثهم وحسابهم. والجحج: مواقيت. [القاموس القويم: مادة (وقت)].

(٣) فصل عن المكان: جاوزه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ .. (٩٤)﴾ [يوسف] أى: خرجت وجاوزت المدينة. [القاموس القويم: مادة (فصل)].

(٤) قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف] أى: ريحاً تحمل رائحته، أو الريح بمعنى الرائحة، أى: رائحة. [القاموس القويم ١/ ٢٨٠].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٠

و«لما» تأتي أيضاً للنفي مثل قوله سبحانه:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١١)﴾ [الحجرات]

أى: أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، وتحمل كلمة «لما» الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك.

وحين تستخدم كلمة «لما» في النفي تكون «حرفاً» مثلها مثل كلمة «لم» ، ولكنها تختلف عن «لم» لأن «لم» تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف. أما «لما» فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيدان بأن يحدث ما تنفيه.

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ كُنَّا لَأُولَٰئِكَ لَيُوقِفَنَّهِنَّ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [هود]

أى: أن كلا من الطائعت والعاصي سيوقف حسابه وجزاءه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتي أجل التوفية ، وهو يوم القيامة.

وقد جاءت «لما» لتخدم فكرة العقوبة التي كانت تأتي في الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو «لما».

وحين تقرأ ﴿لَيُوقِفَنَّهِنَّ﴾ تجد اللام ، وهي لام القسم بأن الحق سبحانه سيوقفهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً.

(١) الخبير: من أسعاه الله الحسن، قال تعالى: ﴿... زُهرُ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ (١٥)﴾ [الأنعام] . وخبير الأمر، وخبير بالامر، كعلمه. وعلم به - وزناً ومعنى - فهو به خبير. والخبير: العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿... فَأَمَّا لَهُ خَيْرٌ (٢٩)﴾ [الفرقان] . [القاموس القويم: مادة (خبير)].

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسى أو تذهب أدراج الرياح ؛ لأن من يعلمها هو «الخبير» صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالم الذي قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرب على التخصص.

ولذلك غالباً ما تأتي كلمتا «اللطيف والخبير» معاً ؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

ومثال هذا أنك قد تعرف مكان اختباء رجل في جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفوذ إلى مكانه، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللفظ.

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلّي رسوله ﷺ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا: ما دام الله يأتي بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتي لنا العذاب^(١)؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك - يا رسول الله - في شيء.

(١) إن وعد الله له توقيته المراءى له متصديقاً لقوله تعالى : ﴿وَلَا تُحْسِنُ إِلَهَ غَالِبًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم] وقوله : ﴿سَمَتُرْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٤] وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَبِينٌ [١٥] [القلم]

عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتي بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ (٣) ﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ (١) إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ (٢) ﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين تروى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ نَصْرُ اللَّهِ - يَا مُحَمَّد - عَلَى قَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَالْفَتْحُ : فَتْحُ مَكَّةَ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ : مِنْ صُتُوفِ الْعَرَبِ وَقِيَاظُهَا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ أَيْ : فِي دِينِ اللَّهِ الَّذِي ابْتَحَكَ بِهِ . أَفْوَاجًا : يَعْنِي : زَمْرًا (جَمَاعَاتٍ) ، فَوْجًا فَوْجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۚ أَيْ : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ عَظَمَةِ بَدْعِهِ وَشُكْرِهِ ، وَاسْتَغْفِرْهُ : وَسَلِّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ رَبُّكَ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۚ أَيْ : ذَا رَجُوعٍ لِعِبَادِهِ الْمُطِيعِ إِلَى مَا يَحِبُّ . [مختصر تفسير الطبري - بنصرف].

(٢) الاستقام الشيء : خلا من العوج . واستقام المؤمن : سلك الطريق القويم . قال تعالى ﴿ فَاسْتَقَامُوا ۚ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا ۚ لَهُمْ ۝ (٢) ﴾ [التوبة] أَيْ : حَافِظُوا عَلَى الْوَفَاءِ لَهُمْ بِعَهْدِكُمْ مَا دَامُوا هُمْ يَحَافِظُونَ عَلَى عَهْدِكُمْ ، وَلَمْ يَنْكُثُوا الْعَهْدَ مَعَكُمْ . [القاموس القويم : مادة (قوم)].

(٣) طغى يَطْغُو طَغْوَانًا وَطَغْوَى : فَعَلَ وَابْوَى ، بِمَعْنَى : تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْجَوْرِ وَالتَّعَدَّى ، وَطَغَى يَطْغَى وَطَغْيًا : فَعَلَ يَاطِى ، بِمَعْنَى : تَجَاوَزَ الْحَدَّ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۖ (٣) ﴾ [الفجر] . أَيْ : ظَلَمُوا وَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْمَعْصِيَانِ . [القاموس القويم : مادة (طغى)].

سُورَةُ هُودٍ

○ ٦٧ ○ ١ ○ ٢ ○ ٣ ○ ٤ ○ ٥ ○ ٦ ○ ٧ ○ ٨ ○ ٩ ○ ١٠ ○ ١١ ○ ١٢ ○ ١٣ ○ ١٤ ○ ١٥ ○ ١٦ ○ ١٧ ○ ١٨ ○ ١٩ ○ ٢٠ ○ ٢١ ○ ٢٢ ○ ٢٣ ○ ٢٤ ○ ٢٥ ○ ٢٦ ○ ٢٧ ○ ٢٨ ○ ٢٩ ○ ٣٠ ○ ٣١ ○ ٣٢ ○ ٣٣ ○ ٣٤ ○ ٣٥ ○ ٣٦ ○ ٣٧ ○ ٣٨ ○ ٣٩ ○ ٤٠ ○ ٤١ ○ ٤٢ ○ ٤٣ ○ ٤٤ ○ ٤٥ ○ ٤٦ ○ ٤٧ ○ ٤٨ ○ ٤٩ ○ ٥٠ ○ ٥١ ○ ٥٢ ○ ٥٣ ○ ٥٤ ○ ٥٥ ○ ٥٦ ○ ٥٧ ○ ٥٨ ○ ٥٩ ○ ٦٠ ○ ٦١ ○ ٦٢ ○ ٦٣ ○ ٦٤ ○ ٦٥ ○ ٦٦ ○ ٦٧ ○ ٦٨ ○ ٦٩ ○ ٧٠ ○ ٧١ ○ ٧٢ ○ ٧٣ ○ ٧٤ ○ ٧٥ ○ ٧٦ ○ ٧٧ ○ ٧٨ ○ ٧٩ ○ ٨٠ ○ ٨١ ○ ٨٢ ○ ٨٣ ○ ٨٤ ○ ٨٥ ○ ٨٦ ○ ٨٧ ○ ٨٨ ○ ٨٩ ○ ٩٠ ○ ٩١ ○ ٩٢ ○ ٩٣ ○ ٩٤ ○ ٩٥ ○ ٩٦ ○ ٩٧ ○ ٩٨ ○ ٩٩ ○ ١٠٠ ○

وهكذا يصبح فصل الشيء عن تقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة
أمر شاق للغاية.

وسأعده أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيبيتني هود
وأخواتها»^(١).

ولولا أن قال الحق سبحانه في كتابه الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ^(٢) .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فلولا نزول هذه الآية لتعجب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق
سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ^(٣) .. (١:٢) ﴾ [آل عمران]

وعز ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما
يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ^(٤) .. (١٦) ﴾ [التغابن]

إذن: فالامر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً .
بحيث لا شمل إلى جهة دون جهة.

(١) عن أبي جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شبت؟ قال: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه
أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٢٧/٧) من حديث عقبة بن عامر
وعزه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح ، وأخوات سورة هود التي شيب رسول الله هي
سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير. انظر الترمذي في سننه (٣٢٩٧).

(٢) اتقى: أصله (أرتقى) على وزن (افعل) ، قلبت الواو ناء ، وأدغمت في ناء الانفعال. واتقى الله:
تجنب ما يقضيه، وما يسبب عذابه، وذلك بطاعة الله، وبالسعي عن معصيته. قال تعالى: ﴿ .. لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة] أي: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وترك معصيته. [القاموس القويم:
مادة (ت ق ي)].

(٣) التقاة: الانتقاء والتقوى. وأصلها: وقية، قلبت الواو ناء، والياء ألفاً، وجمعها: تقى. قال تعالى:
﴿ إِنْ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا^(٥) .. (٥٥) ﴾ [آل عمران] أي: [لا أن تخافوا منهم شراً، ونحذروا منهم
مكروماً، لا تريدون لأنفسكم]. [القاموس القويم : مادة (وق ي)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابِ مَعَكَ .. ﴾ (١١٢) [هود]

وهذا إيذان بالأمر بياس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ : لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم..

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٣) [هود]

يعنى ألا تتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي : فالحق سبحانه إن أمره بشيء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ^(١) .. ﴾ (٢٢٩) [البقرة]

وهذا القول في الأوامر ، أما في النواهي فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ^(٢) .. ﴾ (١٨٧) [البقرة]

(١) اعتدى: ظلم وجار. قال تعالى: ﴿ لَمَّا عَصَىٰ عَلَيْهِمْ فَاغْلُظُوا عَلَيْهِ يَمْشِي مَا يَمْشِي عَلَيْكُمْ ﴾ (٢٢٩) [البقرة] أي: فساقطوه على اعتدائهم وسُمِّي عقاب المعتدي اعتداءً للمشاةة، ومما يعدو: يدور.

جرى، وعدا عليه عدواً وعصواناً : ظلمه وصال عليه، مثل: اعتدى عليه، والى: راد، يعادى الاعتداء هنا: عدم تجاوز حدود الله التي نهى سبحانه عن اقترانها. [القاموس المفرد: مادة (عدا) بتصرف]

(٢) قربت الأمر، أقربه قرباناً وقرباً، فعلته أو دائيته، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ .. ﴾ (٢٤) [الإسراء]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴾ (٢٥) [البقرة] أي: لا تأكلها ولا تلمسها ولا تأكلوا منها والنهي من باب أولى عن الشيء، وكذلك: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ .. ﴾ (٢٤) [الإسراء] فإن النهي عن القرب منه، وهو نهى عن النفس وعن القبلة ونحوها معاً بقرب الإنسان من الوقوع فيه.

[القاموس المفرد: مادة (ق ر ب)].

أى: أن تبتعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ: «من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى^(١) يوشك أن يرتع^(٢) فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»^(٣).

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شيء فهذه هى استقامة الاحتياط، وهى قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخلًا فيه، فمثلاً عند تحريم الخمر، جاء الأمر باجتنابها أى: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر فى مكان. وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة فى مسائل الطاعة، وهو سبحانه يقول:

﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ .. (١١١) [الأنعام]

(١) قال النووي فى شرحه: «معناه أن الطوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يجمعه من الناس ويمتصهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن اجتأط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه، (٣/ ١٢٤٠) ط، فؤاد عبيد الباقي.

(٢) الرتع: الأكل يشربه، والزتع فى الخصب هو الرعى فيه، وأرتع القوم: وقعوا فى خصب وزرعوا. [اللسان: مادة رتع].

(٣) متفق عليه، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، فهو سرف، ويكون فى المال وفى غيره، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٥٥) [الغرفان] أى: معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ اسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ..﴾ (٥٣) [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ .. (٥٧) [الإسراء] أى: لا يقتل أكثر من القاتل، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، فيقتلون بالشرىف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ السَّافِرِينَ﴾ (١٢١) [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين: لا إسراف فى الخير ولا خير فى الإسراف. [القاموس القويم: مادة (سرف)].

والنهي عن الإسراف هنا ؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكتنا لا نجد ما نقيم به الأود^(١) فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول: «يا ليتني لم أعط». وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سَدُّوا^(٢) وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل»^(٣) ؛ لأن الدين قوى متين^(٤) ، و«لن يشاد الدين أحد إلا غلبه»^(٥).

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الجَلِّ أيضاً، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهوانة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مَكْنَةً الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى في ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ في مزاوله ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه.

(١) الأود : أي ما يكون قوياً ضرورياً له ، فنقوم به حياته.

(٢) سد الشيء سداً وسدواً : استقام ، يقال : سد السهم ، وسد فلان : أصاب قوله وفعله. وسد قوله وفعله : استقام وأصاب ، فهو سديد. والسداد : الاستقامة والقصد ، والصواب من القول والفعل. [المعجم الرسيط : مادة (سد) بتصرف].

(٣) غنق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦١) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٣).

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن هذا الدين يسر وإن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» أخرجه النسائي في سننه (١٢٢/٨).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان : استقامة في تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بَيِّنٌ^(١) ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ^(٢) لدينه وعرضه»^(٣).

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا في الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ؛ وأن نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام ، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلى في المسجد الحرام ، فانت تعلم أن الكعبة قسمان : قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»^(٤) وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه^(٥).

لذلك فانت تتجه ببصرك إلى البناء العالى المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

(١) بَيِّنٌ: صيغة مبالغة من البيان: أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من الدين والذنب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشر: تقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٦٠٥١) ، ومسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار. وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهري: الذى فيه العزَاب، وإنما سمي حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك معطوماً. [اللسان ، مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن النجر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم الخفة. قلت: فما شأن باب مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا. ولولا أن تذكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجسر فى البيت وأن ألزق بابي بالأرض. متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (١٥٨٤) ومسلم في صحيحه (١٣٢٢ - رواية رقم ١٠).

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك : هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد .

وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.

وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة.

ويُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٢)

وفى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ .. إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١١)

[هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُوا النَّارَ

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ

لَا تُنصِرُونَ ﴾ (١١٣)

(١) ركن يزكن ركنًا وركنًا: مال إليه وسكن. ويركن الشيء: جانيبه الأقوى. قال تعالى: ﴿ .. أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (١١٢) [هود] أى: ألجأ إلى حصن قوى يحمينى، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم، كأنه ركن مسند حصين. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُوا النَّارَ .. ﴾ (١١٢) [هود] أى: لا تملوا إليهم وتعتمدوا عليهم. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ نَخَالَفَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَرْكَبُ إِلَيْهِمْ شَبًّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء) أى: تميل إليهم. [القاموس القويم : مادة (ركن)] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٧١٥

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد
آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع
وفصل في هذا الأمر.

ويأتي هنا تأكيد هذا الأمر : فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ^(١) .. (١١٢) ﴾ [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وأنت إذا ركنت
للاظالم : أدخلت في نفسه أن لقوته شأنا في دعوتك.

والركون أيضاً يعنى : المجاملة ، وإغانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن
تزيّن للناس ما فعله هذا الظالم.

وأفة الدنيا هي الركون للظالمين : لأن الركون إليهم إنما يشجعهم
على التمسك في الظلم ، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى
الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن
تزيّن له هذا الظلم : وأن تزيّن للناس هذا الظلم.

وأنت إذا استقرات وضع الظلم في العالم كله لوجدت أن آفات
المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم : لكذلك حين
تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك : فلسوف يظن أنك لم
تُعرض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر : فيترزّل في نفسه :
حاسباً حساب القوة التي تركز إليها : وفي هذا إضعاف لنفوذه : وفي
هذا عزلة له وردع : لعله يرتدع عن ظلمه.

(١) الظلم : مجاوزة الحد ومفارقة الحق أو هضمه وانقاصه، وهو ضد العدل. قال تعالى: ﴿ وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٢) ﴾ [النحل] والظالم اسم فاعل يقول الحق: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ
.. (٢٥) ﴾ [الكهف]، والظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٢) ﴾ [إبراهيم]
وظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ (٢٥) ﴾ [ق] ، ومظلوم اسم مفعول يقول
الحق: ﴿ وَمَنْ قُلٌ مَّظْلُومًا .. (٢٥) ﴾ [الإسراء] [القاموس القويم ٤١٦/١ : ٤١٧].

والزكون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الزكون : لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسْكُمُ^(١) النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصرون (١١٣) ﴾ [هود]

فانتقم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون في عداء مع منهج الله : فيتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد : لأنه لا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى . ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾

وهذا أمر بالخير : يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ ونحن نلاحظ في هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهي : الأوامر بالخير دائماً : والنواهي عن الشر دائماً . ونلاحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابٍ مَّعَكَ .. (١١٦) ﴾ [هود]

(١) مسه يمسّه مساً : أجرى يجرّ عليه من غير حائل .

ومسته النار : أصابته . وبادشوت جلده : فادّته .

ومسه المرض - على المجاز - : أصابه . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الشُّرَكَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ [الإسراء] .

[القاموس القويم : مادة (مس)] .

(٢) زلف إليه يزلف زلفة وزلفى : قُرب وبنا . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دُلُّوا زُلْفًا .. (١٢٧) ﴾ [الملك] أي : قريباً .

وهو وصف بالمصدر بلفظه . ويعرب خالاً أي : ذا قرب . أي : قريباً قريباً شديداً .

والزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي نَعْتَبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى .. (٢٧) ﴾

[سبا] أي : قريباً . مفعول مطلق مرادف ، أو تقريبكم درجة ومنزلة قريبة منا . والزلفة : الحافظة من الليل .

وجمعها : زلف . قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود] أي : أولها وساعات

من الليل . قيل : في أوله . وقيل : في أي وقت فيه . [القاموس القويم : مادة (زلف)] .

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧١٧﴾

ثم وَجَّهَ النهى للأمة كلها: ﴿وَلَا تَطْفَرُوا.. (١١٢)﴾ [هود] ولم يقل: «فاستقم ولا تطغى» لأن الأمر بالخير يأتى للنبي ﷺ وأمثه معه ؛ وفى النهى عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الأمة ، وفى هذا تأكيد لرفعة مكانة النبي ﷺ .

ونرى نفس الأمر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى أمة محمد ﷺ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا.. (١١٣)﴾ [هود]

ولم يقل: «ولا تركن إلى الذين ظلموا».

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ ولأمثه:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ.. (١١٤)﴾ [هود]

والإقامة تعنى: أداء المطلوب على الوجه الأكمل ، مثل إقامة البنين ؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه.

ويقال: «أقام الشيء» أى: جعله قائماً على الأمر الذى يؤدى به مهمته.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ^(١) النَّهَارِ.. (١١٥)﴾ [هود]

أى: نهايته من ناحية ، ونهايته من الناحية الأخرى ؛ لأن طرف الشيء هو نهايته.

(١) الطرف - يفتح الراء -: الجانب، ومنتهى الشيء. قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الدِّينِ يُكْفِّرُوا.. (١١٧)﴾ [آل عمران] أى: بهلك جانباً منهم، أى: طائفة منهم. وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ.. (١١٥)﴾ [هود] أى: صباحاً ومساءً. والمراد: جميع الأوقات. ويؤيده قوله تعالى: ﴿... وَمِنْ آثَارِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (٢٥)﴾ [طه] أى: جميع الأوقات [القاسوس القويم، مادة: طرف].

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو
الفاصل بين الطرفين ؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً ؛ وما على
يسار الوسط يعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف.

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم
إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل
قسم بين تلك الأجزاء التي على اليمين والتي على اليسار يعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ .. ﴾ (١١٤)

يقتضى أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من بواكير الفجر
الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتي الظهر؛
فإن وقع الظهر قبل الزوال ^(١) حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن
كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط.

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر ^(٢).

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴾ (١١٤)

يقتضى منا أن نفهم أن كلمة ﴿زُلْفًا﴾ هي جمع: زلفة، وهي مأخوذة
من: أزلفه ، إذا قرَّبه.

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا في الليل صلاة المغرب ، وصلاة

(١) الزوال: الوقت الذي تكون فيه الشمس في كبد السماء، [المعجم الوسيط: مادة (زول)].

(٢) قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر، واختاره ابن
عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب، قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثاني
العصر وحده. وقاله قتادة والضحاك. نقله القرطبي في تفسيره (٢٤٢٨/٤).

العشاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفة يعتبر الوتر واجباً ^(١) ، فقال: إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب ^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة:

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السُّئَاتِ ^(٣) .. (١١٤)﴾

[هود]

وهذا التعقيب يضع الصلاة في قمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا بأن قال: « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر » ^(٤) .

(١) قال الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٣٠) : «ذهب الجمهور إلى أن الوتر غير واجب بل سنة، وخالفهم أبو حنيفة فقال: إنه واجب، وروى عنه أنه فرض، قال ابن العثيرة ولا أعلم أحداً وافق أبا حنيفة في هذا، ومن الأدلة الدالة على عدم وجوب الوتر ما اتفق عليه الشيطان من حديث طلحة ابن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات في اليوم واليلة» قال: هل على غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع».

(٢) الفرض: ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه ويكفر جاحده ويُعذب تاركه، وهو على نوعين: فرض عين وفرض كفاية، وفرض العين ما يلزم كل واحد إقامته، ولا يسقط عن البعض بإقامة البعض كالإيمان ونحوه، وفرض الكفاية ما يلزم جميع المسلمين إقامته، ويسقط بإقامة البعض عن الباقيين كالجهاد وصلاة الجنازة. أما الواجب: فهو اسم لما لزم علينا بدليل فيه شبهة كخير الواحد وإلقياس العام المخصوص والآية المؤولة كصدقة الفطر والأضحية. [التعريفات للجرجاني - صفحات ١٤٤، ٢٢٢].

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٤٢) أن سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الفرج، روى الترمذي عن عبيد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإنني أصيبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فأقض في ما شئت». فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، فأنطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً ندعاه فتلاً عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السُّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤) [هود]. فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة» قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٣) وأحمد في مسنده (٤٨٤/٢) وابن ماجه في سننه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة.

واختلف العلماء في معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم: الحسنة هي ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هي ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات في الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهب الكفر ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذي ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد في النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر ؟

وهكذا يخفف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوي بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله. والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتسأل بعض العلماء: هل الفرائض هي الحسنات التي تذهب السيئات؟ وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله ﷺ عن حسنات في غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات ^(١).

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذي يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذي رزقني من غير حول ^(٢) مني ولا قوة ، والحمد لله الذي

(١) عن قتادة بن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صام يوم عرفة غفر له سنة أمته وسنة بعده.

(٢) المول: العذل ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف في الأمور. [المعجم الوسيط : مادة (حول)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢١

كسأني من غير حولٍ مني ولا قوة^(١). وهذا القول يكفر السيئات.

ألم يقل ﷺ إنك إذا قلت: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٢) : فهذا القول كفارة^(٣) ؟

إذن: فالحسنات مطلقه سواء أكانت فرضاً أم غير فرض ، وهي تذهب السيئات ، والسيئة هي عمل توعد الله - سبحانه - من يفعله بالعقوبة.

وتسأل أيضاً بعض العلماء: إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجل ، فكيف تُذهبها الحسنة ؟

وأجابوا: إن ذهب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك : فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهب العمل في ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع : أو يحفظها الله إن وقعت : لأنه هو سبحانه القائل:

(١) عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام وورقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذي كسأني هذا الثوب وورقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» أخرجه أبي داود في سننه (٤٠٢٢) وكذا ابن ماجه (٢٢٨٥).

(٢) عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : «قل: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن الياقوتات الصالحات ، وهن يحفظن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهي من كنوز الجنة».

قال المنذرى في الترغيب (٢٤٨/٢) : «رواه الطبراني بإسنادين أصحهما فيه عمر بن راشد ، وبقية رواه محتج بهم في الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد في المتابعات ورواه ابن مساجه من طريق عمر أيضاً باختصار».

(٣) الكفارة: ما شرعه الله من القربات لمحور الذنوب وغفرانها، مثل كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿كُفَّارَتُهُ﴾ [طعام عشرة مساكين .. لَقَدْ] [الحائدة] [القاسوس القريم : مادة (كفر)] . وقال ابن منظور في اللسان (مادة : كفر): «تكرر ذكر الكفارة في الحديث، وهي عبارة عن الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي : تمحوها وتستمرها».

سُورَةُ هُودٍ

١٧٢٢

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨) [ف]

ويقول سبحانه:

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (١١) [الأنفطار]

وهكذا يكون إذهاب السيئة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل في الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ (٣١) إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ .. ﴾ (٣٢) [النجم]

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَإِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (٤٥) .. ﴾ (٤٥) [العنكبوت]

(١) لفظ التواة بلفظها لفظاً : رماها، ولفظ الكلمة : قالها، قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨) [ف]

(٢) [ن] [أى: كل كلمة يتكلمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد، وعتيد: أى: حاضر.

مستند لإشبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم : مادة (لفظ - عتد)].

(٣) اللمم: صغائر الذنوب، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ (٣٢) [النجم].

[القاموس القويم : مادة (للم)].

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ .. ﴾ (٣٢) [النجم] : «كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة» ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٢٥٦).

(٢) الفحشاء : الفحش، وهو العمل القبيح المنكر. قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَهْدِكُمُ الْفُرْقَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. ﴾ (٤٥) [البقرة] [أى: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح عامة، ومنه البخل، والفواحش هي الأمور

القبيحة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

والمنكر : ما يستقيحه الشرع الشريف، وما تستكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (٦٤) [آل عمران] [القاموس القويم : مادة

(نكر)].

بالحكم : لأن آفة الإنسان أن الأمور التي تمر به من المرائي والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التي في بؤرة ^(١) الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار في حاشية الشعور ، ولا بد من مجيء معنى جديد ليذكر بما غاب في حاشية الشعور.

ومثال ذلك: إنك إذا ألقيت حجراً في بحر ، فهذا الحجر يستقر في بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفي من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة في حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ في تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هي قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التي تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكري ؛ لأنها تستدعي ما في حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التي تتبع المعصية ، وهي العقاب.

(١) بؤرة الشيء: مركزه أو وسطه. وبؤرة الشعور: مركزه، أي: داخل مركز الإحساس والشعور (الإدراك) في المخ، والبؤرة في اللغة: الحفرة، وهي مأخوذة من البئر. أما البؤرة في علم الطبيعة، فهي نقطة تتلاقى أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض دونها شيء. [المعجم الرسيوط: مادة (بئر) بتصريف وإضافة].

سُورَةُ هُودٍ

❖ ٦٧٢ ❖

ولذلك يقال: «لا خير في خير بعده الفار ، ولا شر في شر بعده الجنة».

والحق سبحانه يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطريها:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ .. ﴾ (١١٤) [هود]

وانت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، والركن الثاني ، وهو الصلاة ، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهي كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتركّى ببعض الوقت ليبارك لك الله - سبحانه وتعالى - فيما بقى لك من وقت ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وانت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام.

ففي الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس.

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ، فلك أن تصلي قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فلك أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلي^(١).

وهكذا تجد في الصلاة كل أركان الدين ، ولاهيتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمق في حياته ، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله

(١) عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ فقال: «صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٦/٤) والبخاري في صحيحه (٥٨٤/٢ ، ٥٨٦ - القتم). قال الشيخ سيد سابق في قسفه السنة (١٠١/١) ، «من عجز عن القيام في الغرض صلى على حسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وله أجره كاملاً غير منقوص».

سبحانه رسوله ﷺ إليه ليفرض عليه الصلاة ^(١) وهي تحية لامة محمد ﷺ نظراً لأنها شرعت في قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى. لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب أمة رسوله ﷺ جميعاً ؛ ولذلك فهي الباقية.

وَيُحَكِّى أَنْ الْإِمَامَ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَرَضَى عَنْهُ - أَقْبَلَ عَلَى قَوْمٍ وَقَالَ لَهُمْ: أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْجَى عِنْدَكُمْ ؟

أى: ما هي الآية التي تعطي الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم: هي قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها. أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التي يعنيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء]

فكرر الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هي قول الحق سبحانه:

(١) وذلك في الليلة الإسراء والمعراج عند سكرة المنتهى، ذكره البخاري في أول كتاب الصلاة (٤٥٨/١) فيه: قال النبي ﷺ : «ثم عرج بي، حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام، ففرض الله علي أمشي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فأرجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعتني فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربي» حديث ٥٢٤٩.

سُورَةُ هُودٍ

○ ٧٧٢٧ ○

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ ^(١) *عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا* ^(٢) *مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ*
 إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. ﴿٥٣﴾

[الزمر]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعضهم: هي قوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ ^(٣) *أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا*
لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .. ﴿١٣٥﴾

[آل عمران]

فقال الإمام علي: حسنة ، وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا ، فقال الإمام علي كرم الله وجهه: ما بالكُم
 يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتم ؟ فقالوا: لا شيء.

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، ويكون الإسراف في المال وفي غيره. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ
 الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .. ﴿٥٣﴾ [الزمر] أي: جاوزوا القصد والاعتدال في
 أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْلُبُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٥٥﴾ [الشعراء]
 والإسراف يكون في أمور كثيرة، لا في إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين: «لا إسراف في
 الخير، ولا خير في الإسراف». [القاموس القويم: مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط: يقنط قنوطاً: انقطع أمله في الخير، أو يشك منه، فهو قانط. وقرأ حفص بفتح النون في الماضي
 في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا .. ﴿٥٤﴾ [الشورى] وفي قوله تعالى:
 ﴿لَا تَكُنْ مِنَ الْفَائِضِينَ ﴿٥٥﴾ [الحجر] ، وقرأ: «من القنطين» - بكسر النون - كما قرئ
 بالحركات الثلاث في النون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر].
 وقنوط: صيغة مبالغة. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَاءَ الشَّرُّ يَمْشِي قَوْنَطَ ﴿٥٧﴾ [فصلت] أي: شديد اليأس
 معدوم الأمان. [القاموس القويم: مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فحش، وفحش، فحشاء، فهو فاحش: أي: جاوز الحد، وفعل الفحش: والفاحشة: الفعلة الفبيحة. قال
 تعالى: ﴿وَأِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً .. ﴿٥٨﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ .. ﴿٥٩﴾ [النساء]
 [النساء] أي: الزنا. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ .. ﴿٦٠﴾ [الأنعام] أي: لا تقربوا الأمور
 الفبيحة المنكرة. [القاموس القويم: مادة (فحش)].

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساساً يبني عليه ما سوف يقول لهم :
واشرباًبت^(١) أعناقهم ، وأرهمفوا السمع ، فقال لهم الإمام على : سمعت حبيبي
رسول الله ﷺ يقول : أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ هِيَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ
ذَكَرْنِي لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١١٤) ﴿

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ،
فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا يفتل^(٢) - أي : لا يلتفت - إلا وقد
غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين
فله ذلك ، ثم عدُّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال : بين الصبح
والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب
والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ : « يا على إنما الصلوات
الخمس لأمتي كنهر جار يبأب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد
منكم درن^(٣) ثم اغتسل في البحر ، أيبقى على جسده شيء من
الدرن ؟ قال : فذلكم والله الصلوات لأمتي » .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا
مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١١٥)

(١) اشرباًبت إليه . أو اشرباًبت له ، اشربناًباًبت ، وشرشيبية : مد عنقه ، أو ارتفع لينظر . [المعجم الوسيط :
مادة (شرباًبت) .]

(٢) انفتل : التوى ، وانصرفت . ويقال : انفتل عن رايه . وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم . [المعجم
الوسيط : مادة (فتل) .]

(٣) درن الشيء درناً : وسخ وتلطخ . يقال : درن الثوب . ودرنت يداه بكذا . فهو درن . وأنرن . وهي
درونا . وأم درن : الدنيا . [المعجم الوسيط : مادة (درن) .]

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢٩

وجاءت كلمة «اصبر» لتخدم كل عمليات الاستقامة.

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ..﴾ (١٢٢) ﴿طه﴾

والصبر نوعان: صبر «على» ، وصبر «عن» وفي الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلّي الفجر ، وفي اتقاء المعاصي يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب في الأمرين: في الإيجاب للطاعة ، وفي السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ^(١) بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها^(٢).

وأفرض أن واحداً يرغب في أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستدين.

(١) اصطبر: على وزن افتعل، ويفيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ..﴾ (١٢٢) ﴿طه﴾ وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ..﴾ (٥٥) ﴿مريم﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نُرْمِلُ الشَّافَةَ لَنَّهُمْ فَأَرْقُبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (٤٧) ﴿الزمر﴾. [القاموس القويم: مادة (صبر)] بتصرف.

(٢) حَفَّ القوم بالبيت، أو من حوله: أطافوا به وأحْدَقوا حوله. قال تعالى: ﴿وَحَفَّتَا بِنَعْلٍ ..﴾ (٤٦) ﴿الكهف﴾ أي: جعلنا النخل يعيط بالجنتين. [القاموس القويم: مادة (حفف)].
وحَفَّ الشيء حَفًّا وحَفًّا: استدار حوله وأحْدَق به. ويقال: حَفَّ الشيء بالشيء. وحوله: ومن حوله. [المعجم الوسيط: مادة (حفف)].

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حَفَّتِ النَّجَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي مَتْنِهِ» (٢٨٢٢) قال النووي في شرحه: «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى الناس والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التي النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهي ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل في هذه، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى الشهوات المحرمة أو يفسد القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها».

ولذلك يقول الزهاد: ليس هناك شيء اسمه غلاء ، ولكن هناك شيء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول: إذا غلا شيء على تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَأَصْبِرْ^(١) عَلَى مَا أَصَابَكَ .. (١٧)﴾ [لقمان]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾ [هود]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم في مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبیت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابد لمعبود ، بل المعبود هو الذي يحدد ما يقربك إليه.

وحاول ألا تدخل في مقام الإحسان نُذراً^(٢)؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والنطوع في يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله في وُدٍّ إحسانى ثم تفتقر عنه ، وكأنك - والعياذ بالله -

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات، ومن الطاعة، وإما صبر على الممضورات، ومن التواهي. وإما

صبر على المقذورات، وهذا الصبر على القضاء والقدر فإذا تحققت الثلاثة كنت من أهل الفلاح، مصداقاً

نقول الحق: ﴿يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ آمَنُوا صَبْرُوا وَصَابِرُوا وَآمَنُوا وَأَقْبَرُوا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ (٥٥)﴾ [آل عمران]

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تنذروا فإن النذر لا يغنى من القدر شيئاً، وإنما

يستخرج به من البخل، أخرجه مسلم في صحيحه (١٦١٠)، والترمذي في سننه (١٥٢٨) وكذا

الشمسني (١٧/٧)، قال النووي في شرحه: معناه أنه لا يأتي بهذه القرية نطوعاً محضاً مبتدأً

وإنما يأتي بها في مقابلة شفاء المريض وغيره مما تعلق النذر عليه.

قد جُرِّيت مودة الله تعالى ، فلم تجده أهلاً لها ، وفي هذا طغيان منك .
وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا
تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما فُرِضَ عليه ، وبين
من تجاوز ما فُرِضَ عليه من جنس ما فُرِضَ الله .

وجرب ذلك في نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ،
وقم لتصلّي الفجر في المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عمرك ،
وحين يجيئ الظهر قم إلى الصلاة في المسجد ، وحاول أن تزيد من
ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ في أعماقك ،
وأمتلأت بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر
على مَنْ يرتاض ^(١) هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد
أنار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية.

ولذلك لا نجد واحداً من أهل النور والإشراق يدّعي ما ليس له ،
والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها
له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّه بأشياء وصفات لا يجب أن
يضعها موضع التباهي والمראה.

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض
ولغير المرتاض ، في قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفتاه
عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى:

(١) راضه روضاً ورياضاً ورياضة: ذلّه. يقال: راض المهر، وراض نفسه بالقوى، وراض القواني
الصعبة، وارتاض: صار مروضاً. يقال: ارتاض المهر: ذل. وارتاضت القواني: ذلت. والرياضة -
عند الصوفية - : تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات، والتخلّي عن الشهوات. [المعجم
الوسيط : مادة (روض)] بتصرف.

سُورَةُ الْكَافِي

٦٧٣٢

﴿.. عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا^(١)﴾

علماً (٦٥) ﴿

[الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿.. إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧)﴾

[الكهف]

وبين العبد الصالح لموسى - بمنتهى الأدب - عذره في عدم الصبر، وقال له:

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا^(٢) (٦٨)﴾

[الكهف]

ورد موسى عليه السلام:

﴿.. سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)﴾

[الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿.. فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا^(٣) (٧٠)﴾

[الكهف]

(١) لدن: ظرف مكان، أو ظرف زمان، بمعنى (عند) مبنى على السكون، وإذا أضيف إلى بناء المتكلم فصلت بينهما نون الوفاة وأدغمت في نونها مثل قوله تعالى: ﴿.. قَدْ بَعَثَ مِنْ لَدُنِّي خَيْرًا (٧٥)﴾ [الكهف]، وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَعَثْنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً.. (٦٨)﴾ [آل عمران]، وإلى ضمير المتكلمين (نا) في قوله تعالى: ﴿.. وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلَمًا (٦٥)﴾ [الكهف]، وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿لَنُنَبِّئَنَّ بِمَاذَا تَنَبَّهْتَ مِنْ لَدُنْكَ وَنَبْشِرُ الْكَافِرِينَ.. (٦٧)﴾ [الكهف] [القاموس القويم: مادة (لدن)].

(٢) خير الأمر: وخير بالأمر، مثل: علمه، وعلم به - وزنا ومعنى - فهو به خير، قال تعالى: ﴿.. فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا (٦٩)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَكُمْ مِنْهَا بَخِيلًا.. (٧٠)﴾ [النمل] أي: بئسًا. وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (٦٨)﴾ [الكهف] أي: علماً. [القاموس القويم: مادة (خير)].

(٣) الذكر: القرآن، والكتب المنزلة كلها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٠)﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرًا (٦٠)﴾ [مريم] أي: قصة رحمة الله لعبده زكريا. وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٦٠)﴾ [الشرح] أي: شرفك وحديث الناس عنك بالخير. [القاموس القويم: مادة (ذكر)].

وجاء في [مختصر تفسير الطبري: ص ٦٣٧] في تفسير هذه الآية: ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾ [الكهف]: يقول: «حتى أذكر أنا لك ما ترى من الأفعال التي أفعليها وتستذكرها أنت، وأبين لك شأنها، وأبديك الخبر عنها».

﴿وَبِالْأَسْحَارِ^(١) هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف المسلم بذلك ، ولكن الذي يرغب في الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ^(٢) (١٩)﴾ [الذاريات]

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم. وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودّ الحق سبحانه.

ولله المثل الأعلى: نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ، فهو يعطيه من خصوصياته ، ويفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالناس ممن يدخل في ودّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

(١) السحر - يفتح السين والحاء ~ : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. وجمعة أسحار. قال تعالى: ﴿... وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٨)﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (سحر)].

(٢) السائل: الفقير، أو من يسأل عن شيء. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا قَهْرَ (١٧)﴾ [الضحى] يحتمل المعنيين : السائل الذي يطلب الصدقة. والسائل المستغفم عن شيء. وقوله تعالى: ﴿فَقَسَّطْنَا الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الرِّسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ (٦٦)﴾ [الأعراف] أي: لنحاسين الناس والرسل يوم القيامة. [القاموس القويم : مادة (سأل)].

والمحروم: الممنوع من الخير. قال تعالى: ﴿بَلْ تَحَنَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ حُزِمْنَا ثُمَّ الْحَدِيقَةُ وَحُزِمْنَا الْخَيْرَ كُلَّهُ. وَالْحَرَمَانُ: المنع. والمحروم أيضاً : اسم مفعول ويطلق على الفقير. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (حرم)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٣

﴿قُلُوا لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا بِحُرْمَتِ﴾ (١١٦)

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لفعل
لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه ،
تكون «لولا» للتحسر والتأسف .

وفي سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿قُلُوا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَبِغَیِّهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ ..﴾ (٩٨) [يونس]

ونذكرهم بالآيات . ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان في اللغة ،
فهى إن دخلت على جملة اسمية ، فهى تدل على امتناع لوجود ، كقول
إنسان لآخر : «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أذنبت» وتسمى «لولا»
في هذه الحالة «حرف امتناع لوجود» .

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهى أداة تحضيض ،
وتحميس ، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً ، مثلما تشجع طالباً على
المذاكرة ، فتقول له : «لولا ذاكرت بجد واجتهاد فى العام الماضى لما
نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية» .

(١) أولو البقية : أصحاب النعمين والعقل والنظر فى العواقب وأصحاب الفضل الباقى والخير الثابت .
قال تعالى : ﴿قُلُوا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١١٦) [هود] .

والبقية : الباقية والشيء الباقى . [القاموس القويم : مادة (بقى)] .

(٢) ترف ترفاً : تنعم . وأترف الله : نعمه وأعطاه ما يشتهى . قال تعالى : ﴿وَأَتَرْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

..﴾ (١١٦) [المؤمنون] ، وقال تعالى : ﴿وَالْبَعْثُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ ..﴾ (١١٦) [هود] أى : جزوا وضاء

شبهواتهم وتمادوا فى الترف فابطروهم وأطفاهم . [القاموس القويم : مادة (ترف)] .

وقى هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب :
«لولا ذاكرت لما رسبت» فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ،
وشحن طاقته لما هو آت : لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة :
لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ^(١).

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هي التي ثبتت
أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوح بالشئ التافه أولاً ،
ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشئ القوي : لأنه ثابت على
أحداث الزمن : وبقية الأشياء دائماً خيرها.

والحق سبحانه قد بين لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت : لأنه لم
توجد فئة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع
من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف
الخبر وجوباً إذا كان كونه عاماً، وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصل مثل ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا] ، وجملة الجواب (فعلية) وتقترب باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب، وتجرد عنها
إذا كانت منفية. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ﴾ [النور] تجرد
الجواب من اللام لأنه منفي بالحرف (ما) ، وقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل
كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعِيمٌ ذِي بَرٍّ﴾ [النور] ، وتقدير الجواب :
«لمسكم فيما أفضتم فيه لعذاب عظيم» ، كما وضحت الآية التي بعدها فى نفس السورة.

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتوضيحية مثل (هلاً) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى:
﴿لَوْلَا تَسْتَفْتُونَ اللَّهَ...﴾ [النمل] ، ويدخل على ماضى فى تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا
أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ...﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى .. وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتقريع
فتختص بالماضى، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا
إِذْ سَبَحْتُمْوهَ فَلَنْتُمْ مَا بِكُودَ لَنَا أَنْ نَكَلِّمَ بِهِذَا...﴾ [النور]. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا...﴾
[الانعام] ولولا هنا بمعنى (هلاً) للتوبيخ، ويؤيده قراءة: «هلاً إذ جاءهم بأسنا».

[القاموس القويم : مادة (لولا)].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٣٧﴾

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية فى كل شيء ، وأنها هى التى تبقى أمام الأحداث ، وفى قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه :

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .. (٨٦)﴾ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور.

ولذلك قال شعيب عليه السلام :

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١) وَلَا تَبْخَسُوا (٢) النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥)﴾ [هود]

فانت إن نظرت إلى شيء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخوراً لك باقياً.

ولنا المثل فى موقفه رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حينما سألتها عن شاة أهديت له ، وكانت تعرف أن

(١) اقسط : عدل ، وأزال الظلم أو الجور ، قال تعالى : ﴿ .. وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١) ﴾ [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القسط) - بكسر القاف وسكون السين - بمعنى العدل كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمُرُّ بِى بِالْقِسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الأعراف] أى : بالعدل . وقال تعالى : ﴿ وَأَنْهَضُوا الْوُزْنَ بِالْقِسْطِ .. (٢) ﴾ [الرحمن] أى : بالعدل . وقال تعالى : ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٥) ﴾ [هود] أى : بالعدل . [القاموس القويم : مادة (قسط)] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفقه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم : مادة (بخس)] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٢٨

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها^(١) ، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلمأ سألها: ما فعلت بالشاة ؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنها - هذا المنظور الواقعي ؛ بأن الباقي من الشاة هو كتفها فقط ، وأنها تصدقت بباقي الشاة ، ويلفتها رسول الله ﷺ لفظة إيمان وبقين ، ويقول لها: «بقي كلها إلا كتفها»^(٢).

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقي من الشاة من خير.

ويؤيد ذلك حديث قاله ﷺ: «وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فافتنيت، أو لبست فابليت ، أو تصدقت فامضيت »^(٣).

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه:
﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا...﴾ (١٦) [الكهف]

ويعصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

(١) أخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (ﷺ) (ص ٢٠١) عن ابن عباس ، وكان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف. وأخرج البخاري في صحيحه (٤٧١٢) عن أبي هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرمى إليه الذراع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٦) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة ، قال الترمذي : «حديث صحيح» .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤ ، ٢٦) ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) والترمذي في سننه (٢٣٤٢) وصححه.

(٤) بقى بقاء: ضد فنى. وبقا: اسم فاعل مؤنث: باقية. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ رَبِّهِ رَبُّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٥٥) [الزخرف] وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَكُمْ يَنْقُذُكُمْ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ يَكْفِي﴾ [التحل].

والبقية: الباقية، والنسيء الباقي. وجميع بقية: بقيات. وجمع باقية: باقيات، قال تعالى: ﴿... وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ (١٦) [الكهف] أى: الأعمال النافعة الباقية التي يبقى خيرها في الناس هي خير ثواباً عند الله. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٣٩﴾

﴿.. ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا^(١)﴾ [الكهف]

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا^(٢)﴾ [مريم]

إذن: لا بد أن ننظر إلى الباقيات فى الأشياء : لأنها هى التى يُعَوَّل عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(٣)﴾ [الاعلى]

ويقول سبحانه:

﴿رَمَّا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى^(٤)﴾ [القصاص]

إذن: فإياك أن تنظر إلى الزاهب ، ولكن أنظر إلى الباقي.

وإذا عضت الإنسان الأحداث فى أى شيء ، نجد أن سطحي الإيمان يفزع مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكرًا لله تعالى على ما بقى.

وها هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حينما

(١) أمل يامل أملاً وُأملاً وأملاً : رجا يرجو. والامل: الرجاء. قال تعالى: ﴿.. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا^(١)﴾ [الكهف] لأنه رجاء عند الله متحقق: لا شك فيه. [القاموس القويم: مادة (امل)].

(٢) مرَدًّا: اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمي. قال تعالى: ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ..﴾ [غافر] أى: رجوعنا إليه - على المصدرية - أو مرجعنا إليه - على أنه اسم مكان أو زمان. وقال تعالى: ﴿وَأِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ^(٢)﴾ [الرعد] أى: لا صرف له ولا إرجاع له - على المصدرية - فهو واقع بهم حتمًا. [القاموس القويم: مادة (رد)]. وجاء فى [كلمات القرآن للتشيخ محمد حسنين مخلوف] أن كلمة (خير مرَدًّا)، أى: مرجعاً وعاقبة.

جُرُحت ساقه جرحاً شديداً، وهو في الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء: لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين.

وكان هذا القول يعني أن تجري له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلما قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسبقه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت في عضو ؛ فقد عافيت^(١) في أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقي.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقي الإيمان يقول مرة :

﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. ﴾ (٤٠) [غافر]

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴾ (١٥٧) [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة.

وهكذا تجد في كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه:

(١) عفا الثبت: كثر وطال. وعفا القسم كثر. يقول الحق : ﴿ ثُمَّ بَدَأْنَا مَكَّانَ السَّبْتِ الْعَسَةِ حَتَّىٰ عَفَا .. ﴾ [الأعراف] أي: كثروا وعزوا واغشوا، والعفو في المال ما زاد عن النفقة. يقول الحق: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْفَقْرُ .. ﴾ (٢٦٦) [البقرة] وعفا عن الذنب عفا: تجاوز عنه. وعفو صيغة مبالغة أي: كثير العفو. يقول الحق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ (٦٠) [الحج]، ويقول الحق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْقُرْآنِ .. ﴾ [الأعراف] أي: خذ ما عفا عن الناس وسمحوا به عن طيب خاطر، ومن دعاء القرآن الكريم: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨٦) [البقرة] القاموس القويم (١/٢٧، ٢٨).

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٤١

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ ^(١) مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ ^(٢) فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ .. ﴾ (١٦) ﴿

[هود]

أى: لولا أن كان في الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكانوا ينهون عن الفساد في الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها .
والبقايا في كل الأشياء هي نتيجة الاختيار ، والاختبار ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ ^(٣) فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^(٤) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ ^(٥) فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) ﴿

[الرعد]

(١) القرن من الناس: أهل زمان واحد. قال تعالى: ﴿ .. فَأَمَلْنَاكُمْ بَذَنِّيهِمْ وَأَنفَعْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام] ، وجمعه: قرون. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَنُّوا .. ﴾ (١٦) ﴿ [يونس] ، [القاموس القويم : مادة (قرن)] .

(٢) فسد فساداً ، والفساد: ضد الإصلاح ، وإفساده غيره: جعله قابضاً. قال تعالى: ﴿ .. وَيَنْهَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٦) [المائدة] . وقال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَعْلَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١٦) [البقرة] ، وكلمة مفسدين حال مؤكدة لمعنى الفعل «تعشوا» أى: لا تفسدوا في الأرض فساداً. [القاموس القويم : مادة (فسد)] .

(٣) زبد الماء: ما يعلوه - عند جيشائه واضطرابه - من الزغوة وخطام الأشياء. وزبد المعادن: خبثها ونقايتها. قال تعالى: ﴿ فَاسْتَمِلَ السَّيْلُ زُبْدًا زَبِيًّا ﴾ (١٦) [الرعد] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴾ (١٧) [الرعد] شبه الله - سبحانه - الباطل والزبد الذى يلقى ويرمى؛ لأنه لا ينفع الناس. [القاموس القويم : مادة (زبد)] .

(٤) جفات القدر: رمت زبدها عند الغليان. وجفا السيل غشامه: رماه وقذفه. ومن عادة الطهارة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) [الرعد] أى: لا ينتفع به ، ويلقى بعيداً ، أو يذهب ضياعاً كالجفاء. [القاموس القويم : مادة (جفا)] .

(٥) مكث مكثاً ومكثاً : أقام في مكانه. ونفد التاني وعدم العجلة. قال تعالى: ﴿ فَيَمْكُثُ غَيْرَ بَعِيدٍ .. ﴾ (١٧) [الزلزال] أى: استمر الهدوء في غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى: ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) [الرعد] أى: يبقى مدة طويلة فيها؛ فيزيدها خصيباً. وقال تعالى: ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴾ (١٧) [طه] أى: اقيموا في مكانكم منتظرين. وقال تعالى: ﴿ وَفَرَأْنَا نُفُورَهُ لُطْرًا عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ .. ﴾ (١٧) [الإسراء] أى: على مهل وتأن بغير عجلة في أزمة متظاوله. [القاموس القويم : مادة (مكث)] .

وفي العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إنّ: فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد في الأرض ؛ لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء.

ومكنا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذي كَوَّن الكون بكماله.

واقراً إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَرُوا (٨) فِي الْمِيزَانِ (٨)﴾

[الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ؛ فلکم أن تعدلوا في الكون في الأمور الاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاقل خير الكادح ، ويرى الناس العاقل ، وهو يحيا في ترف من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد.

(١) طغى يطفو طقواناً وطفوى: بمعنى تجاوز الحد في الجور والتعدي وطفى يطفى طغياناً: تجاوز الحد - وهـ طغوى من الواوى، وهـ طغيان: من اليأس. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَفَرُوا فِي أَيْلَادٍ (٥٥)﴾ [الفجر] أي: ظلموا وتجاوزوا الحد في العصيان. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا نُمُودٌ لَّهُمْ كُفُوا بِالْعَاقِبَةِ (٥٤)﴾ [الحاقة] أي: بالنصيحة التي تجاوزت الحد في قوتها. [القاموس القويم: مادة (طغى)]. وجاء في [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف]: ﴿... وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]: شرع العدل وأمر به الخلق. و﴿أَلَّا تَطْغَرُوا (٨)﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٤٤

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوامة» ، ويستسلم للنفس الأمارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقومه ، فإذا ما فسد المجتمع ، فالسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد أمتها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهي عن المنكر^(١)؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى: «علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل»^(٢).

والعالم هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها ، وأدامها إلى من لم يسمعها» ، فربُّ مبلغ أوعى من سامع»^(٣).

ويقول الحق سبحانه:

﴿... أُولَئِكَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾ [هود]

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض.

(١) عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٧٣).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال: «قال السيوطي في الدرر لا أصل له..» وكذا قال ابن حجر والعميري والذركشي.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) وابن ماجه في سننه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٤٥

ونرى أمثلة على ذلك في القرية التي كانت حاضرة البحر ، وكانت تأتيتهم حينئذهم شُرْعاً ^(١) يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تأتيتهم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ ^(٢) قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ ^(٣) إِلَهِ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَضْحَكُونَ ^(٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ^(٥) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٦) ^(٧) ﴾ (١٦٥)

[الأعراف]

(١) شرع: ظهر واشرف فهو شارع أي: بارز ظاهر، وجمعه شرع. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِينَئِذِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا..﴾

(٢) ﴿...﴾ [الأعراف] بارزة واضحة في الماء. [القاموس القويم: ٣٤٦/١].

(٣) وعظه يعظه وعظاً وعظة: تصح به بالطاعة وبالعامل الصالح، وأرشده إلى الخير. قال تعالى مصوراً عباد الكافرين: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ^(٣٦)﴾ [الشعراء] فهم لشدة عنادهم وكرهم يستوي عندهم الأمران الوعظ وعدم الوعظ.

والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿... وَمَوْعِظَةُ الْمُنْظَرِ ^(٣٧)﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ... ^(٣٨)﴾ [النحل]. [القاموس القويم: مادة (وعظ)].

(٤) المعذرة: مصدر ميمي، واسم للمعذر. وللحجة، وعذره: قبل عذره وسامحه. قال تعالى: ﴿مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ... ^(٣٩)﴾ [الأعراف] أي: اعتذاراً له ببذل الجهد في السعي لهداية الناس. وقال تعالى: ﴿وَوَكَّلْنَا نَارِيَّ مَعَاذِرَهُ ^(٤٠)﴾ [القيامة]. [القاموس القويم: مادة عذر].

(٥) يئوس يئوساً: شجع واشتد، فهو يئيس، أي: شديد، ويقال: فارس يئيس، أي: قوي شجاع. قال تعالى: ﴿... وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٤١)﴾ [الأعراف] أي: عذاب شديد. [القاموس القويم: مادة (ئوس)].

(٦) فسقت الرطبة فسوقاً وفسقا: خرجت من فطرتها، ومن هذا المعنى المأدب أخذ المعنى المعنوي، فقيل: فسق الرجل: خرج من طاعة الله خروجاً فاحشاً، والفسق أعم من الكفر، فقد يكون فاسقاً ولا يكون كافراً؛ كالمسلم العاصي. قال تعالى: ﴿... إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا... ^(٤٢)﴾ [الحجرات]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ كَانَ مُؤْمِنًا كُنَّ كَانًا فَابْتِغَاءً... ^(٤٣)﴾ [السجدة] أي: كافراً غير مؤمن، فالفسوق هنا - في الآية الأخيرة - بمعنى: الكفر. [القاموس القويم: مادة (فسق)] يتصرف.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٤٦

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن السوء فى تلك القرية ، وقد نرى فى بعض المجتمعات عنصريين:

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد.

والعنصر الثانى: أن يفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه، وفى انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلة للبشر: لأنك قد تجسد إنساناً لا تترفع إمكاناته! فيزيد هذه الإمكانيات بالرشوة والسرقة والغصب.

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتعمون بنعيم لا تؤهله إمكانياته أن يتنعم به.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا^(١) .. (١٦)﴾ [الإسراء]

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها: فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة لأمر من الله - سبحانه وتعالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله: لأن الحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ^(٢) لَهُ الدِّينَ .. (٥)﴾ [البينة]

أى: أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهى مختارين: ففسقوا عن أمر ربهم.

(١) أمرنا مترفيها: أمرنا متتبعيها بطاعة الله. ففسقوا: فتمردوا، وعصوا. [كلمات القرآن للشيخ محمد حنين: مخلوف].

(٢) أخلص دينه لله: طهره وصفاه من شوائب الشوك والرياء. قال تعالى: ﴿.. فَأَعِدِ اللَّهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١)﴾ [الزمر] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٢)﴾ [سورة ص] أى: إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خالصة خاصة هى ذكرى الدار الآخرة، فذكراهما والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل. وفى فضيلة عظيمة خاصة بهم. [القاموس القويم: مادة (خلص)].

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرها عنها:

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (١٦٦)﴾ [هود]

وقوله سبحانه: (ظلموا) تبين أن مادة الترف التى عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتناع دماء الكاذبين.

ومادة (ترف) تعنى النعمة يتنعم بها الإنسان، ومنها: أترف ، وأترف ، وكلمة «أترف» أى: أطفته النعمة ، وأتسته المنعم سبحانه، وأترف ، أى: مد الله له فى النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ^(١) كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً^(٢) .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

فمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظن ظان أنه يدله ، ولكنه يرفعه ليلقيه من عل ، فيزداد ويعظم ألمه . وكان الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليطفوا.

ولنا أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التى تجعل النفس متشرحة ، وعليها أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

(١) الباب: مدخل المكان، وجمعه: أبواب، ويستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره . قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَمِعِينَ﴾ [البقرة] هو باب حقيقى للبلد.

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٦٧)﴾ [المؤمنون] أى: أصبناهم بعذاب شديد، كأنه خلف باب مغلق ففتح وتدفق العذاب عليهم، وقال تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١١)﴾ [الأنعام] أى: منحناهم أصناف النعم من صحة ومال ونساء وغير ذلك، كأنها كانت خلف أبواب مغلقة ففتحت. [القاموس القويم مادة ب و ب].

(٢) بغتة وبغتة: فجاءة على غرة وغفلة. قال تعالى: ﴿... فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٤٥] [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (بغت)].

إن فُتِحَ عليك : فافهم أن النعمة جاءت لتطفيك ، ولكن إن فُتِحَ لك ،
فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ^(١) لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ^(٢) ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم في هذه الآية التي نحن بصدد
خواتمها عنها : قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر : لأنهم غفلوا عنه.
ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ^(٣) ﴾ [هود]

أى: كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل : وهو اتباع منهج
السما : لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» ^(٤) وتعنى:
«قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء : والغفلة عن الإيمان بالخالق
سبحانه ، والاستغراق فى الترف الذى حققوه لأنفسهم بظلم الغير ،
وأخذ نتيجة عرق وجهه الغير.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

(١) فتح يفتح فتحاً: ضد أغلق، ويسمى التصرف على العدو فتحاً لأنه يفتح بلاده للمنتصر، قال تعالى:
﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ﴾ [الاعراف] أى: انصربنا عليهم، ويجوز أن يكون المعنى:
ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والخبرة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم، وقال تعالى:
﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ .. ﴾ [الاعراف] أى: لا يرضى عنهم الله، ولا يبالغون بحسنه كأن
السماء مغلقة أمامهم كما تغلاق أبواب الملوك فى وجه الذين لا يرغبون فى لقاءهم. [القاموس
القيوم : مادة (فتح)].

(٢) جرم الشيء جرماً: قطعه، وغلب هذا الفعل على عمل الشر، يقال: جرم أذنبي، وجرى جنائياً، وجرم
العال كسبه من أى وجه، وجرمه: حملة على فعل شر أو ذنب وجرم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا .. ﴾ [المائدة] أى: لا يحملتكم بغض قوم على عدم العدل، أى: التزموا
العدل حتى مع من تكرهونهم، أى: اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للثبوت. [القاموس القويم - مادة:
جرم].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾^(١١٧)

وساعة تقرا أو تسمع (ما كان) يتطرق إلى ذمتك : ما كان ينبغي^(١) ومثال ذلك: هو قولنا: «ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا» . وقولنا هذا يعني أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغي أن يصدر منه . وهناك فرق بين نفى الرجود : ونفى انبغاء الوجود . والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ..﴾^(٦٩)

[يس]

وهذا لا يعني أن طبيعة الرسول ﷺ جامدة ، ولا يستطيع - معاذ الله - أن يتذوق المعاني الجميلة ؛ لأنه ﷺ جبل^(٢) على الرحمة ؛ وقد قال فيه الحق سبحانه:

(١) ملك، يهلك ملكاً وملكاً وملكاً، ومهلكاً - يفتح اللام ويكسرهما - وتهلكة : مات وقتل، فهو هالك . قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..﴾^(٦٨) [القصص] وقال تعالى: ﴿لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾^(٦٩) [الأنفال] وقال تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِ ..﴾^(٦٥) [النمل] . وقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَمِي سُلَاطِنَةٌ﴾^(٦٩) [الحاقة] أي: ذهب وضاع ولم يبق لي عن ولا سلطان . وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَمَرْتُ هَٰذَا نِسَاءَ نَهْ وَنَدَّ ..﴾^(٧٦) [النساء] أي: مات وليس له ولد يرثه، وأهلكه: أمانته وأفسده، أو كان سبباً في هلاكه . قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾^(٥٦) [النجم] أي: أفتاهم وأبادهم . [القاموس القويم : مادة هلك] يتصرف .

(٢) قال الإمام أبو يحيى زكريا الانتصارى في «فتح الرحمن» (ص ١٩٥) : «نفى الله الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل في النفي، لأن اللام فيه لام الجحود، والمضارع يفيد الاستمرار، فمعناه: ما فعلت الظلم فيما مضى، ولا أفعله في الحال، ولا في المستقبل فكان غاية في النفي» .
(٣) جبل الله الخلق جبلاً : خلقهم . ويقال: جبله على كذا: طبعه . وفي الأثر: تجبلت القلوب على حب من أحسن إليهم . وجبل الشيء: شده وأوثقه . وجبل فلاناً على الشيء : والأمر: جبره، [المعجم الوسيط: مادة (جبل)] .

﴿ قَبِيْمًا رَحْمَةً مِّنَ اللّٰهِ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّكَ فِطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَنُفَضِّلَنَّ مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾

[آل عمران]

ولهذا نفهم قوله الحق:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾

[يس]

أى : أن الحق سبحانه لم يشأ له أن يكون شاعراً.

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين «نقى الوجود» وبين «نقى انبغاء الوجود».

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. (١١٧) ﴾

[هود]

أى: لا يتأتى ، ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم : لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير لينتفع به : ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً؛ لأنه سبحانه وأهب كل شيء : لذلك فالظلم غير وارد على الإطلاق فى العلاقة بين الخالق سبحانه وبين البشر.

وحين يورد الحق سبحانه كلمة «القرى» - وهى أماكن السكن - فلنعلم أن المراد هو «المكين» ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً ^(١) الْبَحْرِ .. (١٦٤) ﴾

[الاعراف]

وقوله الحق أيضاً:

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ^(٢) الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾

[يوسف]

(١) حاضرة البحر: أى: مشرفة عليه: مجاورة له غير بعيدة عنه. [القاموس القويم ١/ ١٥٩] بتصريف.

(٢) القرية: البلدة الكبيرة، تكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأيتية. قال تعالى: ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ .. (٨٢) ﴾ [البقرة] . ثم قال: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ مِنْ أَشَدَّ قُوَّةٍ مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَمْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (٨٢) ﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. [القاموس القويم ٢/ ١١٥].

والحق سبحانه في مثل هاتين الآيتين ؛ وكذلك الآية التي نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المكين.

والله سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ۖ ﴾ (١١٧)

[هود]

أي: أنه مُنْزَهٌ عن أن يهلكهم بمجاوزة حدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدل؛ لأن العدل ميزان، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران، ومن العدل العقاب، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب.

وفي مجالنا البشرى ؛ لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة ؛ فنحن نتعبه فعلاً ؛ لكننا نريح كل المظلومين ؛ وهذه هي العدالة فعلاً.

ومن خطأ التقنيات الوضعية البشرية هو ذلك التراخي في إنفاذ الحقوق في التقاضي ؛ فقد تحدث الجريمة اليوم ؛ ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما هو واحد من أخطاء التقنيات الوضعية ؛ ففي هذا تراخٍ في إنفاذ حقوق التقاضي ؛ لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة.

ولذلك حرص المشرع الإسلامي على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم في حموة^(١) وجود الأثر النفسي عند المجتمع ؛ يجعل المجتمع راضياً بعقاب

(١) حموة الالم: سورته، وشدته، سواء إكأن الالم مادياً أم معنوية، [المعجم الوسيط ؛ مادعا (حمو)] بتصرف.

المجرم، ويذكر الجميع ببشاعة ما ارتكب : ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها.

ويقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ^(١) ﴾ (١١٧) [هود]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ .. لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ ^(٢) ﴾ (١٢٩) [الشعاع]

إذن: لا بد من إزاحة الغفلة أولاً ، وقد أراح الله سبحانه الغفلة عنا

(١) أصلح الأمر إصلاحاً: أزال إفساده. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْسِنُوا فِي الْأَرْضِ بِغَدٍ إِصْلَاحِهَا .. ﴾ (٤٥) [الأعراف]. وأصلح بين الرجلين: أزال ما بينهما من خلاف وخصام. قال تعالى: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ .. ﴾ (١٥) [الحجرات]. ومصالحون: جمع مصلح. والمصلح: اسم فاعل، من الفعل «أصلح». قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُتَكَبِّرَ مِنَ الْمُصْلِحِ .. ﴾ (٤٦) [البقرة]. وقال تعالى: ﴿.. قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (٤٧) [البقرة]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١١٧) [هود]. وقال تعالى: ﴿.. إِنَّا لَا نَضِيعُ أَمْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٢٩) [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (صلح)] بتصرف.

(٢) غفل عن الأمر، يَغْفُلُ غفولاً: تركه عمداً. أو عن غير عمد. وأغفله - متعدي بالهمزة -: تركه عن عمد. وأغفل غيره عن الأمر: جعله يَغْفُلُ عنه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا .. ﴾ (١٢٨) [الكهف] أي: جعلناه غافلاً عن ذكرنا. والغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا .. ﴾ (٩٩) [ق] أي: غافلاً عن إدراك القيامة، وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلُوبُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ .. ﴾ (١٢٩) [النساء] أي: تسبون عنها وتتروكون حراستها فينتفضبون عليكم. وقال تعالى: ﴿.. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤) [البقرة] أي: إن الله عالم، يعلم بكل ما تعملون، لا يسهو عن شيء منه. وقال تعالى: ﴿.. أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٢٩) [الأعراف] أي: الذين لا يدركون الحق ولا يهتدون إليه فيعرضون عنه. [القاموس القويم : مادة (غفل)] بتصرف.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٢

بإرسال الرسل وبالبیان وبالنذر ؛ حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق التشريع لها ^(١).

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى البیان اللازم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١١٧) [هود]

والإصلاح في الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا في الكون من ضروريات لننتفع بها ، وقد كفانا الله ضروريات الحياة ؛ وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل الترف في الحياة.

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة في الكون ، والتزاوج متاح بوجود الذكر والأنثى في الكائنات المخلوقة ، أما ما نصنعه نحن من تجويد لأساليب الحياة ورقايتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا.

وسبق أن قلنا: إن المصلح هو الذي يترك الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدي إلى ترفه وإلى راحته ، وإلى الوصول إلى الغاية بأقل مجهود في أقل وقت.

والقرى التي يصلح أهلها ؛ لا يهلكها الله ؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى ؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات ؛ بل تتساند وتتعاضد، ويتواجد المجتمع المنشود.

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ .. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء].

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوى ، ولكنهم اهتموا إلى أسلوب عمل يريحهم، مثل الأمم الملحدة التى اهتمت إلى شىء ينظم حياتهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشرى أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس.

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوى فقد شاء به الله سبحانه أن يقى الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعرضهم الأحداث.

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهى تعالج بعض الداءات التى يعانى منها البشر ، لا تعطى عائد الكمال الاجتماعى، أما قوانين السماء فهى تقى البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَظْهَرْنَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾

[هود]

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوى، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوى ، لكنهم يصلحون أنفسهم.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة ؛ بل يبقيها كافرة ما دامت تضع القوانين التى تنظم حقوق وواجبات أفرادها ؛ وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام.

ولكن على المؤمن أن يعلن لهم منهج الله ؛ فلأن أقبلوا عليه ففى ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا ؛ فعلى المؤمنين أن يكتفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيمانى.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٥

ولذلك نجد - في البلاد التي فتحها الإسلام - أناساً بقوا على دينهم ! لأن الإسلام لم يدخل أى بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التي تحمى حق الإنسان في اختيار عقيدته.

يقول الله جلّ علاه :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) ﴿ [المستحنة]

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومُصلحة ! فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه في الحياة الدنيا ! لأنه سبحانه القائل:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (٢٠) ﴿ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ

مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١٨) ﴿

(١) حرث الأرض: يحرثها حرثاً، أثارها وهيأها للزراعة، أو ألقي فيها الحب للزراعة. وحرث الأرض: زرعها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ تَحَرَّوْا (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ تَزْرَعُونَ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (١٩) ﴾ [الواقعة] ، ويطلق الحرث على الزرع. قال تعالى: ﴿ وَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ .. ﴾ (٢٥) ﴿ [البقرة] أى: يهلك المزروعات، والنسل من الإنسان والحيوان. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَكْمُ حَرْثَ لَكُمْ .. ﴾ (٢٦) ﴿ [البقرة] على التشبيه بالأرض المهيأة للزراعة فهن بلدن لكم الذرية، ومن العجاز قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. ﴾ [الشورى] أى: فى ثواب الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ .. ﴾ [القلم] أى: على زرعكم أو حديقتكم المزروعة، [القاموس القويم : مادة (حرث)].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٦٠

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله - سبحانه - في هذا الكون كل مقومات الحياة ؛ المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان ؛ ليمارس مهمة الخلافة في الأرض ؛ ولم تقاب^(١) تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ؛ لأن الحق - سبحانه - هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه؛ فهو - سبحانه - لن يضمن عليه بمقومات هذا الوجود ؛ من بقاء حياة ، وبقاء نوع.

وهذا هو عطاء الربوبية الذي كفله الله - سبحانه - لكل البشر؛ مؤمنهم وكافرهم ؛ وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل في المنهج الإيماني: «افعل» و «لا تفعل».

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعداء الدنيا والآخرة^(٢).

إذن: ففقدرة الله - سبحانه - قد أرغمت الكون - دون الإنسان - أن يؤدي مهمته ؛ وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام إرادة الله - سبحانه وتعالى^(٣) - كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أي من الكائنات الأخرى المسخرة عن إرادته.

(١) أَيْ إِبَاءَ وَإِبَاءَةٍ وَتَأْيِي عَلَيْهِ: اسْتَمْعَى. وَأَيْتَى الشَّيْءُ: كَرَّمَهُ وَلَمْ يَرْضَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِينَ ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْتُمْ نُورَهُ...﴾ [التوبة] ، وَفِي الْعَمَلِ: رَضِيَ الْخَصْمَانِ وَأَيْتَى الْقَاضِي: بَضْرِبَ

لَمَنْ يَطْلُبُ بِحَقِّ تَزَلُّ أَسْحَابِهِ عَلَيْهِ. [المعجم الوسيط: مادة (أيتى)] بتصرف.

(٢) يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣١) نَحْنُ أَرْزَأُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣٢) نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٣)﴾ [فصلت] .

(٣) يَقُولُ تَعَالَى: ﴿... وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٤١)﴾ [النحل] . وَيَقُولُ: ﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾

(٤٢) [العنق] . وَيَقُولُ أَيْضًا: ﴿... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي رَحْمَتِي...﴾ [٤٣] [الشورى] .

لأن الحق - تبارك وتعالى - أثبت لنفسه طلاقة القدرة في تسخير
أجناس لمراده ؛ بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله - سبحانه -
القدرة ولا يثبت له المحبوبة.

أما الذي يثبت له المحبوبة فهو أن يخلق خلقاً ؛ ويعطيهم في
تكوينهم اختياراً.

ويجعل هذا الاختيار كل واحد فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن
يعصى ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبة الله - تعالى .

وهكذا نعلم أن الكون المسخر المقهور قد كشف لنا سيال^(١) القدرة،
والجنس الذي وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبة.

والحق - سبحانه - هو القائل:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (٢٩)

[الكهف]

ولكن أترك الإنسان حتى يأتي له القرور في أنه يملك الاختيار دائماً؟

لا ، فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار ؛ لأن في طيِّك
قهر^(٢) ، وما دام في طيِّك قهر فعليك أن تتأدب ؛ ولا تتوهم أنك
مختار في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن ؛ ولا تتوهم أنك مُخفلة من
قبضة الله - تعالى - فهو يملك زمامك^(٣) في القهريات التي تحفظ لك

(١) سال يسيل سيلاً، وسيلاناً، وسيلاً، ومسلاً، فهو سائل، وسيلال، جري وطيني. ويقال: سالت
الأرض ونحوها، وسالت بما فيها، وسالت عليه الخيل وغيرها، جرت من كل وجه وتدفقت. وسال
بهم السيل، وجاش بنا البحر: وقعوا في أمر شديد، ووقعنا نحن في فشد منه. وسالت الغرة:
استطلقت وعرضت في الجبهة وقصبة الأنف.

وسيلال القدرة الإلهية: ظهور آثارها في جميع المخلوقات، وأنشائها وشمولها لكل شيء في
الكون، ما علمنا منه وما لم نعلم. [المعجم الوسيط: مادة (سيل)] بتصريف.

(٢) لأن الإنسان مختار فيما يستطيع التبديل فيه ، مقهور فيما لا يستطيع إبداله . إذن : للاختيار حدود
مقرنة بالاستطاعة ، والطاقة البشرية.

(٣) الزمام: الخيط الذي يشد في البرة أو في الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود. ويقال: هو زمام
فرسه: قائدهم ومقدمهم وصاحب أمرهم. وهو زمام الأمر: ملاكه. وألقى في يده زمام أمره:
فوضه إليه. ويملك الله زمامك: أي: يملك أمورك كلها. [المعجم الوسيط: مادة (زمم)] بتصريف.

حياتك مثل: الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه - سبحانه - مَيَّزَكَ بالعقل .
وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطى الأسماء معانى ضد مسمياتها ،
فكلمة «العقل» مأخوذة من «عقل»^(١) وتعنى : «ربط» ؛ فلا تجمع^(٢)
بِعقلك فى غير المطلوب منه ؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك . وتذكر
دائماً: فى قبضة من أنت ؛ وفى زمام من أنت ؛ وفى أى الأمور أنت
مقهور؟

وما دُمْتَ مقهوراً فى أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله
سبحانه واحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء
ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه .

وانظر إلى من سلبهم الحق - سبحانه - بعض ما كانوا يظنون أنها
أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ،
أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع .

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية فى الإنسان لما عصته ، وهذا دليل
على أنها أمور موهوبة من الله ، وإن شاء أخذها، فهو - سبحانه -
ياخذها لينؤذب صاحبها .

ومادام الإنسان بهذا الشكل، فليقل لنفسه: إياك أن تغتر بأن الله

(١) عقل يعقل عقلاً أدرك الأشياء على حقيقتها . وعقل البعير: ضم رأسه يده إلى عضده وربطها معاً
بالعقال: ليبقى يارداً . والعقل: ما يكون به التفكير وتصور الأشياء على حقيقتها . كقوله تعالى:
﴿ مِنْ بَيْنِ مَا عَقِلَهُ .. ﴾ (٧٥) [البقرة] أى: أدركوه على حقيقتها وعلومه علماً ثابتاً . قال تعالى:
﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٥٦) [الملك] أى: لو كنا ندرك الأمر على
حقيقته . وقد نعى القرآن كثيراً على من لا يستعملون عقولهم . وحدث على استعمال العقل، فمن ذلك
قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤) [البقرة] . [القاموس القويم : مادة (عقل)] بتصرف .

(٢) جمع: أسرع . والجروح: الرجل يركب هواه فلا يمكن رده . [مختار القاموس - مادة جمع] .

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٥٩

جعل فيك زاوية اختيار، وتذكر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقى التكليف من الله بـ «افعل»^(١)، و«لا تفعل»؛ لأن معنى «افعل كذا» أنك صالحٌ ألا تفعل؛ ومعنى «لا تفعل كذا» أنك صالحٌ أن تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك في زواياك الأخرى منطقة قهرٍ وتسخير، فتأدبُ في منطقة الاختيار، كما تأدبت في منطقة الاضطرار والقهر.

وقد وصف الحق - سبحانه - الإنسان بأنه كنود، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ^(٢)﴾ [العنكبوت]

لأن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هي أن يعقل حدوده، وأن يقول لنفسه: مادامت الحيوانية في مقهورة، ومادامت الجعادية في مقهورة؛ فلأكن مؤدياً مع ربي، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله.

وأنت إن أردت أن تضع إحصائية لـ «افعل» ولا «تفعل» لوجدت ما لم يرد فيه تكليف بـ «افعل» و«لا تفعل» لا يقل عن خمسة وتسعين في المائة من حركة الحياة، وهو المباح.

وأنزل الله - سبحانه - التكليف لتتضبط به حركة حياتك كلها - إن جعلت التكليف هو مرادك - وهو لن يأخذ أكثر من خمسة في المائة من حركة الحياة ، ويعود خير ذلك عليك.

(١) وكلمة افعل ولا تفعل تدور حول مطلوبات المنهج أمراً ونهيًا، فالفرض والواجب والسنة والمستحب مأمور بهم، والحرام والمكروه منهيٌ عنهما، والأمر عطاءٌ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ^(٣)﴾ [فصلت] وللتبني عقابه أو المغفرة من الله.

(٢) كند النعمة يكرها ؛ جردها ولم يشكرها، فهو كاند، وصيغة العيالة «كنوده». قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ^(٤)﴾ [العنكبوت] أي : كَفُور شديد الجعود . [القاموس القويم: مادة (كند)].

فساعة يقول لك التكليف: عليك أن تزكى عن مالك، فلا بد لك من أن تقدّر المقابل، لأنك إن اقتفرت واحتجّت؛ سيأتبك من زكاة الآخرين ما يلبي احتياجاتك، فمن «افعل» التي تلزم بها ويلتزم بها غيرك تأتي الثمرة التي تسدّ عجز أي ضعف في المجتمع الإيمانى بالتراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج.

وحين يقول لك التكليف: لا تعتد على حُرّمات الغير، فهو يقيد حريتك في ظاهر الأمر، لكنه يحمي حرّماتك من أن يعتدى عليها الغير، وحين تتغفل أوامر التكليف كلها ستجدها لصالحك؛ سواء أكان الأمر بـ «افعل» أو «لا تفعل».

وهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (١١٨) [هود]

و «لو» تفيد الامتناع^(١). أى: أن الله - تعالى - لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين.

(١) لو: حرف شرط غير جازم، ومعناه: امتناع الشرط لامتناع الجواب. قال تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ قَوْمًا وَاحِدًا...﴾ [الواقعة]. ويقترون جوابها باللام للتوكيد. وقد لا يقترون باللام، كقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا لَّوَلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة] ويقل اقتصران جوابها باللام إذا كان منفياً كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾ [القلمان] ثم قال: ﴿مَا نَعُدُّكُمْ كَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾ [القلمان]. وقد يُحذف جواب لو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا قَرَأْنَا سُورَتَ الْبَقَرَةِ أَوْ أَنْزَلْنَاهُ فِي الْأَرْضِ...﴾ [الرعد] الجواب محذوف تقديره: لكان هذا القرآن العظيم يفعل ذلك، ولكن الله لم يجعل قرآننا بهذه الصفة. [القاموس القويم ٢٠٦/٢].

وقد تستعمل «لو» حرفاً مصدرياً مثل: «إن»، ويكثر ذلك بعد كلمة «وَدَّ»، وكلمة «أحبُّ»، وما يشبههما، كقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ...﴾ [البقرة] أى: يزد التعمير ألف سنة، والمصدر المؤول مفعول به للفعل «يودُّ». وقد تستعمل «لو» للتمنى، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فِثْرًا مِثْهُمْ كَمَا بُرِّهُوا مَنَّا...﴾ [البقرة] وهى على لسان بعض أهل النار يوم القيامة الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليشعروا من الكبرياء الذين كانوا يشعرونهم في الدنيا ثم تشكروا لهم في الآخرة. [القاموس القويم: مادة (لو)].

وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا: ألا تتعارض هذه الآية مع قول الله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ۖ ﴾ (٢١٠) .

[البقرة]

وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية ، ثم بعث الله الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج:

ونقول لهؤلاء : لا ، فقد ضمن الحق - سبحانه - للناس قوتهم وقوام حياتهم، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيماني منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها، وقال الله - سبحانه: ﴿ فَمِنْ أَشْجَعِ هُدَايَ ^(١) فَلَا يَضِلُّ ^(٢) وَلَا يَشْقَى ^(٣) ۖ ﴾ (٢٢٢) .

ولو استقصى هؤلاء الآيات التي تعالج هذا الأمر، وهي ثلاث آيات، فهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴾ (١١٨) .

[هود]

(١) هُداة الطريق يهديه مدياً وعداية وَهُدًى: أعلمه إياه، وعزّاه له، وأرشده إليه، فهو هادٍ، ومن المجاز المعنوي: هُداة الحق، أو هُداة إلى الحق، دلة عليه وأرشده إليه.

والهُدًى : مصدر الفعل هَدَى، ويأتي بمعنى الرشاد، ويوصف به المبالغة، كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (١) ﴾ [البقرة] أي : هادٍ للستقيين، وذلك إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ۖ ﴾ (٢) [البقرة] فالكتاب هُدًى للتحقيق، أي : هادٍ لهم، وأما إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ ۖ ﴾ (٣) [البقرة] فيكون هُدًى مصدراً بمعنى هُداية، أي: في الكتاب هُداية للمتقين لا ريب في ذلك، [القاموس القويم: مادة (هدى)] يتصرف.

(٢) ضلُّ الكافر: غاب عن الحجة المقتنة وعدل عن الطريق المستقيم، ولم يعرف الحق، والضلال: النسيان والضياع، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ ﴾ (١٠١) . [القاموس القويم : مادة (ضلل)] .

(٣) شقى شقاً شقاءً وشقاوة : ساءت حاله المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَبِثْ عَلَيْنَا شَرُوتَنَا ۖ ﴾ (١٠١) [المؤمنون] أي : حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس، وقال تعالى: ﴿ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) ﴾ [طه] أي : لتحزن وتثالم أسفاً على عصيانهم، [القاموس القويم: مادة (شقى)] يتصرف.

وفى الآية التى ظنوا أنها تتعارض مع الآية التى نحن بصددها
خواطرنا عنها يقول - سبحانه :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ
الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١١١)﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم -
عليه السلام - ثم طرأت الغفلة^(١) : فاختلف الناس ، فبعث الله الانبياء
ليحكموا فيما اختلف فيه الناس.

إذن : فقول الله - تعالى :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً.. (١١٨)﴾ [هود]

يعنى انه - سبحانه - لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية؛ لانه
بعد أن خلقهم؛ وأنزلهم إلى الأرض؛ وأنزل لهم المنهج ؛ كانوا على
هداية، ولكن بحكم خاصية الاختيار التى منحها الله لهم، اختلفوا.

ثم يقول الحق - سبحانه : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.. (١١٨)﴾ [هود]

أى : انهم سيظلون على الخلاف.

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - فى الآية التالية بالاستثناء فيقول:

(١) الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التمعن وعدم اليقظة ، يقول الحق : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ
هَذَا.. (١٢٢)﴾ [ق] وقضى بمعنى عدم الإدراك للحق ، وعدم الالتفات إليه يقول الحق : ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ
الْمُتَغَفِّلُونَ (١٢٣)﴾ [الأعراف].

وغلغل عن الأمر غُفُولًا تركه عمداً أو عن غير عمد، وغلغل متعدياً بالهمزة: تركه عن عمد . وغلغل
غيره عن الأمر : جعله يغفل عنه ، يقول الحق : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْتَ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا.. (١٢٨)﴾ [الكهف]
أى : جعلناه غافلاً عن ذكرنا. [القاموس القويم بتصريف وترتيب ص ٥٧ ج ٢] .

﴿ اَلَا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَا اَمْلَاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ اَجْمَعِينَ ﴾ (١١٩)

أى : أن الحق - سبحانه - قد خلق الخلق للرحمة والاختلاف.

وساعة نرى «اسم إشارة» أو «ضمير» عائداً على كلام متقدم،
فنحن ننظر ماذا تقدم، والمتقدم هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١١٨) ﴿ اَلَا مَنْ رَّحِمَ
رَبُّكَ.. ﴾ (١١٩) ﴿

[مود]

والحق - سبحانه وتعالى - حين تكلم عن خلق الإنسان قال :
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥١) ﴿

[الذاريات]

وبمعنى العيادة^(١) هو طاعة الله - سبحانه - فى «افعل» و «لا
تفعل» وهذا هو المراد الشرعى من العيادة ؛ ولكن المرادات الاجتماعية
تحكمت فيها خاصية الاختيار، فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف
عن تعدد الأهواء.

فلو أن هوأنا كان واحداً ؛ لما اختلفنا ، ولكننا نختلف نتيجة
لاختلاف الأهواء ، فهذا هواه يمينى ؛ وذاك هواه يسارى ؛ وثالث هواه
شيوعى ؛ ورابع هواه رأسمالى ؛ وخامس هواه وجودى، وكل واحد له
هوى^(٢).

(١) عبادته يعبد عيادة وعبودية، اطاعة، فهو عابد، قال تعالى: ﴿ مَا كَانُوا إِلَّا نَجَدُونَ ﴾ (٥٦) ﴿ [الفصص]
وقال تعالى: ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴾ (٥٢) ﴿ [الفاتحة]. [القاموس القويم: مادة (عبد)] ينصرف.
(٢) يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْ اَغْفَلًا فَلْيَه عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ اَمْرُهُ فَرَاغًا ﴾ (٥٨) ﴿ [الكهف].

ولذلك قال الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ولم يكن العالم ليستقيم؛ لو اتبع الله - سبحانه - أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم؛ إذا صدرت حركته الاختيارية عن هوى واحد؛ ولذلك قال النبي ﷺ :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»^(١) .

وفى حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التي تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها ؛ نجد فيها اختلافاً لا محالة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة فى كل مناحى الحياة ؛ أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة.

ولو شاء - سبحانه - ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ؛ فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها؟

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكامل وضرورة ؛ لا ارتباط تفضُّل.

(١) هَوًى بهواه هَوًى ؛ أحبه، وأكثر ما يستعمل فى الباطل وفى الشهوات الضارة. قال تعالى : ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ .. (١٢٥)﴾ [النساء] أى ؛ ما نهوا أنفسكم وما تشتهيه فبعضكم ذلك عن الحق. وقال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا .. (٢٥)﴾ [المائدة]؛ [القاموس القويم، ٢/ ٣٦٠ ، ٢٦١].

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى: كتاب «السنة» (١٢/١) من حديث عبدالله بن عمرو، وأورده ابن رجب الحنبلى فى «جامع العلوم» (ص ٤٦٠) وضعفه.

ولذلك يقول الحق - سبحانه:

﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۖ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآً^(١) ۖ ۞ (٣٢)﴾ [الزخرف]

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعنى تلك النظرة الحمقاء الرعناء^(٢)، والتي تدعى أن فى ذلك التقسيم رفعة للغنى وتقليلاً لشان الفقير؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع فى جهة بسبب ما يُحسنه فيها؛ ومرفوع عليه فى جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره، وغيره مكمل له.

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم^(٣)، واختلاف المواهب هى مقومات التلاحم.

ولذلك قلنا: إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر، ولا تفاضل إلا بالتقوى؛ وقيمة كل امرئ ما يُحسنه.

(١) الدرجة: المرفقة يرفق عليها المساعد إلى أعلى.. ويهبط عليها النازل من أعلى، وهى واحدة درجات السلم، تستبحار للمنزلة والمكانة المعنوية فى الفضل والجاه، وهى الأجر والثواب عند الله. قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ۞ (٣٢)﴾ [آل عمران] أى: أنهم منازل مختلفة فى الفضل وهى الثواب كل بحسب عمله. قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ۖ ۞ (١٥)﴾ [غافر] أى: أن الله عنده المنازل العالية ينزل فيها من يشاء من عباده المقربين، والله عالٍ متعالٍ فوق أعلى الدرجات على القدر، جلُّ شأنه. [القاموس القويم: ٢٢٥/١].

(٢) سَخِرَآءٌ بِسَخَرِهِ: أذلّه وقهره وأخضعه. قال تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآً ۖ ۞ (٣٢)﴾ [الزخرف] وسَخَرَهُ بالتشديد: أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المستخر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ۞ (٤٧)﴾ [البقرة] [القاموس القويم: ٣٠٦/١].

(٣) الرعونة: الحمق، والأرعن: الأهوج فى منطقة، [لسان العرب: مائة: رعن].

(٤) إن اختلاف المواهب هو لتكامل الإنسانى نحو تيسير حركة الحياة، بخلاف اختلاف الأهواء ففيها فساد لحركة الحياة.

وقد ترى صاحب السيارة الفارغة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذي يرتدى ملابس رثة^(١) ومتسخة ؛ ليصلح له سيارته؛ فيقول له العامل: لا وقت عندي لإصلاح سيارتك ؛ فيلجّ صاحب السيارة الفارغة بالرجاء ؛ فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارغة ويذهب لإصلاحها.

لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك في أى مظهر من مظاهر الحياة؛ فلا تغترّ بما تفوقتَ وتميزتَ به عليه ؛ ولكن قلْ لنفسك : لا بد أن هذا الإنسان متفوق في مجال ما.

وتحسّنْ تعلم أن الله - سبحانه وتعالى - ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - هنا: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وإن كان الاختلاف^(٢) في المقدرات والمنهج ؛ فهذا ما يولد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان . ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله.

وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان ؛ مثلما يعاون الألم العافية ، فلولا الألم لما جئنا بالطبيب ليشخص الداء ، ويصف الدواء الشافي بإذن الله.

ولذلك نقول : الألم رسول العافية.

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وأنت إن دققّت النظر في الاختلاف لوجدته عين الوفاق.

(١) الرث: القديم البالي من كل شيء. وأرث الثوب: أخلق. [اللسان: مادة رثث].

(٢) إذا كان الاختلاف في المقدرات والمنهج، ينتج ذلك الشيء وضده.

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٦٧﴾

ومثال ذلك: اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام، فتجد أبا يفضل صدر الدجاجة، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها «الورك»، وتضحك أنت لهذا الاختلاف، لأنه اختلاف في ظاهر الأمر، ولكن باطنه وقاق، لو اتفقنا جميعاً في الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة.

ولمن يسأل: هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟

نقول: إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً، لأن الجهة مُنْفَكَةٌ.

ثم يقول - سبحانه - في نفس الآية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ^(١) وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٢)﴾ [هود]

والحق سبحانه قد علم أولاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر، وهذا من صفات العلم الأزلي لله - سبحانه وتعالى - ولذلك قال - سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَي: علم - سبحانه - مَنْ مِنْ عِبَادِهِ سَيُخْتَارُ أَنْ يَعْمَلَ فِي الدُّنْيَا عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ سَيُخْتَارُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ لَسَبَقَ عِلْمُهُ الْأَزْلِيُّ بِمَرَادَاتِ عِبَادِهِ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ.

وسبق أن ضربنا مثلاً - والله المثل الأعلى - بعميد الكلية الذي

(١) تَمَّ الأمر يَتَمُّ تَمًّا وتاماً: كَمُلَ وتحقق وهو تَامٌ وتَمِيمٌ، ويكون حَسْبًا ومعنويًا. قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...﴾ [الأنعام] أي: كَمِلَتْ وتحققت، وتَمَّ الشيء: كَمِلَتْ أجزاؤه. قال تعالى: ﴿فَتَمَّ بِنَاؤُهُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...﴾ [الأعراف] أي: كَمِلَ العدد المحدود لمناجاة موسى عليه السلام، واتَمَّ الشيء: أكمله على أحسن وجه، قال تعالى: ﴿وَأَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾ [المائدة] أي: على أكمل وجه، ليس فيها نقص. [القاموس القويم: ١/١٠١ - ٢/٧٠٠] بنسرف.

(٢) الْجِنَّةُ - بكسر الجيم - : الجن. قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِسُ لِي سُدُورِ النَّاسِ^(٣) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ^(٤)﴾ [الناس]. [القاموس القويم: ١/١٢٧].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٦٨

يعلن للأساتذة ضرورة ترشيح المتفوقين في كل قسم ؛ لأن هناك جوائز في انتظارهم، فيرشح كل أستاذ أسماء المتفوقين الذين لمس فيهم النبوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعتهم أن يضعوا امتحانات مفاجئة لمجموع الطلاب ؛ ويُفاجئ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ؛ وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته.

ولكن قد تحدث مفاجأة ؛ أن ينتخلف واحد من هؤلاء الطلبة لمرض أصابه أو طارئ، يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ؛ وبهذا يختل تقدير أستاذه ؛ لكن تقدير الحق - سبحانه - مُنزه عن الخطأ، وما علمه ألا فهو مُحقق لا محالة؛ لذلك بين لنا أنه علم أزلي، ويتحدى الكافر به أن يغيره.

وكلنا يعرف أن الحق - سبحانه - أنزل قوله الكريم :

﴿ تَبَّتْ^(١) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(٢) ﴾ [المسد]

وسمعتها أبو لهب ولم يتحدها بإعلان الإيمان - ولو نفاقاً.

وقول الحق : ﴿ رَتَمَتْ^(٣) كَلِمَةَ رَبِّكَ ﴾ تبين لنا أن الحق - سبحانه -

(١) تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ : قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(١) ﴾ [المسد] دعا،

عليه بالخسران أو بالهلاك - ومعاً عليه أولاً بأن تهلك بداهة؛ لأنهما آتة اليقين والإيقان.

والتياب : الهلاك : قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْزُ الْفِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَابٍ^(٢) ﴾ [غافر] وتَبَّتْ شَتَبِيَّة

أهلكه. قال تعالى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَبَدُّدٍ^(٣) ﴾ [هود] أي : إهلاك وتخشير. [القاموس

القيوم : ٩٦/١]

الزمن: فلا نقول: «فعل ماضٍ» أو «فعل سيحدث في المستقبل» أو «فعل مضارع»؛ لأن تلك الأمور إنما تُقاسُ بها أفعال البشر، لكن أفعال الله - سبحانه - لا تقاس بنفس المقياس، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل.

والحق - سبحانه - يقول:

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ^(١) فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ^(٢) .. (١١٠)﴾ [النحل]

وقوله سبحانه: ﴿أَتَىٰ﴾ بمعنى: تقرر الأمر ولم يُنفذ - بعد - فلا تستعجلوه؛ وهذا هو تحدّي القيومية القاهرة، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله - سبحانه وتعالى - فهو يحكم فيما يملك، ولا منازع له سبحانه.

وقوله الحق: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .. (١١٩)﴾ [هود]

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان ^(٣) المكلفان .

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

(١) أمر الله: عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. [قاله الفرطبي ٢٧٨٩/٥] وقال ابن كثير في تفسيره (٥٦١/٢): «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة».

(٢) استعجل الأمر: طلبه عاجلاً سريعاً. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَمْلَهُمْ .. (٥٠)﴾ [يونس].. [القاموس القويم: ١/٢].

(٣) الثقلان: الإنس والجن لأنهما كالحيثين الثقيلين على ظهر الأرض. قال تعالى: ﴿سَقَرُكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن]. وهو خبر المقصود منه التهديد والوعيد. [القاموس القويم ١/١٠٨].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٧﴾

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

وساعة ترى التنوين في قوله الحق ﴿وكلا﴾ فاعلم أن المقصود

هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - في القرآن الكريم.

فحين يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن فعل قد أحدثه ؛ فلما

أن ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له - سبحانه - أم مأخوذ

من اسم موجود ؟ فيحق لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله -

تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ (٧٠) [النحل]

نعلم منه أنه - سبحانه - خالق ، ولكن إن جاء فعل ليس له

أصل في أسماء الله الحسنى، فإياك أن تشتق من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله - سبحانه : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ﴾ (١٢٠) [هود]

والذي يقص هنا هو الله - سبحانه - لكن لا أحد في إمكانه أن

(١) ثَبَّتَ : جعله ثابتاً مُتَمَكِّناً . قال تعالى : ﴿وَقُولَا أَنْ يَثْبُتَ لَكَ كَذَبَتْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (٧٧)

[الإسراء] أى : جعلناك ثابتاً ودفعنا عنك أسباب الضعف . [القاموس القويم: ١٠٥/١].

(٢) قوله تعالى : ﴿فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ (١٢٠) [هود] : أى هذه السورة. قاله ابن عباس ومجاهد

وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: في هذه الدنيا . والصحيح : في

هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء . وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك

الكافرين . جاء فيها قصص حق، ونبا صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر

بها المؤمنون. قاله ابن كثير في تفسيره (٢/٤٦٥).

(٣) يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْفَأُكُمْ﴾ (٧٠) [النحل]

(٤) قصّ الكلام أو الأخبار : يقصها قصاً ونقصاً تتبعها ورواها وخكاهها . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا

جَاءَهُمْ رَسُولٌ عَلَيْهِ الْقَصَصُ قَالَ لَا تُخَفُّ﴾ (١٢٠) [القصص]. وقصّ الأمر قصاً تتبعه . ومنه قوله

تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ (١٦) [الكهف] . والقصص مصدر يطلق على ما يروى من

الأخبار . ومنه قوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (٣٧) [يوسف]. [القاموس

القويم يتصرف جـ ٢ ص ١٢٠].

يقول: إن الله قصاص ، مثملاً لا يحق لأحد أن يقول: إن الله ماکر ، رغم أن الله - سبحانه - قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ ^(١) ﴾ (٢٤) [الأنفال]

وكذلك لا يصبح لأحد أن يقول: الله المخادع ، رغم أن الحق - سبحانه - قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ^(٢) ﴾ (٥١٧) [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال: وأن نكتفى بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشكلة ^(٣) ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

(١) مَكَّرَ يَمْكُرُ مَكْرًا: دَبَّرَ الشَّرَّ نَجْوَاهُ فِي خَفِيَّةٍ وَاحْتِيَالٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْأَمْنِيَّةِ .. ﴾ (٢٤٦) [الاعراف]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. ﴾ (١٥٥) [يونس] أي تدبير سييء بقصد صرفها عن وجهها وصدد الناس عنها، وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢٤) [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَتًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٤٥) [البنل]، [القاموس القويم: ٢٣٦/٢، ٢٣٣].

(٢) خدعه يخدعه خدعاً وخديعة: أظهر له خلاف ما يُخفيه ليوقعه في مكروه من حيث لا يعلم، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. ﴾ (٢٤٦) [الأنفال] وخادعته: خدعه أو حارل ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. ﴾ (١١٧) [النساء] أي: يُظهرون الإيمان خفاً ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله مبتليّ خداعهم، وكاشف أمرهم، ومعاقبهم على خداعهم، [القاموس القويم: ١٨٨/١].

(٣) «المشكلة»: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في منجته تحفيهاً أو تدبيراً، فالأول: كقول تعالى: ﴿ نَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا نَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. ﴾ (١١٦) [المائدة]، وقوله: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ .. ﴾ (٢٤) [آل عمران]، لأن إطلاق النفس والمكر في جانب الباري تعالى إنما هو لمشكلة ما معه، ومثال التقدير: قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ .. ﴾ (٥٦٨) [البقرة] أي: تطهير الله؛ لأن الإيمان يظهر النفوس، فعبّر عن الإيمان بـ «صبغة الله»، فالمشكلة بهذه التورية، الإفتان للسيوطي (٢٨٢/٢).

وهنا يقول الحق - سبحانه :

﴿وَكَلَّا نَقْضُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ .. (١٢٥)﴾ [هود]

و « أنبياء » جمع « نبي » ، وهو الخبر العظيم الذي له أهمية ، والذي يختلف به الحال عند العلم به ، وأخبار الرسل - عليهم السلام - تتناثر لقطات مختلفة عبرَ سور القرآن الكريم ، موضحة ما جاء به كل رسول معالجا الداء الذي عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عنت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الانبياء في القرآن لتثبيت قواد الرسل ﷺ ، لأن الرسول سيصادف في الدعوة المتاعب والصعاب.

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف يقول الحق - سبحانه :
﴿وَزَلَّزِلُوا^(١) حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ^(٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

ويقول الحق - سبحانه - مصوراً حال المؤمنين^(٣) :

(١) زلزل الشيء: حركه حركة عنيفة مكررة. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾ [الزلزلة] أي: أصابها الزلزال عند قيام الساعة. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقْنَا رَمَكُمَ إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ (٢)﴾ [الحج]. وقوله تعالى: ﴿وَزَلَّزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (٣)﴾ [الأحزاب] أي: أزعجوا وخافوا وقلقوا واضطربوا اضطراباً شديداً - على التشبيه بالشيء المادي. [القاموس القويم: ٢٨٨/١].

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١/٩٤٩): «الرسول هنا شعبياً في قول مقاتل ، وهو البسع. وقال الكلبي: هذا أي كل رسول يُبعث إلى أمته وأجهده في ذلك حتى قال: متى نصر الله؟ روى عن الضحاك قال: يعني محمداً ﷺ وعليه يدل قول الآية. رافه أعلم».

(٣) وذلك في غزوة الأحزاب. في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وفيها تحالفت قريش ومن تابعها مع يهود بني النضير وبني قريظة، فكان مجموعهم عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف، وظل المسلمون محاصرين داخل المدينة قريبا من شهر. [باختصار من تفسير ابن كثير (٢/٤٧٠)].

﴿ اِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ^(١) الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ^(٢) وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا ^(٣) ﴾ [الاحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد : بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيماني برّب أرسله رسولا ليبلغ منهجا . وما كان الله سبحانه ليرسل رسولا ليبلغ منهجا ثم يُسلمه لأعدائه .

فإذا ما ذكر له أخبار الزلزل والصعاب التي تغرضوا لها تهون عليه المصاعب التي ينغرض لها ، ويثبت فؤاده .

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه : «القلب» ، وهو وعاء العقائد ، بمعنى أن المخ يستقبل من الخواس - وسائل الإدراكات من عين قزى ، ومن أذن تسمع ، ومن أنف يشم ، ومن فم يستطعم ، ومن كفّ تلمس -

(١) زَاغَ يَزِيغُ زَيْغًا وَزَيْغَانًا : مال عن القصد . وزَاغَ الْبَصَرُ : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئا . قال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ^(١) ﴾ [النجم] أى : ما انصرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى قواى أكثر مما أمامه . بل رأى الملك رؤية صادقة . وقوله تعالى فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين انحطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ^(٢) ﴾ [الاحزاب] أى : اضطربت لشدة الفزع . [القاموس القريم : ٢٩٤/١] ينصرف .

(٢) الحنجرة - فى اللغة - : الحلقوم والحنق . وهى علمياً تسمى القصبة الهوائية . ويبر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ^(١) ﴾ [الاحزاب] كناية عن شدة الكرب والضيق .

(٣) الظنون : ما يحصل فى النفس عن أمانة فهو شك راجح ، وفعله من أفعال الرجحان - من باب نصر - والظن : مصدر . والظن : اسم لهذا الضاطر الذى يحصل فى النفس : قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشْعُرُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ^(٢) ﴾ [النجم] رجسه : ظنون ، وقرئ : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا ^(٣) ﴾ [الاحزاب] الظنون - يالف فى الوصل ، وفى الوقف - وبغير ألف قراءة . [القاموس القويم : ٤٩٧/١] .

فتترك المعلومات التي يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصبح القضية العقلية صحة لا يأتي بعدها ما ينقضها . فيسقطها المخ في الفؤاد لتصبح عقيدة ؛ لا تطفر بعدها إلى العقل لتُناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها «عقيدة» - من العقدة - فلا تتذبذب بعد ذلك.

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التي انتهى المخ من تمحيصها^(١) تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، واسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مقتضاها.

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذي يفكر في مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذي يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسّات التي استقبلها بحواسه ليُمحّصها بعقله ؛ وما ينتهي إليه عقله يسقطه في قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا : أنه قد استقر في وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرِقَةٌ ، ولكن من أين جاء هذا اليقين في أن النار مُحْرِقَةٌ ؟ نقول : جاء من أمرٍ حسى بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقتة.

لا بد - إذن - أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير متذبذب.

(١) مَحْصَنُ الشَّرِّ : وَمَحْصَنُهُ : خَلَصَهُ مِنْ عَيُوبِهِ . يُقَالُ : مَحَصَ الْمَعْدِنُ بِالنَّارِ : خَلَصَهُ مِمَّا يَشُوبُهُ . وَمَحَصَ السَّيْفُ : جَلَّاهُ . وَمَحَصَ اللَّهُ التَّائِبَ مِنَ الذَّنُوبِ : طَهَّرَهُ مِنْهَا . وَمَحَصَ فَلَانٌ : انْتَلَاهُ وَاخْتَبَرَهُ . [المعجم الوسيط].

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ﴾ (١٢٠) ﴿[مورد]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذي من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق - سبحانه - وما يأتي من الحق - سبحانه - هو الحق أيضاً ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه تغيير.

وحق الحق ينبوع العقيدة الذي ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولا بد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة المكلف قبل أن يُقبل على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتي الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قمة الوجود الأعلى - قبل أن تأتي الموعظة^(١) ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذي لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجيء تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهي هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذي خلق ، ولا يمكن أن ينشأ أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه - سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه إن يعطك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتحتم بالكمال الذي يعط به ؛ فالموعوظ سيردُّ على الواعظ قسائلاً : قُلْتُعْظْ نَفْسَكَ أَوَّلًا.

(١) الموعظة : ما يُوعظ به من قول أو فعل ، قال تعالى : ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿وَأَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ﴾ [النحل] .. ووعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة. وأرشده إلى فعل الخير [القاموس القويم بتصرف ٢/ ٢٤٥].

﴿كِبْرٌ مِّثْلًا^(١) عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

وهكذا بيّنت الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كَمْثَبَتِ ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالته كمتكبرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التي سيعاني منها من لا يأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلفين - مثلاً - أن الأمر ببعض الطرف^(١)

(٢) الطرف : جانب العين، ويطلق على العين وعلى البصر. قال تعالى : ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ (الشورى) أى : من جانب العيون فى خفاء. وقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ عَيْنَ ﴾ (الصفات) أى : قاصرات البصر من العفة. وقوله تعالى : ﴿ أَلَا أَتَيْتَ بِذِكْرٍ أَنْ يُرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل) أى : بصرك، أى مقدار غمضة العين وفتحها. [القاموس المقوم، مادة طرف].

حرماناً من شهوة طارئة ولا يَسْبِرُ غوراً^(١) الفهم بأن في غَضِّ الطرف أمراً لكافة المؤمنين أن يَغضُوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى في الزكاة أنها أَخَذَ من ماله ، ولا يَسْبِرُ غور الفهم بأن في الزكاة تأميناً له إنْ مَرَّتْ عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيمانى الخامين الاجتماعى الذى يحميه وعياله من مَخِبة السؤال.

وعمق الفهم أمر مطلوب لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ^(٢) الْقُرْآنَ .. ﴾ (٨٢)

[النساء]

لأنك حين تتدبر المعانى ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛ وستقول لنفسك : « ما كلغنى الله إلا لخير نفسى ؛ وإن ظهر أنه لخير الناس » .

(١) سَبَرَةٌ سَبَرًا : خُورَةٌ ، أو خَيْرَةٌ . يقال: سَبَرُ الجرح: فاس غُورُهُ بالمسيار. وسَبَرٌ فلاناً: خَبَرَهُ ليمرّ ما عنده. والقَوْرُ: كل منخفض من الأرض. والغور من كل شيء: قعره وعصفه. يقال: سَبَرُ غوره: تَبَيَّنَ حقيقته وسره. ويقال: فلان بعيد الغور: ناهية. وماء غُور: غائر. وفى التنزيل العزيز: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مُّعِينٍ ﴾ (٤٥) [المائدة].

(٢) ذَكَرَ الأمر: نظر فى عواقبه وأدياره ليقع على ما يرى فيه الخير له، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْغُرَى يَذَكِّرُ الْأَمْرَ .. ﴾ (٣٠) [يونس] أى: يفضيه ويفدّره وينفذه على حسب حكمته وإرادته، وقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْمَلَأَاتُ أَمْرًا ﴾ (٣٠) [النساء] هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته.

وتدبّر : تأمل فى أديار الأمور وعواقبها، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور. قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد] أى: هل عجزوا وعُشُوا فلا يتأملون معانى القرآن، ويصبرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين هزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً فسوّناه هنا بقولنا: عَجَزُوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَذْكُرُوا الْقُرْآنَ .. ﴾ (٤٥) [المؤمنون] أى : عجزوا فلم يدبروا. والاصل: يتدبروا، قلبت التاء نالاً، وأدغمت فى الدال [القاموس القويم: ٢٢١/١].

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٧٩

ومن المتعاصِب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفِدين من الفساد : هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد : لأن الفساد في الأرض لا يعيش إلا إذا وُجد منتفع بهذا الفساد : والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكل مقاوم له .

إذن : فموقف خصوم النبي ﷺ موقف طبيعي لمصالحهم، ولكنهم - لحققهم - حددوا الصالح بمصالحهم الآنية^(١) في الحياة الدنيا : ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة تعيماً أو عذاباً^(٢) .

ولو أنهم امتلكوا البصيرة : لعرفوا أن من مصالحتهم أن يوجد مَنْ يَقُومُهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شركاً يوجد لهم في الآخرة .

ولو أنهم فَطِنُوا : لعلموا أن الرسول كما جاء لصالح المستضعفين المستغلين بالفساد : جاء أيضاً لمصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شيء من التعقل : لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ : وكان

(١) المصالح الآنية : العاجلة . نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال . وهو ظرف للوقت الحاضر معرب بال دائم . ومبنى على الفتح . قال تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ . (٥٥) [البقرة] [القاموس القويم ١/ ٤٥] .

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة : ﴿ يَتْلُمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٧) [الروم] ثم يلفت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكذِبين فيقول : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (٨) أَرَأَيْتُمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَنَاؤُوا السَّوَاءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١٠) [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد : وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد : أن يتبعوه وأن يشكروه ! لأنه خلّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق - سبحانه - لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل^(١) ، وكل رسول تعرّض للمتاعب مثلاً تتعرض أنت لمثلها^(٢) ، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذي جئت به لن يأتى بعده دين آخر : لذلك لا بد أن تتركز المتاعب كلها معك : فكنّ على ثقة تماماً أنك مُصارفٌ للمتاعب .

ولذلك نشبت فؤادك بما نقصه عليك من أنباء الرسل : لأن هذا الفؤاد هو الذي سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تذكرك والمؤمنين معك.

وهكذا بينت الآية موقف الرسول ﷺ كمثبت : وموقف المؤمنين كمذكّرين من الرسول : لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً.

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للأَنْصار حين يابِعوه في العقبة على نصرته . وقالوا : إنْ نحن وقينا بما عاهدناك عليه :

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ [الأنعام] أي : ما كنت مبتدعاً من تلقاء نفسي ما ادعوا إليه ، إن اتبع إلا ما يوحى إليّ .

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه : ﴿وَلَقَدْ نَعِمْنَا أَنْتَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُمُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَأْيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٢٦) وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُتِبُوا وَارْتَدَّوْا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾ [الأنعام]

سورة الفجر

7VA1

فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم ﷺ : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون
سادة القُرُس والروم » ، بل قال لهم : « لكم الجنة »^(١) .

والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور^(١) منهم العزائم ، فلا يُدَّ - إذن - أن يتكلم - سبحانه - عن القسم الآخر ؛ وهو القسم المكثَّب ، فيوضح - سبحانه - لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيب.

يقول الحق - سبحانه :

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٨)

أي : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه ﷺ مستندٌ إلى رصيد قويٍّ من الإيمان بالله لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو ﷺ والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم ؛ ولا بعدتهم وعددهم ؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذي يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى.

ونحن نرى في حياتنا اليومية أن أي قائد في معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذي

(١) الخَوْر : الضعف، خار الرجل: ضعف وانكسر، والخَوَار: الضعيف الذي لا يقاوم له على الشدة. [لسان العرب - مادة : خور].

(٢) المكانة: رفعة الشأن والرياسة والتؤدة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ...﴾ (١٨). [الأنعام] أي: برئاسة وتؤدة وتيسر، وقمري، «على مكاناتكم» بالجفع، [القاموس القويم ٢/٢٢٢].

والمكانة: الحالة التي يكون عليها المرء من قدرة أو عجز أو إيمان أو كفر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ...﴾ (١٨) [هود] أي: على الحالة التي أنتم عليها، وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ خَافُكُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ...﴾ (١٧) [يس] أي : على الحالة التي هم عليها حين عبادهم وكفرهم. [القاموس القويم: ١٧٩/٢ ، ١٨٠].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٨٢﴾

يحارب من أجله؛ لأنه سيعزز من قوته، فما بالناس بالمدد الذي يأتي
ممن لا ينقذ ما عنده^(١)؛ وممن لا يجير عليه أحدٌ؛ فهو يجير ولا
يجار عليه.

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة، فموسى - عليه
السلام - حين كاد الفرعون أن يلحق به؛ ورأى قومه أن لا نجاة لهم؛
فالتجروا أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا:

﴿ إِنَّا لَمُرْكُورٌ ^(٢) .. ﴾ (١١)

[الشعراء]

لكن موسى - عليه السلام - يطمئنهم :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (١٢)

[الشعراء]

فموسى - عليه السلام - يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه،
وأمده الله - سبحانه - بمعجزة جديدة:

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ .. ﴾ (١٣)

[الشعراء]

فينفلق البحر؛ ليفسح بين مياهه طريقاً يابسة؛ وسار موسى
عليه السلام وقومه، وفكر موسى في قطع السبيل على عدوه حتى

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَعُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ

جَنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح] ، ويقول تعالى في شأن غزوة

حنين: ﴿ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُسْرَهُمْ لَمْ يَرَوْهَا .. ﴾ [التوبة]

(٢) ادركه: لحقه. قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ .. ﴾ [يونس] على المعجاز، كان الفرق

عدو مطارد لحق فرعون فاهلكه.

والدرك - بفتح الداء - ويسكنونها - : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللاحاق. قال تعالى:

﴿ لَا تَخَافُ دَرْكًا رَلَا نَخْشَى ﴾ [عن] أي: لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده. [القاموس

القديم: ٢٢٦/١].

لا يسير في نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعضاء وأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى، فيقول له الله - سبحانه : ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا^(١)﴾ [الدخان: ٢٤] ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]

أي : أتركه على ما هو عليه : ليتخذ فرعون ويسير في الطريق اليابسة، ثم يعيد الحق - سبحانه - البحر كما كان ، وبذلك أنجى الحق - سبحانه - وأهلك بالشيء الواحد^(٢) ؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله - سبحانه وتعالى وحده.

وهكذا يَهَبُ الحق - سبحانه - المؤمنين به القدرة على تحدى الكافرين، والإيمان كله معركة من التحدى ؛ تحدى في صدق الرسول كميلغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته، وتحدى في نصرته الرسول ومن معه من قلة مؤمنة ؛ فيغلبون الكثرة الكافرة.

والحق - سبحانه يقول: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا يشيع التحدى في معارك الإيمان.

وقد تميز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ؛ ثم ينتهي دورها؛ لينزل له بعدها منهج من السماء ؛ لينشر به قومه، لكن رسول الله ﷺ

(١) رها البحر يرهو رهوًا ؛ سكن فهو راه. ورهوًا : مصدر يوصف به بلفظه ، قال تعالى :

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا...﴾ [الدخان: ٢٤] سَأَكُنْ الْأَمْوَاجُ لِبَقْتُلُوا، فَيَنْزِلُوا فِيهِ ، أَوْ سَأَكُنْ النَّفْسُ.

نهي حال من المفعول به وهو البحر، أو من الفاعل وهو الضمير المستتر، انتهى وهو.

موسى عليه السلام. أي: يكون هادئًا مطمئنًا إلى النجاة. [القاموس القويم: ٢٧٩/١].

(٢) قاله سبحانه وتعالى أنجى موسى ومن معه ، وأهلك فرعون وجنوده بالشيء الواحد ،

وهذا دليل على طلاقة القدرة.

تميز بمعجزة لا تنتهى ، وفى عين منهجه : لأنه رسول إلى كل
الآزمان وإلى كل الأمكنة^(١) : فكان لابد من معجزة تصاحب المنهج
إلى يوم القيامة.

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله
والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة.

والحق - سبحانه - يقول هنا : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ
مَكَانِكُمْ ۚ ۞ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن كل كائن منا له مكان ، أى : له حيز وجرم^(٢).
ويقال : فلان له مكانة فى القوم ، أى : له مركز مرموق ؛ إذا خلا
منه لا يستطيع غيره أن يشغله ، وهو مكان يدل على الشرف
والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن.

فقول الحق : ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ ۚ ۞ ﴾ [هود]

أى : اعملوا^(٣) على قدر طاقتكم من عدة ومن عدة فإن
لمحمد ﷺ ربا سيهديه وينصره، وفى هذا تهديد لهم؛ وليس أمرا لهم؛
لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر من عدوهم.

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت
جوانح الكلم، ونصرت بالرعب، وأحطت لى الغنائم، رجعت لى الأرض مهبورا ومسجدا،
وأرسلت لى الخلق كافة، وختم بنى النبيان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢٢) كتاب
المساجد.

(٢) الجرم : الجسد أو الجسم. وهو مجسم يتأخذ مكانا وحيزا فى الوسط الذى هو فيه.

(٣) الأمر هنا للتهديد ، وهو لون من ألوان علوم البلاغة.

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين؛ بل
لأصبحوا من الطائعين.

وحين يقول لهم - سبحانه - في آخر الآية :

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ (٦٢٣) [مود]

فمعنى ذلك أن كل ما فى قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار
الأحداث^(١)؛ أما فعل الله - تعالى - فهو غير محدود ؛ لأنه -
سبحانه- قديم أزلى لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المُحدث
الحادث عمل القديم الأزلى ؛ فقوة الحوادث المُحدث موهوبة له من
غيره ، أما قوة الحق - سبحانه - فهي ذاتية فيه.

ونحن نعلم أن أى عمل إنما يُقاس بقوة قاعله ، وخطأ المستقبلين
لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل ؛ نَسُوا مَنْ الذى عَمِلَ العمل ، ولو كان
العمل من فعل البشر لَحَقَّ للإنسان أن يتكلم، لكن إذا ما كان العمل
من الله - تعالى - فليُزِم الإنسان حدوده..

ومثال ذلك: هؤلاء الذين جادلوا فى مسألة الإسرائ التى قال فيها
الحق - تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى^(٢) بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

(١) الأحداث : الأشياء الحادثة، أى لم يكن لها وجود ثم وجدت، وثانى عليها عوامل الفناء والتغير.
(٢) أسرى به : جعله يسرى، أو حمله معه على السَّيْرِ لَيْلًا. قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى^(٢) بِعَبْدِهِ ... ﴾ [الإسراء] وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ﷺ ومُعيناً له فى
إسراءه. وقوله تعالى : ﴿ فَأَسْرَ بِمُؤَدَّى لَيْلًا إِلَيْكُمْ مَضُونًا ﴾ (٦٢) [الدخان] أمر الله سبحانه موسى
عليه السلام أن يحمل قومه على الإسرائ ويكون لهم دليلاً ومعيناً وهادياً. [القاموس القويم:
٢١٢/١] بتصريف.

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٨٧﴾

الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ^(١) . . ﴿٦﴾

[الإسراء]

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، فكيف يقول إنه آتاهما في ليلة؟

وكان الرد عليهم: إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو، بل أُسْرِيَ به، والذي عمل ذلك هو الله - سبحانه - وليس محمداً، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد.

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ^(٢) ١٢٤

في هذه الآية تلمس الوعيد والتهديد : قال الكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم ^(٣) .

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة : ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى : ﴿لَفَضَّلْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

.. ﴿٤٥﴾ [الأعراف] . وبارك الله الشيء، وبارك فيه وعليه وحوله . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نَزَّلْنَا مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا .. ﴿٤٨﴾ [النمل] . وقوله تعالى : ﴿يُوفَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

مُأَرَّكَةٍ زَيْتُونَةٍ .. ﴿٤٩﴾ [النور] أي : عظيمة الخير، كبيرة النفع. [القاموس القويم: ٦٥/١].

(٢) انتظرو: ترقبوه وتوقّعوه . وقال تعالى : ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾ [السجدة]

أي: ترقّب ما سيحل بهم، إنهم متوقعون. [القاموس القويم: ٢٧٢/٢].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

.. ﴿٤١﴾ [إبراهيم]

وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا . . (١٤٤) ﴿ [الاعراف]

وفى انتظار الكفار تهديد لهم ، وفى انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم ، ولو لم تأتِ الأحداث المستقبلية كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا من واثق بأن ما فى هذا القول سوف يتحقق.

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التى جاءت فى القرآن.

ألم ينزل قول الحق - سبحانه -

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْلُونَ الدِّبْرَ ^(١) ﴾ (١٥٠) ﴿ [القمر]

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية ^(٢) ، حتى قال عمر - رضى الله عنه - ^(٣) : أى جمع يهزم ؟ لأن عمر حينئذ كان يلمس ضعف حال المؤمنين، وعدم قدرة بعض المؤمنين على

(١) وأى المحارب دبره : كناية عن قراره . قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْلُونَ الدِّبْرَ ^(١) ﴾ [القمر] أى : ويفرون ، وجمع الدبر : أديار ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَفَاتِكُمْ الْأَدْبَارُكُمْ لَا تَصُرُّونَ ^(٢) ﴾ [ال عمران] أى : يفرون منكم منهزمين. وقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْلُونَ الدِّبْرَ ^(٣) ﴾ [القمر] أى : سيُهزم الجيش الذى جمعوه. أو ستنهزم جماعاتهم. [القاموس القويم: ١/١٢٧] بتصريف.

(٢) قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . نقله الفرطى فى تفسيره (٦٥٤٦/٩).

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره معزواً إلى ابن أبى حاتم. قال عمر: أى جمع يهزم ؟ أى جمع يُغلب. قال عمر: قلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يش فى الدرع ، وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْلُونَ الدِّبْرَ ^(١) ﴾ [القمر] فعرفت تاويلها يومئذ.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٨٩

حماية نفسه، ثم تأتي غزوة بدر : ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله ﷺ .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين^(١) ، بل وأماكن إصابتهم، وجاء ذلك قرآنًا يُتلى على مر العصور، مثل قوله الحق : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ^(٢) ١٥٥ ﴾ [القصص]

وهكذا شاء الحق - سبحانه - أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، كما نشاء - سبحانه - أن يُنزل على الرسول لقطات من قصص الرسل الذين سبقوه لشدة أثره ، وليثبت قواده ، ويذكر المؤمنين فيزدادوا إيمانًا.

ثم يختتم الحق - سبحانه - سورة هود بقوله الكريم :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٣٧ ﴾

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٧٢) عن أنس بن مالك قال: كذا مع عمر بين مكة والمدينة، وأنشأ يحدثنا عن أهل بدر. فيقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله » قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ . وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٢ / ٢١٩، ٢٥٨) وفيه أن رسول الله ﷺ كان يضع يده على الأرض ههنا وههنا، فما أطاق أحدهم عن موضع يد رسول الله .

(٢) الخرطوم : الأنف أو مقدم الأنف، والأنف رمز العزة عند العرب، ويقال : بشم الأنوف أي : اعزاء . والتوسم على الأنف : إزدلال وإهانة. قال تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ^(٢) ١٥٥ ﴾ [القصص] أي : سنذله نهاية الإذلال . قيل : إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة . وقد ضرب على أنفه بالسيف يوم بدر ، قبل مقتله . فصنفت عليه الآية ، وأخبرت بما سيحدث له قبل حدوثه، وقد أسلم من أبنائه اثنان، أحدهما سبيلنا خالد بن الوليد. سيف الله وفاتح العراق وقاهر الروم. [القاموس الفويهم : ١ / ١١٩].

(٣) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسيان في المعنوي. والغيب : مصدره ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ^(٣) ٢ ﴾ [البقرة] والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن، وجميعه غيب، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ^(٤) ١٧٩ ﴾ [المائدة] ، [القاموس الفويهم : ٢ / ٦٤].

أى : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم، يخبركم به الله - سبحانه - من خلال ما يُنزل على رسوله ﷺ .

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يحفظ هذا الذكر الحكيم ، ثقةً منه - سبحانه - أنه إذا أخبرنا في القرآن بخبر لم يجرى أوانه ، فلنقهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجرى فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المختار من الكائنات - مؤمنهم وكافرهم - فإذا حدثنا القرآن بشيء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق.

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المدركات ، ومرة يكون الحجاب حجاب زمن ، فإذا أخبر الله - تعالى - عن أمر لم نشهده من قديم قد أوغل^(١) في الزمن، ولم يقرأه النبي ﷺ في كتاب ولم يسمعه من معلم^(٢) ؛ فهذا كشف لحجاب الماضي.

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء «ماكنات القرآن»

(١) أوغل في الشيء وغولا : دخل فيه. ووغل: ذهب وأبعد. وتوغل في الأرض: ذهب فأبعد فيها. وكذلك أوغل في العلم. [لسان العرب - مادة : وغل].

(٢) وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا نَعْلَمُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا نَخْطُ بِمِثْلِكَ إِذَا لَأَرْثَابَ الْمُبْطِرُونَ﴾

(٣) [المنكيات] قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا

يقرأ فنزلت هذه الآية. قال النحاس: نبيلاً على نبوته لقريش؛ لأن لا يقرأ ولا يكتب ولا

يخالط أهل الكتاب. ولم يكن بمكة أهل الكتاب. فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم. وزالت الريبة

والشك. [انظر: تفسير القرطبي - ٥٢٤١/٧].

الذي لم يجلس إلى مُعَلِّم بشهادة أعدائه ، وكذلك كشف الحق - سبحانه - لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان.

ومنْ ينكشف له حجاب الزمان وحجاب المكان؛ إنما ينكشف له حجاب المستقبل أيضاً ، والذي كشف هذا هو الحق - سبحانه - الذي قدّر مجيء هذا العالم، وما سوف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة.

وقد طمّر^(١) الحق - سبحانه - في القرآن أموراً لو كُشف عنها في زمن بعثة الرسول ؛ لكان الحديث عنها فوق مستوى العقول والإدراك ؛ وتحدث - سبحانه - عن وقائع مستقبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لم يكن أحد يتوقعها.

وكانت هناك معركة بين أرقى حضارتين معاصرتين للإسلام ؛ حضارة فارس وحضارة الروم ، وكانت الحضارتان تتنازعاُ السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ - وهزمت فارس - التي لا تؤمن بالله - امبراطورية الروم التي تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة.

لذلك حزن رسول الله ﷺ لهزيمة الذين يؤمنون بالله في السماء؛ فَيُسْرَى^(٢) الله - سبحانه - الأمر على رسوله؛ وَيُنْزِلُ الحق - سبحانه -

(١) طمّر الشيء: خبّاه. والمطمورة حفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُبِيَ خفياً يُطْمَر فيها الطعام والمال. أي: يُخْبَى. [لسان العرب - مادة : طمّر].

(٢) إن في حزن رسول الله ﷺ على هزيمة الروم ، وهم أهل كتاب لدليلاً على أن الإسلام هو جماع الأديان السماوية ، وأن الأديان جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر الجسد بالسرور والحمى - الحديث إن إحساس رسول الله ﷺ بالهزيمة وحزنه عليها لدليل على رحابة الإسلام وعالميته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَشَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبِلُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى]

(٣) يسرى : يكشف عن فوائده الألف وبزبله. وسُرِّي عنه: أي: كُشِفَ عنه الخوف. وقد تكرر ذكر هذه اللفظة في الحديث. وخاصة في ذكر نزول الوحي عليه. وكلها بمعنى الكشف والإزالة

[لسان العرب - مادة: سرى].

سُورَةُ رُومٍ

﴿٦٧٩٢﴾

قرآنًا يُتلى على مرَّ العصور وكل الأزمان؛ يحمل نبوءة انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس.

ويقول سبحانه : ﴿الْم ١ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢﴾ في أدنى ^(١) الأرضِ وهم من بعد غلبهم سيفلون ^(٣) في بضع سنين ^(٤) لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون ^(٥) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴿٥﴾ [الروم]

هكذا تأتي النبوءة في القرآن تحمل التحديد لميعاد نصر الروم في بضع سنين ؛ و «البضع» يقصد به من ثلاث لتسع سنوات.

(١) أدنى الأرض: أقربها، قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بالدرعات - بين بلاد العرب والشام - فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وإن كانت الوقعة بالجزيرة - موضع بين العراق والشام - فهي أدنى الأرض بالقياس إلى أرض كسرى.

وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم، [نقله القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٦٠)].
(٢) البضع : هو ما بين الثلاث إلى التسع. أخرج الترمذي في سننه (٢٦٩٤) عن تيار بن سُكْرُم الأسلمي قال: لما نزلت : ﴿الْم ١ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢﴾ في أدنى الأرضِ وهم من بعد غلبهم سيفلون ^(٣) في بضع سنين .. ﴿٤﴾ [الروم] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥﴾ ينصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴿٥﴾ [الروم] فكانت قریش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بهم، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة : ﴿الْم ١ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢﴾ في أدنى الأرضِ وهم من بعد غلبهم سيفلون ^(٣) في بضع سنين .. ﴿٤﴾ [الروم] قال ناس من قریش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم إن الروم مستقلب فارساً في بضع سنين، أفلا نراهمك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تصريح الرهان، فارتعن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى سبع سنين، فسَمَّ بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فبضت الست سنين قبل أن يظهروا فاتخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس فصاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله تعالى قال: في بضع سنين. قال: واسلم عند ذلك ناس كثير. قال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب.

سُورَةُ هُودٍ

٦٧٩٤

وإن قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما علم محمد بأخبار
المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما؟

وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هتكتا للحجب ،
حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق
سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله ﷺ .

والغيب المطلق هو الذي لا يعرفه إلا الحق - تبارك وتعالى - وليس
له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه، مصداقاً لقوله - سبحانه : ﴿عَالِمُ
الْغَيْبِ لَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٦٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ .. (٦٧)﴾ [الجن]

وهذا الغيب^(١) المطلق يختلف عن الغيب المفيد الذي له مقدمات ؛
ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍّ من
أسرار الكون .

والحق - سبحانه - هو القائل :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وهكذا نعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة في الكون ومطمورة
فيه ؛ وجعل الله - تعالى - لكل مستور منها ميلاداً ، فالبحار
واستخدامه في الحركات كان له ميلاد ؛ والكهرباء كان لها ميلاد ؛
واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد ، وكل مُكتشف
ومُخترع له ميلاد ، وتتوالى مواليد الغيب مستقبلاً ، وفي ميلادها

(١) الغيب : مصدر ويُسمَّى به ما غاب واستتر ، قال الحق : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٢)﴾ [البقرة].

والغيب : هو ما غاب عن العيون كالسجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب ، قال تعالى :

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٥٥)﴾ [الماشئة] . [القاموس القويم ج ٢ / ٦٤] .

إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم.

وقد يأتي هذا الميلاد بكشف وبحث : وقد يُظهره الله بدون بحث :
أو يُظهره صدفة : مثلما أظهر قانون الطفو النابغ من قاعدة «أرشميدس»
ومثلما أظهر الحق - سبحانه - قانون الجاذبية صدفة : أى : أنه سبب
من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث في شيء، فيظهر له شيء لم
يكن يبحث عنه : ولذلك نسب الحق - سبحانه - الإحاطة له - سبحانه.

وهنا يقول الحق - سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۖ﴾ (١٢٢) [مود]

ولم يقل : «إليه يرجع الأمر كله» ، لأنه سبحانه ضابط كل
مخاوق على قدر.

وفه المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما
يضبط المقاتل القبيلة لتنفجر في توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب
على هذا الترتيب.

والله - سبحانه - القائل :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٦) [يس]

فكل شيء إنما يرجع إلى الله في التوقيت الذي شاءه الله.

أو : أن الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حي : لأن الحق - سبحانه - قد
خلق في الكون أشياء وترك ملكيتها له - سبحانه - والحق
- سبحانه - لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها
ولا يملكها، مثل : الشمس التي ترسل أشعتها، ويستفيد الإنسان
بضوئها^(١) وحرارتها ، وهي لا تدخل في ملكية الإنسان : لأنها من

(١) وصف الله تعالى الشمس في قرآنه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً ۖ﴾ [يونس]. وقال
عنها: ﴿.. وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح] والسراج المصباح يعطى ضوءاً ويبعث حرارة.

أساسيات الحياة : لذلك لم يجعل للإنسان الذي خَصَّهُ الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها : حتى لا يعيث بها.

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق - سبحانه - فى سلطته وحده ، ولم يأمنُ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعيث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر.

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات فى يده دون أن يملكها لأحد : رحمةً منه بنا ، ذلك أنه - سبحانه - عَلمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسئ استخدام تلك الأساسيات.

وسَخَّرَ الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات ^(١) ، وسَخَّرَ بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الآخر لم يستطع الإنسان تسخيرها ، وحتى قوة الإنسان نفسه؛ شاء الحق - سبحانه - أن يجعلها أغياراً ؛ فالقوى يسير إلى الضعف ^(٢) ؛ والفقير قد يصبح غنياً.

(١) يقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٤١) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَافِعِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٤٢)﴾ [إبراهيم] وقد جمعت هاتان الآيتان أساسيات الكون التى تعدت عنها فضيلة الشيخ الشعراوى: السماوات - الأرض - الماء - الثمرات - الفلك - البحر - الأنهار - الشمس - القمر - الليل - النهار.

(٢) وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٤١)﴾ [الروم].

سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٧٩٧﴾

وهكذا بُدِّيت لنا أن كل ما نملك موهوب^(١) لنا من الله - تعالى -
وليس هناك ما هو ذاتي فينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية
الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة؛ رجع كل ما نملك لله - سبحانه وتعالى -

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١١)﴾ [غافر]

ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان؛ لأنها تخرج عن التسخير
الذي كانت عليه في الدنيا^(٢).

وإذا كان الحق - سبحانه - يقول هذا:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٢٣)﴾ [هود]

فهو - سبحانه - يقول في آية أخرى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٣)﴾ [طه]

وكان الحق - سبحانه - ينبئ البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية
ما تحت الثرى من كنوز يمتنُّ الله - تعالى - بها على عباده أنه يملكها.

(١) يقول الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٥٦) وَذَلَّلْنَا لَهُم مِّنْهَا رَكُوبَهُمْ وَفِيهَا يَأْكُلُونَ (٥٧) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاقِعُ وَمِنْهَا يَذُوبُونَ (٥٨) أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٥٩)﴾ [يس] .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٣) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ زَالِيَةً تَرْجَعُونَ (١٥) وَمَا كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ فَلَسْتُمْ أَنَّهُ اللَّهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [فصلت] .

(٣) الثرى : الثراب الدنى أو الثراب مطلقاً، قال تعالى : ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (١)﴾ [طه] أى:

ما تحت جميع طبقات الأرض. [القاموس المفيد - ١٠٧/١]

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذي تحت الثرى.

وحين يقول الحق - سبحانه هنا - فى الآية التى نحن بصدد
خاطرتنا عنها - : ﴿وَاللّٰهُ يَرْجِعُ الْأَمْرَ كُلَّهُ ۖ﴾ (١٢٣) [هود]

ففى ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُستهدفاً الشجاة حين لا يكون
لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة.

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق
الاعلى الذى أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته - سبحانه - وأعطاه
غنى من باطن غناؤه - سبحانه - وأعطاه حكمة من باطن حكمته
- سبحانه - وأعطاه قبضاً^(١) وبسطاً من باطن قدرته - سبحانه -
وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من قبضها ، ثم تظل
الفيوضات للحق - سبحانه وتعالى.

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن
الأمر كله له سبحانه.

فإنْ حَدَّثْتَ فى القرآن بامر تغيب عنك مقدماته، فاعلم أن الذى انزل
هذا الكتاب لا يعزب^(٢) عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض.

(١) يستعمل القبض كناية عن شيق العيش، والبسط كناية عن سعة . كقوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ
يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة] أى : يضيق الرزق ويوسعُه على من يشاء،
[القاموس القويم : ٩٦/٢] يتصرف، وبسط السيد: يُكفي به عن الكرم والسخاء أو عن
الإسراف وكثرة إنفاق المال، ويقول تعالى عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ
ۚ﴾ [المائدة] كناية عن الكرم والسخاء [القاموس القويم ١/٦٦]:

(٢) عزب الأمر يعزب: يَعدُّ وغاب وصُفِّىَ مطلبه، قال تعالى : ﴿وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ ذَرَّةً
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَمْتٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ﴾ [أى فى كتاب مبین (١٢)] [يونس] . أى : لا يغيب
ولا يبعد عنه أى شيء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء، [القاموس القويم:
١٨/٢].

ولذلك كان الرسول ﷺ على ثقة أن الحق - سبحانه - حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يطمئنه أن المرجع في كل الأمور إليه - سبحانه.

واطمأن الرسول ﷺ والذين معه أن أعداء الدين إن لم يُجَازَوْا في الدنيا، فعند ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد مَلَّكهم أشياء؛ فسيُسَلِّبهم هذه الملكية في الآخرة ، وإن كان قد أعطاهم الخيار^(١) في الدنيا ؛ خِيَارُ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُطِيعُوا ، أو أَنْ يَكْفُرُوا وَيَعْصُوا^(٢) ؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم في الآخرة ، وكل مالك لمُلك يصير مَلْكَه بعده إلى الله.

ومادام الأمر كذلك فلتعبد الله وحده - سبحانه - لأنه صاحب الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتي.

وهو - سبحانه - الذي شاء، فجعل للإنسان ثلاثة أزمان: زمان سَبَقَ وجود آدم ؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أيُّ منا ؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ، وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ ؛ وزمان حاضِر. وزمان مستقبل ، وكل منا يدور في فلك الأحداث^(٣).

(١) الخيار : اسم من الاختيار. وخيَّرته بين الشيئين أي : قوَّضْتُ إليه الخيار، وتخَيَّرَ الشيء: اختاره. والاختيار: الاصطفاء وكذلك التخيير. [لسان العرب - مادة : خير] بتصريف.

(٢) وقد جاء هذا في آيات كثيرة. منها:

- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ..﴾ [الكهف]

- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرْنَا وَإِنَّمَا كَفَرْنَا﴾ [الإنسان]

ومبدأ الإسلام العام أنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..﴾ [البقرة]

(٣) الحدث من أحداث الدهر: التنازلة. وحُتَّتَانِ الدهر: حوادثه؛ نُؤَيَّه ومصائبه. [اللسان - مادة :

حدث].

ومن المنطقي بعد أن تستمتع بوجودك في الحياة : وتتنضح عقلياً
أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشري.

وانت - في هذه الحالة - تكون رهنًا بثقة المحدث : هل يقول
الصدق أم يقول الكذب ؟ خصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل
آدم ، ولا بد أن تقول لنفسك : لا يمكن أن يحدثني عن ذلك إلا مَنْ
خلقني^(١) .

وساعة يُبَلِّغُكَ رسول الله ﷺ عن بداية الخلق قائلاً : «كان الله ،
ولم يكن شيء غيره»^(٢) .

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذي يمكن أن نقبل منه كلاماً عما
فات قبل آدم هو الله - سبحانه وتعالى.

وإن سألت : لماذا وُجِدْتُ في زمنى هذا ، ولم أوجد في زمن
آخر؟ هنا ستقول لنفسك إن كنت مؤمناً : « إن مشيئة وإرادة مَنْ
أوجدنى هي التي رجَّحت وجودى في هذا الزمن عن أى زمن آخر » .

ولا بد أن تسأل نفسك : وما المطلوب منى ؟

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (الكهف) . وقال تعالى عن خلق الملائكة: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّمَا أَشْهَدُوا
خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣١)، والبخارى في صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن
حصين، وصامه: «كان الله ولم يكن شيء غيره»، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل
شيء، وخلق السماوات والأرض».

سُورَةُ الْهُودِ

○ ٦٨ ○ ١ ○ ٢ ○ ٣ ○ ٤ ○ ٥ ○ ٦ ○ ٧ ○ ٨ ○ ٩ ○ ١٠ ○ ١١ ○ ١٢ ○ ١٣ ○ ١٤ ○ ١٥ ○ ١٦ ○ ١٧ ○ ١٨ ○ ١٩ ○ ٢٠ ○ ٢١ ○ ٢٢ ○ ٢٣ ○ ٢٤ ○ ٢٥ ○ ٢٦ ○ ٢٧ ○ ٢٨ ○ ٢٩ ○ ٣٠ ○ ٣١ ○ ٣٢ ○ ٣٣ ○ ٣٤ ○ ٣٥ ○ ٣٦ ○ ٣٧ ○ ٣٨ ○ ٣٩ ○ ٤٠ ○ ٤١ ○ ٤٢ ○ ٤٣ ○ ٤٤ ○ ٤٥ ○ ٤٦ ○ ٤٧ ○ ٤٨ ○ ٤٩ ○ ٥٠ ○ ٥١ ○ ٥٢ ○ ٥٣ ○ ٥٤ ○ ٥٥ ○ ٥٦ ○ ٥٧ ○ ٥٨ ○ ٥٩ ○ ٦٠ ○ ٦١ ○ ٦٢ ○ ٦٣ ○ ٦٤ ○ ٦٥ ○ ٦٦ ○ ٦٧ ○ ٦٨ ○ ٦٩ ○ ٧٠ ○ ٧١ ○ ٧٢ ○ ٧٣ ○ ٧٤ ○ ٧٥ ○ ٧٦ ○ ٧٧ ○ ٧٨ ○ ٧٩ ○ ٨٠ ○ ٨١ ○ ٨٢ ○ ٨٣ ○ ٨٤ ○ ٨٥ ○ ٨٦ ○ ٨٧ ○ ٨٨ ○ ٨٩ ○ ٩٠ ○ ٩١ ○ ٩٢ ○ ٩٣ ○ ٩٤ ○ ٩٥ ○ ٩٦ ○ ٩٧ ○ ٩٨ ○ ٩٩ ○ ١٠٠ ○

وستجد أن المطلوب منك هو حركة الحياة : لأن تلك الحركة هي
القاصل بين الحياة والموت ، والحق يقول : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ ﴾ (٦٦) [هود]

فقد أعطاك الحق - سبحانه - العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل ،
وسخر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق : لتستخرجه وتعيش منه .
وهكذا يتضح لك أن كل شيء يحتاج منك أن تتحرك ، وأنت في
حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطي للأدنى منك ؛
لذلك أنت تأخذ طاقة من الأعلى منك ، وتعطي للأدنى منك .

وأنت تعلم أن قمة المطلوب منك أن تُصلي بين يدي الله خمس
مرات كل يوم؛ لت شحن طاقتك وتخرج للحياة بعد أن تجدد ولاءك لمن
خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإن أحسنت الوقوف بين يدي الله سيأتي
مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان .

والحق - سبحانه - يعطينا مثلاً لهاتين الحركتين ، فيقول :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ
وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ﴾ (٩) [الجمعة]

هذه حركة يأخذ فيها الإنسان طاقة من الأعلى ، فالسعي إلى ذكر

(٩) استعمره في المكان : جعله يعمّره . قال ابن منظور في [اللسان - مادة : عمر] :
«استعمركم فيها، أي: أدرككم في غارتها واستخراج قومكم منها، وجعلكم عمّارها» .

سُورَةُ هُودٍ

٦٨٠٢٠

الله وترك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها فى الحركة الثانية من حركات الإنسان.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - بعد هذا:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا ^(١) فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(٢) ﴾ [الجمعة]

ولذلك يقول الحق - سبحانه - فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ فَأَعِذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ^(٣) ﴾ [هود]

أى : أطع الله فى أمره ؛ لأنه - سبحانه - الأعلى منك ، بأن تؤدى المطلوب العبادى من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج إن استطعت لذلك سبيلاً ، لتأخذ من المدد الأعلى ما يعينك فى حركتك الثانية التى تتحركها فى الكون.

ومن العجيب أن حركتك فى الكون الأدنى تُعينك على حركتك لاستمداد الطاقة من مُكوّن الكون - سبحانه.

فأنت حين تصلّى تحتاج لِسَكْرِ عورتك بثوب ، وحتى تاتى بالثوب لا يد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح فى الزراعة ، وحركة

(١) انتشر الناس: تفرقوا وتصرفوا فى معاشهم. قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْفَرُونَ ^(١) ﴾ [الروم] أى : تنصرفون فى معاشكم وتسعون فى الأرض. وقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا .. ^(٢) ﴾ [الأحزاب] انصرفوا كل إلى حال سبيله. [القاموس القويم: ٢/٢٦٦].

(٢) [الروم] أى : تنصرفون فى معاشكم وتسعون فى الأرض. وقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ

فانتشروا .. ^(٢) ﴾ [الأحزاب] انصرفوا كل إلى حال سبيله. [القاموس القويم: ٢/٢٦٦].

سورة الاحقاف

العامل في النسيج ، وحركة التاجر في البيع ، وحركتك في عملك الذي يتيح لك أجراً تشتري منه الثوب.

وبذلك تكون قد أخذت كل علوم الحياة : لكي تذهب للصلاة
لتأخذ المدد من المدد الأعلى.

وهكذا تجد أنك في حركة دائرة : تأخذ المدد من الأعلى لتعطى
الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدي
صاحب المدد الأعلى.

وبهذا يثبت لك أن الحركة في الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره في الحياة، هي استقبال^(١) من المدد الأعلى ، وأنفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ؛ لذلك فعليك أن تعيد الله بأن تنظم حركة حياتك على ضوره منهجه - سبحانه.

واعلم أنه ستصادقك المصاعيب فإن صادقك فتوكل على الله ،
وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذي تأخذ منه المديرة.

ولذلك «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة»^(٢)

(١) فمن طريق عبادتك يكون العون من الممدد الأعلى يقول الحق: ﴿إِنَّا نَعِدُّكَ إِيمَانًا تَسْتَعِينُ﴾ (٥٠) [الفتح] فعلى العبد العبادة الخالصة لنفوذ بعون الممدد الأعلى، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل عند البيت الحرام: قال في دعائه: ﴿رَبَّنَا اجْعَلْنَا قَوْمًا يَتَّقُونَ﴾ (٥١) [إبراهيم] من مفهوم ماوردت الإمام.

(٢) عن حليفة رضي الله عنه قال : «كان النبي ﷺ إذا جُزِبَ أمر صلى، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٣١٩).

سُورَةُ هُودٍ

٦٨٠٤٠

ومعنى «حزبه»^(١) أى خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإن عبدت الله وتوكلت عليه : فهو بعينك : لأنه - سبحانه لا يفغل عما نعمل.

وهذه الآية تدل على السعادة فى الحاضر والمستقبل : لأنك إن كنت ترمى الله فسبحانه يكتب لك الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك^(٢) ، وتكتب السيئة بمثلها.

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان : قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة.

يقول الحق - سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..

[الأنفال]

﴿٢٤﴾

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السوى يعطى للمؤمن حياة الحياة ، وهى حياة تعيش فى معية الله.

(١) حزبه أمر: أصابه. إذا نزل به منهم أو أصابه غم. وأمر حازب وحزيب: شديد. وحوازب

الخطوب - وهو جمع حازب - وهو الأمر الشديد. [لسان العرب: مادة: حزب].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ لَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأنعام] ويقول أيضا: ﴿مَنْ لَدُنَّ الَّذِينَ يَتَقُونَ أَمْرَ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَلَّ حَبْرٌ أَنْبَتَ

سَبْعَ سَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَةَ حَبْرٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَكْبَرُ الْكُفْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

قد تعرضنا من قبل لفواتح السور^(١) : من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا: إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة :

● سورة يوسف مكية، نزلت بمكة المكرمة، قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (٤٠/٦) : «استثنى منها ثلاث آيات من أولها: حكاه أبو حيان، وهو واحد جداً لا يلتفت إليه» عدد آياتها ١١١ آية، وهي سورة جامعة، لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والأنعام والطير، وسائر الملوك والممالك، والتجار والعلماء، والجهال والرجال والنساء، وحيلهم ومكرهم، وفيها ذكر التوحيد والفقه، والسيرة ونحوها، الرؤية، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للنبي والدنيا ذكره القرطبي في تفسيره (٣٤٤١/٤).

(١) قال الإمام السيوطي : «أعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام: الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء لشعائره الأول: التحميد في خمس سور، وتبارك في سورتين، والثاني: التسبيح في سبع سور، الثاني : حروف التهجي في سبع وعشرين سورة، الثالث : التداء في عشر سور، خمس بتداء الرسول ﷺ، وخمس بتداء الأمة، الرابع : الجمل الخبرية، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ..﴾ (٥) [الأنفال]، وذلك في ثلاث وعشرين سورة،

الخامس: القسم ، في خمس عشرة سورة، السادس : الشرط ، في سبع سور مثل : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة]، السابع : الأمر، في ست سور، نحو : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، الثامن : الاستفهام، في ست سور، نحو: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبا]، التاسع : الدعاء، في ثلاث سور: الهزلة، المطففين، المسد.

الحاشي : التعليل ، في سورة قريش ، انتهى باختصار [الإتقان في علوم القرآن

تنطقها ونحن نقرأها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف.

فإن لكل حرف اسماً ومُسَمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها.

فإن الامي إذا سُئِلَ أن يَتَهَجى أى كلمة ينطقها ، وأن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسَمَّياتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول: إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوى عندك حين تقرأ في أول سورة البقرة : ﴿الْم ١﴾ [البقرة]

مثلاً تقرأ في أول سورة الشرح : ﴿الْم .. ١﴾ [الشرح]

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل^(١) - عليه السلام - « ألف لام ميम » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم ».

وأقول ذلك لأن القرآن - كما نعلم - ليس كأي كتاب تُقبل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا، بل هو كتاب تقرأه بعد أن تسمعه وتصحح

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورة من ضرورات سلامة النطق ، وطهارة الكلمة ؛ لذلك يقول الحق : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة] فال تلاوة ابتداء ، والتزكية ارتقاء ، والتعليم صفاء ، ووضع الشرح في مكانه ووضع للمقال في مقامه ، وفي الغيب علم بثنائي ، وفي التوالى إعجاب ، والإعجاب توحيد بنزامة ، وتفريد بطهارة ، وتجرد بخلاص.

قراءتك على قارئ : لتعرف كيف تنطق كل قول كريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفت على كيفية القراءة : لأن كل حرف في الكتاب الكريم موضوع بميزان^(١) ويقدر.

ونحن نعلم أيضاً أن آيات القرآن منها آيات مُحْكَمَات وأُخَر مُتَشَابِهَات^(٢) . والآيات المُحْكَمَاتُ تضم الاحكام التي عليك أن تفعلها لتُشَاب عليها ، وإن لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما في الآيات المُحْكَمَات واضح.

أما الآيات المُتَشَابِهَات إنما جاءت مُتَشَابِهَةً^(٣) لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، واليد.

ووسائل الإدراك هذه : لها قوانين تحكمها:

(١) قال ابن الجوزي في كتابه النشر في القراءات العشر (١/٢١٠) : «الاشك ان هذه الامة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده متعبدون بتصحيح الفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلفاة من أئمة القراءة المنصلة بالحضرة الشريفة الأفضحية العروبية التي لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها».

(٢) يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْهُ لَمْ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المتشابهة هنا أي : ما استأثر الله بعلمه ، وخفى معناه على الناس ، أو هو ما احتمل أوجهاً من حيث المعنى والتأويل ، وهذا هو معنى الآية السابعة من سورة آل عمران ، أما قوله تعالى : ﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا .. (١٥)﴾ [الزمر] فمعناه : أنه يشبه بعضه بعضاً في الصفة ، وعدم التناقض وتأييد بعضه لبعض ، انظر دفتح الرحمن يكشف مايتبس في القرآن ، لأبي يحيى الأنصاري (ص ٦٠).

فَعَيْنُكَ يَحْكُمُهَا قَانُونُ إِبْصَارِكَ ، الَّذِي يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ تَلْتَقِيَ خُطُوطُ
الْأَشْعَةِ عِنْدَ بُورَةِ تَمْتَنِعُ رُؤْيُكَ عَنْهَا ؛ وَلِذَلِكَ تَصْفُرُ الْأَشْيَاءُ تَدْرِيجِيًّا
كَلَّمَا ابْتَعَدْتَ عَنْهَا إِلَى أَنْ تَتَلَّاشِيَ مِنْ حُدُودِ رُؤْيِكَ.

وَصَوْتُكَ لَهُ قَانُونٌ ؛ تَحْكُمُهُ ذَبْذَبَاتُ الْهَوَاءِ الَّتِي تَصِلُ إِلَى أَدْوَاتِ
السَّمْعِ دَاخِلَ أَذْنِكَ.

وَكَذَلِكَ الشَّمُّ لَهُ حُدُودٌ ؛ لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ شَمُّ وَرْدَةٍ مُوجُودَةٍ فِي بَلَدٍ
بَعِيدَةٍ.

وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ لَهُ حُدُودٌ يُدْرِكُ بِهَا ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ كَيْفَ يَدْرِكُ
الْإِنْسَانُ الْأُمُورَ ، فَلَمْ يَمْنَعْ تَأَمُّلَ وَرْدَةٍ جَمِيلَةٍ ؛ لَكِنَّهُ أَمَرَ بِغَضِّ
الْبَصَرِ^(١) عِنْدَ رُؤْيَةِ أَيِّ امْرَأَةٍ.

رَهْكَذَا يُحَدِّدُ لَكَ الْحَقُّ الْحَلَالَ الَّذِي تَرَاهُ ، وَيُحَدِّدُ لَكَ الْحَرَامَ الَّذِي
يَجِبُ أَنْ تَمْتَنِعَ عَنْ رُؤْيِيهِ . وَكَذَلِكَ فِي الْعَقْلِ ؛ قَدْ يَفْهَمُ امْرَأَةً وَقَدْ
لَا يَفْهَمُ امْرَأَةً أُخْرَى ، وَعَدَمُ فَهْمِكَ لِذَلِكَ الْأَمْرِ هُوَ لَوْزٌ مِنَ الْفَهْمِ أَيْضًا ،
وَلَنْ نَسَاءَلَتْ كَيْفَ ؟

انْظُرْ إِلَى مَوْقِفِ تَلْمِيزِ فِي الْإِعْدَادِيَّةِ ؛ وَجَاءَ لَهُ اسْتِزَادُهُ بِتَصْمِيرِ

(١) غَضُّ بَصَرِهِ وَغَضُّ مِنْ بَصَرِهِ بِغَضٍّ غَضًّا: خَفَضَهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ وَلَمْ يَحْكَمْهُ فِيمَا أَمَرَهُ، أَوْ
كَفَّ بَصَرَهُ وَلَمْ يَنْظُرْ. وَغَضُّ الْبَصَرِ قَالَ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ (٢٤) ﴿
النُّورِ﴾. وَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضِينَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...﴾ (٦٥) ﴿[النُّورِ] . وَمِنْهُ غَضُّ صَوْتِهِ:
خَفَضَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَغْضَى مِنْ صَوْتِكَ...﴾ (٦٥) ﴿[الْقَمَانِ] [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ : ٢/٥٦].

هندسى^(١) مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكى
لأستاذة : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحل مثل هذا التمرين
الهندسى ، هذا القول يعنى أن التلميذ قد فهم حدوده.

وهكذا يُعلِّمنا الله الأدب فى استخدام وسائل الإدراك ؛ فهناك أمر
لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن
تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك.

ودائماً أقول هذا المثل - والله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق
كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ،
وفى كل دور من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتح كل الأدوار ، ولا
يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله تعالى ؛ وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل
تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله - تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه
الحق - تبارك وتعالى :

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ^(٢) هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ^(٣) وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

(١) أصل هذه الكلمة الهنداز، وهى كلمة فارسية أصلها أنداز فصيرت الزاى سيناً، لأنه ليس فى
شئ من كلام العرب زاي بعد الدال، والاسم الهندسة، والمهندز: هو الذى يُقدِّر مجازى
الفتى والابنية، [انظر: لسان العرب - مادى: هندز، هندس].

(٢) أحكم الأمر، اتقنه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعَلِّمُ اللَّهُ أَتَانَهُ... ﴾ (٥٧) [الحج] أى: يبينها ويجعلها
متقنة متقنة محكمة، وآيات محكمة: متقنة مقننة وأضحة، وقيل: محكمة غير منسوخة أو
محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا أُورُوتُ سُورَةُ مُحْكَمَةٌ... ﴾ (١٠)
[معد] أى: متقنة، [القاموس القويم: ١/١٦٦].

(٣) أم الكتاب: أصله، يُرَدُّ إليها كل ما عداها مما يحتل أوجهاً كثيرة، قال فى التهذيب: أم الكتاب
كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض، [نقله ابن منظور فى اللسان - مادة:
أم] وأم الكتاب: فاتحته؛ لأنه يبدأ بها فى كل صلاة، [اللسان].

قُلُوبِهِمْ زَيِّغٌ ^(١) فَيَجْعَلُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ ^(٢) الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

[ال عمران]

إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرضة لتحقيق مأربهم ^(٣) . وهو إبطال الدين بأى وسيلة وبأى طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله.

ولهؤلاء نقول: لقد أراد الله أن يكون بعض من سور الكتاب الكريم مُبْتَدَأَةً بحروف تُنطق بأسمائها لا بمُسَمَّياتها.

وقد أرادها الحق - سبحانه - كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق - سبحانه - للعقل البشرى التفكير فى أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التى تفوق حدود عقله.

(١) زَايَغٌ يَزِيغُ زَيْغًا وَزَيْغَانًا: مال عن القصد، وأزاعه، أماله وصرفه عن القصد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ [الصف] أى: فلما انحرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل، صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجبرهم على الإيمان. [القاموس القويم: ٢٩٣/١، ٢٩٤].

(٢) بغى الشئ: طلبه، وابتغاه: طلبه، قال تعالى: ﴿ يَتَفَرَّقُكُمْ الْفِتْنَةُ .. ﴾ [التوبة] ، أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَتَفَرَّقُونَ فُضُلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. ﴾ [الفتح] أى: يطلبون فضلا، وقوله: ﴿ لَقَدْ انْتَفَرَأَ الْفِتْنَةُ .. ﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسبقوا فى بغيها ونشرها. [القاموس القويم: ٧٦/١].

(٣) المارب والارباب والارباب : الحاجة والغرض، يقول تعالى عن عصا موسى إن موسى عليه السلام قال عنها: ﴿ رَبَّنَا فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى ﴾ [طه] أى: حاجات وغراض كثيرة أخرى كالتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم : ١٧/١] يتصرف.

والحق - سبحانه وتعالى - يصنع للإنسان ابتلاءات في وسائل إدراكه: وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتي بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق - سبحانه:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ^(١) إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ ^(٢) فِي الْعِلْمِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

قد يفهم منه أنه عطف : بمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله : وبالتالي سيُعلمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتأويل. ولكن تأويل الراسخين في العلم هو قولهم:

﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : فتهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمننا به.

وجاء لنا قوله ﷺ ليحل لنا إشكال المتشابه:

« ما تشابه منه فآمنوا به » ^(٣).

(١) تأويل الكلام: تفسيره وتبيين الغراد منه. قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة: أول]: والتأويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ .. (٧) ﴾ [آل عمران]: القائل المرجع والمصير مأخوذ من آل يزول إلى كذا، أي: صار إليه. قال الجوهري: التأويل تفسير ما يزول إليه الشيء.

(٢) راسخ يرْسَخُ رُسُوخاً : ثبت فهو راسخ أي : ثابت، الراسخون في العلم: المتمكنون فيه. [القاموس القويم: ٢٦٤/١].

(٣) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير في تفسيره (٢٤٦/١) لابن مردويه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان.

والمثل الذي أضربه هنا هو أمره ﷺ لنا أن نستلم^(١) الحجر الأسود وأن نقبله^(٢)، وأن نرجم الحجر^(٣) الذي يمثل إبليس، وكلاهما حجر، لكننا نمتثل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ^(٤).

وأنت لو أقبلت على كل أمر بحكم عقلك، وأردت أن تعرف الحكمة وراء كل أمر، لعبدت عقلك، والحق - سبحانه - يريد أن تقبل على الأمور بحكمه هو - سبحانه.

وأنت إن قلت لواحد: إن الخمر تهري الكبد، ووضعت على كبدك جهاز الموجات فوق الصوتية الذي يكشف صورة الكبد، ثم ناولت الرجل كأس خمر؛ فرأى ما يفسده كأس الخمر في الكبد، ورأه^(٥) ذلك؛ فقال: والله لن أشربها أبداً.

(١) قال الليث: استلام الحجر تناوله باليد وبالقبلة ومسحه بالكف. وقال الجوهري: استلم الحجر لمسحه إما بالقبلة أو باليد. [نقله ابن منظور في لسان العرب - مادة: سلم].
(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه بيكي طويلاً، فالتفت فإذا هو بعمر بيكي، فقال: يا عمر، وهنا تسكب العبرات. أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٩٤٥) والحاكم في مستدركه (٤٥٤/١) كلاهما من طريق محمد بن عون الخزازاني قال البوصيري في الزوائد: ضعفه ابن معين وأبو حاتم وغيرهما، قلت: قد صححه الحاكم وأقره الذهبي على صحيحه.

(٣) وهو ما يعرف برمي الجمرات في منى في أيام الحج، وهي ثلاث جمرات: الصغرى وهي القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥ متراً، ثم الجمرة الكبرى. كل جمرة ترمى بـ ٢١ حصاة على ثلاثة أيام: ١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجة. انظر: كتابي «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: «والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلك» أخرجه البخاري في صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) راعاه ذلك: أفزعه، وأرتاع منه وله ورؤعه فتزوع، أي: تززع، «والرؤع والرؤاع: الفزع» [لسان العرب - مادة: روع].

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذي نُقِذَ
تعاليم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن
تؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها.

إذن: فعلة المُشابهة : الإيمان به. وقد يكون للمُشابهة حكمة : لكننا
لن نُؤجل الإيمان حتى نعرف الحكمة.

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسان إيمانه بربه معاملته لطبيبه ،
فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه :
ليصف الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك : عليه أن ينتهي عتق عتبة
إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطية^(١) ،
يُوصِّلُك إلى باب السلطان، لكنه لا يدخل معك.

إذن: فالذي يناقش في علل الأشياء هو مَنْ يرغب في الحديث مع
مُسَاوٍ له في الحكمة، وهل يوجد مُساوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التي جاءت بالحروف المقطعة
كما جاءت ، واختلفنا على معانيها يؤكد على أنها كَمَز لا ينفذ من

(١) المضية: الدابة تُسَطَّى أي: يُركب ظهرها. والجمع: مَطَايَا والمسطا : الظهر لامتداده. وأصل
المطو المعد وتعضي الرجل: تعدد. وكل شيء مددته فقد مطوته. وتعضي النهار: امتد وطال.
[لسان العرب - مادة: مطا - ينصرف].

العطاء، إلى أن تُحل إن شاء الله - من الله^(١).

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنية على الوصل، ففي آخر سورة هود نجد قول الحق - سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢٢)

[هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة النون، لكنها موصولة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ لذلك جاءت النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآيات مبنية على الوصل، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف «الف لام راء» لكن الرسول ﷺ علمنا أن نقرأها «الف لام راء» وننطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف، ودليل على أن الله - سبحانه - حكيم في هذا وفي ذلك.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل - عليه السلام - وراجع مرتين في رمضان الذي سبق وفاته ﷺ^(٢).

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣٧/١): «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور يحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي - ال م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن - بجمعها قول: «نص حكيم قاطع له سر».

(٢) عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «أسر إلى النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضراً أظلي، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد في مسنده (٢٨٢/١).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق - سبحانه - على رسوله
الكريم ﷺ.

وهذا يقول الحق : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾ [يوسف]
و «تلك» إشارة لما يَعدُّ (الر) ، وهي آيات الكتاب.
أى: خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ،
وهذا فُهم البعض لمعنى : ﴿الر .. (١)﴾ [يوسف]
لكنه ليس كل الفهم.

مثل : صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من
الخيوط التى تم نَسج القماش منها ؛ ليدلنا على دِقَّة الصنعة.
فكأنَّ الله - سبحانه - يُبَيِّن لنا أن ﴿الر .. (١)﴾ [يوسف]
أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن
تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ،
لا يستطيع البشر - ولو عاونهم الجن - أن يأتوا بمثله^(١).

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التى تُكوَّن الكلام ، ولكن
المعجزة أن المتكلم هو الحق - سبحانه - فلا بد أن يكون كلامه
مُعجزاً ؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التى نستخدمها نحن
البشر.

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿قُلْ لِّغِيهِمْ أَصْحَابُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٢٥)﴾ [الإسراء].

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف «الف لام راء» ، وهو ﷺ الأمي^(١) بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نطق أسماء الحروف لا بد أن يكون متعلماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمّيات الحروف ولا يعرف أسماءها^(٢) ، وفي هذا النطق شهادة بأن مَنْ علّمه ذلك هو ربه الأعلى.

ويقول الحق - سبحانه : ﴿الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم^(٣).

وتجد كلمة «المبين» ، أى : الذى يُبين كل شيء تحتاجه حركة الإنسان الخليفة فى الأرض ، فإن بان لك شيء وظننت أن القرآن لم

(١) قال أبو إسحاق: معنى الأمي: المتسوب إلى ما عليه جبلته أمه، مكتسبة، فكانه نسباً إلى ما يولد عليه، أى: على ما ولدته أمه عليه، نقله ابن منظور فى [لسان العرب - مادة: أمم] وقال: «يعتد الله رسولا زهولا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخلّة إحدى آياته المعجزة لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارة بعد أخرى، بالنظم الذى أنزل عليه فلم يُغيره ولم يُبدل ألفاظه، إذن : الأمي هو ما كان على القطرة الربانية ، وثقلته للإمدادات من العطاءات النبوتية ، أما الكتابية فهي اكتساب ، وعلم الأمي من الخصوصيات الاصطفائية.

(٢) الفرق بين الاسم والمسمى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل: (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمي فى كلامه (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك : إن هذا الحرف اسمه (ك) أو هذا اسمه (تاء) أو هذا اسمه (ياء)، فهو لا يستطيع أن يتهجى الكلمة، ولكنه يستطيع أن يطلقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذها من أفواه الناس هكذا. (من مفهوم الخواطر).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» فى القرآن (٢٢٠) مرة، ويقصد بها معانى كثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، السور المحفوظة، ومن معانى الكتاب أيضاً «الرسالة» مثل رسالة سليمان عليه السلام التى أرسلها مع الهدمى إلى ملكة اليمن فقال: ﴿أذهب بكتّابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظروا ماذا يرجعون (٣٥)﴾ [النمل]، ومن المعانى أيضاً صحيفة الإنسان التى تعرض عليه يوم القيامة، ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (١٧)﴾ [الإسراء].

يتعرض له ، فلا بد أن تبحث عن مادة أو آية تلفتك إلى ما يبين لك ما غاباً عنك.

ويُروى عن الإمام محمد عبده^(١) أنه قابل أحد المستشرقين^(٢) في باريس ، ووجه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال:

مادامت هناك آية في القرآن تقول : ﴿ مَا قَرُطْنَا فِي الْكِتَابِ ﴾^(٣) من شيء . (٣٨) ﴿

فدعني أسألك: كم رغيفاً ينتجه أربُّ القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر . واستدعى الإمام خبازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أرب القمح؟ فاجاب الخباز على السؤال.

هنا قال المستشرق: لقد طلبت منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز.

(١) هو : محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركمانى، مفتى الديار المصرية. ولد في شنوا (من قرى الغربية بمصر) عام ١٨٤٩م ونشأ في مهلة نصر (بالبحيرة)، تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، أجاد الفرنسية بعد الأربعين، أصدر في باريس جريدة «العروة الوثقى» مع جمال الدين الأفغانى. توفي عام ١٩٠٥م بالإسكندرية، ودفن في القاهرة. [الأعلام للزركلى ٦/٢٥٢].

(٢) المستشرقون: جمع مستشرق ، وهم علماء الغرب المهتمون بعلوم الشرق وآدابه ودياناته وفلسفاته، فهم يتخصصون في هذا دراسة وبحثاً وتنقيحاً، ومنهم المنصفون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسفرون دراساتهم للضعف في الإسلام.

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٢/٢٥٠٥) «أى: في اللوح المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أى : في القرآن. أى: ما تركناه شيئاً من أمر الدين إلا وقد دلت عليه في القرآن، إما دلالة صريحة مشروحة، وإما مجتمعة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب».

فرد الإمام : إذا كان القرآن قد قال:

[الأنعام]

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۖ ﴾ (٦٨)

فالقرآن قال أيضاً:

[النحل]

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٢)

لقد فطن الإمام^(١) محمد عبده إلى أن العقل البشري أضيق من أن يسمع كل المعلومات التي تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق - سبحانه - أن يوزع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق في مجال ما ، هو من أهل الذكر في مجاله.

ونحن - على سبيل المثال - عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص في المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث.

وحين يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بدء الحج عمن يُعلمه خطوات الحج كما أدأها ﷺ.

(١) الإمام محمد عبده من الأئمة الأعلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته الإصلاحية ، عاصر جمال الدين الأفغانى ، وكان للإمام محمد عبده اتجاهاته في تربية الأفراد والشعوب ، بحيث تبدأ التربية بالفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً ، وهذا التدرج القوي انفرد به الإمام عن جمال الدين الأفغانى ، وإن كان بينهما عموم وخصوص.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانيات اللازمة لذلك.

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يستوع لها رأس ؛ ولذلك ورَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملاً الاحتياج، لا تكامل التفضل ، ويصير كل منهم ملتجئاً بالآخرين غصباً عنه.

وبعد ذلك يقول الحق - سبحانه:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ ﴾

وبالنسبة للقرآن نجد الحق - سبحانه - يقول : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١٦٦ ﴾

[الشعراء]

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلي به رسول الله ﷺ.

ومرة يقول : ﴿ نَزَّلَ .. (٢) ﴾

[محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة.

أما قول الحق - سبحانه : ﴿ أَنْزَلَ .. (٣٩) ﴾

[البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنُونًا فى اللوح المحفوظ ليباشِر مهمته فى الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

(١) الروح الامين: هو جبريل عليه السلام. قاله غير واحد من السلف: ابن عباس وعبد بن كعب وفتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهري وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه. قاله ابن كثير فى تفسيره. (٢٤٧/٢).

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا^(١)، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً^(٢) متفرقة ؛ ليعالج كل المسائل التي تعرض لها المسلمون.

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق - سبحانه - يقول :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٧٩)﴾ [الإسراء]

أى: أن الحق - سبحانه - أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته في الوجود الواقعي^(٣).

(١) ذكر أبو شامة في المرشد الرجيز أن السر في إنزاله جملة إلى السماء، تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لنزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوظائف لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله يأنس بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقاً، تشريفاً للمنزّل عليه، نفقه السيوطي في [الإتقان في علوم القرآن ١/١١٩].

(٢) نجوماً، منجماً، أى: أن القرآن أنزل مفرقاً نجماً بعد نجم، آية بعد آية، على حسب الأحداث والأحوال، ولذلك كان علم أسباب النزول، وذلك أدعى إلى قبوله، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان يفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمعاني، انظر [لسان العرب مادة: نجم]، [الإتقان للسيوطي ١/١٢٢].

(٣) من أمثلة هذا قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظَرٍ عَلَيْهِ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا وَلَا مُسْتَسِيمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِى نَكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِى مِنْ الْحَقِّ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب]

قال الواحدي عن أسباب نزول هذه الآية : لما نبى رسول الله ﷺ بزيئب يشت حبش أنزل عليها بتمر وسويق وذبح شاة، قال أنس: وبعث إليه أمي أم سليم يحبس في تون من حجارة، فأمرني النبي ﷺ أن ادعو أصحابي إلى الطعام، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون - ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون، فقلت: يا نبي الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً ادعوه، فقال: ارفعوا طعامكم، فرفعوا وخرج القوم وبقي ثلاثة أنفار يتحدثون في البيت فأطافوا المكث، فتأذى منهم رسول الله ﷺ وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية [أسباب النزول، ص ٢٠٥].

وفى هذه الآية يقول - سبحانه :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٢)﴾ [يوسف]

وفى الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (٦)﴾ [يوسف]

فمرة يَصِفُه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرة يَصِفُه بأنه كتاب ؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع^(١) ليكتب ؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالاهواء ، أما السطور فتثبت لا لبس فيها.

وهو قرآن عربي؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة في أمة عربية، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

(١) قال الحاكم في المستدرک : جمع القرآن ثلاث مرات:

أحدها : بحضرة النبي ﷺ .

الثانية : بحضرة أبي بكر رضي الله عنه.

الثالثة : في زمن عثمان رضي الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثاني للقرآن والذي قام به زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر رضي الله عنه: إنك شاب عاقل، لا تهتك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فستجمع القرآن فجعله . قال زيد : فتليت القرآن أجمعه من العُسْبِ والخاف ومبدور الرجال. وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهودان. قال السيوطي: «وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سمعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط. [انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٦٤ - ١٦٧] باختصار.

مِمَّا نَبِغُ^(١) فِيهِ الْعَرَبُ : لَأَنّ المعجزة مشروطة بالتحدي ، ولا يمكن أن يتحداهم في أمر لا زيادة لهم فيه ولا لهم به صلة : حتى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلم هذا : ولر تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ في الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون في الأسواق^(٢) ، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المفوهين^(٣) ، وكانت المباريات الأدائية تُقام ، وكانت التحديات تجري في هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام.

أى : أن الدربة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس في الأسواق ، فَهُمْ أمة بيان^(٤) وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق - سبحانه - أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نَبِغَ فِيهِ الْعَرَبُ ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن

(١) نَبِغَ الشيء : ظهر. نَبِغَ منهم شاعر: خرج. والتأليف: الشاعر المعروف، سُمِّيَ بذلك لظهوره. [لسان العرب - مادة: نَبِغَ].

(٢) كانت العرب أسواق يجتمعون فيها. مثل: عكاظ. وذو المجاز: فكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها، يَمْضِرُهَا الشعراء فيتنشّدون. ما أحدثوا من الشعر.

(٣) المفوه : حسن الكلام بليغ المنطق، فهو قادر على الكلام الجيد في بساطة وسلاسة. راجع بعض هذا في [لسان العرب - مادة: فوه].

(٤) البيان: إظهار المقصود بابلغ لفظ، وهو من الفهم وذلكاء القلب مع الشئ، وأصله الكشف والظهور. [اللسان - مادة: بين]. والبيان: الكشف والإيضاح والكلام البليغ. قال تعالى:

﴿هَذَا يَأْتِي النَّاسَ...﴾ [آل عمران] أى: كشف وإيضاح أن هذا كلام بليغ. وقوله: ﴿عَلِمَهُ

الْبَيِّنُ (٢١)﴾ [الرحمن] أى: المنطق المعبر عما في النفس من معاني وأفكار. [القاموس القويم

- مادة: بين].

هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الالفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادئ التي تطفئ على مبادئ الفرس والروم.

وهي مبادئ قد نزلت في أمة مبتدئة^(١) ، ليس لها قانون يجمعها ، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم يبدؤ يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن عليم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المتبدية قد امتلكت ما بينى حضارة ليس لها مثيل من قبل ، رغم أن النبي أمي^٢ وأن الأمة التي نزل فيها القرآن كانت أمية.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذي نزل في تلك الأمة تحداهم بما نبغوا فيه ، وما أستطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق - سبحانه - أن ينزل القرآن عربياً : لأن الحق لم يكن ليرسل رسولا إلا بلسان قومه ، فهو القائل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ ۝ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

(١) متبدية: نسبة إلى البادية. يقال: تبدى الرجل: أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضر. وسُميت بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس في الحضر حول الماء وغيره. يتصرف من لسان العرب - مادة: بدو.

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَبَلَدَيْنِ (٩) ﴾ [البعد] فانه يستن على الإنسان بنعمة البصر والخطق. واللسان: اللغة والكلام. قال تعالى: ﴿ وَأَخْبَرُونَ هَذِهِ نَبِيَّ لِسَانٍ ۖ ۝ (٢٣) ﴾ [القصص] أى: أقدر منى على الكلام الفصيح. وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافَ أُنُسِيكُمْ وَالْوَاتِكُمْ ۖ ۝ (٦٦) ﴾ [الروم] أُنُسِيكُمْ: أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم - مادة: نسن].

وَأَرْسَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْقُرْآنِ ، الَّذِي تَمَيَّزَ عَنْ سَائِرِ كُتُبِ الرُّسُلِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ ؛ بِأَنَّهُ كِتَابٌ وَمُعْجَزَةٌ فِي أَنْ وَاحِدٍ ، بَيْنَمَا كَانَتْ مُعْجَزَاتُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِ ﷺ مُتَفَصِّلَةً عَنْ كُتُبِ الْأَحْكَامِ الَّتِي أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمْ .

وَيَظَلُّ الْقُرْآنُ مُعْجَزَةٌ تَحْمِلُ مَنَهِجًا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَهَذَا مَا قَدْ آمَنَ بِهِ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ^(١) فِي الْعَالَمِ ، فَتَحَقِّقُ بِذَلِكَ مَا وَعَدَ بِهِ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ شَامِلًا ، يَجْذِبُ كُلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ إِلَى الْإِنْبِهَارِ بِمَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ .

وَلِذَلِكَ حِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ أَسْبَابِ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْوَجِيزَةِ ، يَجِدُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ انْتَشَرَ لَا بِقُوَّةِ مَنْ آمَنُوا بِهِ ؛ بَلْ بِقُوَّةِ مَنْ انْجَذَبُوا إِلَيْهِ مَشْدُودِينَ^(٢) بِمَا فِيهِ مِنْ نُظُمٍ تُخَلِّصُهُمْ مِنْ مُتَاعِبِهِمْ .

فَفِي الْقُرْآنِ قَوَانِينُ تُسَعِّدُ الْإِنْسَانَ حَقًّا ، وَفِيهِ مِنَ الْإِسْتِنْبَاطَاتِ بِمَا سَبَقَ يَحْدُثُ فِي الْكَوْنِ ؛ مَا يَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ يَذْكُرُونَ بِالْخُشُوعِ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِمْ لَمْ يَقْرَءْ فِي شَيْءٍ .

وَإِذَا قَالَ قَائِلٌ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ: كَيْفَ تَقُولُونَ ؛ إِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ

(١) السَّيَاحَةُ: الْذَهَابُ فِي الْأَرْضِ لِأَغْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا الْعِبَادَةُ وَالِدَعْوَةُ وَالتَّجَارَةُ . وَأَصْلُهُ مِنْ

سَبَّحَ الْمَاءَ الْجَارِيَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّة: سَبَّحَ] بِتَصْرِفِهِ .

(٢) شَبَّهَ الرَّجُلَ شَقًّا: تَحَيَّرَ . وَالنَّهْشُ أَيْضًا: التَّحَيُّرُ . دَهَشَ: تَحَيَّرَ . أَوْ دَهَبَ عَقْلُهُ مِنْ دُخُلِ أَوْ

وَلَهُ فُجُورٌ مَدْمُوشٌ ، وَادْبَهَشَهُ غَيْرُهُ . [اللسان - مَادَّة: شَدَّ، دَهَشَ] .

بلسان عربى مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى تؤمنون^(١) بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية^(٢) ، وأخرى فارسية^(٣) ؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل الفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارت هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وتدخل فى لغتنا أى لفظ نستعمله

(١) التامين: قول آمين. وآمين : كلمة تُقال فى إثر الدعاء. قال الفارسي: هى جملة مركبة من فعل واسم، ومعناه: اللهم استجب لى. [لسان العرب - مادة: آمن]. وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا آمن الإمام فأمنوا، قبلته من واصل تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه الإمام مالك فى موطئه (٨٧/١) وأحمد فى مسنده (٢٢٨/٢ ، ٢٢١) والبخارى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠).

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم :
- (الزقيم) فى قوله تعالى : ﴿وَأَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (١) [الكهف]. قال السيوطى فى الإتقان (١١٢/٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال: النوح، الكتاب، الدولة.

- (الصمراط) : حكى النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم.
.. (طُففاً) فى قوله تعالى : ﴿وَطُفُفًا يَخْفِقَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ..﴾ (٢) [الأعراف] معناه: قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم :
- (أبَارِيق) : حكى الشعالى فى لغة اللغة أنها فارسية. وقال الجوالقى: الإبريق فارسى - مغرب. ومعناه: طريق الماء. أو حسب الماء على هيئة.
(دينار) : فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ نَأْتَى بِدِينَارٍ لَا يُوَدِّهِ إِلَآ مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ فَايْمًا ..﴾ (٣) [آل عمران] - ذكر الجوالقى وغيره أنه فارسى.
- (سجیل): عن مجاهد قال: سجیل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على السنتنا ، ما دُمنا نفهم المقصود به ^(١) .

ويُذِلُّ الحق - سبحانه - الآية الكريمة بقوله :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُونَ (٢) ﴾

[يوسف]

ليستنهض همه العقل ، ليفكر في الامر ، والمُنْصَف بالحق يُهمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس ^(٢) الذي يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفُذ من وراء العقل.

وفي حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك مَنَائِجها ومحاسنها ؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصُّنْعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلك الأمر تكتشف المدلس وغير المدلس ؛ لذلك فهو يدلّس عليك، ويُعمّي عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

(١) ذكر السيوطي في كتابه الإتقان (١٠٥/٢ - ١٠٨) اختلاف العلماء في عربية هذه الالفاظ وفي اعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين ثم قال: وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: الصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعربتها بالسننها وحولتها عن الفاظ المعجم إلى الفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرائر وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق. ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون.

(٢) التدليس: إخفاء العيب، والمداينة: المخادعة، والتدليس في البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري، والتدليس الشيء: إذا خفي [لسان العرب - مادة: دلس].

ويقول الحق - سبحانه - من بعد ذلك:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢)

حين يتحدث الحق - سبحانه - عن فعل من أفعاله ؛ ويأتى بضمير
الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجود صفات
متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانيات.

ومن غيره - سبحانه - له كل الصفات التى تفعل ما تشاء وقت أن
تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه - سبحانه - وحده صاحب
الصفات التى تقوم بكل مطلوب فى الحياة ومُقدّر.

لكن حين يتكلم - سبحانه - عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد
فلا تأتى بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

(١) نص الكلام أو الأخبار: بقصصها فصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَّيْسَ
بِأَنبَاءٍ وَفُتًى عَلَيْهِ الْقَصَصُ قَالَ لَا تُخَفُّ ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحديثه بها.
والقصص: مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ ۝ (١١١) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم (١٢٠/٢)] .

وَأَقِمِ^(١) الصَّلَاةَ لِذِكْرِي^(٢) ﴿١٧١﴾ [طه]

وهنا يتكلم - سبحانه - بأسلوب يعبر عن أفعال لا يقدر عليها غيره؛ بالدقة التي شاءها هو - سبحانه - فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..﴾ (٢) [يوسف]

وحدد - سبحانه - أنه هو الذي يقصُّ، وإذا وُجد فعل لله ؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ؛ ولا نحاول أن نشق منه اسماً نطلقه على الله ؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التي عَلَّمناها في أسمائه الحسنى ؛ لأنه الذات الأقدس.

وفى كل ما يتعلق به ذاتاً وصفات وأفعالا إنما نلتزم الأدب ؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ؛ لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصصاً ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ؛ ولا نشق منه اسماً لله ؛ لأنه لم يصف نفسه في أسمائه الحسنى بذلك.

(١) أقام الصلاة: أداها كاملة. وقوله تعالى: ﴿رَأَيْبُوهَا وَجُوهَكُمْ عَدُوًّا كُلِّ مَسْجِدٍ ..﴾ [الاعراف] أي: اخلصوا قلوبكم لله، وعدُّوا وجوهكم واجعلوها تتجسّد في المساجد في الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ..﴾ [الروم] أي: ارفعه وعدِّله، والمراد كن مستقيماً مخلصاً للدين. وإقام: اسم مصدر من أقام بمعنى إقامة. ومنه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ..﴾ [النور] أي: إقامة الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاسوس للقرين ٢/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٢] بتصرف واختصار شديد.

(٢) الذكر: الاستحضار بالقلب مع التأمل، والذكر الحديث والقصة، والذكر القرآن والكتب المنزل كلها. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح] أي: شرفك وحديث الناس عنك بالخير.

والواجب أن ما أطلقه - سبحانه - اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهنا يقول - سبحانه:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴾ (٣)

[يوسف]

ونعلم أن كلمة «قص» تعني الإتياع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، وماخوذة من قص الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذي سار فيه مَنْ يبحث عنه.

واقراً قول الحق - سبحانه - ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ^(١) بِهِ عَنْ جُنْبٍ^(٢) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^(٣) ﴾

[القصص]

و ﴿ قُصِّيهِ .. ﴾ (٦٦)

[القصص]

أي: تتبع أثره.

إذن : فالقص ليس هو الكلمة التي تتبع كلمة، إنما القص هو تتبع ما حدث بالفعل.

(١) بَصُرَ بِهِ: رآه ببصره فهو بصير. وبَصُرَ بِالْأَمْرِ: عَلِمَهُ كَأَنَّهُ رَأَاهُ بِبَصَرِهِ.. وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ..﴾ (٦٦) [القصص] أي: رآته من أحد جوانب البيت وهي متخفية: وقوله تعالى عن السامري: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ..﴾ (٦٥) [طه] أي: علمت بما لم يعلموا وهو رؤية إثر الرسول أو سيوفه. [القاموس القويم ٦٩/١].

(٢) الجنب: قد يراد به البعد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ..﴾ (٦٦) [القصص] أي: عن بُعد، أو رآته من جانب من جوانب القصص أو من بعيد. [القاموس القويم ١٣٠/١].

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع قنانه:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ^(١) وَمَا أَنَسَيْتُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ^(٢) ﴾ (٦٤) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْعَثُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ^(٣) ﴾ [الكهف]

أي : تَابَعَا الْخُطُوت.

وهكذا نعلم أن القصص هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فتكون كل كلمة مُصَوَّرَةً لواقع ، لا لِبَسٍّ ^(٤) فيه أو خيال ؛ ولا تزيُّد ، وليس كما يحدث

(١) الحوت: السمكة. كبرت أو صغرت. والجمع حيتان. قال تعالى عن موسى قوله: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. ﴾ (٦٤) [الكهف] أي : السمكة. وقال: ﴿ إِذْ نَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبَقَهُمُ شُرَعَا .. ﴾ (٦٥) [الأعراف] كانت تظهر لهم الحيتان في الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم. [القاموس القويم ١/١٧٦] قال ابن منظور في [لسان العرب - مادة: حوت]: «المحاوتة: المزاوغة. وهو يُحاوتني أي يُزاوغي. وحات الطائر على الشيء يحوت أي : حام حوله».

(٢) العجب: روعة ودمشة تأخذ الإنسان عند استحسان شيء خفى سره أو استعظامه. وأعجبه الأمر: سره أو جعله على العجب منه. وأمر عجيب وعجاب وعجائب بتشديد الجيم للمبالغة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَبٌ .. ﴾ (٦٤) [ص]. [القاموس القويم ٢/٧٧].

(٣) بنى الشيء: طلبه. وابتغاه: طلبه. قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ الْقِسْطَ .. ﴾ (٩٧) [التوبة] أي: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَتَفَرَّقَ لَعْنًا مِنَ اللَّهِ .. ﴾ (٩٧) [الفتح] وقوله: ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْقِسْطَ .. ﴾ (٩٨) [التوبة] أي: طلبوها وسعوا في بحثها ونشرها. والابتغاء: الطلب. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتَغَاءِ الْقَوْمِ .. ﴾ (٩٨) [النساء] في طلبهم لقتالهم. وقال: ﴿ وَالَّذِينَ هَمَزُوا ابْتَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. ﴾ (٩٩) [الرعد] أي: طلباً لرضاه تعالى عنهم. [القاموس القويم ١/٧٦، ٧٧].

(٤) اللبس واللبس: اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس إذا خلطه عليه حتى لا يعرف وجهته. والتبس عليه الأمر أي: اختلط واشتبه. وتلبس بي الأمر: اختلط وتعلق. [لسان العرب - مادة: لبس].

فى القصص الفنى الحديث ؛ حيث يضيف القصص لقطات خيالية من أجل الحكمة^(١) الفنية والإثارة وجذب الانتباه.

أما قصص القرآن فوضعه مختلف تماماً ، فكل قصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لناخذ منها العبرة^(٢)؛ لأن القصة نوع من التاريخ.

والقصة فى القرآن مرة تكون للحدث، ومرة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تأت قصة رسول فى القرآن كاملة، إلا قصة يوسف - عليه السلام.

أما بقية الرسل فقُصصهم جاءت لقطات فى مناسبات لتثبيت فؤاد^(٣) الرسول محمد ﷺ ، فنأتى لفظة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتى بقصة كاملة

(١) الحكمة : الشد . والحكمة : الحبل يُشدُّ به على الوسط . والتحريك : التوثيق . وجاد ما حكى إذا أجاد تسجته . وحكى الثوب يحكى حكا . أجاد تسجته وجسّن أثر الصنعة فيه . [لسان العرب - مادة : حيك] ويستعار اللفظ ليستخدم فى الحكمة القصصية كأنها ثوب يُجاد تسجته وصنعه فلا يكون مُهكلاً.

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ﴾ [يوسف] . والعبرة : اسم للشئ الذى يتعظ به الإنسان . والعبرة : العظة . قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً ۖ﴾ [النور] . وقال : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۚ﴾ [الحشر] أى : اتعظوا . [القاموس القويم ٤/٢] .

(٣) بقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ رَجَاءً فِي هَٰذِهِ السُّعَىٰ وَكَرْهٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [هود] أى : تثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما يذلك فيها من الازى . [تفسير القرطبي ٤/٢٤٢٥] .

مستوفية؛ فقد شاء الحق - سبحانه - أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُستوفية، ففيها الحدث الذي دارت حوله أشخاص، وفيها شخص دارت حوله الأحداث.

فقصة يوسف - عليه السلام - في القرآن لا تتميز بالحبكة فقط؛ بل جمعت نوعي القصة، بالحدث الذي تدور حوله الشخصيات، وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث.

جاءت قصة يوسف بيوسف، وما مرَّ عليه من أحداث؛ بدءً من الرؤيا، ومروراً بخقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية^(١) له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولي السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن : فقول الحق - سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴾ (٢)

[يوسف]

يبين لنا أن الحُسن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، لكن أحبار^(٣) اليهود حين قرأوا القصة كما جاءت بالقرآن ترك

(١) الغواية : الضلال والانهماك في الغي والفساد. غَوَى يَغْوِي: انهك في الجهل. وهو ضد الرشده. قال تعالى : ﴿ لَا تَكْرَاهِيَ الَّذِينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴾ (٢٥٦) [البقرة]. [التقاموس القويم ٦٤/٢].

(٢) الأحبار: جمع حَبْر. وهو العالم، قال تعالى : ﴿ اسْتَشِيرُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (٣) [التوبة] وأصل الكلمة الحبر الذي يُكتب به، وهو المداد. وكل ما حُسِّن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حَبِّر حَبْرًا وحَبْرًا [لسان العرب - مادة: حبر].

بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن في روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمّسات المواجهيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطوّية في النفس البشرية ؛ وتحقيق الرؤى الغيبية كلّ ذلك جاء في حبكة ذات أداء بياني مُعْجَز جعلها أحسن القصص .

أو : هي أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعددة ، عبر في الطفولة في مواجهة الشيوخوخة ، والحقد الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، والفتنة في الحب والكيد له ، ووضع سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف - عليه السلام - محبة منه ؛ ليجعل كل من يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرث النبوة ، بما فيها من سماحة وقدره على العفو عند المقدرة ؛ فعفاً عن إخوته بما روتهُ السورة : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٢) [يوسف]

وقالها سيد البشر محمد ﷺ لأهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(٢) .

(١) ثربه : لاهه وعش عليه . وثرّبه بالتصنيف : أكثر لومته ، وثرّبه يذنبه ، وأثبه على سوء فعله : قال تعالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١٢) [يوسف] أي : لا لوم ولا تأنيب ، [القاموس القويم ١/ ١٠٦] .

(٢) قال ابن إسحاق : حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام في خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . (راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤١٢) .

هكذا تمثلي سورة يوسف بعبّر متناهية ، يتجلى بعض منها في قضية دخوله السجن مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهي أحسن القصص ؛ إما لأنها جمعت حادثة ومَن دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو : أنها أحسن القصص في أنها أدت المتحد والمتفق عليه في كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأُمي ، الذي لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عَرَضُ الموضوع بأسلوب جذاب مُستميل مُقنع مُمتع.

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطات متعددة تسير : العمر الزماني ، والعمر العقلي ؛ والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مظلوماً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكنًا من كل شيء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كقطات مُوزعة كآيات ضمن سُور أخرى ؛ وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها.

إذن : فالحسن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣) [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أُمياً، ولم يعرف عنه أحد قبل

نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرف عنه فقط هو الصفات الخلقية العالية من صدق وأمانة : وهي صفات مطلوبة في المبلغ عن الله : فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض ؟

إن الكذب أمر مُستبعد تماماً في رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبي بكر رضي الله عنه له حين أبلغه رسول الله ﷺ أن الوحي قد نزل عليه ، لم يقل له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : صدقت.

وحين حدثت رحلة الإسراء : وكذبها البعض متساطين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها في ليلة ؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك ؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق^(١).

(١) ذكر ابن هشام في النسبة التبرية (٢٩٨/١) باختصار ، أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر ، فأنكروا عليه ذلك ، وفصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر في إنكار ، فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : بلى ، هاهو ذلك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يُعجبكم من ذلك . فوافقه إنه ليُخبرني أن الخير ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقته ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

وهكذا نجد ان حيثية الصدُق قبل الرسالة هي التي دَلَّتْ على صدقه حين اُبلغ بما نزل عليه من وحى.

مثال ذلك : تصديق خديجة رضى الله عنها وأرضاها له : حين اُبلغها بنزول الوحي ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل^(١) ، وتكسب المعدوم^(٢) ، وتقري الضيف^(٣) ، وتعين على نوائب^(٤) الحق^(٥) » .

وكان في صدوق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسباباً تؤيد تصديقها له ﷺ في نبوته^(٦) .

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات : كانت بعض العقول المعاصرة

(١) الكل : هو مَنْ لا يستقل بأمره . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ كُلٌّ عَلَىٰ مَرْأَةٍ ۖ ﴾ (٦٩) [النحل] . والكل هو العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ١٦٩/٢] باختصار .
(٢) المعدوم : كالميت الذي لا تصرف له ، والمعنى : أنك تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك [فتح الباري ٢٤/١] .

(٣) قَرَى الضيف : أضاف ، وقَرَى : طعام الأضياف . [لسان العرب - مادة : قرى] .
(٤) النوائب : جمع نائبة ، وهي ما ينوب الإنسان أي : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان . [لسان العرب - مادة : نوب] بتصرف .

(٥) حديث بدء الوحي أخرجه البخاري في صحيحه (٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٦) قال رسول الله ﷺ : « آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس » . واستثنى بماله إذ حرمني الناس ، وورقني منها الله فزله دون غيرها من النساء » . أخرجه أحمد في مسنده (١١٨/٦) من حديث عائشة .

لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتهىوا إنه رسول الله » .

مثال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - متسائلاً - ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح - : ألسنا على الحق ؟ علام تعطى الدنية^(١) في ديننا ؟ ويرد عليه أبو بكر - رضي الله عنه - : استمسك بقرره^(٢) يا عمر ، إنه رسول الله^(٣) .

أى : انتبه وأعلم أنك تتكلم مع رسول الله ﷺ ، وليس في ذلك انصباعٌ أعمى ، بل هي طاعة عن بصيرة مؤمنة .

والحق سبحانه يقول هذا :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣)

[يوسف]

والغافل : هو الذى لا يعلم - لا عن جهل ، أو قصور عقل - ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله .

(١) الدنية: الخصلة المذمومة، ورجل نذى من قوم انبياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة: دنا] باختصار .

(٢) الغرر: ركاب الرجل ، وكل ما كان مساكاً للرجلين في المركب غرر . والغرر للذاقة مثل الحزام للغرس ، ومثل الركاب للبغل . ومنه حديث أبي بكر أنه قال لعمر : « استمسك بقرره » أى : اعتلق به وأمسكه وأتبع قوله وفعله ولا تخالفه ، فاستبحار له الغرر كالذى يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره . [لسان العرب - مادة : غرر] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٣/٦ - ٢٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان ابن الحكم وتعلمه « أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام تعطى الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرره حيث كان» الحديث.

أو : أن يكون المقصود بقوله :

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [٤٤]

[يوسف]

أي : أنك يا محمد لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف ؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى معلم يروي لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك .

بل أنت لم تتلقَّ الوحي بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : أسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر^(١) ؟

وكان ضرباً^(٢) من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالى بكل تفاصيل القصة ، كدليل عملي على أن معلم محمد ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو من أوحى بها إليه .

والوحي - كما نعلم - هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحى للملائكة فيقول :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَخِشُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ [١٢٢]

[الأنفال]

(١) ذكره القرطبي في تفسيره من قول النحاس (٢٤٤٠ / ٤) : « يروي أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فانزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما في التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم » .

(٢) الضرب : الصنف من الأشياء . ويقال : هذا من ضرب ذلك أي من نحوه وصنّفه ، والجمع : ضروب . وضرب الله مثلاً أي وصف وبين . وقولهم : ضرب له المثل بكذا ؛ إنما معناه بين له ضرباً من الأمثال أي صنفاً منها . [لسان العرب - مادة : ضرب] .

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من البشر إلى صفوتهم :
مصادقا لقوله سبحانه :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ^(١) أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^(٢)﴾ [المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دفعاً له ،
مثل الوحي لأم موسى بأن تلقى طفلها الرضيع موسى في اليم^(٣) :
﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى^(٤) (٢٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ^(٥) فَاقْذِفِيهِ فِي
الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ^(٦) يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي
وَلَتُصَنِّعَ عَلَيَّ عَيْنِي^(٧) (٢٩)﴾ [طه]

ويوحى سبحانه إلى الأرض وهي الجماد ، مثل قوله الحق :

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

(١) الحواريون : جمع حواري ، وهو : الخالص النفس من كل شيء ، وشاع استعماله في
الخلاص والاصفياء للأنبياء ، قال تعالى : ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ..﴾ (٢٩) [آل
عمران] ، [القاموس القويم : ١٧٧/١] .

(٢) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ..﴾ (٢٤) [الأعراف] ، وهو
خليج السويس وملاؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر ، وقوله تعالى : ﴿فَلْيُلْقِهِ فِي الْيَمِّ
فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ ..﴾ (٢٥) [طه] هو تهر النيل العذب ، [القاموس القويم : ٢٧٢/٢] .

(٣) التابوت : الصندوق ، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنَا مُلْكُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ..﴾ (٢٤) [البقرة] والتابوت أيضاً : الأضلاع
وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما ، تشبيهاً بالصندوق الذي يُخزَّن فيه المتاع ، [القاموس
القويم : ٩٦/١] ، [لسان العرب : مادة : نبت] .

(٤) سحله : قشره ونحته ، والرياح تسحل الأرض : تكشف ما عليها من تراب ، والساحل :
شاطيء النهر : لأن الموج يأكل منها وينحته ويسحه ، قال تعالى : ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلَتُصَنِّعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (٢٩) [طه] أي : بشاطيء
النهر ، [القاموس القويم : ٢٠٦/١] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ^(١٧) ۖ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا ^(١٨) ۖ ۝ (١٩) ﴾ [النحل]

والحق سبحانه يوحى لمن شاء بما شاء ، فالكل : جماد ونبات وحيوان وإنسان : من خلقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بِسِرٍّ خَلَقَهُ لَهُمْ ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ^(١) وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ^(٢) ۝ (٤) ﴾

(١) عرش البيت : سقفه . قال تعالى : ﴿ فَكَأَنَّمِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ۖ ۝ (١٥) ﴾ [الحج] . [لسان العرب - مادة : عرش] .

(٢) ذل : لان وانقاد من غير قهر بعد تصعُّب ، فهو ذلول وجمعه ذلل ، وهذه مخاطبة ذلل أو طرق ذلل : سهلة مبهمة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُقُولًا فَاذْكُوا فِي سَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ بَرِّقِهِ وَلَهُ الْأَشْجُورُ ^(١٥) ﴾ [الملك] ، وقوله : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا ۖ ۝ (١٩) ﴾ [النحل] أى : مبهمة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم : ٢٤٥/١ باختصار] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره { ٢٤٤١/٤ } : « سئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيماً - عن يوسف - فقال : الأسف في اللغة الحزن ، والأسيف العبد ، وقد اجتمع في يوسف : فلذلك سُمِّيَ يوسف » .

(٤) الكوكب : في تفسير القرآن يشمل الكوكب الجارد التابع المستمد نوره من غيره . ويشمل النجم الملتهم كأنه كرة كبيرة من النيران ، قال تعالى : ﴿ كَانَهَا كَوْكَبًا دَرِيًّا ۖ ۝ (٢٥) ﴾ [التور] أى : نجم ساطع الضياء ، [القاموس القويم : ١٧٧/٢ باختصار] .

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لآبيه يعقوب عليهما السلام
« يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات
« أبى » و « أبت » و « أبتاه » و « أبة » وكلها تؤدى معنى الأبوة ،
وإن كان لكل منها ملحظ لغوى .

ويستمر يوسف فى قوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي
سَاجِدِينَ ﴾ (٤) [يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ فى وقت ظهوره ؛ لكن حلم
يوسف يُبين أنه رآهما معا ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة فى السماء
ألفاً لا حصرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكبا فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميّزتهم عن غيرهم من الكواكب
الأخرى ؛ وأنه قام بعدهم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبين أنه رآهم شمساً وقمرأً وأحد عشر
كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى ترى بها الشمس والقمر
والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بعلامح الخضوع
لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل
لإيضاح الأمر ،

ونجد أن كلمة ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ (٤) [يوسف]

وهى جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان

المفرد عاقلًا ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته في الدنيا في إطار منهج الدين ، وأسمى ما في الخضوع للدين هو السجود لله .

وَمَنْ سَجَدُوا لِيُوسُفَ إِنَّمَا سَجَدُوا بِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ ، فَهُمْ إِذَنْ يَعْقِلُونَ أَمْرَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ^(١) .

مثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذْنَتْ ^(٢) لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ^(٣) ﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربها الذي بَنَاهَا .

وَقَالَ عَنْهَا أَتُنَاجِي بِلَا فُرُوجٍ ^(٤) :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٤٣/٤) : « القول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عن من يعقل » .
ويؤخذ من مفهوم خواطر الإمام أن الآية بيّنت منزلة يوسف بين الأسيرة . ومنزلته عند ربه وأنه في نهاية المطاف سيُعتزّون بفضلِهِ وعظمتِهِ ، وهذا دليل الانتصار بعد الحصار .
ولنعلم أن الرؤيا الغمامية لها قوالتين تختلف عن الرؤيا البصرية ، وأن رمزيات الرؤيا الغمامية فيها من الأسرار ما يعطي المطلوب ؛ لأنها تحمل إشارات توضيحية للأفراد منها مثل رؤيا يوسف في حالة سجدتهم له ، وأنه رأى الجميع في وقت واحد مع حذف الزمن المنوط بهما .

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته : استمع إليه بأذنه وأصغرت معجبا به مُحببا له ، وقُسر بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ^(٣) ﴾ [الانشقاق] أي : استصغرت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم : ١٦/١ باختصار] .

(٣) الفروج : جمع فرج ، وهو الخلل بين الشيشين . والفرج : الشق ، قال تعالى في وصف السماء : ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ^(١) ﴾ [ق] أي : شقوق فهي متعاسكة لا خلل فيها ولكنها يوم القيامة تنشقق . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ^(٢) ﴾ [المرسلات] : [القاموس القويم : ٧٤/٢] .

﴿ أَقْلَمَ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٦)

[ق]

وهي أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (٦)

[الانشاق]

أي : انها امتلكت حاسة السمع ؛ لأن «أذنت » من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تنفعل وتنشق^(١) .

وهكذا نجد أن كل عَالَمٍ من عوالم الكون أممٌ مثل أمة البشر^(٢) ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه في اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُسكِّل تسبيحة مع تسبيحها «جَوْقة»^(٣) من الانسجام مُكوَّن من إنسان مُسَبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُرْدَد للتسبيح هي الجبال ، وهي من الجماد أدنى الكائنات .

(١) ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا قَالَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُتَالِكُمْ ﴾ [الأنعام] .

(٣) الجَوْقُ في اللغة : كل خليط من الرعاة أمرهم واحد . وقال الليث : الجوق كل قطع من الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً : الجماعة من الناس . [لسان العرب - مادة : جوق] .

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها^(١) ،
ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعَلِّمه مَنطِق الكائنات
الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾

[النمل]

وهكذا عَلَّمْنَا أن للطير منطقاً . وَعَلَّمَ الْحَقُّ سبحانه سليمان لغة
النمل : لَآتَا نَقْرًا قَوْلَ الْحَقِّ :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ^(٢) سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٧) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي^(٣) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٨)﴾

[النمل]

إذن : فَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الكائنات لغة ، وهي تفهم عن خالقها ، أو مَنْ
أَرَادَ لَهُ اللهُ سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس
والقمر والنجوم حين سجدت بأمر ربها ليوسف في رؤياه : إنما
فهمت عن أمر ربها .

(١) قال تعالى : ﴿وَمِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غَفُورًا
(١١)﴾ [الإسراء] .

(٢) حطمه يحطمه : كسره يعصف ، وأصل الحطم : كسر الشيء الجاف . ويُطلق على أي كسر ،
قال تعالى : ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٧)﴾ [النمل] . والحطام : ما تكسَّر من
اليابس ، قال تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (١٠٠)﴾ [الواقعة] .

(٣) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثه وأمره ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٨)﴾ [النمل] أي : ألهمني شكرك وأدفعني إليه وحببه إليّ [القاموس المرفوع] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءُ يَا كَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ ﴾

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بَنِي ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب^(١) ، و « بَنِي » تصغير « ابن » .
أما حين يأتي القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابني » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود]

وكلمة « يا بني » بما فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتي من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بني » يفهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلك بالحنان على الفرع ، وفي نفس الوقت نجد أيُّ أب يقول : مَنْ يَأْكُلْ لِقْمَتِي عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَتِي .

(١) كما فلاناً يكيد كيداً : خدعه ومكر به واحتمال لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الرسالة التي يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ١٨٠/٢] .

(٢) ورد هذا الخطاب في القرآن ٦ مرات في سورة هود ويوسف ولقمان في ثلاث آيات والصفات .

ولنعلم أن الكون وما فيه ومَنْ فيه وظليقته أمام الله الطوعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بني ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفرع يوسف مما يُزججه أو يُسرى إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل^(١) فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو - الأقدَر في نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ۖ ۝٥٠ ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ؛ وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هي « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤى ؛ فرؤيتك وأنت يقظان يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتَّفَق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهي تأتي للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء في « رأى » والاختلاف في الحالة ؛ هل هي حالة النوم أو حالة اليقظة . وفي الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

(١) الامر المعضل : الصعب الشديد الضيق . معضل عليه في امره تعضيلاً : ضيق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلماً . ومعضل بهم المكان : ضائق . ومعضلت الأرض ياهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب - مادة : عضل] .

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة »^(١) .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة « التاء » وهي عمدة التانيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التانيث .

ولا يقدر^(٢) في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن ، حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عرج^(٣) به ﷺ : فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً ۖ لِلنَّاسِ ۚ ﴾ [الإسراء]

ولكن من يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ، ولكنه حدث في الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها « فتنة للناس » .

(١) علامات التانيث اللفظية ثلاث هي :

- تاء التانيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للتحركة بين المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مريض ، ثيب .

- ألف التانيث المقصورة : وهي ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .

- ألف التانيث الممدودة : وهي مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مع مفتوح ما قبلها ، وهي تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء - راجع : الفوائد الصرفية - الدكتور علي أبو المكارم - طبعة ١٩٧٩ من : ٦٢ - ٦٥ .

(٢) قدح : أثار - يقال : قدح الشيء في صدرى : أثار - وفي حديث علي كرم الله وجهه : قدح الشك في قلبه بأول عارضة من شبهة ، [لسان العرب - مادة : قدح] .

(٣) عرج : يعرج عرجاً : سعد وعلا وأرتفع ، والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود ، والجمع معارج ، قال تعالى : ﴿ وَمِعَارِجٌ عَلَيْهَا يَصْحَبُونَ ﴾ [الزخرف] أي : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى . [الفاموس القويم باختصار : ١٢/٢] .

(٤) قال الأزهري وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار ، [انظر : لسان العرب - مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كُذِّبَ أحدٌ فيما قال ؛
 لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبَّرَ عنها القرآن بأنها فتنة للناس .
 وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ . . (٥) ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كآب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة
 يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو
 سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه^(١) .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الاغيار البشرية يحسدون
 أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحدٌ : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها
 الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول ؛ لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد عَلمَ تأويل الرؤيا ؛ وأنها نبوءة
 لأحداث سوف تقع ؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة
 إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لفهموا
 المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيذاً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله
 بضيقهم إن عَلموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم مع
 الإخوة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٤٧/٤) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير
 شقيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن تعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط^(١) ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب علو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التى تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسُّليقة^(٢) ؛ لأن الشرير بالسُّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيرُ فتنزلُ عنده حوادثُ السوء .

والمثل على ذلك ؛ أنك قد تجد الشرير يرغب فى أن يصفع إنساناً آخر صفعه على الخد ؛ لكنه بعد قليل يفكر فى تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفتين بدلاً من صفعه واحدة ؛ ثم يرى أن الصفتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يزيد العدوان بأن يصوب عليه مسدساً ؛ وهكذا يصعد الشرير تفكيره الإجرامى .

أما الخيرُ فهو قد يفكر فى ضرب إنسان أساء إليه « علقه » ؛ لكنه يُقلل من التفكير فى ردِّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير فى ضربه صفتين بدلاً من « العلقه » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عمن أساء إليه .

وإخوة يوسف - وهم الأسباط^(٣) - بدعوا فى التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

(١) الأسباط : جمع سبط . والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها أغصان كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المنفوعة من أصل واحد . والأسباط : هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ الَّتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم : ٣٠٠/١] .

(١) السليقة : الطبيعة والسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا يتعلم . وقيل : بالسليقة ، أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب - مادة : سلق] .

(٢) ذكرت كلمة الأسباط فى القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يُعنى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط يصنعى أصول قبايل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذلك .

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. ﴾ (٩) [يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المؤلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ ^(١) أَرْضًا يَخْلُ ^(٢) لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (١٠) [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقاءه فى الجُبِّ ^(٣) لعل أن يلتقطه بعض السيَّارة ^(٤) . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ^(٥) الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ﴾ (١١) [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا فى نجاته .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها يقول الحق سبحانه :

(١) طرح الشيء يطرحه طرحاً : نبذه وألقاه . قال تعالى : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (١٠) [يوسف]
أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ٢٩٩/١] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشغل عنه بشيء : قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ .. ﴾ (١٠) [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

(٣) الجب : البئر التى لم تثق بالحجارة ، قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّةٌ الجوف إذا كان وسطها أوسع شئ منها مُقَبَّبةً . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة الفجر . [لسان العرب - مادة : جيب] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيَّارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيَّارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ رَجَعَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴾ (١٥) [يوسف] أى : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَنَعَهُ لَكُمْ وَالسَّيَّارَةُ .. ﴾ (١٦) [المائدة] للمسافرين [القاموس القويم ٢٤٠/١] .

(٥) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (٢٣) [البقرة] .
[القاموس القويم ٦٤/٢ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا... ﴾ (٥) [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مجابته ، ولا يكيد إلا الضعيف : لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقال : إن كيد النساء عظيم : لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٥) [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً : لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً : عكس آدم الذي قبل الله توبته : وقد أقسم الشيطان بعزة الله لِيُغْوِيَنَّ الْكُلَّ ، واستثنى عباده المخلصين^(١) .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعانني الله على شيطاني فأسلم »^(٢) .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوة مُّبِينَةٌ^(٣) .

أي : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة :

﴿ لَا تَتَّبِعِهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

﴾ (١٧) [الاعراف]

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس العين أنه قال : ﴿ فَمِنْ تَلَكَّ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٦) إلا عبادك منهم المخلصين ﴿ (١٧) [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق » . أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

(٣) بأن الشيء بين بين بياناً : ظهر واتضح فهو بين وبين وهو بينة أي : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينية بمعنى العظم والظهور والمظهر والموضح ، وبالمعنيين يُفهم . وبين الشيء وأبان وبين واستبان : لم يُعد خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٧) [البقرة] .

[القاموس القويم ٩١/١ ، ٩٢ ، بتصرف] .

ولم يَأْتِ ذِكْرٌ للمَجْئِءِ من الفوقية أو من التحتيّة ؛ لأن مَنْ يحيى
فى عبودية تحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلاحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً
يوسف عليه السلام فى هذه الآية :

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. (٥)﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من تَضَحُّع^(١) نبوة يعقوب عليه السلام
على لسانه ؛ لأن هناك فرقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعنى
أن الشرّ المستور الذى يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى .

أما ﴿فَيَكِيدُوا^(٢) لَكَ .. (٥)﴾ [يوسف]

فتعنى أن كيدهم الذى أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ،
ويأتى بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق فى موقع آخر بنفس السورة :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أى : كدنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) أصل التَضَحُّع : الرشح ، يقال : تضحج الرجل بالعرق تضحجاً ؛ فحش به . وتضحجت العين :
فارت بالدمع وعيناه تتضحجان وتضحجت الخابية والجرة تضجع ؛ إذا كانت رقيقة فخرج الماء
من الخرف ورشجت ، [لسان العرب - مادة : تضج بتصرف] .

(٢) كاد فلاناً يكيد كيداً : خدعه ومكر به . واجتال لإسحاق الضمر به ، والكيد مصدر ويُطلق
على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكاذب لينقلب على خصمه . [القاموس القنويم

﴿وَكَذَلِكَ يَجْجِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ^(١)
وَيُفَعِّلُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلٍ يَعْشُرُ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ
مِنْ قَبْلُ إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٢)﴾

أى : كما أنسك الله بهذه الرؤيا المفرحة المنبئة بأنه سيكون
لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتجبك
ربك : لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ،
ويُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ما يجعل أصحاب الجاه والنفوذ يلتفتون
إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن
الرؤى تأتى كطلاسم ، ولها شفرة رمزية لا يقوم بحلها إلا مَنْ وهبه
الله قدرة على ذلك ؛ فهي ليست علماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات
من الله سبحانه وتعالى .

(١) اجتنب فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه ، قال تعالى : ﴿ يَجْتَنِي إِلَهُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ
مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى] . أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلفه . [القاموس القويم
١/٦١٧] .

(٢) الحديث : الكلام وجميعه أحاديث ؛ والأحاديث جمع أحذوتة ، وهى الحديث العجيب .
والحديث قد يُطلق على الرؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ . . ﴾ (١) .
[يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ . . ﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت
والهلاك ، أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدث الناس عنهم . [القاموس القويم
١/٦١٥] .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض : حين يُوجد
الجذب^(١) ، ويعم المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. (٦) ﴾ [يوسف]

فكل ما تَسْتَع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن
الله اجتباه رسولا .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. (٦) ﴾ [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً : ففي حياة يوسف منصب مهم .
هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التي يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. (٦) ﴾ [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أخراك^(٢) .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى آلٍ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف]

يُذَكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب
أن يُحوّله إلى عداوة : لأن النعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم
آل يعقوب : هم وأبناؤهم حفدة يعقوب ، وسينالهم بعض من عسر

(١) الجذب : القحط وحر تقويض الخصب ، والأرض الجدبة : التي ليس بها قليل ولا كثير ولا

مَرْكَب ولا كلا ، والأرض المجذاب : التي لا تكاد تُخْصَب . [لسان العرب - مادة : جذب] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٤٥٠) : ﴿ وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .. (٦) ﴾ [يوسف] أي :

بالنوبة ، وقيل : بإخراج إخوتك إليك ، وقيل : بإتجارك من كل مكروه ..

يوسف وجأه وماله ، كما أتمها من قبل على إبراهيم الجد الأول
ليوسف باتخاذ خليل^(١) الله ، وأتم سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة ،
وهو سبحانه أعلم بمن يستحق حمل الرسالة ، وهو الحكيم
الذي لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو المُقَدَّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً
للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ ۝٧﴾

أى : أن يوسف صار ظَرْفًا للأحداث ، لأن « فى » تدل على
الظرفية^(٢) ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظرف فيه شيء آخر ،
فكان يوسف صار ظَرْفًا ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين
فيها .

و « يوسف » اسم أعجمي ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف »
أى : ممنوع من التنوين فلا نقول : فى يوسف .

و ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ (٧)﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يكف لقدره الله سبحانه ؛ فقد ألقى
فى الجُبِّ وأنقذ ليثربى فى أرقى بيوت مصر ؛

(١) قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (٢٥)﴾ [النساء] ، وسُمى إبراهيم عليه السلام خليل
الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها ، [ابن كثير
٥٦٠/١] .

(٢) قال ابن هشام الأنصارى فى معنى اللبيب (١/١٤٤) : « فى » حرف جر له عشرة معانٍ
منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية . وقد اجتمعنا فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ
الرُّؤْيِ (٢) فِي آذُنِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ تَحْتِ عَلَيْهِمْ سَاقِبُونَ (٣)﴾ فى بضع سين .. (٢) [الروم] .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهي
تُرد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات
الكونية رصيد للنظر في الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛
فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية : لا بدُّ أن تفكر في
ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هي المعجزات الخارقة للنواميس التي يأتي
بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التي صارت
برداً^(١) وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذي انفلق وصار كالطود^(٢)
العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن
الكريم .

وفي قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ لَئِنْ أَتَوْا بِكُفْرٍ ﴾ [يوسف]

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا خَرُّوا وَسَارْوا إِلَيْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَجِيبِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا
وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : لقيض الحرارة ، قال علي
ابن أبي طالب : أي لا تضر به . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال :
﴿ رَسَلْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء] لأذى إبراهيم بردها . وقال جويبير عن الضحاك : ﴿ كُونِي بَرْدًا
وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء] قالوا : ضعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار
من كل جانب ، فأصبح ولم يصب منها شيء حتى أضجدها الله ، [انظر تفسير ابن كثير
١٨٤/٢] .

(٢) الطود : الجبل الشايت العالي . قال تعالى : ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ بَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذى كاد له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كيدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سلوى^(١) لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت قواده ؛ فلا يُعير بالآلاضطهاد قومه له ، وتأميرهم عليه ، ورغبتهم فى نفيه إلى الشام ، ومحاولتهم قتله ، ومحاولتهم مقاطعة ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون فى ظلال كنفه .

إذن : فلا تياس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطىء نصر الله ، أنت ومن معك ، كما جاء فى القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ ﴾^(٢) وَالضُّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذى أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التى رآها يوسف عليه السلام .

ويقال : إن رؤيا يوسف تحققت فى فترة زمنية تتراوح بين

(١) سلوى من معنى تسليية وإسلانى أى كشفه عنى . وأنسلى عنى ألهم وتسلنى بمعنى أى : انكشف . [لسان العرب - مادة : سلا] .

(٢) اليأساء : الفقر والشدة ، قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْيَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة ، والضراء : طول العرض أو أى شدة أو نقص الاموال والانس ، وذلك مؤلم محزن وهو ضد السواء . [القاموس القويم ٥٢/١ ، ٢٩٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً^(١) .

ولذلك نجد رؤيا الخير يطول أمدُ تصديقها ؛ ورؤيا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهي ، لأنها لو ظلت دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسةً تخيل الشر بكل صورته .

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله متخيلاً لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتأويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ^(٢) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ^(٣) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

- (١) قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه . . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير في تفسيره (١٩١/٢) .
- (٢) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو مسحاه . وإزاله . وطمس عينه : أعماهها . وطمس على عينه : أعماهها مضممة معني ظلم . وغشى عليها : قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ^(٤) . . ﴾ [يس] . (القاموس القويم ٤٠٦/١ باختصار) .
- (٣) شده : قواه . وشد الحبل : ربطه ربطاً مُحْكماً . وشد أسرته : قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يقلت منه أبداً . أي : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَخَدَدْنَا أَمْرَهُمْ^(٥) . . ﴾ [الإنسان] أي : أحكمنا وثاقهم وسيطرتنا عليهم . وقوله : ﴿ وَخَدَدْنَا مَلَكَهُ^(٦) . . ﴾ [ص] أي : قويناه . [القاموس القويم ٢٤٢/١ ، ٢٤٤ بنصرف] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ (٧)﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان في يوسف وإخوته آية للسائلين »
أى : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن مثلاً على جمع الأكثر من آية في
آية واحدة ، مثلما قال : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً (٥٠)﴾ [المؤمنون]
مع أن كلا منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل
اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه في آخر هذه الآية أن القصة : ﴿آيَاتُ
لِلْسَّائِلِينَ (٧)﴾ [يوسف]

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرّضهم اليهود^(١) على أن

(١) أى : أنه سبحانه جعلهما آية للناس ، أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق
أدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ،
وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (٢١٦/٢) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢١٥٠/٤) : « أى : لقد كان للذين سألوا عن خير يوسف آية
فيما خبروا به ، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبره عن رجل من الأنبياء كان
بالشام أخرج أبنته إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل
الكتاب . ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وجّه اليهود من المدينة يسألون عن هذا - فأنزل
الله عز وجل سورة يوسف ، فجعله واحدة ، فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة ،
فكان ذلك آية للنبي ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت » .

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العِزَّ من الأمم السابقة ، وجاء الوحي لينزل على الرسول الأُمِّيُّ يَتْلُكَ السُّورَةَ بِالْأَدَاءِ الرَّفِيعِ الْمُعْجَزِ الَّذِي لَا يَقْوَى عَلَيْهِ بَشَرٌ .

وأنت حين تقرأ السورة ؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة ، هات أنت أيُّ إنسانٍ ليتكلم ثلث ساعة ، ويظل حافِظًا لما قاله ؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك ؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾

[الأعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أنزل إليه من ربه ، ويُعلمه على صحابته ويصلى بهم ؛ ويقرأ في الصلاة ما أنزل عليه ، ورغم أن في القرآن آيات متشابهات ؛ إلا أنه ﷺ لم يخطئه مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾

[القمان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٢) ﴾

[الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

(١) عزم الأمر : من المجاز أي نفذ بعزيمة قوية من صاحبه ؛ قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ (١٠٠) ﴾ [محمد] فعل لازم أي : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ (١٢٧) ﴾ [البقرة] أي : عاقبوا النية على إتمامه . وقال تعالى : ﴿ لِأَنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٧) ﴾ [آل عمران] أي : من الأمور الجادة الرشيدة التي لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التي يفعلها أصحاب العزم القوي . [القاموس القويم ٢ / ٢٠] .

[الحجر]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥)

وفي موقع آخر يقول الحق :

[الطور]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (١٧)

فكيف يتأتى لبشر أُمِّيٍّ أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذي أنزل عليه الوحي قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبَةٌ﴾^(١)
 ﴿إِنَّ أَبَانَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢)

ولا بُدَّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها : فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً : وقد تكون من ناحية الأب دون الأم ، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثناً^(٣)

(١) العصبية : الجماعة المترابطة . قال تعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿وَنَحْنُ غَضَبَةٌ﴾ (٤٥) [يوسف] . عصبه : ربطه ربطاً شديداً . وقوله : ﴿هَذَا يَوْمُ عَصِيبٍ﴾ (٤٦) [هود] أي : شديد العَصَبِ بعصب الناس ويُضَيَّقُ عليهم أو شديد الحر . شديد الهول : [القاموس القويم ٢٢/٢] .

(٢) الضلال : التسيب والتضياع . وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأولى كقوله في قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٥) [يوسف] أي : شدة تغلُّبك بيوسف وحزنك عليه فهو في نظرهم ضلال . [القاموس القويم : ٢٩٥/١] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٥١/٤) : « أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون وأوى ويهوذا وزبالون ويساخر ، وأسمهم ليا بنت لبيان ، وهي بنت خاتل يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر : دان ونفثالي وجاد وأشر ، ثم توفيت ليا فتزوَّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً . قال السهيلي : أم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين . وقيل : في اسم الأمتين ليا ، ولنا ، كانت إحداهما لراحيل والأخرى لأختها ليا . »

عشر : سبعة من واحدة ؛ وأربعة من اثنتين : زلفى وبلهه : واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها :

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا... ﴾ (٨) [يوسف]

وحرف اللام الذي سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حبِّه لنا . والتوكيد لا يأتي إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون في أمر يوسف عليه السلام ؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه في الجب^(١) ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفي قولهم لَمَحَّة من إنصاف : فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعض من غفلة البشر ؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حب أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صِغَارًا وماتت أمهما^(٢) ؛ ولم يَعْذْ لهم إلا الأب الذي أحسن بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنان الأب وحنان الأم ؛ ولأنهما صِغَارٌ نجد الأب يحنو عليهما بما أودعه الله في قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخَلَ ليعقوب فيه ؛ بل هي مسألة إلهية أودعها الله

(١) الجب : البئر التي لم تُبْنِ بالحجارة . قال اللئيم : هي البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّة الجوف إذا كان وسطها أوسع شيء منها مُقْبِيَّة . [لسان العرب - مادة : جيب] .

(٢) ماتت أمهما راحيل في نفس بنيامين . ذكره القرطبي في تفسيره .

فى القلوب بدون اختيار ؛ ويودعها سبحانه حتى فى قلوب
الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة -
على سبيل المثال - إن اقترب أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛
تهجم على هذا الذى اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربى القديم قد أجاب على مَنْ سألَه « أى أبناؤك
أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ،
والمرضى حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها فى حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ،
واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر
يعيش على الكفاف^(١) أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع
الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛
ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه
يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية^(٢) ؛ فأحب مَنْ شئتَ
وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم
مَنْ أبغضت .

(١) الكفاف : أى ليس فى نفقته فضل إنما عقده ما يكفه عن الناس . قال الجوهري : كفاف
الشئ بالفتح مثله وقيسه . والكفاف أيضاً من الرزق : القوت وهو ما كفَّ عن الناس أى
أغنى فهو لا يفضل عن الشئ ويكون بقدر الحاجة إليه . [لسان العرب - مادة : كف] .

(٢) الطبع والطبيعة : الخلقة والسجية التى جبل عليها الإنسان . والطباع : كالطبيعة ، مؤنثه
[لسان العرب - مادة : طبع] .

اقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(١)نُ^(٢) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ^(٣)﴾ [المائدة]

فأحبب من شئت ، وأبغض من شئت ، ولكن لا تقلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

نقول : اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث : فقد قال عمر رضي الله عنه - بوضوحه وصراحته وجراءته : دون تفاسيق - : أحبك يا رسول الله عن مسالي وعن زلدي أما عن نفسي : فلا . فكرر النبي ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »^(٤) .

(١) جرم الشيء : جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم : أجنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أي وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجرم . قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(٢)نُ^(٣) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة] أي : لا يجلبنكم بغض قوم على عدم العدل . أي : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أي : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) شناة وشنته شنتا وشناة وشناتاً : أبغضه وكرمه قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(٣)نُ^(٢) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة] وشانته : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الکوثر] أي : مبغضك وكارهك . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

(٣) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال : والله يا رسول الله ، لانت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . قال : فانت الآن والله أحب إلي من نفسي . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر ، أخرجني أحمدا في مسنده (٤/٢٢٦) » .

فقطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدي وتكليفى ؛
وفهم أن المطلوب هو حبُّ العقل ؛ لا حبُّ العاطفة .

وحبُّ العقل - كما نعلم - هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما
تأخذ الدواء المرُّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبِّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن
يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجيء
رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى^(١) المسلم فى حبِّ
رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا
الخطوط الفاصلة بين مبادئ الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛
حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال وأحد ممن
يجلسون معه ؛ هذا قاتل أخيك ؛ فقال عمر ؛ وماذا أفعل به وقد هداه
الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً ؛
لماذا تزوى وجهك عني ؟ قال عمر ؛ لأنى لا أحبك ، فانت قاتلُ
أخى ، فقال الرجل ؛ أو يمنعني عدم حبك لى من أى حق من
حقوقى ؟ قال عمر ؛ لا ، فقال الرجل ؛ « لك أن تحب من تريد ،
وتكره من تريد ، ولا يبكى على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والداهم ليوسف

(١) التسمير ؛ الارتفاع والعلو ، سما الشيء يسمو سماءً ؛ ارتفع . وتساموا ؛ تباروا .
وتساميها ؛ تباريها وتفاخرها . والتسامى ؛ الرُفعة والارتقاء . [لسان العرب - مادة ؛
سما] بتصرف .

وأخيه هو انفعال طبيعي لا يُؤاخذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛
ولسائل أن يسأل : ولماذا انصبَّ غضبهم على يوسف وحده ؟

ويُقال : إنهم لم يرغبوا أن يَفْجَعُوا^(١) أباهم في الاثنين - يوسف وأخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۚ ﴾ (٨) [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المُتَكَاتِفُونَ
الْمُتَعَصِّبُونَ لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون
الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوه ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب
أن يَخْصُنَا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبَةٌ ، وهذا ما
جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ،
ولكنهم سددوا^(٢) في غيِّهم^(٣) ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهي
قولهم :

(١) الفجعة : الرزية الموحدة . فجعت المصيبة ؛ أوجعته . والفواجع : المصائب المؤلمة التي
تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم ، الواحدة فاجعة ، [لسان العرب - مادة :
فجع] .

(٢) السدّز : المتحير ، وهو أيضاً الذي لا يهتم بشيء ولا يبالي ما صنع . [لسان العرب -
مادة : سدر] .

(٣) الغيُّ : الضلال والخسيرة . غوى : هَلَ . والغواية : الانهماك في الغيِّ . والغوى : شديد
الضلالة والغواية ، واغواء : أضله وأوقعه في الغيِّ والضلال ، [القاموس القويم ٦٤/٢] .

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) [يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه
طفلان ماتت أمهما ، ولا بد أن يعطف عليهما الأب ؛ وحبّه لهما لم
يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) [يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .
نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق
الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشى فيسلك
طريقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل من ينسى شيئاً من الحق .

وسبحانه القائل :

﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .. ﴾ (٢٨٢) [البقرة]

وسبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ (٧) [الضحى]

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى
الضلال .

ومكنا خطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حبّ أبيهم ليوسف

وأخيه : ووصلوا إلى نتيجة ضارة : لأن المقدمات التي أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة : ولو أنهم مَحَصُّوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمَا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التي قالوها :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) . [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على السنة إخوة يوسف :

﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩)

والقتل هو قمة ما فكروا فيه من شر : ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل : فقالوا : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٩) [يوسف]

فكانهم خافوا من إثم القتل : وظنُّوا بذلك أنهم سينقردون بحب أبيهم : لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

والوجه هو الذي تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود بـ : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف]

(١) طرح الشيء و طرح به : رماه . والمُرحَ بالتحريك : البُعد والمكان البعيد . قال تعالى : ﴿ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴾ (٩) [يوسف] أى : ألغوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ٢١٩/١] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشغل عنه غيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف :

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴾ (٩) [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ويتجه إليكم بكل عنايته ولا يشغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يُقدِّرون الصلاح : ويعترفون أن الذى فُكِّروا فيه غيرُ مقبول بموازين الصلاح : لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نُسُوا أن أمر الموت قد أبهم حتى لا يرتكب أحدُ المعاصي والكبائر .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنقيص^(١) علاقتهم بابيهم : فحين يخلو لهم وجهه : سيرتاحون إلى أن أباهم سيفعل بينهم ، ويهيئهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءاً من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً : فسيرتاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

(١) التنقيص : كدَّرَ العيش .. وقد نقص عليه عيشه تنقيصاً أى : كثره . ونقص علينا أى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه . وكل من قطع شيئاً معاً يجب الاذتياد منه فهو مُنْقِص . [لسان العرب - مادة : نقص] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ^(١)
يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ^(٢) ﴾

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ القتل . واستبدله بالإخفاء بالقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القاتل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى ^(٣) : ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت : وقد يأتى الردم فيسدُّ البئر : ولذلك يبنون حول فُوَّه البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الردم : ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه في البئر في حالة استتراق .

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستقر ما اختبأ فيه : قال تعالى : ﴿ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَةِ الْجُبِّ .. ﴾ [يوسف] وقرئ غيابات بالجمع . [القاموس القويم ٦٥/٢] وغيابة كل شيء : قعره ، ووقعوا في غيابة عن الأرض . أي : في منهبط منها . [لسان العرب - مادة : غيب] .

(٢) السيار : الكثير السير - والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴾ [يوسف] . وقوله : ﴿ طَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ﴾ [الفائدة] أي : للمسافرين . [القاموس القويم ٢٤٠/١] .

(٣) الطوى : البئر المطوية بالحجارة . يقال : طوى الركية ظيًّا : عرشها بالحجارة والأجر . [لسان العرب - مادة : طوى] .

[يوسف]

وكلمة : ﴿ غَيَابَةُ الْجَبِّ (١٠) ﴾

أى : المنطقة المَخْفِيَّة في البئر : وعادة ما تكون فوق الماء : وما فيها يكون غائبا عن العيون .

ولسائل ان يقول : وكيف يتأتى إلقاؤه في مكان مَخْفِيٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ (١١) ﴾ [يوسف]

ونقول : إن في مثل هذا القول تنزيلا لدرجة الشر التي كانت مُتَوَقَّدة في اقتراح بعضهم بقتل يوسف : وفي هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضا .

وبعد ذلك عاد القاتل^(١) لحالته العادية ، وصَحَّت فيه عاطفة الاخوة : وقال :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٢) ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تَمَّتْ تصفية هذه المسألة : فلم يقف صاحب هذا الرأي بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرَحِه في الأرض : بل أخذ يستدرجهم ليستلّ منهم ثورة الغضب : فلم يَقُلْ لهم « لا نقتلوه » ، ولكنه قال : « لا تقتلوا يوسف » .

وفي نُطْقِه للاسم تحنين لهم .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٥٢/٤) : « القاتل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب . قاله

ابن عباس ، وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته ، وقيل : شمعون » .

ويضيف :

﴿وَالْقُوَّةَ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهَا^(١) بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾

[يوسف]

وكانه يامل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصِصُونَ (١١)﴾

وبعد أن رافقوا أخاهم الذي خَفَّفَ من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء في الجب : بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجِّهًا الكلام لأبيه : وفي حضور كل الإخوة :

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ .. (١١)﴾

[يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة : فاعلم أن واحداً منهم هو الذي قال ، وأمنَ الباقيون على كلامه : إما سُكُوتًا أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

(١) النقط الشيء ولقطه : أخذه ليصونه أو لفرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعاً ، قال تعالى : ﴿وَالنَّقْطَةُ آلَ لِرَعُونَ .. (٢٠)﴾ [القصص] فأخذه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿يَلْتَقِطُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠)﴾ [يوسف] يأخذه بعض المسافرين لينتفعوا به وليصنوه . [القاموس المفيد ١٩٨/٢] .

قال موسى عليه السلام :

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ^(١) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

ورد الحق سبحانه على دعاء موسى :

﴿فَدُ اجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس]

والذي دعا هو موسى ، والذي آمن على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذي قال :

﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التي وردت في الآية التي نحن بصدد خوطارنا عنها ،
هو واحد من إخوة يوسف ، وأمن بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)﴾ [يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم في ذلك ، ولم يوافقهم
الأب .

(١) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انجى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو محاه وإزاله .
وطمس عينه : أعماه . وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨)﴾ [يونس] أي : أزل
عليها ما يحموها ويهلكها . [القاموس القويم ٤٠٦/١] .

(٢) شد العبل : ربطه ربطاً محكماً وشد السر : قوى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً .
أي أحكم السيطرة عليه . ﴿وَشَدَدْنَا أَمْرَهُمْ .. (٩٨)﴾ [الإنسان] . أي : أحكمنا وثاقهم
وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٩٩)﴾ [ص] أي : قوينا . وقوله : ﴿وَاشْدُدْ عَلَى
قُلُوبِهِمْ .. (٨٨)﴾ [يونس] أي : أحكم القبطاء وأربطه بقوة على قلوبهم وهو دعاء عليهم .
[القاموس القويم ٣٤٤/١] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ (١١)

[يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، وإن يحدث له ضرر أو شر ؛
وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عرض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ ﴾ (١٢)

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا
بعلة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان
الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحِب ومسموح به ؛ لأنه ما زال
تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفضل الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُ مستقبلاً ؛
كأن يتعلم الطفل السباحة ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى
الرماية^(١) وهكذا نفهم معنى اللعب ؛ إنه شُغْل لا يُلْهِى عن واجب ، أما
اللهو^(٢) فهو شُغْل يُلْهِى عن واجب .

(١) رتج يوتج : أكل وشرب كنا يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستجار
للإنسان إذا أطلق لشهوات بطنه العنان . [القاموس القويم ٢٥٤/١] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من التمر ﷺ ينقر يرمون ، فقال : رمياً بنى
إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » أخرجه أحمد فى مسلم (٣٦٤/١) وأخرجه البخارى فى
صحيحه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بشواه .

(٣) لها يلهو لهواً : تسلى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها . أو تسلى بما لا يفيد . قال
تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ ﴾ (١٠) [الجمعة] واللهو هنا : الغناء والطبل
والزمر الذى كان يصاحب عودة التجار وقت الصلاة . [القاموس القويم ٢٠٥/٢] .

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يُؤذّن المؤذن ؛ يأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة في ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لصار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ
الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٢)

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التي يخاف فيها من فراق يوسف لقلّة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهي :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

وقال بعض الناس^(١) : لقد علّمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلاحظ أن يعقوب جعل للأخوة لحظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) [يوسف]

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤٧٠ / ٢) : « أخذوا من فمّه هذه الكلمة وجعلوها عذراً فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطي في « الدر المنثور » (٥١٠ / ٤) أثراً في هذا الشأن ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفي في الطيوريات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقوا الناس فيكذبوا » . إن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوه كذبوا فقالوا آكله الذئب . »

وهذا ليربِّيَ فيهم مواجيد الأخوة التي تفترض ألا يتصرفوا مع أخيهام بشرّاً ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرّاً إلا إذا غفلوا عن أخيهام .

ونلاحظ في ردِّهم عجزهم عن أن يردوا على قوله :

﴿ إِنِّي لَحَزَنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على يوسف ، وردّوا فقط على خوفه من أن يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما قالوه :

﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) ﴾

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم : كي يأتوا في خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم مُحِيطُونَ به كعُصْبَةٍ ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٦٢/٤) : . قوله ﴿ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ (١٤) ﴾ [يوسف] أي : إنا لخاسرون في حفظ أغنامنا ، أي : إنا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعمى أن ندفعه عن أغنامنا .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ فَنَسُوا مَا فِي الْأَنْجُبِ ۚ وَاجْتَمَعُوا فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥﴾

وقوله الحق :

﴿ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ ۚ ۝١٥﴾ [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذت منهم مناقشة ، فيها أخذ ورد ، إلى أن استقروا عليها^(١) .

والهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحى كما نعلم هو إعلام بخفاء .

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام يعد أن تولى الوزارة فى مصر ودخلوا عليه أمسك بقدرج ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدرج : إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا^(٢) .

(١) جمع أمره : عزم عليه أو أحكمه . قال تعالى : ﴿ قَوْلِي فَرْعَوْنَ فَمَجَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَنَّى ۝١٥﴾ [طه] أى : عزم عليه وأحكمه : واجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . واجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّوَفَّاهُ ۝١٥﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ ۚ ۝١٥﴾ [يوسف] أى : اتفقوا . [القاموس القويم ١ / ١٢٧] .

(٢) ذكر القرطبي فى هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم سيثاقاً غليظاً ليحفظنه . وسلمه إلى دوييل وقال : يا دوييل إنه صنير وتعلم يا بنى شفقتى عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فأسقاه ، وإن أعيا فأحمله ، ثم عجل برده إلي . قال : فآخذوه يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعة آخر [انظر : تفسير القرطبي ٤ / ٣٤٦٢] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون . جيء بالضواع فوضعه على يده . ثم نقره فطن فقال : إني ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، يدين دينكم وأنكم انظفتم به فالتقيتموه فى غيبة الجب ، فأتيتكم أباكم فظلمتم : إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره خبركم . (أورده السيوطي فى الدر المنثور ٤ / ٥٦١)

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَلْحَظْ إخوته هذا الوحي .

ونقول : إن الوحي إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير الموحى إليه ، وعلى ذلك ترى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة في مصر : بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم : لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ^(١) أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ .. (٧٧)﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحي في هذه الآية - التي نحن بصدد خواطرنّا عنها - هو إيناس الوحشة : وهو وارد إلهي لا يرده وارد الشيطان : والإلهام وارد بالنسبة لمن هم غير أنبياء : مثلما أوضحنا الأمر الذي حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه في اليم^(٢) .

(١) يقصدون يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجند أبي أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء - فيما بلغني - أن عمته ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا ينوارثونها بالكبر وكان من اختيارها ممن وليها كان له سلم لا ينزل فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به ركة فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا فرجع وبلغ سنوات نأقت إليه نفس يعقوب فأتاها فقال : يا أخية سلمى إليّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة قالت : فوالله ما أنا بتأزكته ثم قالت : قدعته عندي أباماً أنظر إليه وأسكن عته لعل ذلك يسليني عنه أن كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : فسدت منطقة إسحاق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتصمت ثم قالت : اكتشفوا أهل البيت فكتشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت . فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما استطيع غير ذلك . فامسكت فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، راجع تفسير ابن كثير ٤٨٦/٢ .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٢٥) أَنْ اقْنِصِي فِي الصُّبُورِ فَأَقْنِيهِ فِي الْيَمِّ فَلَقِيَهِ الْيَمُّ بِالسَّاجِدِ .. (٢٦)﴾ [طه] .

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦٨٨١﴾

والوارد الإلهي لا يجد له معارضة في النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنسُ وحشته^(١) حين ألقاه إخوته في الجُب الذي ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقة لبلده التي درج^(٢) فيها وأُنسه بالبيئة التي اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطينه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوَةً لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهم من الذي كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك - وهم إخوتك - سوف يُضطَّرون لدق بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُب الذي ألقوه فيه ، وبقي أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداءً دقيقاً مغيراً عن الانفعالات التي توجد في النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا

(١) ومما ورد في هذا ما نقله القرطبي في تفسيره (٣٤٦٥/٤) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجب فقال له : ألا أظلمك كلمات إذا أنت قلتهم عجل الله لك خروجك من هذا الجب » فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملا ، ويا مفرج كل كرب ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد . ايتني بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددها يوسف في ليلته مراراً ، فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الجب » .

(٢) يقال للنحس إذا ذَبَّ وأخذ في الحركة : درج ، ودرج الشيخ والصبى يدرج فهو دارج ، مشياً مشياً ضعيفاً ودُجاً ، [لسان العرب - مادة : درج] .

بأخيهم ، وأخذوه بالقوة في الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ،
وكان ضنيناً^(١) أن ياتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبت :
تؤخر اللقاء لأبيننا إلى العشاء : والعشاء محلُّ الظلمة ، وهو ستر
للانفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب : ومن مناقضة
كذب السنتهم : لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث : بل بحديث
مُخْتَلَق^(٢) .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتكشف سيماهم
الكاذبة أمام أبيهم : فقالوا : الليل أخفى للوجه من النهار ، وأستر
للفضائح : وحين ندخل على أبينا عشاءً : فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الطرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَتَكُونُ ﴾ (١٦)

[يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى نظرى : ليس للإنسان فيه مجال
اختيار : ومن يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُكَ عينيه ، أو يأتى
ببعض ريقه ويُقَرِّبُه من عينيه ، ولا يستتر ذلك إلا أن يكون الضوء

(١) ضننت بالشئ : أضن : بخلت به ، وهو ضنين به .. ورجل ضنين : بخيل ، والحنكة
والفسن : الإمساك والبخل . وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَرَّ عَلَى الْقَيْبِ بِضَنينَ ﴾ (٢١) [التكوين] فهو
لا يكتم شيئاً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [راجع لسان
العرب ، والقاموس اللغوي] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلقه واختلقه واقتراه : اجتدعه ، الاختلاق : الكذب ، وهو افتعال
من الخلق والإبداع كان الكاذب تَخْلُقُ قوله . [لسان العرب - مادة : خلق]

خافتا ؛ لذلك جاءوا آباهم عشاء يُمُتُّون البكاء^(١) .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التي أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذى يميت ويحيى ، وهو الذى يضحك ويبكى .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم]

ولا يوجد فرق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزي وآخر عربى ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صينى وآخر عربى أو فرنسى ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضحك ؛ وإذا ما افعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفعل الضحك أو البكاء . والذى يفضح كل ذلك هو التهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل فى سيدتنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ لليبائعه ، ولم يبقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٦٦/٤) : ، قال علماءنا : هذه الآية دليل على أن بكاء

المرء لا يدل على صدق مقالته ، لاحتمال أن يكون نصنعاً . فمن الخلق من يقدر على ذلك .

ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يقضى ، كما قال جكيم :

إذا اشتبكت دموع فى حدود نبين من بكى ممن تبكى .

نفسه : وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمن شاء فليذهب واطركوني » ^(١) .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم قُورَ أن دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا

صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ .. ﴾ (١٧) [يوسف]

تعبير عن بيان تفوق ذات على ذات في حركة ما : لنرى من

(١) ذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أدت له فدان القوم إنما يريدونني ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه حجلاً ، لياخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا قسي بسيف الأرض في سواد هذا الليل إلى بلادكم ومداذكهم فإن القسم إنما يريدونني ، فلو قد أصابوني لهُوا عن طلب غيري ، فانهبوا حتى يفرج الله عز رجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا في الجري نحوه للوصول إليه . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. ﴾ (١٧) [يوسف] أي : نتبارى في الجري والسبق . ﴿ وَاسْتَبَقَا الْآيَاتِ .. ﴾ (١٨) [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (البقرة) تباروا في الوصول إليها أو قطعها قبل غيركم . [الفاموس القويم ٢٠٢/١] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان في الجرى ترى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق في حركة بالة ؛ كان يمسك إنسان ببندقية ويصوبها إلى الهدف ؛ ويأتي آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومن سبق منهما في إصابة الهدف يكون هو المتفوق في هذا المجال .

وقد يكون الاستباق في الرمي بالسهم ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غصن مرن ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومثبت عليه وتر ، ويوضع السهم في منتصف الوتر ، ليشده الرامي فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقاس دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمي ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف» .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التي يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامي .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك جلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لعبة لا تلهيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يجد من أمور ؛ فإذا التقى بعدر نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب^(١) الذي لا ينتهي عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لعب حلال .

(١) اللعب قد يكون مضموناً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة . أما إذا كان اللعب قد يلهي الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، والله لا يكون إلا مذكوماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عدوان : وبينهما قبلة موقوتة : ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر في محاولة كل فريق في إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يلهى لعب الكرة عن واجب : فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يراعوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وابناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ^(١٧) .. ﴾ [يوسف]

وفي هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذي أذن بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسَلْنَاهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ .. ^(١٢) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ^(١١) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ^(١٢) ﴾ [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة : وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدرًا ويجمع على امتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ إِبْطَاءَ حَيَاتِهِ أَوْ مَتَاعٍ .. ^(١٧) ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء ينتفع بها . وقال تعالى : ﴿ رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلَبُونَ عَنْ آلِهَتِكُمْ وَأَتَيْتُكُمْ .. ^(٢١) ﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأنوات للحرب ومال ونحو ذلك . [القاموس القويم ٢١٥/٢] ..

وهذا أول الكذب الذي كذبوه ؛ وهذه أول مخالفة لشرط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن «المريب يكاد يقول خذوني » نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١٧) [يوسف]

أو : أنهم قالوا ذلك لأنهم يعلمون أن والدهم لن يُصدقهم مهما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل « آمنه الله من الجوع » ، أو قوله الحق :

﴿ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) [فريش]

أو : تجيء بالياء ، ويقال « آمن به » أى : صدق واعتقد .

أو : يقال « آمن له » أى : صدقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتَحَدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليذاروا كذبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ۚ

عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(١) القميص : ما يحيط بالبدن وقد يُسمَّى شعاراً وما فوقه دثار ، وقد يُسمَّى كل ثوب قميصاً ، والجمع قمصاة وقمصان وقمصان . [القاموس الغويوم ١٢٢/٢] .

(٢) • قال مجاهد : كان دم سخلة أو جدى ذبحوه ، وقال قتادة : كان دم ظبية ، أى : جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه . وفرد الحسن وعائشة : • بدم كذب ، بالدال غير المعجمة ، أى : دم طري ، وحكى أنه المتغير ، قاله الشعبي ، (تفسير القرطبي ٢٤٧١/٤) .

(٣) سولت نفسه له أمراً : زينته له ليفعله ، وسول له الشيطان : اغراه . والنسويل : تحسين الشيء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله ، أو يقوله ، [لسان العرب - مادة : سول] .

كَانَ قَمِيصَ يَوْسُفَ كَانَ مَعَهُمْ . وَيُقَالُ : إِنَّ يَعْقُوبَ عَلَّقَ عَلَى
مَجِيءِ الْقَمِيصِ وَعَلَيْهِ الدَّمُ الْكَذِبَ بِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ رَحِيمًا ، فَأَكَلَ لَحْمَ
يُوسُفَ وَلَمْ يُمَزَّقْ قَمِيصُهُ ؛ وَكَأَنَّهُ قَدْ عَرَفَ أَنَّ هُنَاكَ مَوَامِرَةً
سَيَكْشِفُهَا اللَّهُ لَهُ ^(١) .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفى أواسط السورة ^(٢) تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شقَّ
من دُبُرٍ لحظة أن جذبته امرأة العزيز لتراوده ^(٣) عن نفسه .

وفى آخر السورة ^(٤) يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد
بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء :
والمثل هو قول الناس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية

(١) نقل القرطبي في تفسيره (٢٤٧١/٤) ، أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم
يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذنب حكيماً
ياكل يوسف ولا يخرق القميص . قاله ابن عباس وغيره .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْفَتُنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنَّ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلُ
فَصَدَّقَتْ وَهَرَمَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَأَنَّ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهَرَمَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٧) [يوسف] .

(٣) رآوده على الشيء : مرأوده : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَوْدَتْهُ
الَّتِي هُوَ لِي بِنْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ .. ﴾ (٢٨) [يوسف] أى : طلبت منه نفسه في محاولة ومخادعة .
[القاموس القويم ٢٨١/١ بتصريف] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ
عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. ﴾ (٢٩) [يوسف] .

رضى الله عنه أن معاوية أمسك قميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من على ، فقليل «قميص عثمان» رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من على بن أبي طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (١٨) . [يوسف]

وكان القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب من جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصدري للمبالغة ؛ وكان الدم نفسه هو الذى كذب ؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك ان تصف إنساناً بقولك « فلان عدل » أى : كان العدل تجسّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شر » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يوصف الدم بأنه دم صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد تشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

(١) هذا أسلوب الإعجاز البلاغى ، وفيه إشارة إلى قضية ملققة .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكن أنيابه قد مزقت القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم : أشار أحدهم خفية للباقيين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوج لقميصه من دمه ^(١) ؛ وهذا ما تقوله كتب السير .

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة ^(٢) التي يتحلى بها أي محقق في قضية قتل ؛ حين يُقلب أسئلته للمستهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » ^(٣) .

ويأتي هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (٦٨)

[يوسف]

« والسَّوَّلُ » : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢/٤٧٢) محاولات أبناء يعقوب تيرير ما حدث وانكشف أمرهم أمام أبيهم لفراسته فقال : « روى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاختلعت قولهم ، فاتهمهم . فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يلفس إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟ » .

(٢) الفراسة : في النظر والتثبت والتأمل للشيء ، والبصيرة به ولهما معنيان قالهما ابن الأثير : أحدهما : ما يؤمنه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس .

الثاني : نوع يُتعلَّم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق ، فتُعرف به أحوال الناس ، نقله ابن منظور في [لسان العرب - مادة : فرس] .

(٣) الذكر : الحفظ للشيء تذكيره ، ورجل ذكير : جيد الذكر والحفظ ، والذكر والذكور : تقيض النسيان ، والتذكر : تذكر ما أنسيته ، [لسان العرب - مادة : ذكر] .

مشدودة : ثم يحب أن يسترخى ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد في نفسه شيئاً من اليسر في بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلْتُ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

هنا بمعنى يسَّرت وسهَّلت ، وما دامت قد سَوَّلْتُ لكم أنفسكم هذا الامر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ قَصِيرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطياذ خطأ في القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ » .

نقول : هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه « اصبر عن كذا » إذا كان الأمر عن شهوة قد تُورث إيلاًماً : كأن يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر على كذا » إذا كان الصبر فيه إيلاًماً لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَأَهْجُرْهُمْ ^(١) هَجْرًا جَمِيلًا (١٩) ﴾ [المزمل]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب في القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله وفهمه : وقد بسَّين لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [يوسف]

(١) هجره بهجره هجراً ومجرناً : تركه مع سخط وغور . قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٢٠) ﴾ [المدثر] أي : اترك الرجز كله تافراً منه كارهاً له . وهذا الامر بالنسبة للرسول ﷺ معناه : اثبت على هجره لأنه لم يفعل رجراً . وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (٢٠) ﴾ [المزمل] أي : اتركهم وابعد عنهم في سماحة بغير إيذاء . [القاموس المزيّن ٢٩٨/٢] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للرب ؛ وشكوى من قدر الرب .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ^(١) .. (١٨) ﴾ [يوسف]

ويتبعها :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

كان الصبر الجميل أمر شاق على النفس البشرية ، ولم يكن يعقوب قادراً على أن يُصدّق ما قاله أبنائوه له ؛ فكيف يُصدّق الكذب ؟ كيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبنائوه ؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أقولُ لنفسي تأساء وتعزيةً إحدى يدي أصابثني ولم تُردِ
كلامُما خلف عن فقدٍ صاحبه هذا أخي حين ادعوه وذا ولدي
ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة ؛ لأن من يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ على خلق الله ؛ ولا بد أن يفرع فيها الإنسان إلى الله ؛ ولذلك علّمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة ^(٢) ؛ وحزبه أمر

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ؛ والتفويض لمن بيده الأمر ؛ من مفهوم خواطر الإمام .

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) وأبو داود في سننه (١٢١٩) .

ما يعنى : أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان : فيلجأ إلى
المُسَيِّب الأعلى : ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعنى : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون
شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ ^(١) أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ .. ﴾
(١١٦) [النحل]

أى : أن ألسنتكم نفسها تصِفُ الكلام أنه كذب .
والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) [الصافات]

وتعنى أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما
قالوا : وكان مصير كذبهم مقضوحاً .

﴿ فَصَبِّرْ جَمِيلٌ ^(٢) وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨١) [يوسف]

وهكذا عيَّر يعقوب عليه السلام عن نفسه : فأنجوارح قد تكون
ساكنة : لكن القلب قد يزدحم بالهموم ويفتقد السكون : لذلك لا بد
من الاستعانة بالله .

(١) وصف الامر : ذكره وعرقه ونجسته به . قال تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ .. ﴾ (١١٦) [النحل] أى : تذكره وتقول به . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) [الصافات] أى : من الوصف الذى يصفونه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو غير ذلك .
وقال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .. ﴾ (١٢٩) [الأنعام] . أى : جزاء وصفهم وعقابه :
[القاموس القويم ٢/ ٣٢٩] .

(٢) الجمال : البهاء والحسن برصف به الحسى والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبِّرْ جَمِيلٌ .. ﴾ (١٨١) [يوسف] وهو جمال معنوى ، وقوله : ﴿ قَامِصَ الصَّغْحِ الْجَمِيلِ ﴾ (٨٥) [الحجر] الذى لا لوم
معه ولا عتاب . والسراج الجميل : الطلاق المنحوب بالإحسان إلى المطلقة ومنحها حقوقها
كاملة وبغير إيذاء ، وقوله : ﴿ وَأَمْجَرَهُمْ مَجْزَاً جَمِيلاً ﴾ (٥٧) [المرسل] لا إيذاء فيه بقول أو عمل .
[القاموس القويم ١/ ١٢٨] .

وقد علمنا الحق سبحانه أن نقول في فاتحة الكتاب :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)

[الفاتحة]

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة
أثناء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بخالقك لتخلص في عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتي
لموقف يوسف عليه السلام في الجُب .

يقول سبحانه :

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ
يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ وَاثَلَةٍ وَيَوْمَ نَحْمِلُوهَ

بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ فِي الْمِيزَانِ﴾ (١١)

(١) السبارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (١١)﴾ [يوسف] أي :
جماعة مسافرة . وقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [العائدة] للمسافرين . [القاموس
القيوم ١/ ٣٤٠] .

(٢) وردت الماء إذا حضرته لثضرب ، والورد : الماء الذي ترد عليه ، والواردة : وراد الماء .
والورد : الوراد وهم الذين يربون الحياء . [لسان العرب - مادة : ورد] . ورد الماء :
قصده وبلغه ووصل إليه .

(٣) ادلولو : الوعاء الذي يخرج الماء من البئر وتحويه . قال تعالى : ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ
(١١)﴾ [يوسف] أي : أنزله في البئر ليخرج منه ماء ، [القاموس القويم ١/ ٢٢١] .

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٧٥/٤) : « في معناه قولان :
أحدهما : اسم الفلام .

الثاني : يا أيها البشري هذا حينك وأوانك . قال قتادة : بشر أصحاب بانه وجد عبداً .
قال السدي : نادى رجلاً اسمه بشري . قال النحاس : قول قتادة أولى . لأنه لم يأت في
القرآن تسمية أحد إلا يسيراً . قال القرطبي : وهذا أصح لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن
مضافاً إلى ضمير المتكلم . »

(٥) أسررت الأمر والحديث : أخفيته . وأسر إليه الحديث : ألقاه إليه سرا ولم يُطلع عليه أحداً
معه . وقوله : ﴿وَأَسْرُوهُ نَفْسًا﴾ (١٢) [يونس] أخفوهما في صدورهم وفي سرايرهم .
وقوله في قصة يوسف : ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ (١٣) [يوسف] أخفوه . وقوله : ﴿يَسْرُونَ
إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ (١٤) [المتحفة] أي : يسرون إليهم أنباء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة
بينكم . وهو تبكي وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تخفون العودة لهم ، أي : تجعلون مودتكم
لهم سراً ، وتخفونها عن المسلمين نقافاً وخداعاً . [القاموس القويم ١/ ٢١٠] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا
ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ
كانوا يرحلون في رحلة الشتاء والصيف ؛ بهدف التجارة وجلب
البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد
منهم إلى البئر ؛ ليأتى لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد
إلى البئر ليُحضِرَ لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوَهُ في البئر ؛ ويسمى
حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف
في الحبل ؛ فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛
فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ .. ﴾ (١٨)

أى : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك ؛ وكأنه يبشر قومه بشيء
طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً .. ﴾ (١٩)

أى : أنهم أخفوه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشى بجانبهم ؛

خشية أن يكون عبداً أيقناً^(١) ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝ (١٩) ﴾ [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسروه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا

فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝ (٢٠) ﴾

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أى ؛ أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى ؛ بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مقومة بالنقود .

والبخس أى ؛ النقص ، وهو إما فى الكم أو فى الكيف ؛ فهو يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد فى عمر يوسف يُقوّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبُخس ، وبثمن أقل قيمة إما كمّاً وإما كيفاً .

(١) أبى ياقب ؛ غريب من مالكة ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أُنْقِلَ إِلَيْكَ الْمُتَشَحُّونَ ۝ (١٤) ﴾ [الصافات] جعل ترك يوسف عليه السلام قومه إيقاناً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها . [القاموس القويم : ٤/١] .

(٢) بخسه حقه بخساً ؛ نقصه حقه ولم يُوفقه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا الثَّامِنَ أَثْمَانَهُمْ ۝ (٥٥) ﴾ [الأعراف] . والثمن البخس ؛ القليل الناقص عن مثله ؛ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ۝ (١٩) ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝ (٢٤) ﴾ [الجن] أى ؛ لا يخاف نقصاً ولا ظمناً . [القاموس القويم : ٥٦/١] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ ذَرَاهُمْ مَعْدُودَةٌ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠) [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس ؛ فهم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه ؛ وكانهم قالوا لأنفسهم : أى شيء يأتى من وراءه فهو فائدة لنا^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَانَهُ أَكْرَمِي
مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١)

(١) قال الفرطبي في تفسيره (٢/٤٧٩) : « قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠) [يوسف] قيل : المنراد إخوته . وقيل : السبابة وقيل : الواردة . وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبطاً أى : أن يوسف لم يكن مصدر سرور لأحد منهم . لا عند الإخوة ، لأن المقصد زواجه عن أبيه لا ماله . ولا عند السبابة لقول الإخوة إنه عبد أبى منّا . والزهد قلة الرغبة . ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم . وروا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى » .

(٢) ثوى المكان . وثوى به يشوى : حله وأقام فيه واستقر به . فهو متعدد ولازم واستعمل القرآن اللازم . فقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَارِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ (٢٥) [القصص] أى : مقبلاً عندهم . والمثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى . قال تعالى : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾ (٢٩) [يوسف] أى : إقامته . أى : أكرمى يوسف وعيّر باسم المكان عن الحال فيه مجازاً مرسلًا علاقته المجلية . [القاموس الفويم ١/١١٢] .

وكان للشراء علة : فهو قد اشتراه لامراته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن من اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعود أن تحمله ربة البيت وتقبله ، وتصدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه : ولأن الطفل يكبر انسياقاً ، فقد يقع المحذور. وندخل في متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ ۝ (٢١) ﴾ [يوسف]

وهذا يعني أن تعتنى بالمسكان الذي سيقم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضى أن تعتنى بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ في خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفع الموصول بعاطفة من ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر ، فعندما ينشأ يوسف كأمين للرجل وزوجه ؛ وكإنسان تربى في بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحملاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل :

[يوسف]

﴿ أَوْ تَتَّخِذْهُ وَلَدًا... (٢١) ﴾

وقد علمنا من السِّيرِ أنهما لم يُرزقا بأولاد^(١) .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد بدأ التمكين في الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرؤى والأحلام ؛ وليقلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام قسيِّعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضُتُّوا عليه بالإلقاء في الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .
ولذلك نقول : إن الظالم لو عَلم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ... (٢١) ﴾ [يوسف]

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليورد على مراده .

(١) ، قال ابن عباس : كان حصوراً لا يولد له ، وكذا قال ابن إسحاق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف قال (أَوْ تَتَّخِذْهُ وَلَدًا) وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقد أنه يتخذ ولدًا بالشيء ، وكان النبي في الأمم معلوماً عندهم ، وكذلك كان في أول الإسلام ، ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٤٨٢) .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو^(١) ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذى له الملك ، وهو وحده القادر على كل شيء ..

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يخطئوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قيوم^(٢) ؛ لا تأخذه سنة^(٣) ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لعلموا أن الله يملك بحق من يظلم فوق الذى ظلمه .

ورأينا فى حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشدّ هولاً من مصيرهم لو تحكم فيهم من ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ

يَمْحِزُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ طَائِفًا مِّنْهُمْ﴾ (٢٤٠) [آل عمران] .

(٢) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائمة بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بامكناتهم . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب - مادة : قوم] .

(٣) وسنن يؤسن سنة : نام نومة خفيفة ، السنة : الفعلة . قال تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةً وَلَا نَوْمٌ﴾ (٢٦٢) [البقرة] أى : لا تأخذه نومة خفيفة ولا أى نوم ، أى لا تأخذه غفلة عن أى شيء ولا نوم من أى نوع ثقل أو خف أو قل . [القاموس القويم ٢/٢٢٨] .

(٤) قال القرطبي فى تفسيره (٤/٢٤٨٤) : « معناه استكمال القوة ثم يكون نقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم . »

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ بَلِّغْ أَشَدَّهُ ۚ (٢٢) ﴾

[يوسف]

أى : وصل إلى غايته فى النضج والاستواء ؛ ومن كلمة « بَلِّغْ » أخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فوراً أن يبلغ أشده ؛ ويصير فى قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش فى بيت ممثلى بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إن لم يكن محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة^(١) ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحكم هو الفيصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحكم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذى يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذى سيكون منه تاويل الرؤى^(٢) ، وغير ذلك من العلم الذى سوف يظهر حين يؤلى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أشده وحرسه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذِلُّ الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٤) ﴾

[يوسف]

وكل إنسان يُحسن الإقامة لما هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

(١) الرعونة : الحمق والاسترخاء . والارعن : الاهوى فى منطقه . [لسان العرب - مادة : رعن] .

(٢) الرؤى : جمع رؤيا ؛ وهى ما تراه فى منامك . ورأى : بمعنى اعتقد ويعنى عرف . ورأى فى منامه رؤيا ؛ حكم . والرؤيا : الحلم فى المنام : [القاموس القويم ٢٥٠/١] .

الحُسْنُ ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قَدَرِ الله أن يجعله فقيراً ،
ويحاول أن يُحسِّنَ ويُتَقَنَ ما يعمل ، فيوضح الله بِحُسْنِ الجزاء : أنت
قبلت قدرى ، وأحسنتَ عملك ؛ فخذُ الجزاء الطيب ، وهذا حال عظماء
الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢)

[يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَرِ
الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتى بِحُكْمٍ من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعمّم
الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام .

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها ، فإنه يقرر
بعدها أن كل مُحْسِنٍ يعطيه الله الحُكْمَ والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴾ (٢٧)

[يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة^(١) ،
وهنا بدأت متاعبه فى القصر ، ففى طفولته نظرت إليه امرأة العزيز
كطفل جميل ؛ فلم يَكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغير ، فقد بدأت تدرك صفاته ؛
وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك . وهو التهاب الوجدان

(١) الفتاه : الشباب . والفتى والفتية : الشاب والشابة . قال القشيري : ليس الفتى بمعنى الشاب

والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال . قال الشاعر :

إِنَّ الْفَتَىَّ حَمَلٌ كَلَّ مُلْمَسٌ . . . لَيْسَ الْفَتَىَّ بِمُتَعَمِّ الشُّبَّانِ

[لسان العرب - مادة : فتا] .

بالعاطفة المشبوبة^(١) ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتى النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علة غَضُّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إن لم تغضَّ البصر أدركت ، وإن أدركت وجدت ، وإن وجدت نزعت إلى الزواج أو التعفف بالكبت فى النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإن لم تتعفف عريت^(٢) فى أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدى النساء زينتهن إلا لآناس حددهم الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ^(٣) أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ^(٤) مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوَاتِ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النور]

(١) شب النار والحرب : أوفدها . وشبه النار : اشتعلها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبي عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شُبَّتِ النار وشُبَّتْ هى نفسها . قال ولا يقال : شابة ، ولكن مشبوبة . [لسان العرب - مادة : شبيب] .

(٢) رجل عريد وعرييد وعريد : شريد مُشاكراً ، ويقال للمُعربد : عرييد كانه شبه بالحية . [لسان العرب - مادة : عريد] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سُمي به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول : قال تعالى فى قرآنه : ﴿ وَهَذَا عَلَىٰ شَيْخَا .. (٧٦) ﴾ [هود] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى - وبعد طلاق بائنة أو طلفتين بائنتين يعقد جديد . [القاموس القويم ٧٦/١] .

(٤) الأرب : الحاجة التى تقتضى الاحتياط لها . وكذلك الأربة والمارب . قال تعالى : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ .. (٢٥) ﴾ [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . [القاموس القويم ١٧/١] .

أى : الذى بلغ من العمر والشيخوخة حدا لا يجعله يفكر فى الرغبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى فتوته ، بعد أن بلغ أشده نظرة مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاى ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣)

وساعة تسمع «راود» فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فاعل » أو « تفاعل » ومثل : « شارك محمد عليا » أى : أن عليا شارك محمدا ؛ ومحمد شارك عليا ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وتفاعل مرة أخرى .

والمُراودة مطالبة برفق ولين بسخر ما تريده ممن تريده ؛ فإن كان الأمر مُسهلا ، فالمُراودة تنتهى إلى شيء ما ، وإن تأبى الطرف

(١) غلق الباب يغلقة غلقا ؛ أوصده مثل أغلقه ، وغلقه بالتضعيف للمبالغة فى إغلاق الأبواب وإحكامها ، كقوله تعالى : ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ ﴾ [يوسف] : ٢٣ أى : أحكمت إغلاقها لتأمين على نفسها من الداخلين . [القاموس المفهرم ٥٩/٢] .

(٢) هبّا الشيء : أعدّه وجهه ويسره ، قال تعالى : ﴿ وَهَبْنَا لَنَا مِنْ آمْرِنَا رَشَدًا ۖ ﴾ [الكهف] : ١٧ أى : يسّر لنا من أمرنا طريق الرشاد والحق . وهبت للأمر : أعددت نفسك له ، وقهرى فى سورة يوسف عليه السلام (وهبت لك) أى : أعددت نفسك لك . و (هبت) : إسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۖ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ ﴾ [يوسف] والمعنى : أفيل . واللام للتمعية ، أى : ادعوك لتقبل أو الدعاء لك . [القاموس المفهرم ٣١١/٢ ، ٣١٢] .

الثاني بعد أن عرف المراد : فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كنت تصبو^(١) إليه .

وهكذا راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أي : طالبت به برفق ولين في أسلوب يخدعه ليُخرجه عما هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبت به أن يحضر لها شيئاً : وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً ؟ » وتدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك : لأنه في بيتها : وهي مُمكنة منه : فهي سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات : فهو قد تربى في بيتها : وهي التي تتلطف وترق معه ، وفهم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بادب راقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ﴾ [يوسف]

وكلمة : ﴿غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ۖ﴾ [٢٢] .

توضح المبالغة في الحدث : أو لتكرار الحدث ، فهي قد أغلقت أكثر من باب . ونحن حين نحرك المزلاج^(٢) لتؤكد غلق باب ، ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غلق الباب .

(١) صبا يصبو : مال واحب : قال يوسف عليه السلام : ﴿وَلَا تُصْرِفْنِي فِي كَهْدِهِمْ أُصِيبُ إِلَيْهِمْ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف] ٢٣ : أمل إليهم وأفعل ما يفرينني به . وصبا إلى اللهو : حن واشتاق إليه وصحبه . [القاموس القويم ٢٦٨/١] .

(٢) الزلاج والمزلاج : متلاق الباب . سُمي بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أي أغلقتها . والمزلاج : المتلاق [لا أنه يفتح باليد ، والمغلاق لا يفتح (لا بالمفتاح) . [لسان العرب - مادة : زلج] .

فهذه عملية أكبر من غلق الباب ؛ وإذا أضفنا مزاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فقصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب ليكتفى العظيم الذي جاء ليقابله .

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذي رفض أن يبايع معاوية في المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم في دمشق .

هذا القصر الذي سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة ببرها له معاوية بخيلة الأريب^(١) أنها أبهة^(٢) ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكت عنها عمر^(٣) .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقي معاوية قوْرَ الدخول ؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب ؛ فلم يتخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضنَّ عليه بمناداته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

(١) الأريب : العاقل ، والإريب والأرب : الدماء والبصر بالأمور ، وهو من العقل - وأصل الإريب : الدماء والمكر ، [لسان العرب - مادة : أرب] .

(٢) الأبهة : العظمة والبيهاء ، والأبهة : العظمة والكبير . ورجل ذو أبهة أى ذو كبير وعظمة . [لسان العرب - مادة : أبه] .

(٣) ذكر أبو علي الفاي في إعاليه (٢/٢٣٦) : « قال المفيزة بن شعبة : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كثرى العرب » .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها : فنجد أن امرأة العزيز قد غلقت الأبواب : لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستتر فعله ، وهي قد حاولت ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر ، وحدثت المراودة وأخذت وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يستجب لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ ۖ (٢٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنها انتقلت من مرحلة المُرَاوِدَة إلى مرحلة الوضوح فى طلب الفعل : بأن قالت : هياتُ لك : وكان ردّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ (٢٤) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعِذ به ، وأنت لا تستعِذ إلا إذا خارت أسبابك أمام الحدث الذى تمرُّ به عليك تجد مَنْ ينجذك : فكان المسألة قد عزّت عليه : فلم يجد معاذاً إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم : وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبي ﷺ عقد على ابنة ملك^(١) : كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبي بالغيرة منها ، وقالت واحدة مذهب لعنها عائشة رضي الله عنها : **إِنْ تُزَوِّجَهَا وَدَخَلَ بِهَا قَدْ يَفْضُلُهَا عَنَّا** . وقالت للعروس : **إِنَّ النَّبِيَّ يُحِبُّ كَلِمَةَ مَا ، وَيُحِبُّ مَنْ يَقُولُهَا^(٢)** . فسألت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : **إِنْ اقْتَرَبَ مِنْكَ قَوْلِي « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ »** .

فبادرها رسول الله ﷺ وقال : **« قَدْ عُدَّتْ بِمِعَاذٍ »^(٣)** وسرَّحها السراج^(٤) الجميل .

وهناك في قضية السيدة مريم عليها السلام ، تجدها قد قالت لحظة أن تمثَّل لها الملاك بشراً سوياً^(٥) :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ (٦٨) [مريم]

فهى استعاضت بمن يُقدر على إنقاذها .

(١) جاء في الطبري أنها ملكة بنت داود اللثيمة (١٢٢/٤) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٢٩/٣) .

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٣٥٩/٩) : وقع عند ابن سعد (في الطبقات) أن عائشة وحفصة دخلتا عليها أول ما قدمت فمشطتاها وخضبتاها وقالت لها إحداهما : **إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَعْجِبُهُ مِنَ الْمَرْأَةِ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَنْ تَقُولَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ** .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبي أسيد رضي الله عنه .

(٤) السراج : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق : ﴿ فَتَعَالَى أَمْرُهُمْ وَأَسْرَحَكَ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴾

(٥) [الاحزاب] أي : طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [القاموس القويم ٢٠٩/١] .

(٥) السوى من الرجال : من ليس في خلقه عيب وليس في يده مرض ولا آفة ، فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ إِنَّكَ تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ نِجَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم] أي : حالة كونك كامل

الخلق لا غبرس بك ولا يكسر ولا أي عجز ، وقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم]

مستوى الخلق في صورة إنسان كامل جميل وطهر . [القاموس القويم ٢٢٩/١] .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ^(١) إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٢) ﴾

[يوسف]

واعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : انه لم يوافق على طلبها بعد ان اوضحت ما تريد .

والمعنى الثانى : انه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ
أنجاء من كيد إخوته ؛ ونجّاه من الجُبِّ ؛ وهياً له أفضل مكان فى
مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشدّه .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : انه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

ليُذكر امرأة العزيز بان لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن
ليوسف حين قال لها :

﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

فالصعوبة لا تاتى فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة
تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن
تُكرم يوسف ، وتختار له مكان إقامة يليق بابن ، ولا يمكن أن
يُستقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

(١) المَثْوَى : اسم مكان أو مصدر ميمي ، قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ مَثْوَايَ الظَّالِمِينَ (٢٢) ﴾ [ال
عنبران] اسم مكان مُصَدَّ به النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] أى :
إقامته ، أى : أكرمي يوسف وعبر باسم المكان عن الحال فيه مجازاً مرسلًا علاقته
المجازية . [القاموس القويم ١/ ١١٢] .

وتلك مَيِّزَةُ أسلوب القرآن : فهو يأتي بعبارة تتسع لكل منطاطات
القوم ، فما دام الله هو الذي يُجَازِي على الإحسان ، وهو مَنْ قال في
نفس الموقف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢) [يوسف]

فمعنى ذلك أن مَنْ يَتَّبِعْ يَأْتِي الله بالضد : فلا يُفْلَح : لأن
القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٢) [يوسف]

و ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ^(١) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ^(٢)

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ^(٣) ﴾ (٢٤)

(١) هم بالفعل بهم به همًا : نصده واتجه إليه بشئ ولم يفعله . قال تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ
يَسْطُرُوا إِلَيْهِمْ لَكُفَّ أَيْدِيَهُمْ . . ﴾ (١٧) [المائدة] أي : عزموا واتجهت أيديهم إلى حركتهم
والتمسوا عليكم وإيذانكم فكفهم الله . وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ
هَمَّ بِهَا وَهَمَّ بِهَا . . ﴾ (٢١) [يوسف] همت به : هم عزم وتصميم . وهمَّ بها هم ترك وإعراض
ومقاومة . أي : همَّ بمقاومتها والله أعلم . [القاموس القويم : ٣٠٧/٢ بتصرف] .

(٢) البرهان : الحجة البينة الفاصلة . قال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٢)
[البقرة] وقوله : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . . ﴾ (٢٤) [يوسف] أي : لولا أن رأى حجة ربه التي
ثبتته على الحق ونصرفت عما هم به . أن لولا أن رأى برهان ربه . أي الدليل على قدوم
سيده وحضوره . وقدر الله مجيء سيده إلى البيت في هذا الوقت ليصرف عنه السوء .
[القاموس القويم ٦٥/١] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافيًا نقيًا طاهرًا . واسم المفعول «مخلص» ، يفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢٤) [يوسف] أي : الأصفياء الاتقياء المطهرين . [القاموس القويم ٢٠٢/١] .

والهمُّ هو حديث النفس بالشئ : إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه .
ومن رحمة ربنا بخلقه أن مَنْ هَمَّ بسيئةٍ وحدثته نفسه أن يفعلها ؟
ولم يفعلها كُتِبَتْ له حسنة^(١) .

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التي كانت منها ،
والامتناع الذي كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُفاعلة بين اثنين
يصطراعان في شئ .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . . (٢٤)﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه في الآية السابقة موقفها حين
قالت : « هيت لك » وكذلك بين موقف يوسف عليه السلام حين قال
يوسف « معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً : وتساوى في حديث
النفس : لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون قَهْمُنَا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها : لاننا
نعلم أن « لولا » حرف امتناع لوجود : مثلاً نقول : لولا زيد عندك
لاتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع
عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجد منه ؟

(١) عن ابن جرير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت
له حسنة . ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له سيئة إلى سبعائة ضعف . ومن هم بسيئة
فلم يعملها لم تكتب . وإن عملها كتبت . » أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان
(حديث ٢٠٦) .

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد هَمَّتْ به ولم يهَم بها : حتى تخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطة المطلوبة : لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازِع العمل : وإن لم يَقُل لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عَنِين^(١) أو خَصَّاه موقف أنها سيده فخارت قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهَم بها : لكان المانع من الهمِّ إما أمر طبيعي فيه ، أو أمر طارئ لأنها سيده فقد يمنعه الحياء عن الهمِّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً ، وهو قد بلغ أشده ونُضجِه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُم يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضيَّعت رجولته بغتة^(٢) ؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب في ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يقرب عروسه ؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهمِّ على الإطلاق ؛ ومن غير شيء ، لَقَالَ : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهَم بها .

(١) العَنِين : الذي لا يأتى النساء ولا يريد من بين العنات . وعَنِين من امرأته إذا حكم القاضي عليه بذلك أو مُنِع عنها بالسحر ، وامرأة عتينة كذلك : لا تريد الرجال ولا تشتهيهم . وسُمِّي عتينا لأنه بمن ذكره لقبيل المرأة من عن يمينه وشماله فلا يقصده ، [لسان العرب - مادة : عنن] .

(٢) بغتة بغتاً وبغتة : فاجاء على غرة وغفلة ، قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف] والمباغتة : المفاجأة والبغت والبغتة : الفجأة ، وهو أن يفجأك الشيء . [لسان العرب - مادة : بغت] .

ولكن مثل هذا القول هو نقي للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهمّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحي الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لطيف الله بالخلق أنه يُوجد الالتقاءات التفاعلية في المتساويات ، فلا تأتي عاطفة الخادم في بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أي شيء من خارج المنزل ، لعله يحظى بقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر في أنه لو همّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا ينشأ الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها قال الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤)﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهمّ ، فواحد همّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه في قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهى المسألة ، ولذلك فلا داعى أن يدخل الناس فى متاهات أنه هَمَّ وجلس بين شعبيتها^(١) ، ولم يرتعد إلا عندما تمثّل له وجه والده يعقوب ونهاء عن هذا الفعل^(٢) ؛ فافسقُ الفسّاق ولو تمثّل له أبوه وهو فى مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الراى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة^(٣) يوسف ؛ لأن الهمَّ وجد وأنه قد نازع الهمَّ .

ونقول لصاحب هذا الراى : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزيز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكّك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتى دَعَتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا^(٤) على أن يوسف لم يحدث منه شيء .

(١) فى الحديث : « إذا قعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الفحل » شعبها الأربع : يداها ورجلاها - وقيل : رجلها وشقرا فرجها . كنى بذلك عن تغيبه الحشكة فى فرجها . [لسان العرب - مادة : شعب] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وسعيد بن جبیر : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنامله بثوعدة فسكن . وخرجت شهوته من أنامله . [ذكره القونطى فى تفسيره ٢٤٩٢/٤] .

(٣) رجل فحل : فحلّ ، وإنه ليبيّن الفحولة . غير خصص بل هو مُنجب . [لسان العرب - مادة : فحل] .

(٤) تضافروا القوم على فلان وتظاهروا عليه وتظاهروا بمعنى واحد كله إذا تعاونوا وتجمعوا عليه . وتآلبوا وتصابروا مثله . قال ابن سيده : تضافروا القوم على الأمر تظاهروا وتعاونوا عليه . [لسان العرب - مادة : ضفر] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصَدِّقَةً لِمَا قَالَ :

﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ^(١) .. ﴾ (٢٧) [يوسف]

وقالت : ﴿ الْآنَ خَصَصْتُ ^(٢) الْحَقُّ أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الصَّادِقِينَ ^(٣) ﴾ (٢٨) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ^(٤) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .. ﴾ (٢٩) [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ

رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ^(٥) ﴾ [يوسف]

وقال يوسف لحظتها :

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٠) [يوسف]

والصَّبُورَةُ هِيَ حَدِيثُ النَّفْسِ بِالشَّيْءِ : وَهُوَ مَا يَثْبُتُ قُدْرَةُ يَوْسُفَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْفِعْلِ ، وَحِمَاةُ اللَّهِ مِنَ الصَّبُورَةِ : لِأَنَّ الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ

قَدْ قَالَ :

(١) استعصم : طلب لنفسه الحصانة وتمسك بها . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ

(٢٧) ﴾ [يوسف] أي : فامتنع متمسكاً بعصمته وعلّة نفسه وبمحفظها من السوء - [القاموس

القرئيم ٢٤/٢] .

(٢) خصصت الحق : وضح وبيّن بعد حقائقه . قال تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ خَصَصْتُ

الْحَقُّ .. ﴾ (٢٨) [يوسف] . قال ابن منظور في لسان العرب : « الخصصمة : بيان الحق بعد

كتمانها » . [مادة خصص] .

(٣) في قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف ، وبعثها إليها : امرأة

العزيز . قال ابن كثير في تفسيره (٤٨١/٢) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب

بسياق القصة ومعاني الكلام » وقد حكاه الماوردي في تفسيره . وانتدب لتصريحه الإمام أبو

العباس ابن نعيم رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة .

﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۖ ۝ (٣٤) ﴾ [يوسف]

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتي تهامسنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يَقْلَنَّ :

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ ۝ (٣٥) ﴾ [يوسف]

فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات : وللانفعال لغات : وإلا لماذا قال يوسف :

﴿ وَالْأُتْرُوقُ عَنِيَ كَيْدُهُنَّ ۖ ۝ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وهكذا تعلم أنه قد حدثت مُقَدِّمات تدل على أن النسوة تَوَيَّنَ له مثل ما تَوَكَّه امرأة العزيز : وظَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده : فيتلقنه هُنَّ : وهذا دأب^(١) البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه : فيقدمهم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۖ ۝ (٣٧) ﴾ [يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أجبن ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ :

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدأب والدأب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ يَنْقُلْ دَأْبُ قَوْمِ نُوحٍ

ۖ ۝ (٣٨) ﴾ [غافر] أي : عادتهم وعشائهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْعُمُونَ سَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ ۖ ۝ (٣٩) ﴾

[يوسف] أي : مداومين محمدين ثوى دأب . وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِمَيْنِ ۖ ۝ (٤٠) ﴾ [إبراهيم] أي : مستمرين في الحركة دائمين فيها بلا انقطاع تشبيها لهما

بالإنسان المجد . [القاموس القويم ١/ ٢١٩] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۖ ﴾ (٥٦) [يوسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائماً بالغواية ، وهو لا يدخل أبداً في معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خلق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ^(١) أَجْمَعِينَ (٥٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٥٧) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يَقْرَأُ أَنْ مَنْ يَسْتَخْلَصُهُ اللهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْعِبَادِ إِنَّمَا يَعِجْزُ - هو كشيطان - عَنْ غَوَايَتِهِ ، وَلَا يَجْرُؤُ عَلَى الْاقْتِرَابِ مِنْهُ .

والشاهد الذي من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ ^(٢) مِنْ دَبِيرٍ ^(٣) فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٥٧) ﴾ [يوسف]

(١) اغواء : أضله وأوقعه في الغي والضلال . قال تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كُلًّا غَوًيًا ۖ ﴾ (٥٦) [القصاص] أي : أضلناهم كما ضلنا . وغوى يَقْوِي غِيًّا غَوَايَةً : انهمك في الجهل وهو ضد الرشاد . قال تعالى : ﴿ لَا تَهْرَاقْ فِي الْبَيْتِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۖ ﴾ (٥٦) [البقرة] وغوي : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك في الجهل . والغاوي : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ وَهَزَبْتِ السَّاجِدِينَ لِلْقَاوِينَ (٥٦) ﴾ [الشعراء] أي : الضالين المنهمكين في أعمال الجهل . [القاموس القويم ٦٤/٢] .

(٢) قد الثوب : شقّه . قال تعالى : ﴿ وَفُتِنَتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ ﴾ (٥٧) [يوسف] . والقُدَّة : القطعة المقصودة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطِعَتْ منها . قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَأَى قُدًّا (٥٧) ﴾ [الجن] أي : جماعات مختلفة الرأي جمع قُدَّة . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

(٣) الدبر : مؤخر كل شيء وعقبه وظهوره ضد القبل . قال تعالى : ﴿ وَفُتِنَتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ ﴾ (٥٧) [يوسف] أي : من خلف . وولى المصارب دبره : كناية عن قراره . قال تعالى : ﴿ مَهْزُومَ الْجَنِّمْ وَيُثَبِّتُ الدُّبُرَ (٥٧) ﴾ [القمر] أي : ويثبِّتون . وجمع الدبر أديار . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَنْظُرُكُمْ بِرُكُوكُمْ الْأَدْيَارِ لَمْ لَا يَنْصَرُوا (٥٧) ﴾ [آل عمران] أي : يثبِّتون منكم منهزمين . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ السُّجُودِ (٥٧) ﴾ [ق] أي : عقب كل سجود أو عقب كل صلاة . [القاموس القويم ٢٢٠/١] .

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حق أحد أن يتساءل : هل هم يوسف بامرأة العزيز ، أم لم بهم ؟

وفي الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . . (٦٤)﴾ [يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا (٦٥)﴾ [الإسراء]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . . (٦٦)﴾ [النساء]

أي : لا بُدَّ أن يبعث الحق رسولاً للناس مؤيداً بمعجزة تجعلهم يُصدقون المنهج الذي يسيرون عليه ؛ كي يعيشوا حياتهم باتسجام إيماني ، ولا يعذبهم الله في الآخرة .

ويُذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ^(١) عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٦٧)﴾ [يوسف]

والفحشاء هي الزنا والإتيان ؛ والسوء هي فكرة الهَمِّ ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودته عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

(١) الصرف : رد الشيء من حال إلى حال . وصرف النقود : تخييرها أو إنفاقها . وصرف السجين : أخطى سبيله . وصرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال . قال تعالى : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (٦٧)﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ٢٧٤/١] -

مرحلة السُّعَار^(١) لحظة أن سبقها إلى الباب : فَكَّرْتُ فِي أَنْ تَقْتُلَهُ : وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فليسوف يُجَازَى كقاتل^(٢) .

فصرف الحق عنه فكرة القتل : وعنى بها هنا قوله الحق « السوء » : ولكنى أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهم ، وهي مُقَدِّمَات الفعل .

ويقرر الحق سبحانه أن يوسف عليه السلام من عبادة الْمُخْلِصِينَ ، وفي هذا رد على الشيطان : لأن الشيطان قال :

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٢)﴾

[ص]

وقوله الحق هنا :

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ (٩٤)﴾

[يوسف]

يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرُبَ عباد الله المخلصين . وهناك «مُخْلِصِينَ» . و «مُخْلِصِينَ» والمخلص هو مَنْ جَاهَدَ فَكَسَبَ طَاعَةَ الله ، وَالْمُخْلِصُ هُوَ مَنْ كَسَبَ فَجَاهَدَ وَأَخْلَصَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ^(٣) .

وهناك أَنَاسٌ يَصِلُونَ بِطَاعَةِ اللهِ إِلَى كِرَامَةِ اللهِ ، وهناك أَنَاسٌ

(١) السُّعَار : شدة الجوع . يقال : سَعِرَ الرجل ، فهو مسعور ، إذا اشتد جوعه وعطشه . والسُّعْر : شهوة مع جوع . والسُّعْر : الجنون . وسُعَار العطش : التهايه . والسعير والماعورة : النار . وقيل : لهبها . والسُّعَار والسُّعْر : جرها . [لسان العرب - مادة : سحر] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره أن من بين تاويلات هم يوسف عليه السلام بامرأة العزيز أنه هَمَّ بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كلفه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها . [راجع تفسير القرطبي ٢٤٨٨/٤] .

(٣) أخْلَصَهُ اللهُ : جعله صالحاً نقياً مطهراً ، واسم المفعول : مُخْلِصٌ ، يفتح اللام . قال تعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ (٩٤)﴾ [يوسف] أي : الأصفياء الاتقياء المطهرين ، وأخلص دينه : طهره وصفاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٣٠)﴾ [الزمر] . [القاموس الفويم ٢٠٢/١] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - والله المثل الأعلى - مُنْزَهُ عن كل تشبيه ،
أنت قد بطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه
وتكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى فى الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من
فضل الله عليك ، أى : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ يطلبه
أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأخذ ورد ؛ ينتقل بنا
الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿وَأَسْتَبِقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا^(١)
لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٢)﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا
فى هذا الاستباق ، ونلاحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا يساباً واحداً ؛
وكانت امرأة العزيز قد غُلِّقَتْ من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾ [يوسف]

(١) ألقى الشيء : وجده ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَقْرَبُ نَجْدَيْنَ (٢٥)﴾ [الصافات] ، وقال :

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾ [يوسف] أى : وجدها ، [القاموس القويم ١٩٧/٢] .

(٢) ساد قومه يستولونهم سيادة : شرف عليهم ورأسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سادة :

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾ [يوسف] سيدها : زوجها ، وقال تعالى : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصْرًا

.. (٢٦)﴾ [آل عمران] سيداى : شريفاً ورئيساً فى الدين والعلم ، وقال : ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا مُنَافِقًا

وَكُفْرًا .. (٢٧)﴾ [الأحزاب] أى : رؤسائنا من الملوك والأمراء . [القاموس القويم

يدلنا على أنها لحقت بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهي قد استبقت مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهي تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدت قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشدت من قميصه من الخلف ، وتمزق القميص في يدها ، وقد محص الشاهد - الذي هو من أهلها^(١) - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥)﴾

[يوسف]

أى : حدثت لهما المفاجأة ، وهي ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا .. (٢٥)﴾

[يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)﴾

[يوسف]

ويأتى الحق سبحانه يقول يوسف عليه السلام :

(١) وذلك هو قوله تعالى : ﴿رَحِمَهُ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَكُذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

(٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ^(١) شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا^(٢) إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ
قَدْ^(٣) مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولين مختلفين : قولها هي
باتهام يوسف : وقوله هو باتهامها ، ولا بُدَّ أن يأتى بمن يفصل بين
القولين ، وأن يكون له دقة استقبال وفهم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدْتُ شَاهِدٌ مِنْ
أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتُ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦)

وتأتى كلمة « شاهد » فى القرآن بمعانٍ متعددة .

(١) شهد : دَلَّ بقول أو فعل . وقال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (٢٦) [يوسف] .
[القاموس القويم ٢٥٨/١] . وقال القرطبي فى تفسيره (٢٤٩٤/٤) : « شهد شاهد من
أهلها ، أى : حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٢٤٩٤/٤ ، ٢٤٩٥) :

« اختلف فى هذا الشاهد على أقوال :

منها : أنه طفل فى المهد تكلم : قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث التوارد فيه عن
النبي ﷺ ، وهو قوله : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة ، وذكر فيهم شاهد يوسف . ومنها : أنه
رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشير به فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، يقتصر .

(٣) قد الثوب : شق ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْتُ قَمِيصًا مِنْ دُبُرٍ .. ﴾ [يوسف] والقدة : القطعة
المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة فى الراى مع مجموع الأمة كأنها قُتَّتْ وقُطعت
منها ، قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقُ فِدْمًا ﴾ [الجن] أى : جماعات مختلفة الآراء جمع قدة ..

[القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فهى مرة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا ^(١) طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٧) ﴾ [التور]

وتأتى مرة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا .. (٨١) ﴾ [يوسف]

وتأتى « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أى : رَجَعَ كلاماً على كلام لاستنباط حق فى أحد الاتجاهين . والشاهد فى هذه الحالة وثق القرآن أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، قلر كان من طرف المحكوم له لَرُدَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَضُكَّ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

لأن معنى هذا - والواقع لم يكن كذلك - أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أَقْبَلَ عليها : تدلّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثّر فيه ، فتمزّق القميص .

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

(١) أى : عذاب الزانية والزانى وإيقاع العقوبة بهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ لِّىْ دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التور] .

(٢) القميص : ما يحيط بالبدن ، وقد يسمى شعاراً وما فوقه دثار ، وقد يسمى كل ثوب قميصاً ، قال تعالى : ﴿ رَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (٥٥) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قد من الخلف ؛
فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلاحظ أن الشاهد هنا قال هذا الراى قبل أن يشاهد القميص ؛ بل
وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل
الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَقْمِيصَهُ ۖ قَدَّ مِنْ دُبُرٍ ۖ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ^(١)
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۖ ٢٨ ﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ ۖ .. (٢٨) ﴾ [يوسف]

يدل على أنه رتب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً
فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحثية الغائبة
هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۖ (٢٨) ﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

(١) الكيد : مصدر . ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكاشد لينقلب على خصمه ،

ومن ذلك قوله : ﴿ فَاجْتَبُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّرَا سَفَا ۖ ﴾ [طه] أى : اجمعوا الوسائل التى تكيدون

بها . [القاموس القويم ٢ / ١٨٠] .

مَنْ لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْمَوَاجَهَةِ ، وَكَيْدَ الْمَرْأَةِ عَظِيمٌ ؛ لِأَنِّ ضَعْفُهَا
أَعْظَمُ .

وَتَعُودُ آيَاتُ السُّورَةِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَوْقِفِ عَزِيزٍ مِصْرَ ، فَيَقُولُ الْحَقُّ
سُبْحَانَهُ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ الزَّوْجِ :

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ
كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^(١)

وبهذا القول من الزوج أنهى الحقُّ سبحانه هذا الموقفَ الرَّبَاعِيَّ
عندَ هذا الحدِّ ، الَّذِي جَعَلَ عَزِيزُ مِصْرَ يَقْرَأُ أَنَّ أَمْرَاتِهِ قَدْ أَخْطَأَتْ ،
وَيَطْلُبُ مِنْ يَوْسُفَ أَنْ يَعْزِضَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ لِيَكْتُمَهُ .

وهذا يبين لنا سياسةَ بعضٍ من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر
نشاهدُه في عصرنا أيضًا ؛ فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبى أن يرى
أهله في خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغيرُ أهله في
مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر في نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له
من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا ملاحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهي

(١) أعرض عن الشيء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه ، قال تعالى : ﴿ أَعْرِضْ وَتَأَيَّ بِجَانِبِ
الرَّحْمَةِ الَّتِي آتَى الْإِسْرَاءَ ﴾ [الإسراء] ، [القاموس القويم ١٦/٢] ، قال القرطبي : أي : لا تذكره لأحد
واكتمه . [تفسير القرطبي ٢٤٩٧/٤] .

(٢) الخطأ والخطاء : ضد الصواب . وقد خطيء يخطأ خطأ : أذنب مطلقاً أو تعدد الذنب . قال
تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف] أي : متنبئين .

لا تزال متغلغلة حتى في المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ،
 فعزیز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. ﴾ (٢٩)

[يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٣٠)

[يوسف]

وهو في قوله هذا يَقْرُ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يَقْرُ بذلك إلا
 إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو في موقف لا يسعه فيه
 إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

ويعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ،
 والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذي فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا
 الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذي وقعت فيه
 القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور
 عيوناً تتعسس^(١) عليها ، والسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه
 يستطيع أن يحمي نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها
 مهما بلغت قدرة صاحبها على التستر والكتمان .

وقد تلخص البعض من خدام القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على
 السنة النسوة .

(١) أصل العَسْ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضي الله عنه أنه كان يعس بالمدينة ، أي :
 يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعسس : اسم منه كالطلب ، وقد يكون
 جمعاً لعاس كحارس وحرس ، [راجع لسان العرب - مادة : عسس] .

ويحكي القرآن الموقف قائلا :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ^(١)
 قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفرد كل منهما ساقط في اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضا هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثني هو « امرأتان » ، لكن في صيغة الجمع لا توجد « امراءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف]

وما قلته هو الحق ؛ لكنهن لم يقلن ذلك تعصبا للحق ، أو تعصبا للقضية .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٩٨/٤) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خيازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سمته . وقيل : امرأة الحاجب . عن ابن عباس وغيره . »

(٢) شغفه : أصاب شغاف قلبه أي غلافه ، أو أصاب باطنه وصميم قلبه . قال تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ ﴾ [يوسف] أي : أصاب شغاف قلبها بحب قوي نافذ كالسهم . [القويم ٢٥٠/١] .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهم ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول فى الآية التالية حين قال :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَأَنْتَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرَجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٦) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٣٧) ﴾ [يوسف]

والمكر هو ستر شيء خلف شيء ، وكان الحق ينبهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبة للحق ؛ ولا تعصبا للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنكابة^(١) بامرأة العزيز ، وقصحا للضلال الذى أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردن - أيضا - شيئا آخر : أن ينزلن امرأة العزيز عن كبرياتها ، وينشرن فضيحتها ، فأتين بنقيضين : لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز^(٢) ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد نزلت عن كبرياتها كزوجة لرجل يُوصف بأنه الغالب الذى لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى الحسية .

(١) نكى العنبر نكابة : أصاب منه . وقد نكيت فى العدو أنكى نكابة أى هزمته وغلبته ، فنكى ينكى نكى . [لسان العرب - مادة : نكى] .

(٢) تدور معانى العزيز حول من بيده السلطان والقوة ويده مقاليد الحكم لا يراجعه أحد شيئا ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهى . [راجع : لسان العرب - مادة : عزز] .

فَيُقَالُ : « الأرض العَرَازُ » ^(١) أى : الأرض الصخرية التي يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحد أن يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامرأة العزيز حين تصوير مُضَغَّة ^(٢) في الأفواه ؛ لأنها راودت فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية ^(٣) مشينة ^(٤) .

وقالت النسوة أيضاً :

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ ﴾ (٣٠) [يوسف]

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل « الهوى » مثل : شغشقة ^(٥) النبات ، ويُقال : « رأى شيئاً فهو به » .

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : عزز] : « العَرَازُ والعَرَازُ : المكان الصلب السريع السيل - وقال ابن شميل : العراز ما غلط من الأرض ؛ وإنما يكون فى أطرافها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن البول فى العراز لئلا يترشش عليه » .

(٢) مضغ يمضغ : لآك . ومضغ الطعام يمضغه مضغاً . والمضغ : القطعة من اللحم . ومضغ الثمر : حان أن يمضغ . وتمر ذو مضغ : صلب متين يمضغ كثيراً . ومضغ الأمور : مغازها [لسان العرب : مادة - مضغ] والمقصود تشبيهها بقطعة اللحم التى يركبها الناس فى أفواههم .

(٣) الإزراء : التهاون بالشىء . وازدريته أى حقرتة . والازدراء : الاحتقار والانتقاص والعيب ، وهو افتعال من ذريت عليه ذراية إذا عبته . [لسان العرب - مادة : ذرى] .

(٤) الشين : العيب . وهو خلاف الزين . قال الفراء : العين والشين والشنار أى : العيب ، والعشائين : المعاييب والمقاييب . [لسان العرب - مادة : شين] .

(٥) شق النبات يشق شقوقاً ، وذلك فى أول ما تنقطع عنه الأرض . وشق ناب الصبي يشق شقوقاً ؛ فى أول ما يظهر . [لسان العرب - مادة : شق] .

وقد ينتهى هذا الهوى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلّق الإنسان بما رأى : انتقل من الهوى إلى العلاقة^(١) .

وبعد ذلك يأتى الكلف^(٢) : أى : تكلف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهى العشق^(٣) ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلم كل طرف كلفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التذليّة »^(٤) : أى : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هزال ويقال « تبليت^(٥) الفؤاد » أى : تاه الإنسان فى الأمر .

ثم تاتى بعد ذلك مرحلة الهيام^(٦) ، أى : يهيم الإنسان على

(١) علق الشيء علقاً وعلق به علاقة وعلوقاً : لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب . وقد علقها علقاً وعلاقة وعلق بها علوقاً وتعلّق بها : أحبها . وقال النحيتى : العلق الهوى يكون للرجل فى المرأة . [لسان العرب - مادة : علق] .

(٢) الكلف : اللوع بالشىء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشىء كلفاً وكلفة : نهج به . وكلف بها أشد الكلف : أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء . [لسان العرب - مادة : كلف] .

(٣) العشق : شدة الحب . وسمى العاشق عاشقاً لأنه يتجلب من شدة الهوى كما تذبل العصفه إذا قطعت . والعشقة : شجرة تخضر ثم تدق وتصفى . عن الزجاج . [لسان العرب - مادة : عشق] .

(٤) قال ابن القيم فى روضة المحبين (من ٥٩) : « وأما التذليّة فى المسحاح : التذليّة ذهب العقل من الهوى ، يقال : دلّه الحب ، أى : حيرّه وادهشه » .

(٥) قال فى روضة المحبين (من ٤٩) : « أما التباله فهى لهالة من تبلّه إذا افتناه . قال الجوهري : تبلهم الدهر وأتبلهم إذا افتناهم . وتبله الحب وأتبله ، أى : أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هيمان : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهيم : مصدر هلم يهيم هيماً وهيماناً إذا أحب المرأة . والهيام : العشاق . والهيوم : أن يذهب على وجهه . [لسان العرب - مادة : هيم] .

وجهه : فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه
« جوى »^(١) .

تلك هي مراحل الحب التي تمر بالقلب^(٢) ، والقلب - كما نعلم -
هو الجهاز الصنوبري ، ويسمونه مَقَرَّ العقائد المنتهية ، والتي بحثها
الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشم ويسمع
ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور : فهو يعرضها على
العقل ليوازن بينها : ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك
الأمور المقبولة إلى القلب : لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية : فقد تاتي مسائل أخرى تزعزعها : ولذلك
يُقال للأمور التي استقرت في القلب « عقائد » ، أي : شيء معقود
لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره في إخضاع سلوك حركة
الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ في نفس الإنسان : فهو يجعل كل
حركته في ظل هذا المبدأ الذي اعتقده .

وهكذا نعرف : كيف تمر العقيدة بعدة مراحل قبل أن تستقر في
النفس . فالإدراك^(٣) يحدث أولاً : ثم التعقُّل ثانياً : وبعد ذلك يعتقد

(١) الجوى : الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن . [لسان العرب - مادة : جوى] .

(٢) ذكر ابن القيم في روضة المحبين (ص ٢٥) نحواً من ستين اسماً للمصية ، لكل اسم
مقام أو درجة في الحب .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء . فلا بد من الإدراك ،
ثم الانتقال ، ثم المزوج - أي : الاختيار .

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وفقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَفَّهَهَا حُبًّا ٢٠ ﴾ [يوسف]

تعنى أن المشاعر انتقلت من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ،
والشفاف هو الغشاء الرقيق الذى يستر القلب ؛ أى : أن الحب تمكّن
تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢١ ﴾ [يوسف]

هو قول حقٍّ أريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يوضح مقصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكٰٓئًا ٢٢
وَأَمَّت كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ أَخْرِجْنَا عَنْ هٰٓئِهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّٰهِ مَا هٰٓذَا بَشِيرًا إِن هٰذَا
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٢٣ ﴾

(١) يتكئ : جلس متمكناً ، أصله ارتكأ ، قال تعالى : ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُ ٢٥ ﴾ [الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ لَهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ٢٢ ﴾ [الكهف] . والمتكأ : اسم مكان .
قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكٰٓئًا ٢٢ ﴾ [يوسف] أى : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمكنات
متمكنات . والمتكأ : ما يتكئ عليه الإنسان من مخدة أو أريكة . [القاموس القويم ٢٥٢/٢] .
(٢) أكبر الشيء : عذبه كبيراً ، أو عظم تأثيره به فراه كبيراً ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ٢٢ ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ١٥٠/٢] .

(٣) حاشى لله ، أى : براءة لله ومماذا لله ، قال ابن الأنبارى : معنى حاشى فى كلام العرب
أعزل فلاناً من وصف القوم بالحشى وأمزله بناحية ، ولا أدخله فى جملتهم . [لسان
العرب - مادة : حشا] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لهنَّ الكلام عن الذي حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بدُّ أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر : وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وأمراته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون من نقل الكلام إلى خارج القصر : إنسان له علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك : ونقل ما علم إلى من له به علاقة خارج القصر.

ويبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتي ثرثرن بالأمر ، وقال العلماء^(١) : هنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخيَّاز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أى : سائس الخيل) ، وامرأة السجن .

وهؤلاء النسوة يَعِيشُنَّ داخل بيوتهنَّ : فمن الذى نقل لهنَّ أسرار القصر ؟

لا بدُّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسَلِّي أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام : ثم نقلت زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر : وكيف يمكن بها : أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكاً وَأَنْتِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينٌ ﴾ [يوسف]

والمَتَكَا هو الشيء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ

(١) انظر : تفسير القرطبي (٤/٢٤٩٨) ، ذكره عن ابن عباس وغيره .

من كيفية جلسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها ، وقد خططت لتكشف وَقَعَ رؤية يوسف عليهن ، فقدمت لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣٦) ﴾ [يوسف]

ويقال : أكبرت الشيء ، كأتك قد تخيلته قبل أن تراه على حقيقته ؛ وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين ترى الشيء واقعاً ؛ تكبر المرائي عن التخيل .

والمثل أن إنساناً قد يحدثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تفاجأ بأنه أفضل مما سمعت عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَاهَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ حَبِيبٍ أَصْدَقَ الْقِيمِ
حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَدْنَى بَاطِلٍ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي
ويقولون في المقابل : سماعك بالمعبدى خير من أن تراه^(١) ، أى :
يا ليتك قد ظلمتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنقص من
قدر ما سمعت .

(١) هذا مثل يضرب لمن خبره خبر من مرآته ، يضرب للرجل الذى له صيت وذكر ، فإذا رآته أذريت مرآته . ومعنى : حتى أو اسم للقيظة . فاما قولهم فى المثل : تسمع بالمعبدى لا أن تراه ، فنخفف عن القياس اللازم فى هذا الضرب . [لسان العرب - مادة : معد] .

وَهُنَّ حِينَ أَذَيْنَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ بِتَدَاوُلِ خَبَرِ مُرَاوَدَتِهَا لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ،
تَخَيَّلْنَ لَهُ صُورَةً مِمَّا مِنَ الْحُسْنِ ، لَكِنَّهُنَّ حِينَ رَأَيْنَهُ فَاقَتْ حَقِيقَتَهُ
الْمَرْتِيَةِ كُلِّ صُورَةٍ تَخَيَّلْنَهَا عَنْهُ ؛ فَحَدَّثَ لَهُنَّ انْبِهَارَ .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ
عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان في يدك شيء قد يقع منك .

وقد قطعت كل منهن يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأة العزيز
لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المُقَدَّمُ لَهُنَّ .

وقال الحق سبحانه في ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ ^(١) أَيْدِيَهُنَّ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدق من هذا
القول ^(١) ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٢١) ﴾ [يوسف]

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢/٢٥٠) : « قال مجاهد : قطعنَّها حتى ألقينها . وقيل :
خدشنها . وروى ابن أبي نجيح قال : حَزَّ بالسكين . قال الثعالب : يريد مجاهد أنه ليس
قطعا تبين منه اليد ، إنما هو خدش وحز ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إنا خدش
الإنسان يد صاحبه قطع يده . »

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٧٦) : « ذكر غير واحد أنها قالت لَهُنَّ - بعد أن كنت كل
واحدة منهن سكيئا - : هل لَكُنَّ في النظر إلى يوسف ؟ قُلْنَ : نعم . فبعثت إليه تامره أن
أخرج إليهن . فلما رأينهُ جعلن يقطعن أيديهن . ثم امرته أن يرجع . فرجع وَفَنَّ يعززن في
أيديهن ، فلما أحسسن بالآلم جعلن يولولن . فقالت : أنقن من نظرة واحدة فبعثن هذا ،
فكيف ألام أنا ؟ » .

[يوسف]

وكلمة : ﴿ حَاشَ .. ﴾ (٣١)

هى تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى ،
أو : أنهم قد نَزَّهُوا صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة
بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون
قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التى يعرفونها^(١) ؛ فَقُلْنَا :
لا بد أنه ملكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هى صورة مُتَخَيِّلَةٌ ، والإنسان يحكم على
الأشياء المُتَخَيِّلَةَ بما يناسب صورتها فى خياله ، مثلما نتخيل الشيطان
كأشنع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر ؛ فما تراه بشعاً قد
لا يراه غيرك كذلك ؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى
أخرى .

فالمرأة الجميلة فى أواسط إفريقيا فى نظر الرجل هى ذات الشفاه
الغليظة جداً ؛ أو صاحبة الشعر المُجَعَّد والمُتَمَوِّج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال يجذب إليه
الرجل فى بعض الحالات ؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر
الناعم للغاية يذهبن إلى مُصَفِّفَةِ الشعر ، ويطلبن منها تجعيد
شعورهن .

(١) قال القشيري أبو نصر : وذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر ، بل
هو فى صورة ملك ، وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين]
والجمع بين الآيتين أن قولهن (حاش لله) تبرئة ليوسف عما رمته به امرأة العزيز من
المراودة . ذكره القرطبي فى تفسيره (٣٥١٥/٤) .

إذن : فالجمال يُقاس بالأنواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال في النفس الإنسانية على قَدَر مقوّمات الالتقاء في الانسجام .

ولذلك يُقال في الريف المصري هذا المثل «كل قولة ولها كيال» .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب في الزواج منها ؛ وما أن يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع في هواها ، ويتعجل الزواج منها ، وهذا يعني أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثاني .

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أخذ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذي يكتب القبول ؛ ويظهر في المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث في نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قلن :

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر^(١) .

(١) عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٣) والحاكم في مستدركه (٥٧٠/٣) .

وأورد السيوطي في كتابه (الدر المنثور) (٥٢٢/٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفشتن به . وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً

عليهن :

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَةٍ لَيْسَ جَنَنًا
وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ^(١) ﴾

وكانها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ،
فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فَذَلِكُنَّ .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

مُكُون من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذَالِكُنَّ » خطاب للنسوة ،
والإشارة تختلف عن الخطاب .

(١) لَمْ يَلْمِهِ لَوْمًا : عذله على عمل لا ينبغي ولا يليق فهو لائم . وتلاوم الرجلان : لام كل
منهما الآخر : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامَتُونَ ﴾ [القلم] . والام : جرّ على نفسه اللوم
يفعل ما لا ينبغي فهو ملئم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿ فَالْقَظْمَةُ الْهَوَتْ وَهَرَّ مَلِيمٌ ﴾ [الصافات] أي : مذنب مستحق للوم . [القاموس القويم ٢٠٨/٢] بتصرف .

(٢) عَصَمَهُ يَعْصِمُهُ : منعه ووقاه ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة] يحفظك
ونقيك ، وقوله : ﴿ مَا أَوْى إِلَيْنِ جَمَلٌ يَفْعِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هود] يحفظني . واعتصم : تمسك
بقوة . قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ [آل عمران] أي : تمسكوا بدينه .
واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾
[يوسف] أي : فامتنع متمسكاً بعصمته وبعفة نفسه ويحفظها من السوء . [القاموس
القويم ٢٣/٢ ، ٢٤] .

(٣) الصَّغِير يكون ماديًا في الحجم ، ويكون معنويًا في القبر والمنزلة وهو ضد الكبير .
وصغير : في حجمه أو في قدره ومنزلته ، فمن المادى قوله : ﴿ وَلَا تَسْأَلُوا أَنَّا تَكْتُمَ صَغِيرًا
أَوْ كَبِيرًا ﴾ [البقرة] . ومن المعنوى قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الاعراف]
[القاموس القويم ٢٧٧/١] .

وهنا موقف أسلوبى : لأن الكلام حين ينطق به ، أو حين يكتب ليقرأ : له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية^(١) : وقد يكون نثراً مسجوعاً^(٢) أو مُرسلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالطُّورِ ^(١) ﴾ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ ^(٢) فِي رَقٍّ ^(٣) مُّثَوًى ^(٤) وَالْبَيْتِ ^(٥) الْمَعْمُورِ ^(٦) ﴿ [الطور]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلف ، وأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً : فأذنك تأخذ منه على قدر سمؤ أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده فى الرسالة التى كتبها ابن زيدون^(٥) مُستعظفاً ابن جهور:

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تقف البيت . وقال الاخفش : القافية آخر كلمة فى البيت .
(٢) السجع : الكلام المقفى . وسجع يسجع سجعاً تسجيعاً : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن . وصاحبه سجاعة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كان كل كلمة تشبه صاحبها . قال ابن جنى : سمي سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله . [لسان العرب - مادة : سجع] .

(٣) الطور : جبل بسيفاء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ ^(١٥٤) ﴾ [النساء] ، ويسمى أيضاً : ﴿ طُورِ سِجَّاءٍ .. ^(١٥٥) ﴾ [المؤمنون] و ﴿ وَطُورِ مِصِينَ ^(١٥٦) ﴾ [التين] . [القاموس القويم ٤٠٨/١] .

(٤) الرق : الجلد الرقيق يكتب عليه ، وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ٢٧٢/١] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المصنوعى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٢٩٤ هـ ، انتقل إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس . ترقى بإشبيلية عام (٤٦٣هـ) فى أيام المعتمد على الله ابن المعتضد . { الاعلام للزركلى ١٥٨/١ } . ينصرف .

« هذا العُتْبُ محمودٌ عواقبه ، وهذه الغُمرَةُ نَبْوةٌ ثم تنجلي ، ولن يريبنى من سيدى إن أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، قابطاً الدلاء قَبْضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عُتْبُ عليه فى اغتفاله . فإن يَكُنْ الفعلُ الذى ساءَ واحداً فافعله اللاتى سرورُنُ ألوفُ وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وانت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرسَل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعري على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق فى الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنَا عنها :

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ (٣٢) ﴾ [يوسف]

فهى موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور]

وأيضاً قوله الحق :

﴿ نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

(١) قال الأزهري : قرأ ابن كثير ونافع وابن عمر وابن عباس والكسائي : أمينا الصراط المستقيم ، بالصاد ، وقرأ يعقوب بالسين ، قال : وأصل صانه سبع قلبت مع اللام صاناً لقرب مخارجها . قال الجوهري : الصراط والسرائط : الطريق - [لسان العرب - مادة : صراط] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نشرًا ، مما يدل على أن التغم الذى قاله الله تَظْمًا أو شعرًا أو نشرًا لا تشاز^(١) فيه ، ويكاد أن يكون سَيَلًا واحدًا .

وهذا لا يتأتى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهك أحد لما فى بعض الآيات من وزن شعري .

أما كلام البشير : فانت إن قرأتَ الموزون : ثم انتقلت إلى المنثور : أحسَّتْ أذنك بهذا الانتقال : ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون : وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ قَدْ لَبِئْتُ الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ ﴾ (٣٢) [يوسف]

قالت ذلك بجرأة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه « استعصم » ، وهذا يعنى أنه قد تكلف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَسَجُنُّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٣٣) [يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها هُنَّ من أكبرن يوسف لحظة رؤيته : تعلن لهنَّ أنه إن لم يُطعها فسيما

(١) نشر الشيء ينشر نشرًا : ارتفع ، وقل ناشز : مرتفع ، ونشر فى مجلسه ينشر : ارتفع قليلا ، وانشز الشيء : رفعه عن مكانه . [لسان العرب - مادة : نشر] .

تريد : فليسوف تسجنه وتُصَغَّرُ من شأنه لإدلاله وإهانته .

أما النُسوة اللاتي سَمِعْنَهَا : فقد طمعتُ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر : حتى تنفرد أي منهن به .

ولذلك يُورد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ^(١)
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٢) ﴾ (٣٢)

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٣٢) [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هي التي قالت :

﴿ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْغَبَنَّ^(٣) .. ﴾ (٣٢) [يوسف]

(١) الصِّرف : ودُّ الشيء من حال إلى حال - وصرف السجين : أخلى سبيله ، وصرف القلوب يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ (التوبة) أي : حوّلها . [القاموس القويم ٢٧٤/١] .

(٢) صَبًا بصير : مال وأحب ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٤) ﴾ [يوسف] أي : أميل إليهن وأفعل ما يفرينني به . وصبا إلى اللهو : حُرٌّ واشتاق إليه . [القاموس القويم ٣٦٨/١] .

(٣) الجهل : الطيش والسفه والتعدي بغير حق ، والجهل : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة ، واسم الفاعل : جاهل ، وصيغة المبالغة : جهول ، ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿ وَلَنُكَبِّرَنَّ أَكْثَرَهُمْ بِجَهْلِهِمْ^(٥) ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم ١/١٣٥] .
بتصرف .

وتقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحى له بالأمر يُعرض نفسه لتلك الورطة التي ستؤدي به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام في قوله المفرد - امرأة العزيز - في جمع النسوة اللاتي جمعتنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتي طلبنَ منه غمزا أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه في محاولة لاستمالته^(١) ، وللعيون والانفعالات وقسمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دلت يوسف على المراد الذي تطلبه كل واحدة منهن ، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس في مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء^(٢) ، وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمْتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون في المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خفيةً بأنه سيُجزل^(٣) له العطاء إن أبعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أي شيء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢٥٠٧/٤) ، أن كل واحدة طلبت أن تخلو به للتصريح في امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعدله (تلوم) في حقها ، وتأمره بمساعدتها . فقلعه يجيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ، فقال : يا رب كانت واحدة قصيرَ جماعة ، هجاء يهجو به هجاء : شتمه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الواقعة في الأشعار ؛ [لسان العرب - مادة : هجو] .

(٢) الجزيل : العظيم . وأجزلت له من العطاء أي أكثر . وعطاء جزل وجزيل إذا كان كثيراً . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [لسان العرب - مادة : جزل] .

أَلَا أُبْلِغُ لَدَيْكَ أَبَا دَلَامَةَ فَلَيْسَ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا كِرَامِهِ
إِذَا لَبِسَ الْعِمَامَةَ كَانَ قِرْدًا وَخِزِيرًا إِذَا خَلَعَ الْعِمَامَةَ

وهكذا خرج من قسم الأمير : وكسب العطايا التي وعده بها من
حضرُوا المجلس .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها نجد يوسف عليه
السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة : فقال :

﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٢٢) [يوسف]

أى : أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل
الفحشاء ، أو يوافق النسوة على دعوتهن له أن يُحرّر نفسه من
السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿ وَالْأَنْصَرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَأُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢٣) [يوسف]

ولسائل أن يقول : ولماذا لم يقل يوسف « يا إلهي » وهو يعلم
أن مناط التكليف في الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله
سبحانه : لأنه هو جلّ وعلا من ربّاه وتعهدّه : وهو هنا يدعوه باسم
الربوبية ألا يتخلّى عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر : وإن لم يصرف الله
عنه كيدَهُنَّ : لاستجاب لغوايتهن ، ولاصباح من الجاهلين الذين
لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كروه ؛ إلا أنه قد فضله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُرَبِّي الأول . لتأتى الاستجابة منه سبحانه .
يقول الحق :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣١﴾

وهكذا تفضل عليه الله الذى خلقه وتولى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهن ؛ الذى تمثل فى دعوتهن له أن يستسلم لِمَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ امرأة العزيز ، ثم غوايتهن له بالتلميح دون التصريح .
تلك الغواية التى تمثلت فى قول الملك من بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ ۚ إِذْ رَأَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ ۝٥٦﴾ [يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكر النسوة ؛ وهو جلّ وعلا له مُطلق السمع ومُطلق العلم ، ولا يخفى عليه شيء . ويستجيب لأهل الصدق فى الدعاء .
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ ۚ لَيْسَ جُنْدُهُمْ حَتَّىٰ يَحِثُّ ۝٣٥﴾

- (١) الخطب : الشأن الذى تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿ قَالَ لَمَّا خَطَبْتُمْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ۚ ۝٥٧﴾ [الحجر] أى : ما شأنكم الهام . [القاموس القريم ١/١٩٨] وقال فى اللسان : « الخطب : الشأن أو الامر ، صَغُرَ أو عَظُمَ . ومنه قولهم : جُلَّ الخطب أى : عظم الامر والشأن » .
(٢) قال ابن عباس : « القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبي فى تفسيره (٤/٣٥٠٨) .

وبعد أن ظهرت العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقع بيوسف في الفعل القاضٍ معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَعَ يوسف عليه السلام في السجن ؛ ليكون في ذلك فَصْلٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيَسْجُنُهُ ۚ ۖ ﴾ (٢٥) [يوسف]

فيها نوع من استيقاء الحب الذي يَكُنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نفيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المصيرّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذي يَلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن - كما نعلم - هو حبس المسجون لتقييد حركته في الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضي أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شرّه .

ونعلم أن الإنسان لا يجترئ على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضي أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَانٌ ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه في العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعض من اقاربه ، ومعهم المأكولات ، والمطلوبات .
ولكن هناك سجن ديني أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع
الإيماني عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألا يكلم أحد الثلاثة^(١)
الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا
العزل إلى أن صار عزلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل
بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف في السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي
أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وخرابة بن الربيعه العامري ، وهلال بن أمية الباقفي ،
أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة في التخلّف عن الخروج مع
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٣٥١١/٤) : « قال « فتیان » لأنهما كانا عبيدین ، والعبد يُسمّى
فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الباوردي . وقال الفشيري : ولعن الفتى كان اسماً للعبد
في عرقهم ، ولهذا قال : ﴿ تَرَاوَدُّ عَنْهُمَا ﴾ [يوسف] . »

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذي يغطي العقل ويذهب به ، وهي إما مأخوذة من خمرت
الشيء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه
فاختمر ، والخمر في صنعيها يوضع الخمير على العصير ويترك حتى يخمر فتؤخذ منه
الخمر ، قال تعالى : ﴿ سَأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة] وقوله
تعالى : ﴿ إِنِّي أُرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف] أي : أعصر عنباً لبصير خمرًا فهو مجاز
مرسل علاقته ما سبّطول إليه . [القاموس القويم ٢٠٩/٦] بتصرف .

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٣٥١٢/٤) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويدأويهم ، ويعزّي
الحرّان . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسع
عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . »

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية مع السجن هي معية ذات ،
وقيل : إنهما الخباز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة
بطانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى : هي
فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف : ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز : وأن الساقى
والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السم للعزيز^(١) .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد
معايشة يومية له تكشف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حلمًا ، فقررا أن يطلبوا منه تأويل هذين
الحلمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوسواس ، غير آمن على
قده : ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يهمهم :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حلمين : فواحد منهما رأى فى
منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْراً فوق رأسه تأكل
منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كُلُّ منهما على حدة - يطلبان - تأويل
الرؤييين المناميتين ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأويل هذا الأمر الذى
رأياه .

(١) مما ذكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك
عمر فيهم فقلوه فندسوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمماه جميعاً ، فاجاب الخباز وأبى
صاحب الشراب ، فاتطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ،

فاينثاقهما بيوسف . [تفسير القرطبي ٢٥١١/٤] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦)

[يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عمله مقاييس الإحسان في ذهن من يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أي أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لعرفوا أن الإحسان قدر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص - على سبيل المثال - لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقة ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ؛ ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إن أردت أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسلباً .

والمثال الذي أضربه دائماً هو : قبل أن تُمَدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسن إن نقلت الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك للأمور - وقد اعتدل ، وإذا أردت اعتدال الميزان في كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قلب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضَيِّقْ حريتك ؛ بل ضَيِّقَ حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذي يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ؛ وعلم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكانه قال لهما : ماذا رأيكما من إحساني ؟ هل رأيتم حسناً معاملتي لكم ؟ أم أن كلا منكما قد رأى دقة اختياري للحسن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي - بفضل الله - ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية :

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي
إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧)

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ،
ولكن هناك أمور مخفية ، وكأنه ينمى فيهما شعورهما بمنزلته
وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أي طعام يُرْزَقَانِهِ
قبل أن يأتي هذا الطعام^(١) .

وهذه ليست خصوصية في يوسف أو من عندياته ، ولكنها من
علم تلقاه عن الله ، وهو أمر يُعلمه الله لعباده المحسنين ؛ فيكشف الله
لهم بعضاً من الأسرار .

ومما - السجينان - يستطيعان أن يكونا مثله إن أحسنّا الإيمان بالله ،
ولذلك يتابع الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) [يوسف]

(١) الملة : الدين ، حقاً كان أو باطلاً . فمن الحق قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُرَغَّبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (٣٢) [البقرة] . وهي الدين الحق . ومن الباطل قوله : ﴿إِنَّهُمْ إِذْ يَنْظُرُونَ عَلَيْكَ يُرْجِمُونَكَ أَوْ يُعَذِّبُونَكَ لِإِيْمَانِهِمْ﴾ (٢٠) [الكهف] . وهي ملة باطلة : [الفاموس القويم
٢٣٦/٢] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٢٥١٢/٤) : قوله : ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ (٣٧) [يوسف]
يعنى : لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما : ﴿لَا تَأْتِيَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ (٣٧) [يوسف] لتعلمنا اني
أعلم تأويل رؤياكم . وكان هذا من علم الغيب حصّ به يوسف ، ويبيّن أن الله خصّه بهذا
العلم ؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى : دين الملك .

وكانه بذلك يهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هبات الخير ، فيعلمون أشياء تخفى على غيرهم .

وهذا يدلنا على أن المؤمن إذا رأى في إنسان ما مخيلة^(١) خير فليكنى هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ، وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ، ولكي يُطمع العباد في تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً في النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨)

(١) إنه المذيل للخير أي : خليق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيّل عليه تخيلاً ، كلاهما : اختاره وتقرّس فيه الخير . وتخوّلت فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أي : رأيت مخيلته . وتخيّل الشيء له : تشبّه . وتخيّل له أنه كذا أي تشبّه وتخاليل . يقال : تخيلته فتخيّل لي ، كما نقول تصوّره فتصوّر . وتبينته فتبين . وتحقّقته فتحقّق . [لسان العرب - مادة : خيل] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذي في سننه (٢١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٢ ، ٤١٦) ، والحاكم في مستدركه (٢/٢٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملة القوم الذين لا يعبدون الله حقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم من أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادي ، وقضاه سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لمن يعرف ذلك أن يشرك بالله ، فالشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّعَىٰ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١)

[المؤمنون]

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كل إله شيئاً لا يقدر على صنعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله - هكذا أوضح يوسف عليه السلام - أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلغوا منهجه إلى خلقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

وساعة تقرا أو تسمع كلمة : ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٨)

[يوسف]

اعلم أن الأمر الذي أنت بصدده هو فى مقاييس العقل والفترة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْرُ إلا على النعمة .

ولو قَطَرَ الناسَ لَشَكَرُوا الْآنِيَاءَ وَالرُّسُلَ عَلَى الْمَنْهَجِ الَّذِي بُلِّغُوهُ
عَنِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ يَهْدِيهِمْ إِلَى حُسْنِ إِدَارَةِ الدُّنْيَا ، وَفَوْقَ ذَلِكَ يَهْدِيهِمْ إِلَى
الْجَنَّةِ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه
للسجينين :

﴿يَصْصَحِي السَّجْنُ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ^(١)﴾
﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(٢)﴾

وكلمة « صاحب » معناها ملازم^(٣) ؛ والجامع بين يوسف
والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو
« صاحب حج » ، الشيء الذي يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه
للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذي جمع بين تلك المجموعة من
الأصحاب .

(١) الزب : هو الله عز وجل . وهو رب كل شيء أى ماله ، وله الربوبية على جميع الخلق .
لا شريك له . وهو رَبُّ الْأَزْيَابِ . ورب كل شيء : ماله ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة
على المالك والسيد والمسيطر والعربى والصاحب والقيّم والمنعم . [لسان العرب - مادة :
رب] بتصريف .

(٢) قهره يقهره قهراً : عليه وإذله . قال تعالى : ﴿قَاتِلُوا الْجِنِّ فَلَ تَغْزُوا^(١)﴾ [الضحى] .
والقاهر : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ^(٢)﴾ [الأنعام] أى : المسيطر
عليهم . [القاموس القويم ١٣٦/٢] بتصريف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثرت ملازمته . صحبه يصحبه وصاحبه : عاشره . والصاحب :
المعاشر . [لسان العرب - مادة : صحب] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ [يوسف]

وحين تطرح سؤالاً عبر مقابيل لك ، فانت تعلم مقدماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكان يوسف قد وثق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكن ليسأل إلا إذا عرف أنهما سيديران كل الاجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذي أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض في مقاييس الأشياء أن تغنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : في قوَى البشر نجد التعدد يثري ويضخم العمل ، لكن في الالهوية نجد الشرك يُضعف العمل .

ولذلك نجد للصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الواجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبيه السجن :

﴿أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ .. (٣٩)﴾ [يوسف]

ولو كان تفرقهم تفرق ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرقهم تفرق تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرقهم تفرق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطة قوة ونقاط ضعف ؛ وتفرقهم هذا دليل نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ^(١) وَرَجُلًا سَلَمًا^(٢) لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٣)﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ،
وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا آيَاتِهِ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٤)﴾

ونلاحظ أن يوسف - عليه السلام - لم يتكلم حتى الآن مع
السجينين عن مطلوبيهما منه ، وهو تاويل الرؤيتين ، وهو لو تكلم في
المطلوب منه أولاً : لانصرف ذهن وانتباه كل من السجينين إلى قضاء

(١) شكس: ساء خلقه وغلب عليه حب النزاع - وتشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال
تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ..^(٦٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرِك
له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ٢٥٤/١] .

(٢) السَّلَم : السَّلَام : الأمان وعدم الحرب : ﴿ ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَالْفِئَةِ^(٦٠)﴾ [البقرة] في الصلح
والمهادنة والاستسلام : ﴿ رَأَوْا إِلَهُكُمُ السَّلَامَ ..^(٦١)﴾ [النساء] سالموكم وخضعوا لكم
واستسلموا لكم . وقوله تعالى : ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ..^(٦٢)﴾ [الزمر] أي : ملكاً خاضعاً له
لا يتنازعه فيه أحد . [القاموس القويم ٢٥٤/١] .

(٣) الْقَيْمُ : الثابت المستقيم الذي لا عوج فيه . أو المقوم المعزّل للأمور أو المهيجن المشرف
عليها . ومن ذلك قوله : ﴿ دِينًا قِيَمًا ..^(٦٣)﴾ [الأنعام] أي : مستقيماً أو مقوماً لغيره من
الاديان السابقة . [القاموس القويم ١٤٢/٢] .

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذي يدعو إليه هو الأمر الأبقى ، وهو الأمر العام الذي يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهم إلى الأمر الجوهرى قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التى يسألان فيها ؛ وأراد أن يُصَحِّحَ نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفى هذا إشار لا أثره^(١) .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ .. ﴾ (٤٠) [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة متعددة هو مجرد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتم بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كُفَر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتوضيح الأسماء عادة للدلالة على المسمى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذهن ؛ ولذلك نسمى المولود بعد ولادته باسم يُمَيِّزُه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

(١) أثره عليه : فضله . وأثرت فلانا على نفسى . من الإيثار . ويقال : قد أخذ بلا أثره وبلا إثرة وبلا استئثار . أى : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [لسان العرب - مادة : أثر] .

وإذا أطلق اسم واحد على متعددين : فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمثل من الريف المصري : حين يتفاهل أب باسم « محمد » : فيسمي كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يميز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضع اسم لمسمى غير موجود : فهذا امر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة : فصارت هناك أسماء على غير مسمى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة : ليسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (٧٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ (٧٤) [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تكن هناك آلهة : بل كان هنا أسماء بلا مسميات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَإِبَارُكُمْ . . ﴾ (٤٠) [يوسف]

وكان يوسف يتساءل : إذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مسمى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مسمى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسَمًّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزل معهم المنهج الذي يوجز في « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسَمًّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن ينزل منهاجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام في رَصَف تلك الأسماء التي بلا مُسَمِّيَّات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .. ﴾ (٤١)

[يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ .. ﴾ (٤٢)

[يوسف]

أى : إننى - والكلام ليوسف - إن قلتُ شيئاً فلأنى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندي ؛ ولا عن هواى ؛ لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ؛ أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذِلُّ الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣)

[يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلغتهم بالمنهج ،

ولكنهم لم يُوظَّفوا هذا العلم في أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام في تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿يَصْحَبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(١)

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَّبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه ؛ وهذا يعنى أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الأحاديث ، وهي قدرة على فكِّ شفرة الحُلم ، ويعطيها الله لمن يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمن قال :

﴿إِنِّي أَرَانِي أُعْصِرُ خَمْرًا ..﴾^(٢)

[يوسف]

أنه سنوف يخال العفوَ حسب ما أظهرته الرؤيا التي قالها ، وأما

(١) استفتاه : طلب منه الفتوى وسأله رأيه في مسألة لائقاه ، فاجابه . قال تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ

أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْبُيُوتُ﴾ [النساء: ٦١] . وقال : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْصِلُ بَيْنَ

﴿٦٢﴾ [النساء] .

الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أى : سيُصَلَّب كما أوحى بذلك رموز الرؤيا .

ونلاحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذى أوضحته الرؤيا عن الاثنين صاحبي الرؤيتين .

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُنصباً على الحكم : لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما : وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، وَمَنْ الذى سوف يُعاقب .

فتزع يوسف ذاته من الأمر . ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه : لأن الهوى يَكُونُ الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا يد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويُعلمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَقِيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ (٢٢) وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٣) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا (٢٤) وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٥) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسْؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ

(١) تسور السور : تسلف وعلاه . قال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [ص] [القاموس القويم ١/٣٢٥]

(٢) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شيء . قال تعالى : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا (١٠)﴾ [الكهف] أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٤٤٩] .

(٣) أكفلنيها : أى اجعلني كافلاً لها راعياً شؤونها مالمكأ لها . عزني فى الخطاب : غلبني وقهرني . [القاموس القويم ٢/١٨، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ
دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نعاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفه ؛ وكان يريد أن يُصوِّرَ الظلم الذي وقع عليه ، وحكم داود بأنَّ مَنْ أَخَذَ النِّعْجَةَ لِيُضْمِمَهَا لِنِعَاجِهِ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ ؛ وشعر داود أنه لم يُوقِّقْ في الحكم ؛ لأنه ذكر في حيثية الحكم نعاج الذي أراد أن يأخذ نِعْجَةَ أَخِيهِ .

فَالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذي أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتُبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوقِّقْ فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرؤيا متجرباً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ﴿٤١﴾ [يوسف]

أي : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذي وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن غمته ابنة إسحق ، وهي أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تخب أحداً قَدْرَ محبتها له .

(١) خر راعياً ؛ أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من علو . [القاموس القويم

وتناقت نفس يعقوب إلى ولده : فذهب إليها وقال لها : سلمى إلى يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدت إلى شيء^(١) من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعت تحت ملايس يوسف .

وكان العُرفُ الجارى أنه إذا سرق أحد شيئاً وتمَّ ضبطه : تحول من حرٍّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته : أعلنت العمّة فقدان الشيء الذى أعطاه لها والدها إسحاق : وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلْمٌ - أى عبد - وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقى يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لفُؤايتها ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أودع السجن : ويقول الرواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرف فى السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْنُ السمْتِ^(٢) ، وكثرة العيادة ، ومعرفة التعبير - أى تأويل الرؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

(١) هذا الشيء هو مُطْلَقَة إسحاق فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤٨٦/٢] والمنطقة : هى كل ما شد به الإنسان على وسطه ، وقد انتطق : أى شد النطاق على وسطه . [لسان العرب - مادة : نطق] .

(٢) السمْت : حسن القصد والمذهب فى أمور الدين والدنيا . قال خالد بن جَنْبَة : السمْت اتباع الحق وإتهدى وحسن الجوار وقلة الأذى . [لسان العرب - مادة : سمْت] .

ولما دخل هذان القَتَيَانِ معه السجن : تَأَلَّفَا بِهِ وَأَحْبَاهُ حُبًّا شَدِيدًا
وَقَالَا لَهُ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَحْبَبْنَاكَ حُبًّا زَائِدًا . قَالَ : بَارِكِ اللَّهُ فِيكُمَا ؛ إِنَّهُ
مَا مِنْ أَحَدٍ أَحَبُّنِي إِلَّا دَخَلَ عَلَيَّ مِنْ مَحَبَّتِهِ ضَرَرٌ ، أَحْبَبْتَنِي عَمَّتِي فَدَخَلَ
الضَّرَرُ بِسَبَبِهَا ، وَأَحْبَبْتَنِي أَبِي فَأَوْدَيْتُ بِسَبَبِهِ ، وَأَحْبَبْتَنِي امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ
فكَذَلِكَ .

أى : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جناه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك ،^(١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظن أنه سينجو
من السجن :

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أذْكُرْنِي عِندَ

رَبِّكَ^(٢) فَأَنَسَّهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي

السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

والمقصود هنا هو السجين الذي رأى حلمًا يعصر فيه العنب .
فهو الذي فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته في
صناعة الخمر لسيدته .

(١) قال القرطبي في تفسيره [٢/٢٥١١] إن صاحب السجن أحب يوسف . فوسع عليه فيه ، ثم

قال : يا يوسف لقد أحببتك حبًّا لم أحب شيئًا حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم

ذلك ؟ فقال : أحبني أبي ففعل بي إخراجي ما فعلوه ، وأحببتني سيدتي ففعل بي ما ترى .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى راعي الأسرة وزئیسها .

[القاموس الفويم، ١/٢٥١] . يتصرف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ .. (٤٢) ﴾

[يوسف]

يعنى أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. (٤٣) ﴾

[يوسف]

والذكر هو حضور شيء بالبال ؛ وكان له بالبال صلة استقبال ، مثل أى قضية عرفتْها من قبل ثم شركتْها ، ونسيتها لفترة ، ثم تذكرتها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهى لا تظل فى بؤرة الشعور كل الوقت ؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشيء واحد ، فإن جاء شيء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد فى بؤرة الشعور .

والمثل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يبيد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ؛ ثم يأتى ما يُذكرك بما فى حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذى كنت قد نسيتَه وتذكره بكل تفاصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُستويين ؛ فهى تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه ناج :

﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

أي : اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول : شاء له الله أن يمكث في السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغي له كرسول أن يُوسَّطَ الغير في مسألة ذكره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي ؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي .. (٢٧) ﴾ [يوسف]

وهذا يعني أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذي يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنبَأَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾

[يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مراداته من خلقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين : ونعرف
أن البضع من السنين يعنى من ثلاث سنوات إلى عشر سنوات ،
وبعض العلماء حدّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ^(١) وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ
وَأُخْرَى ^(٢) يَأْسَتُ بَنَاتُهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ
كُنْتُ لِلرُّءْيَى بِتَعْبُرُونَ ﴾ (٤٢)

والأرض التى وقعت عليها ، وحِثَّتْ فوقها تلك القصة هى مصر .
وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ .. ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّونَ الفراعنة ، وبعد
أن اكتُشِفَ « حجر رشيد » ، وتم فكُّ اللغز اللغز الهيروغليفية : عرفنا

(١) عجف: مزل نهو أعجف وهى عجفاء .. وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴾ (٤٢)

[يوسف] هى الهذلى التى لا لحم عليها ولا شحم ضربت مثلاً بسبع سنين لا قطر فيها ولا
خشب [لسان العرب - مادة: عجف] .

(٢) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والتجامة والعراقة والسحر وأشراف

قومه . [راجع : تفسير القرطبي ٢٥٢٠/٤] .

أن حكم الفراعنة قد اختلفى لفترة ؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ،
وهم الذين يُسمُّونَ الهكسوس .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف
وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ،
وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود ملك في مصر أثناء قصة يوسف عليه
السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن .

وساعة تقرأ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ۖ ۝٤٣ ﴾

[يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعنى أنها رؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ ۝٤٣ ﴾

أي : مُمْتَلئة اللحم والعافية . وكلمة (عِجَاف) أي : الهزيلة ؛ كما
يُقال عند العامة « جلدها على عظمها » ؛ فكيف تاكل العجاف
السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولا ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعٌ سُتَلَاتٍ خُضَرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ ۝٤٤ ﴾

ولم يَصِفِ الملك أى فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله
من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدُور المجالس ، ويملاون العيون :

﴿ أَقْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٣) [يوسف]

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أى : انتقل من شاطئ إلى شاطئ ، وكأنه يطلب منهم المراد المطوى قى الرؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العبرة » ، وهى التجربة التى نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شيء مكتوم فى النفس ، وتؤذيه ، وتُظهره بالعبارة .

ومنه « العبرة » ، وهو الدُّمعة التى تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما : سواء كانت مشاعر حُزن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسر الرؤيا حسين يعبر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملا الذين حول الملك تفسيراً للرؤيا التى رآها فى مقامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على سنتهم :

﴿ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُمْ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (١)

وهكذا أعلن الملا أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى .

(١) الضغت : قبضة من قضبان مختلفة من النبات . وقوله تعالى : ﴿ أَهْلَانِ أَحْلَامٍ ۖ ﴾ (١١)

[يوسف] أى : أحلام مختلفة مختلفة ملتبسة غير مميزة على سجل الاستمارة ، كالأشياء

المختلفة . [القاموس القويم ٢٩٤/١] .

و « الضَّعْفُ » هو حُرْمَةٌ من الحشائش مختلفة الاجناس : فكأن رؤيا الملك لا تأويل لها عندهم : لانهم ليسوا من أهل التمييز في التأويل .

وهذا صدق من البطالة في الأ يخبر أحدهم بشيء ، إلا إذا كان على علم به : ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .
والذى يعلن جهله بأمر لسانه - ويكون قد علمه - يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب : فربما جعله يثبت على هذا الجواب .
ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصدق في الفتيا : « مَنْ قَالَ لَا أَدْرِي فَقَدْ أَفْتَى » : لأنه حين يقول « لا أدري » : سيضطر إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (١) أَنَا أَنْبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٢) ﴾

ويكان الذى نجا من السجينين يسمع مقالة الملك ورد الملا :
فاسترجع بذاكرته ما مر عليه في السجن : وكيف رأى الرؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

(١) ادكر : اصلها اذكرك على وزن افعلول ، فليت ناه الافعلال دالا وذال الفعل دالا وادغمت

الدالان : ﴿ وَلَقَدْ نَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) ﴾ [القمر] [القاموس القويم ٢٤٤/١] .

(٢) الأمة : الفتنة والحين والوقت ، وفسر به قوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (٢) ﴾ [يوسف] .

وقرأ ابن عباس : وادكر بعد أمه ، بالهاء : والأمة : الشيطان والغفلة أى تذكر بعد نسيان .

[القاموس القويم ٢٤/١] .

وقوله : ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ ۝ (٤٥)﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذممه ؛ وافستعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مرَّت ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ (٨)﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا^(١) لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ (١٢٥)﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبيينا السلام ، وبعد أن افستعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أن كان سجيناً ورأى رؤيا منامية أولها له يوسف . قال الساقى للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿أَنَا أَنبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۝ (٤٥)﴾ [يوسف]

وبذلك استأنن ليذهب إلى مَنْ يُؤَوِّلُ له رؤيا الملك .

وقوله : ﴿فَأَرْسِلُونِ ۝ (٤٥)﴾ [يوسف]

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . وقتت المؤمن بانه : اطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقتت فى صلاته : خضع واعطاه . وقتت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ١٢٤/٢].

يعنى أن التاويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تأويل
الرؤى .

ونلاحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل ؛ إلى من سوف
يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .
وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛
فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك :

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ
خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسُتِ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. ﴾ (٤٦)

[يوسف]

يدل على أنه قد جربه في مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صِدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق في كل أقواله ؛
وصادق في كل أفعاله ، وصادق في كل أحواله ، ولكن معناها يتسع
ليدلنا على أن الصدق ملازم له دائماً في القول وفي الفعل .

(١) الصِّدِّيق : بكسر الصاد وتشديد الدال: صيغة مبالغة من الصدق . ﴿ أَوْلَيْتُكَ مِمَّنْ الصِّدِّيقُونَ
.. ﴾ (١٩) [الحديد] ، وهي صِدِّيقَةٌ : ﴿ وَأُمُّهُ مِصْرَقَةٌ .. ﴾ (٢٥) [المائدة] هي مريم عليها

أما في الأقوال فصدقه واضح : لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدل عليها .

وأما صدق الأفعال فهو الأُ تَجْرُبُ عليه كلاماً ، ثم باتى فعله مخالفاً لهذا الكلام : وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صَدِيقٌ » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان في الحياة تنقسم قسمين : إما قول وإما فعل : والقول أدواته اللسان ، والفعل أدواته كل الجوارح .

إذن : فهناك قول ، وهناك فعل : وكلاهما عمل : فالقول عمل : والرؤية بالعين عمل : والسمع بالأذن عمل ، والمسُّ باليد عمل .

لكن القول اختصُّ باللسان ، وأخذت بقية الجوارح الفعل : لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان : إما قول : وإما فعل .

والصَدِيقُ هو الذي يصدُقُ في قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق في فعله بالأُ يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا ^(١) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

(١) المقت : أشد الإغاض . مقت يمقته : أبغضه . ويقول تعالى : ﴿ لَمَسْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ مُقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ٥ ﴾ [غافر] قال : يقول : لمقت الله إياكم حين دعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا أكبر من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب . [لسان العرب - مادة : مقت] .

التجربة الاولى : تجربة مُعَايشَتِهِ فِي السَّجْنِ هُوَ وَزَمِيلُهُ الْخَبَّازُ ،
وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٥) [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّلَ لهما الرؤييين :
﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٦) [يوسف]
والتجربة الثانية : هي مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً
لتأويله للرؤييين ، ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ
وَسَبْعِ سُتَبَلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٦) [يوسف]

أى : أفتنّا في رؤيا سبع بقرات سِمَانٍ : يأكلهن سبع عِجَافٍ
شديدة الهزال ، وسبع سُتَبَلَاتٍ خُضْرٍ ، وسبع أُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَعَلِّي
أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصّه : بل هي تخص رائيها لم
يُحدده ، وإن كنا قد عرفنا أنها رؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴾ (٤٦) [يوسف]

هو تحرُّز واحتياط في قضية لا يجزم بها : وهو احتياط في واقع

قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۚ (٢٤) ﴾ [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجت نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد تكررَ الله فهو سبحانه قادر على أن يهديك إلى الاختيار المناسب في كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكان الله يُعلم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططت فانت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدم على أي فعل ؛ فأنت فعل مهما صغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة ، لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أن تردَّ كل شيء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقى :

﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٢٦) ﴾ [يوسف]

وبذلك يُعلمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

وكان الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السلام : ويعود به إلى الناس : فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل ؟

أستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجة^(١) فيه ؟ أو يستقبلون التأويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرَكَ ومنزلتك يا يوسف : فيُخلصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦)﴾ [يوسف]

قد يدفع سائلاً إلى أن يقول : من الذي كُلِّف الساقى بالذهاب إلى يوسف : أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد نسبها الساقى إلى الكل : للاحتياط الأدائى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ
فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧)

وهذه بداية تأويل رؤيا الملك .

والدَّأَب معناه : المُواظبة : فكان يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأب وبدون كسل .

(١) تحاجاً : تخاصماً وتنازعا الحجة . كل منهما يحاول أن يثبت أنه الحق . قال تعالى : ﴿وَأُذِ تَحَاجُّونَ فِي النَّارِ .. (٤٧)﴾ [غافر] أى : يتخاصمون . [القاموس النبوي ١/ ١٤٣] .

(٢) دأب على الأمر : اعتاده . والدَّأَب والدَّأَب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿يَمْلَأُ دَابَّ قَوْمِ نوح

.. (٣٧)﴾ [غافر] أى : عاداتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧)﴾

[يوسف] [القاموس القويم ١/ ٢٩٩] .

وَيَتَابِعُ : ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَكُلُونَ ﴾ (٤٧)

[يوسف]

أى : ما تحصّدونه نتيجة الزرع بجدّ واجتهاد ؛ فلكم أن تاكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً في سنبله .

والحفظ في السنابل يُعَلِّمُنَا قَدْرَ الْقُرْآنِ ، وَقُدْرَةَ مَنْ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ سُبْحَانَهُ ، وَمَا آتَاهُ اللَّهُ جَلَّ عِلَاهُ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِلْمٍ فِي كُلِّ نَوَاحِي الْحَيَاةِ ، مِنْ اقْتِصَادٍ وَمَقُومَاتِ التَّخْزِينِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَطَاءَاتِ اللَّهِ ، فَقَدْ أَتَيْتِ الْعِلْمَ الْحَدِيثُ أَنَّ الْقَمْحَ إِذَا خُزِّنَ فِي سُنْبُلِهِ ؛ فَتِلْكَ حِمَايَةً وَرَقَايَةً لَهُ مِنَ السُّوسِ .

وبعض العلماء قال في تفسير هذه الآية : إن المقصود هو تخزين القمح في سنبله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو ترك القمح في سنبله فقط ؛ لأن العيدان هي طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان : وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمح أثناء عملية « الدُّرْس » ؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُتَفَصِّلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التي تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهي نوعان : « ردة خشنة » و « ردة ناعمة » .

ومن عادة البعض أن يَفْصِلُوا الدقيق النقي عن « الردة » .

وهؤلاء يتجاهلون - أو لا يعرفون - الحقيقة العلمية التي أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالي من « الردة » يصيب المعدة بالتلبُّك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوي على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف في مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمونه « الدقيق العلامة » ؛ الذي إن وضعت ملعقة منه في فمك ؛ تشعر بالتلبُّك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعي الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ؛ فلن تشعر بهذا التلبُّك .

ويمتنُّ الله على عباده بذلك في قوله الحق :

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ^(١) وَالرِّيحَانُ ^(٢) ﴾ [الرحمن]

وقد اهتمدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة في طحن القمح مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقي للغاية ؛ يعاني من ارتباك غذائي يُلجئه إلى تناول خبز مصنوع من قشر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السن » ؛ ليعوض في غذائه ما فقدته من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(١) الحب ذو العصف : أي ذو الثين أو ذو الورق الذي يخلقه . والعصف والعصيفة : ورق السنبل . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢٧١/٤) : « معنى هذا والله أعلم أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال شبابه عصف وهو ما على السنبل ، وريحان وهو الورق العلف على ساقها » .

﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الماسي الذي جاء يطلب منه تاويل رؤيا الملك : بما يجب أن يفعلوه تحسباً للسنوات السبع العجاف التي تلي السبع سنوات المزدهرة بالخضرة والعطاء ، فلا ياكلوا ملء البطون ؛ بل يتناولوا من القمح على قدر الكفاف :

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التاويل لحلم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا حَصَّنْتُمْ ﴾ (٤٨)

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث في مصر من جذب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذي يتطلب همه لا تفتر .

وقوله سبحانه في وصف السبع « سنوات » بأنها :

﴿ شِدَادٌ ﴾ (٤٨) [يوسف]

يعنى : أن الجذب فيها سوف يجهد الناس ؛ فإن لم تكن هناك

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٥٢٦/٤) : « أى : مما تحبسون لتزعموا ، لأن في استبقاء البذر تحصين الاقوات » قال أبو عبيدة : حمزون ، وقال قتادة : تحصنون : تدخرون ، والمعنى واحد . »

حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدّث
المجاعة ، وليعصم الناسُ بطونهم في السنوات السبع الأولى ،
ولياكلوا على قَدَرِ الضرورة : ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْبِ .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقى حياته بالتنفس والطعام والشراب :
والطعام إنما يَمُرُّ على الإنسان ، ويعطيه قوّة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا تهدف منه القوة فقط : بل نبقى منه المتعة
أيضاً ، ولو كان الإنسان يبقى سُدّاً غائلة^(١) الجوع فقط ، لاكتفى
بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا ناكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا ^(٢) مَرِيئًا ^(٣) ۝٤٤ ﴾ [النساء]

أى : بدون أن يضررك ، ودون أن يُلجِرك هذا الطعام إلى
المُهْضَمات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه : ﴿ هَنِيئًا .. ۝٤٤ ﴾ [النساء]

أما المقصود بقوله : ﴿ مَرِيئًا ۝٤٤ ﴾ [النساء]

(١) الغوائل : المهلك . والغُول : المشقة . [لسان العرب - مادة : غول] .

(٢) هَنِيئًا يَهْنَأُ هِنَاءً : تيسر بلا مشقة . وسهل أمره . وسعد به ضاحيه وهو طعام هنيء : أى
سائح نافع يسعد به آكله . قال تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ۝٤٤ ﴾ [النساء] أى : حلالاً طيباً
لا حرمة فيه ولا حرج عليكم في آكله . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٣) مَرِيئًا الطعام : سهل في البلع وحُشدت عاقبته وخلا من التفتيش . [القاموس القويم

فهو الطعام الذى يفيد ويمد الجسم بالطاقة فقط : وقد لا يُستساغ طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْضِنُونَ﴾ (٤٨)

[يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هى التى تاكل : بل البشر الذين يعيشون فى تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك : لأننا نعلم أن أى حدث يحتاج لزمان ومكان : ومرة يُنسب الحدث للزمان : ومرة يُنسب الحدث للمكان .

والمثل على نسبة الحدث للمكان هو قول الحق سبحانه :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ﴾ .. (٤٩)

[يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التى كانوا فيها ، وأصحاب القوافل التى كانت معهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمها : نجد الحدث منسوباً للزمان : وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً : لأنهم بعد أن يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبذور لاستخدامها كتنقاوى فى العام التالى لسبع سنوات موصوفة بالجذب .

(١) وهذا الأسلوب يسمى فى البلاغة المجاز بالحذف - دلائل الإعجاز للجرجاني .

(٢) العير : القافلة ، والعير : القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ (٧٠) [يوسف] أى : أيها القوم الراحلون ، [القاموس القويم ٤٤/٢] .

وقوله تعالى :

﴿ مِمَّا تَحْصِنُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

نجدّه من مادة « حصن » وتفيد الامتناع ؛ ويقال : « أقاموا في داخل الحصن » أى : أنهم إن هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

أى : الممتنعات عن عملية الفجور ؛ وهُنَّ الحرائر .

وايضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللّٰى أَحْصَتْ فَرْجَهَا .. (٩١) ﴾ [الانباء]

أى : التى احكمت صيانة عِفَّتِهَا ، وهى السيدة مريم البتول^(١) عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ^(٢) (٩١) ﴾

(١) البتول من النساء: الفخراء المنقطعة عن الأزواج . ويقال : هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا . [لسان العرب - مادة : بقل] .

(٢) قال ابن عباس : يعصرون الأغاب والدُّمْن . وقال ابن جريج : يعصرون العنب خمرأ ، والشمس دُهْنأ ، والزيتون زَيْتأ . وقيل : أراد جلب الأكيان لكثرةها . ويدل ذلك على كثرة النبات . [تفسير القرطبي ٢٥٢٧/٤] .

ونلاحظ أن هذا الأمر الذى تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرؤيا ؛ لأن ما اختوته رؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف^(١) يأكلن سبع بقرات سمان ؛ وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

وانهى يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخصب العادى ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك ..

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غَوْبٌ » ؛ لاننا نقول « أَغْبُ فلاناً » أى : أغم فلاناً ؛ لأنه فى حاجة للغم ، والغيب^(٢) ينزل من السماء لينهى الجنب .

وقوله : ﴿ يَغَاثُ النَّاسُ ۖ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى : يعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضرورى من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (٤٩) [يوسف]

أى : مما يمكن عَصْرُه من حبوب أو ثمار ؛ مثل : التمسسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعمل .

(١) عجف : مزل فهو أعجف ، وهو عجفاء . أى : مزيلة . والتعجيف : سوء الغذاء والهزال .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافَ ۖ ﴾ [يوسف] (٤٩) أى : الهزلى التى لا لحم عليها ولا

شحم ، ضربت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خصب . [لسان العرب - مادة : عجف] .

(٢) الغيث : المطر . والغيث : الكلا ينبت من ماء السماء . والأصل المطر ، ثم سُمى ما ينبت

به غيثاً . [لسان العرب - مادة : غيث] .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزقون بخير يفيض
عن الإغاثة ؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق في آيات الرؤيا وتاويلها هو
حوار بين يوسف الصديق - عليه السلام - وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء في
أمر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأن يرسلوه كي يُحضر لهم تأويل
الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علم الملك بتاويل الرؤيا ،
فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له
تاويل الرؤيا ، وأصرَّ الملك أن يأتوا له بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب
الاستفادة منه ؛ وعاد الساقى ليُخرج يوسف من السجن الذي هو فيه .

لكنه فوجيء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء
بصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [يوسف]

وهكذا حرص يوسف على ألا يستجيب لمن جاء يُخلّصه من عذاب
السجن الذي هو فيه ؛ إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٥ ﴾

[يوسف]

ويُخفى هذا القول في طياته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العبرة التي تخدمنا في واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أي إنسان هو أمرٌ مُهمٌ ؛ كي تزول أيُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أي عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولُن قاتل في وشاية أو إشاعة « هَمَزًا أو لَمَزًا »^(١) ؛ اليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول :

«عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه - والله يغفر له - حيث أُرْسِلَ إليه لِيَسْتَفْتَى في الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من

(١) اللمز : العيب في الوجه . وأصله الإشارة بالعين والراس والنشفة مع كلام خفى ، والهمز [الغيبة والوقيعة في الناس وذكر عيوبهم .] لسان العرب - مادتي : لمز ، همز [.

صبره وكرمه - والله يغفر له - أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذرة^(١) .

وشاء نبينا ﷺ أن يوضح لنا مكانة يوسف من الصبر والعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ :

« إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال - لو لبثت في السجن ما لبثت ، ثم جاءتني الرسول أجبت ثم قرأ ﷺ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ ﴾^(٢) . [يوسف]

وهكذا بين لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فيُشار إليه : هذا من رآود امرأة سيده ، وفي قول الرسول ﷺ إشارة إلى مبالغة يوسف في ذلك الأمر ، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن، ثم يحمل على كشف براءته .

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحق ، بل يأخذ كل موقف بقدره ويرتب له : وكان يوسف واثقاً من براءته ، ولكنه أراد ألا يكون الملك آخر من يعلم .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦١٠) : قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٧) : « فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو مشهور » . وقد أورد السيوطي في الدر المنثور (٥٤٨/٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/٢) ، والترمذي في سننه (٢١١٦) وقال : « حديث حسن » . وكذا أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٤٦/٢) كلهم من حديث أبي هريرة . قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يفرجاه بهذه السياقة » . وسكت عنه الذهبي .

وصدق رسولنا ﷺ حين قال : « دُعُ مَا يَدْرِيكَ إِلَى مَا لَا يَدْرِيكَ ، فَإِنِ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةً ، وَإِنِ الْكَذِبَ رَيْبَةٌ » ^(١) .

وكان ﷺ يرى أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَقْتَضِي الْأَقْفَ الْمُؤْمِنِ مَوْقِفَ الرُّبُوبِيَّةِ : لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ حِينَ يَرَوْنَ نَائِبَهَا ، قَدْ تَثِيرُ الْغَيْرَةَ مِنْ نِيَامَتِهِ الْبَعْضُ ؛ فَيَتَقَوْلُونَ عَلَيْهِ .

لِذَلِكَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَحْتَاطَ لِنَفْسِكَ ؛ بِأَلَّا تَقِفَ مَوْقِفَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَالْأَمْرَ الَّذِي تَأْتِيكَ مِنْهُ الرُّبُوبِيَّةُ ؛ عَلَيْكَ أَنْ تَبْتَعدَ عَنْهُ .

وَلَمَّا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، فَقَدْ جَاءَتْهُ زَوْجَةُ صَفِيَّةَ بِنْتُ حُيَيٍّ تَزْوَرُهُ وَهُوَ مَعْتَكِفٌ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ . ثُمَّ قَامَتْ تُنْقَلِبُ - أَيْ : تَعُودُ إِلَى حَجَرِهَا - فَقَامَ مَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ الَّذِي عِنْدَ مَسْكَنِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَفَذَا ^(٢) ، فَقَالَ لِهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « عَلَى رِسْلُكُمَا ، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ . قَالَا : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَبِّرَ عَلَيْهِمَا مَا قَالَ . قَالَ : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا » ^(٣) .

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ (١١٧٨) ، وَكَذَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٠١/١) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي مُسْنَدِهِ (٢٥١٨) وَقَالَ : « حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ » مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ .
(٢) التَّنْفِذُ : الْجَوَازُ ، وَفِي الْمَحْكَمِ : جَوَازُ الشَّيْءِ وَالْخُلُوصُ مِنْهُ . نَقُولُ : نَفَذْتُ أَيْ جَزَّتْ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : نَفَذَ] ، أَيْ : مَرًّا وَجَاوِزًا .

(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٦٢١٩) . وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢١٧٥) مِنْ حَدِيثِ صَفِيَّةَ بِنْتُ حُيَيٍّ .

وهنا في الموقف الذي تناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعي النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وراودن يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ خَشِيَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ ۚ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٥١ ﴾

وتعلم أن السراودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز : واستعصم يوسف ، ثم دعت هي النسوة إلى مجلسها : وقطعن أيديهن حين فوجئن بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَالْأُتْرُقُ عَنِّي كَسِيدُهُنَّ أَصْبُ^(١) إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٣٢ ﴾ [يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسالهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ۖ ٥١ ﴾ [يوسف]

والخُطْبُ : هو الحدثُ الجَلَلُ ، فهو حدث غير عادي يتكلم به الناس : فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم : بل يتكلمون عنه بحديث

(١) حصص الحق : وضع وتبين بعد خفائه ، وانحصصه : بيان الحق بعد كتمانته أي : ظهر وبرز ، [لسان العرب - مادة : حصص] .

(٢) صبا بصبو : مال واجياً ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ۖ ٥١ ﴾ [يوسف] أي : املُ إِلَيْهِنَّ وافعل ما يفرغني به . وصبا إلى اللهب : حنُ واشتاق إليه . [القاموس المفويم ٢٦٨/١] .

يصل إلى درجة تهتز لها المدينة ؛ لأن مثل هذا الحادث قد وقع ..

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٤١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾ [الأنبياء]

أى : أن الملائكة طمأننت إبراهيم عليه السلام ؛ فهي فى مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامري قد صنع لهم عجلاً من الذهب الذى أخذوه من قوم فرعون تجده يقول للسامري :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٤٥) [طه]

وقول الملك هنا فى الآية التى نحن بصدد خواتمها :

﴿ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْتَنِي يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٥١) [يوسف]

يدل على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتز لها ؛ واعتبرها خطيئاً ؛ مما يوضح لنا أن القيم هى القيم فى كل زمان أو مكان .

وبدا النسوة الكلام ، فقلن :

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٥١) [يوسف]

ولم يذكرن مسألة مُراودتهن له ، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ (٥١) [يوسف]

أى : نُذَرُه يوسف عن هذا ، وتنزيهنا ليوسف أمر من الله .

وهنا تدخلت امرأة العزيز :

﴿ قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ . (٥١) ﴾ [يوسف]

اى : انها اقرت بانه لم يعد هناك مجال للستر ، ووضح الحق بعد خفاء ، وظهرت حصّة الحق من حصّة الباطل ، ولا بُد من الاعتراف بما حدث :

﴿ اَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَانَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ (٥١) ﴾ [يوسف]

رواصلت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية :

﴿ ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنِّ لَمْ اُخْنَهُ بِالْغَيْبِ وَاَنَّ اللّٰهَ

لَا يَهْدِيْ كَيْدَ الْخٰفِيْنَ (٥٢) ﴾

قالت ذلك حتى تعلن براءة يوسف عليه السلام ، وانها لم تنتهز فرصة غيابه فى السجن وتنتقم منه ؛ لانه لم يستجب لمراودتها له ، ولم تنسج له اثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلنا على ان شرّة الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالي فى نفسه ، وقد يجعل من الرّلة الاولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كى تستر الحسنة السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ اِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذٰلِكَ ذِكْرٌ لِلذّٰكِرِيْنَ (١١٤) ﴾ [مود]

ولو ان إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك

السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استتروا سيئات المسيء : لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأت تاريخ الناس ، أصحاب الانفس القوية في الاخلاق والقيم : قد تجد لهم من الضعف هنات وسقطات : ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تذهب عنهم السيئات : لأن بالواحد منهم مشغول بضعفه الذي يُلْهِيه : فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفت امرأة العزيز بما فعلت : قالت :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ [يوسف]

أي : أنها أقرت بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفذ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ

رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز : وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس : فهي لم تحضر لتبريء نفسها :

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣)﴾ [يوسف]

ومجيء قول الحق سبحانه المؤكد أن النفس على إطلاقها أمارة

بالسوء : يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء^(١) : إن هذا القول من كلام يوسف ، كرد عليها حين قالت :

﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي . (٥٤)﴾ [يوسف]

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف ككَلَوْنٍ من الحرص على الإلمامه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذي صرف كيدهن عنه .

وهذا لَوْنٌ من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجَرَّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لَطْف الله أن قال عن النفس : إنها أمارة بالسوء ؛ وفي هذا توضيح كاف لطبيعة عمل النفس ؛ فهي ليست أمرّة بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهي دائماً أمارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكاليفات الإلهية كلها إمّا أوامر أو نواهي ،

(١) قاله ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم . والقول الأشهر واللائق بسباق القصة ومعاني الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم . بل بعد ذلك أحضره الملك . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/٢٨١ بتصرف] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهي تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها في ظاهرها ممتعة ، وتلبي نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حَقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحَقَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » ^(١) .

أى : أن المعاصي قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي تُوصِّلُه إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلذُّ به لحظة قد تشقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذي يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبي ﷺ :

« لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ^(٢) .

إنَّ : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع في ياله أنه قد يمرث قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يكفِّر عنها .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٢ ، ٢٥٤) ، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذي في سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ويخطيء الإنسان في حساب عمره ؛ لأن أحدا لا يعلم ميعاد أجله ؛
أو الوقت الذي يفصل بينه وبين حساب المولى - عز وجل - له على
المعاصي .

وكل منّا مُطالب بأن يضع في حُسبانهِ حديث الرسول ﷺ :
« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته » ^(١) .

ولنا أسوة طيبة في عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو
الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذي كان إذا وقف على قبر بكى حتى
تبتل لحيته ، فسئل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ،
وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده
أيسر منه ، وإن لم ينجُ منه ، فما بعده أشد » ^(٢) .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف]
ونعلم أن هناك ما يشقى من الداء ، وهناك ما يُحصن الإنسان ،
ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه
يفغر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح
الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع في زلة أخرى .

(١) ذكره المجلوس في كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن انس بن مالك رضى الله عنه .
وتعابه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه في غنى عنكم ، وإن ذكرتموه في
ضيق وسعة عليكم ، الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢/١) . وابن ماجه في سننه (٤٢٦٧) . والترمذي في سننه
(٢٨٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ ۝٨٢ ﴾ [الإسراء]

فساعة تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذي تعاني منه نفسياً ويقوى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويفجر طاقات الشفاء الكامنة في أعماقك . وهو رحمة لك حين تتخذ منهجاً ، وتطبقه في حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طبٌ علاجي وطبٌ وقائي في آن واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِغَفَى فَلَمَّا كَلَّمَهُ ۖ

قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٨٣﴾

ونلاحظ أن الملك قد قال : ﴿ أَتُؤْتِي بِهَذَا ۝٨٢ ﴾ [يوسف]

مرتين^(١) ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهن امرأة العزيز .

ورأى الملك في يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسعة علم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويفكر في صفات هذا الرجل :

(١) مكّن مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت مستقر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

۝٨٣ ﴾ [يوسف] أي : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٢] .

(٢) المرة الاولى في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا ۖ فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

مَا بِالنِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَلْدِيهِنَّ إِنَّ رَبِّي يَبْعُثُ مِنْ عِلْمٍ ۝٨٢ ﴾ [يوسف] والمرة الثانية في قوله

تعالى هنا : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِغَفَى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٨٣ ﴾

[يوسف]

والراحة النفسية التي ملأت نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .
والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله
مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى في قوله :
﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ
أَمِينٌ ٥٤ ﴾ [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد
أن استشف خفة يوسف على نفسه ؛ وتيقن الملك من بعد الحوار مع
يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ؛ غريزة الجنس .
وتيقن من أن يوسف تقبل السجن ؛ وعاش فيه لفترة طالت ؛ وهو
صاحب علم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرؤيا ؛ وقصد فعل ذلك وهو
سجين ، ولم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات
البراءة .

ولكل ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ؛ الذي أعلن الأمر بقوله :
﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ ﴾ [يوسف]
وذلك ليسد باب الوشاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين »
هي المكانة التي لا ينال منها أي أحد .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلم عن الوحي من
جبريل عليه السلام قال :

﴿ إِنَّهُ يَقُولُ رَسُولٌ كَرِيمٌ ٦٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ ٧٠ ﴾
[التكوير]

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أهل للثقة عند الحاكم ؛ وهو
الذي سيفقد الأمور ، وله صلة بالمحكومين ، وإذا كان هو الممكن من
عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة في مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرَجَّح الحاكم من يراهم أهل الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل . وعلى الحاكم الذكي أن يختار الذين يتمتعون بالأميرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعادل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرؤياه ، التي سبق أن أولها يوسف :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا^(١) فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ٥٧ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ ٥٨ ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ٥٩ ﴾ [يوسف]

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحسن تدبير وحزم وعلم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتي وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات :

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ^(٢) ٦٠ ﴾

إِنِّي حَافِظٌ عَلَيْهِ ٦١

(١) دأب في عمله دأباً ودأباً : جَدَّ فيه ولازمه من غير فتور . أي : مداومين مجتهدين ذوي دأب . [القاموس القويم ٢١٩/١] يتصرف .

(٢) الخزائن : جمع خزانة . وهي المكان الذي تحفظ فيه الأشياء النافعة . قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٢) : « هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد » .

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتي في سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلّى بهما يوسف عليه السلام .
وقد يقول قائل : أليس في قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟
والقاعدة^(١) تقول : إن طالب الولاية لا يؤلى .

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان أمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً بالإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .

وقد تاتي ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمن يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجت الرياح وهبت العاصفة ؛ وتعقدت الأمور ؛ وارتبك القبطان ، وجاءه من يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهي الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يوجه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة سفينته .

إذن : فمن حق الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعين عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذي خبرة يفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وجهه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٢٢) عن أبي موسى الأشعري أن

رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نؤلى على هذا العمل أحداً سواه ، ولا أحداً حرص عليه » .

وفى مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :
الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقتة فى إنجاح المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يظهر وَجْهُ الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٥)

[يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد .

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ،
لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجُذْب ، وتلك
مسألة تتطلب حكمة وحِفْظاً وعِلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى المِثْرَةِ الأثمان
من ذهب وفضة ، وَمَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحْضِرُ الجواهر من
الأحجار الكريمة ؛ أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

وَمَنْ لا يملك كان يُحْضِرُ بعضاً من ابذاته للاسترقاق ، أى : يقول
رَبُّ الأسرة الفقير : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية
أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الأمر فى سنوات الجُذْب
ليشدُّ كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد فى سبعة امعاء
بل يأكل فى معنى واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف :
« المؤمن يأكل فى معنى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة امعاء » ^(١) .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الاشربة . من حديث جابر وابن عمر
رضى الله عنهما .

وكان التَّوْبِيُّونَ فِي سَنَوَاتِ الْجَدْبِ يَقْتَضِي بَقَّةَ التَّخْطِيطِ ،
وَلَا يَحْتَمِلُ أَيُّ إِسْرَافٍ .

وَمَا دَامَ لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَنٌ يَجِبُ أَنْ يُدْفَعَ ، فَكُلُ إِنْسَانٍ سَيَأْخُذُ عَلَى
قَدَرِ مَا مَعَهُ ، وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ سَنَوَاتُ الْجَدْبِ ، وَجَاءَتْ سَنَوَاتُ الرِّخَاءِ ؛
أَعَادَ يُوسُفُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَا أَخَذَهُ مِنْهُ .
وَحِينَ سُئِلَ : وَلِمَاذَا أَخَذْتَ مِنْهُمْ مَا دُمْتَ قَدْ قَرَّرْتَ أَنْ تَرُدَّهُ لَهُمْ
مَا أَخَذْتَهُ ؟

أَجَابَ : كَيْ يَأْخُذَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي أَقْلُ الْحُدُودِ الَّتِي تَكْفِيهِ فِي
سَنَوَاتِ الْجَدْبِ .

وَمِثْلُ هَذَا يَحْدُثُ عِنْدَنَا حِينَ نَجِدُ الْبَعْضَ ، وَهُوَ يَشْتَرِي الْخَبِيزَ
الْمُدْعَمَ لِيُطْعِمَ بِهِ الْمَاشِيَةَ ، وَحِينَ يَرْتَفِعُ ثَمَنُ الْخَبِيزِ نَجِدُ كُلَّ إِنْسَانٍ
يَشْتَرِي فِي حُدُودِ مَا مَعَهُ مِنْ نَقُودٍ ، وَيَحْرَصُ عَلَى الْأَيْلَاقِ مِمَّا
اشْتَرَى شَيْئًا .

وَكَانَتْ قُدْرَةُ الدَّوْلَةِ أَيَّامَ الْجَفَافِ مَحْدُودَةً ؛ لِذَلِكَ وَجِبَ عَلَى كُلِّ
فَرْدٍ أَنْ يَعْمَلَ لِنَفْسِهِ .

وَنَحْنُ نَرَى ذَلِكَ الْآمَرَ ، وَهُوَ يَتَكَرَّرُ فِي حَيَاتِنَا ؛ فَحِينَ لَا يَجِدُ أَحَدٌ
ثَمَنَ اللَّحْمِ فَقَدْ لَا تَهْفُو نَفْسُهُ إِلَى اللَّحْمِ ، وَقَدْ يَظُنُّ فِي كِبَرِيَاءٍ : « إِنْ
مَعْدَتِي لَمْ تَعُدْ تَحْمِلُ اللَّحْمَ » .

وَقَدْ يَظُنُّ الْفَقِيرُ حُسْبَهُ لِلسَّمَكِ الصَّغِيرِ ؛ لِأَنَّهُ لِحَمِهِ طَيِّبٌ ، عَكْسَ
السَّمَكِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَكُونُ لِحَمِهِ « مَتَقْلًا » ، أَوْ يَظُنُّ إِعْجَابَهُ بِالْفَجْلِ
الطَّازِجِ ، لِأَنَّهُ لَذِيذُ الطَّعْمِ .

وَقَدِيمًا فِي بَدَايَاتِ الْعُمَرِ كُنَّا حِينَ نَدْخُلُ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَنَحْنُ نَعِيشُ
بَعِيدًا عَنْ بَيْوتِ الْأَهْلِ فِي سَنَوَاتِ الدِّرَاسَةِ ، وَلَا نَجِدُ إِلَّا قَرِصًا وَاحِدًا
مِنْ « الطَّعْمِيَةِ » ، كُنَّا نَقْسِمُ هَذَا الْقَرِصَ لِيَكْفِيَ آخِرَ لَقْمَةٍ فِي الرِّغِيفِ ،

أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .

وهكذا يتحمل كل واحد على قدر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفس راضية إذا رَغِبَتْهَا وإذا تُرِدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا ^(١) حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نَضِيعُ

أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

وهكذا كان تمكن الله ليوسف عليه السلام في الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة : عادلة : فلما جاء الجذب : لم يأتها وحدها : بل عم البلاد التي حولها .

بدليل أن هناك أناساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها : والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم في بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾

[يوسف]

(١) يتبعوا منها حيث يشاء : أي يفل في أي مكان يريد من أرض مصر . وهذا كناية عن اتساع جاهه . [القاموس القويم ٨٨/١] .

نقهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً في أكثر من مكان : ولا يظُنُّ ظَنَّ
أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة في
بعض البلاد : فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم في منطقة ما : وقد
يزوره : فهم يعتنون بكل المنطقة التي يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه في حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة
ما فهم يُعيدون رَصْفَ الشوارع : ويصلحون المرافق : وقد يُحضر
أصص الزرع ليُجمِّعوا المكان .

فما بالكَ إنْ علموا بوجود بيت للحاكم في مكان ما ؟ لا بُدَّ أنهم
سَيُوالون العناية بكل التفاصيل المتعلقة بالمرافق في هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴾ (٥٦) [يوسف]

يعنى : شَيَّعَ العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون في هذا
البلد : فلا تأخذ الأمر على أنه تَرْفٌ وشرَفٌ ، بل خُذْ هذا القول على
أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير
مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التَّبَوُّءَ حيث يشاء ليس رحمةً به فقط :
ولكنه رحمةً بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ .. ﴾ (٥٦) [يوسف]

فَمَنْ كَانَ يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية : وَمَنْ
كَانَ يشقى من أجل أن يعيش في مكان مُريح ستتحول المنطقة التي

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه .
فيوسف المُمكن فى الارض له مسكن مجاور له : وسيجد العناية
من قبل الجهاز الإدارى حيثما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة
من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦)

[يوسف]

والمُحسن هو الذى يصنع شيئاً فوق ما طلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف : لأنه حين أقام لنفسه بيتاً
فى أكثر من مكان : فقد أحسن إلى اهل الأمكنة التى له فيها بيوت :
بارتفاع مستوى الخدمة فى المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازى المحسنين بكمال وتعام الأجر ، وقد كافأ يوسف
عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولّى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٥٧)

ويوضح - هنا - سبحانه أنه لا يجزى المحسنين فى الدنيا فقط :
ولكن يجازيهم بخير أبقى فى الآخرة . وكلمة « خير » تستعمل
استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شئ آخر : أى : أنهما شركاء فى
الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان » (١) .

والاستعمال الثاني لكلمة « خير » : هو خير مقابله شرًّا ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ؛ لأن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن تقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب في الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذي سيصدق ذلك . أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشترى الفساد في الأرض .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاء نوعين : جزاء في الدنيا لمن يحسن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً ؛ وجزاء في الآخرة يختص به الحق سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ [يوسف]

أي : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً .

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٢ / ٢٦٦ - ٢٧٠) ، ومسلم في صحيحه (٢٦٦٤)

وابن ماجه في سننه (٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الميثاق : وزن معلوم قدره ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. ﴾ [النساء] .

أي : مقدار وزن ذرة لا يظلم شيئاً صغير أو كبير . [القاموس القويم ١/ ١١٩] .

على عكس خير الدنيا الذى قد تفوقته أو يفوتك ، بحكم أن الدنيا موقوفة بالنسبة لك بعمرِكَ فيها ؛ ولكن الآخرة لها الدِّيمومة التى شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف :

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ

وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ٥٨

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد أَلْقَوْهُ فى الجُبِّ صغيراً ؛ ومَرَّتْ رحلته فى الحياة بعد أن عثر عليه بعض السيَّارة ؛ وباعوه لعزير مصر ، لتعمر به الأحداث المتتالية بما فيها من نُضْجٍ جَسَدِيٍّ وَحُسْنِ فَائِقٍ ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السَّجْنِ السَّبعِ .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على ملامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو فى منصبه العالى ، بما يفرضه عليه من وجاهة فى الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، قد تحددت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمرُّ عليه عَقْدٌ من الزَّمان ؛ فهذا الزَّمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كان كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلاً يُغيِّرُ الزَّمنُ ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج . والذى دفعهم إلى المسجى هو القحط الذى لم يُؤَثِّرْ على مصر وحدها ؛ بل أثار أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذى اختزن الأقوات تحسباً لذلك القحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطالبوا منه المِيزَةَ^(١) والطعام ، ولم يتخيَّلوا

(١) الميزة : الطعام يستأجره الإنسان أى يجلبه . ماراهله : جلب إليهم الطعام . قال تعالى :

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّا وَنَحْفُظُ أَخَانَهُ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم : ٢ / ٢٤٦] .

بأي حال أن يكون من أمامهم هو أخوهم الذي القوه في الجُبِّ ،
ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ
الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وشركهم بِحُكُونٍ له عن
أبيهم وأخيه ، وأنهم قد طلبوا الميرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم^(١) .
وكلمة « الجهاز » تُطلق هنا على ما تسبَّب في انتقالهم من
موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .
وطُلب منهم - من بعد ذلك - أن يأتوا بأخيه « بنيامين » معهم ،
وقال لهم :

﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [يوسف]

(١) جهاز العروس والمسافر والجيش : هو ما يحتاجون إليه وما يلزمهم في قصدهم ، والمعنى
هنا أنه أوفى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذي جاءوا من أجله - [راجع تفسير ابن كثير
٤٨٣/٢ ، والقاموس المفيد ١٢٤/١] .

(٢) ذكر السدي وغيره أن يوسف عليه السلام شزع يخاطبهم فقال لهم كالمتكر عليهم :
ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدما للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ
الله . قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب شقي الله . قال : وله أولاد
غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية ، وكان أحبنا إلى أبينا ،
وبقي شقيق ، فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه ، فامر بإئزائهم وإكرامهم . [تفسير ابن كثير
٤٨٣/٢] .

(٣) النزول : الحلول بالمكان . والنزول والنزل : ما قُيِّن للضيف إذا نزل عليه - [لسان العرب -
مادة : نزل] .

وفى هذا تذكير لهم بأنه يُوفى الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة فى المِيرة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يُحضروا أخاهم كي يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كاشفان لما يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْلاً بعير فوق ما أخذوه هذه المرة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيه معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية :

﴿ وَتَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسن المكان الذى نزلوا فيه ، بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزِل » فى ظاهر الامر أنها ضدُّ مُعْلَى ، وتحقيق المعنى هو : مُنْزِلٌ مِنَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمَكَانِ الْمَوْجُودِ بِهِ كُلُّ مَطْلُوبَاتِ حَيَاتِهِ .

والحق سبحانه يقول عن الجنة :

﴿ تَزَلَّأُ^(١) مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

(١) التذلل : المنزل ، وما يُعدُّ لينزل فيه الضيف . قال تعالى : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا تَزَلَّأُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. (٣٢) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

أى : أنه سبحانه قد أعدّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المولى عزّ وجلّ هو الذى يعدّ ؛ فلا يدّ أن يكون ما أعدّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخوانى الذين بُهروا بفندق راق فى سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً راقياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقباليين ؛ تظهر نفسه فيه ؛ فإن كان حقّوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإن كان مؤمناً يفرح ويقول :

هذه النعمة التى أراها تزيد من عشقى فى الجنة ؛ لأن تلك النعمة التى أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فصاذا عن صنّع الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيمانى ، بأن الذى أراه من نعمة قد أعدّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرة حقد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صباية^(١) النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صباية عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحت بالنعمة عند إنسان ؛ فثق أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهت النعمة أن تأتى إليك .

فإن أردتَ الخير الذى عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التى عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتى إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقول يوسف عليه السلام فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها :

(١) الصباية : الشوق ، صبيت إلى الشيء صباية ، فانا صبّ ، أى : عاشق مشتاق . [لسان العرب - مادة : صبيب] .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥٩) [يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحسن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يحضرون إياهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي

وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦٠)

ويوسف يعلم مقدماً صعوبة أن يأمنهم أبوه على أخيهم ؛ لذلك وجه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي .. ﴾ (٦١) [يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المعاد معاد^(١) قحط وجذب ومجاعة .
وأضاف يوسف :

﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦٢) [يوسف]

أي : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذي أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦٣)

[يوسف]

وتلقوا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا :

(١) المعاد : المرجع والمصير، أي : أن سرجهم إلى بلاد ذات جذب وقحط وهي الموطن الذي جاءوا منه . والمعاد والمعاداة : الماتم يعد إليه . [لسان العرب - مادة : عود] .

﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١)

وقولهم : ﴿سُرُودٌ^(١) عَنْهُ أَبَاهُ﴾ (٦١) [يوسف]

يعنى : أن الأمر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُراودة تعنى أخذ ورد ، وتحتاج إلى احتيال ؛ وسبق المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ (٢٢) [يوسف]

وأكدوا قولهم :

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١) [يوسف]

أى : أنهم سيبدلون كل جهودهم ؛ كى يقبل والدهم إرسال أخيه معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلب صعب المآل ، عسير التحقيق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ (٦٢)

إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

(١) أى : سحرص على سجيته (لكل ممكن ولا نبغى مجهوداً لتعلم صدقتنا فيما قلنا .

[ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤٨٢/٢] .

(٢) الرحال : جمع رحل . وهو ما يوضع على البعير للركوب عليه . ويطلق على ما يحمله المسافر من أمتعة . [القاموس القويم ٢٥٩/١] .

(٣) انقلب : رجع وتحول إلى وضعه الأول . أو إلى وضع آخر . قال تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الاعراف] . أى : راجعون إليه . [القاموس القويم ١٢٩/٢] . بتصريف .

أى : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أن يُعيدوا البضائع التى أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا^(١) بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدى يوسف عليه السلام أن يُنقذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُستتر فى الرِّحال التى أتوا عليها ، وفى هذا تشجيع لهم كي يعودوا مرة أخرى^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ٦٣

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فبرر عودتهم ومعهم الميرة ، وكانهم أرادوا أن يوضحوا للاب أنهم مُنعوا مستقبلاً من أن يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحكوا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيه « بنيامين » معهم ؛ فليسوف يكتالون ، وليسوف يحفظون أخاهم الصغير .

(١) قايضه مقايضة : إذا أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة - والقَيْض : العَوَض - [لسان العرب - مادة : قَيْض] .

(٢) ذكر ابن كثير فى هذا أقوالاً منها : أن يوسف خفى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل : تدمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام ، [راجع تفسير ابن كثير ٤/٢٨٣] .

وهم في قولهم هذا يحاولون أن يُعِدُوا رِيَّةَ الْآبِ عَمَّا حَدَّثَ
لِيُوسُفَ مِنْ قَبْلَ .

وهنا يأتي الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ
عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤)

وهنا يُذَكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقَدِّمُوا من قبل ما يُطمِئِنُّه على
ذلك ! فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .

وأضاف : ﴿ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤) [يوسف]

وهو قَوْلٌ تنسَّم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه
يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب في فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضْعَةٌ رُدَّتْ إِلَيْنَا
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ
كَيْلُ يَسِيرٍ ﴾ (٦٥)

(١) بغي : كذب وظلم . وبغي الشيء : طلبه . قال القرطبي في تفسيره (٢٥٥٩/٥) : والمعنى : أي

شيء نطلب وراء هذا ؟ ونسأل لنا الكيل : وروى علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم .

وهكذا اكتشفوا ان بضائعهم التي حملوها معهم فى رحلتهم إلى مصر ليقيضوا بها ويدفعوها ثمنًا لما أرادوا الحصول عليه من طعام وميرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على الميرة التى يتغذون بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصحبوا آخاهم فى المرة القادمة ، ولسوف يحفظونه ، ولسوف يعودون معهم كيلا زائد فوق بعير ، وهذا امر هين على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه

هنا :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا ^(١)
مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِمْ أَوْ لَا أَنُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ
مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ^(٢) ﴾

ونلاحظ هنا رقة قلب يعقوب وقرب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرقة التى بدت من قبل فى قوله :

﴿ قَالَ لَهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^(٣) ﴾ [يوسف]

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين موثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى

(١) الميثاق والميثاق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَمِثَاقَ الَّذِي رَأَيْتُمْ بِهِ .. ﴾ (٧) [السجدة] .

أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، والزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٣١٩/٢] .

(٢) الإحاطة بالشئ : الإحاط به من جميع جوانبه . وقوله : ﴿ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴾ (٦١) [يوسف] .

[يوسف] . أى : إلا أن تُحصرُوا أى تمنعوا سبيل النجاة . [القاموس القويم ١٧٨/١] .

مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحِطْ بهم
أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كان يحاصرهم أعداء يُضَيِّعونهم
ويُضَيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (٦٦)

[يوسف]

وأقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطوا أباهم اليمين والعهد على
رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٦٧)

[يوسف]

أى : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُتِمَ فسبحانه المنتقم .

ويُوصى يعقوب أولاده الأسباط :

﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقْتُكُمْ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٦٧)

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام فى المرة الثانية لذهابهم
إلى مصر ، بعد أن علم بحُسن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم
رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حظوة عند عزيز
مصر .

وساعة ترى إنساناً له شأن : فترقب أن يُعادي ، لذلك توجس يعقوب خيفة أن يُدير لهم أحد مكيدة : لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديماً لها أبواب : تفتح وتُغلق في مواعيد محددة ، وحين يدخلون فرادي فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقد خاف يعقوب على أبنائه من الحسد ، ونعلم أن الحسد موجود .

وقد علمنا سبحانه أن نستعيز به سبحانه من الحسد : لأنه سبحانه قد علم ألا أن الحسد أمر فوق طاقة دفع البشر له ، وهو القاتل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [القلن]

وفي أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيز بواحد مُساوٍ لك : لأن الحسد يأتي من مجهول غير مُدرك ، فالشعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحقد على كل ذي نعمة ، وإذا كان عصرنا ، وهو عصر الارتقاعات العادية قد توصل إلى استخدام الإشعاع في تفتيت الأشياء .

إذن : فمن الممكن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشعاعات : والتي

قد يجعلها الله في عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ۝ (٢١) ﴾ [المدر]

وإن قال قائل : ولماذا يُعطي الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطي من الإمكانيات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها في غير موضعها ، وكل إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحق هو الذي يولد الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إن قلت : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك^(١) .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيد بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق]

وإن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ويقول :

(١) يقول تعالى : ﴿ رَأَوْنَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ ۝ (٢٩) ﴾ [الكهف]

« أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة^(١) ، ومن كل عين لامة^(٢) »^(٣) .

وقال ﷺ : « كان أبوكما - إبراهيم - يُعوذُ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام » .

كما أنه ﷺ : « كان إذا حَزَبَهُ أمر قام وصلى »^(٤) ، لأن معنى حَزَبٍ أمر للرسول ﷺ ، أو لواحد من أتباع الرسول ﷺ أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسان أن يَأْوِي إلى المُسَيِّب ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أخذت أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المُضْطَر ؛ لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. ﴾ (٦٢) [النمل]

والمضطر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدُعْ ربه إلا بعد أن

(١) الهامة : مفرد هوام . وهي الحيات والمقارب . وكل ذي سم يقتل سبعة ، وأما ما لا يقتل ويسمى فهو السَّوَام . [لسان العرب .. مادة : هوم] .

(٢) اللامة : ما تخافه من من أو فرع . واللامة : العين التي تصيب الإنسان . [لسان العرب .. مادة : لعم] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠ / ١) . والترمذي في سننه (٢٠٦٠) ، وابن داود في سننه (٤٧٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال الترمذي : « حديث حسن صحيح » .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨ / ٥) ، وابن داود في سننه (١٢١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها : نجد يعقوب عليه السلام وقد أوصى أبناءه ألا يدخلوا مصر من باب واحد : بل من أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ۝ (١٧) ﴾ [يوسف]

أى : لست أعنى عنكم بحذرى هذا من قدر الله ، فهو مجرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٧) ﴾

[يوسف]

فكل الخلق امرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه يعتمد كل مؤمن .

ونفذ أبناء يعقوب ما امرهم به أبوهم ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ

يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ

قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يرد عنهم أمراً أرادته سبحانه ، فلا شيء يرد قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أن يرد عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يدرس لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أى شيء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .. (٥٨)

[يوسف]

ويعقوب يعلم أن أى شيء لن يرد قدر الله ، وسبحانه لم يعطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدر الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿وَأَنَّهُ لَدُوْهُ عِلْمٌ لِّمَا عَلَّمَاهُ﴾ .. (٥٩)

[يوسف]

أى : أنه يعرف موقع المسبب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمة بعباده :

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٠)

[يوسف]

أى : يعزلون الأسباب عن المسبب ، وهذا ما يتعب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

(١) قضى حاجته : أدركها ونالها ، قال تعالى : ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .. (٥٨)

[يوسف] ، أى : أدركها وحصلها ، [القاموس القويم : ١٢٢/٢] .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ
 أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٦٩

أى : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم : وأكرم
 وفادتهم^(١) : بعد أن وُفُوا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه
 بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتَقًا لشقيقه بنيامين ،
 وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف : فهما من أم
 واحدة : أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ أَخَاهُ .. ﴾ (٦٩)

[يوسف]

يدلُّ على أن يوسف كان مُتَشَوِّقًا لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٩)

[يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استغفروا^(٢) لفترة ببنيامين ، ولم

(١) آواه : ضمه إليه وأسكنه عنده أو أنزله في بيت . والماوى : اسم مكان . قال تعالى : ﴿وَإِذَا
 الْجِئْتُمُ الْمَآوَىٰ (١٥)﴾ [التنازع] . مى : المنزل والملاجا . [القاموس القويم ٤٥/١] .

(٢) ابتأس الرجل : أكتأب وحزن . [القاموس القويم ٥٣/١] .

(٣) الوفد : : الزُكَّيَّان العُكْرَمُون : قال الأصمعي : وقد فلان يقْد وقادة إذا خرج إلى ملك أو
 أمير . [لسان العرب - مادة وفد] .

(٤) استغفرد فلانًا : انفراد به . واستغفرد الشيء : أخرجه من بين أصحابه . وانفردة : جعله
 فردًا . [لسان العرب - مادة : فرد] .

يُحْسِنُوا مُعَامَلَتَهُ ، وَحَافِلْ يَوْسُفَ أَنْ يُسْرِى عَنْ أَخِيهِ ، وَأَنْ يُزِيلَ عَنْهُ
الْكَدْرَ بِسَبَبِ مَا كَانَ إِخْوَتُهُ يَفْعَلُونَهُ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ^(١) فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾

أى : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المِثْرَةِ لهم ، كما
سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جهَّزهم فى المِرَّةِ السابقة ؛ وأراد أن
يُبْقِيَ أخاه معه فى مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته لِيُبْقِيَهُ معه ؛
وقد أخذ أبوه ميثاقاً عليهم ألا يضيعوه ، وألا يُفْرطُوا فيه ، كما
فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد
جُنِّدَ الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادُونَهُ ، وكانوا يحقدون عليه
وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُورَاعِ الْمَلِكِ ، التى يشرب فيها الملك ،
وتُستَخدم كمكيال ، وجعلها فى رَحْلِ أَخِيهِ .

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذى يُسْتَقَى به . وقد كان إناء من الفضة كانوا يكيلون به
الطعام . [لسان العرب - مادة : سقى] .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقاً متعددة من مادة « سقى » أى :
« السين » و « القاف » و « الياء » ، فسُطلق على إسقاء الناس
والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ .. ﴾ (٦٩)

[التوبة]

فكان معنى السقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضَع فيه الماء
ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذى كان يشرب به
الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليلٌ على نفاضة المكيال .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التى يُشرب
منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى قَمِّ الشارب ؛ وأيضاً يُقال
بها ؛ ومفردها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِي .. ﴾ (٧٠)

[يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعُوا « السقاية » فى رَحْلِ

أخيه ، و « الرَّحْلُ » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافرين كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جمالهم استعداداً للعودة إلى الشام : وقعت المفاجأة لهم : والتي يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ ^(١) أَيَّتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ^(٢) ﴾ [يوسف]

أى : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسارقة فعل قبيح حينما يترتب عليها جزاء يُوقَّع على السارق ، والمسروق هو شيء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمت بموافقة من « بنيامين » ليملك مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه ^(٣) إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رضى بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزيد من حزن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دقة القرآن ، ولتحسن الفهم منه : لنرى أن حزن يعقوب على فقد يوسف قد غلبه : فلن يؤثر فيه كثيراً فقد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

(١) إذن تانيهاً وأدناً : أعلم بالشيء ، والتضعيف يدل على الكثرة والتكرار . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ^(٢) ﴾ [يوسف] . أى : تادى وأعلم وأكثر النداء والإعلام . [القاموس القويم ١/١٦] .

(٢) المقصود بابويه : أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه . لأن « راحيل » أم يوسف وبنيامين ماتت في نفاس بنيامين . [انظر : تفسير القرطبي ٥/٣٥٩٨] .

بحكاية السرقة : واستبقاء بنيامين في مصر قال :

﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ ۚ ۖ ۞ (٨٤) ﴾ [يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة : فالآية هنا لا تُحدِّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم في نظر يوسف قد سَرَقُوهُ من أبيه ، والقوَّة في الجُبِّ .

وهنا يأتي الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا أَقْبِلُوا عَلَيْنَاهُ مَاذَا تَفْقِدُونَ ۚ (٧١) ﴾

أى : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يَنُهمونهم بالسرقة متسائلين : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهامهم :

﴿ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ ۚ
حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ ^(١) ۚ (٧٢) ﴾

أى : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية

(١) الزعيم : الكفيل والضمين والرئيس . زعم بالأمر : تكفل به فهو زعيم أى كفيل .

[القاموس القويم ٢٨٦/١] .

الملك ؛ وَيُقَالُ لَهَا « صَوَاع » ، وَمَنْ سَيُخْرِجُهَا مِنَ الْمَكَانِ الْمَخْتَفِيَةِ بِهِ
سَوْفَ يَنَالُ مَكَافَاةَ قَدْرِهَا وَزَنْ حِمْلٍ بَعِيرٍ ؛ فَلَعَلَّ صَوَاعَ الْمَلِكِ قَدْ
خُبِثَتْ فِي حِمْلٍ أَحَدِكُمْ دُونَ قَصْدٍ .

وَأَكَّدَ رَئِيسُ الْمَنَادِينَ أَنَّهُ الضَّامِنُ لِمَنْ يُخْرِجُ صَوَاعَ الْمَلِكِ ،
وَيَحْضُرُهَا دُونَ تَقْنِيشِ أَنْ يَنَالُ جَائِزَتَهُ ، وَهِيَ حِمْلٌ بَعِيرٌ مِنَ الْمَيِّرَةِ
وَالْغَدَاءِ .

وَهَذَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ

فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴾ ٧٢

وَقَوْلُهُمْ ﴿ تَاللَّهِ ﴾ هُوَ قَسَمٌ ، وَعَادَةٌ تَدْخُلُ « التَّاء » عَلَى لَفْظِ
الْجَلَالَةِ عِنْدَ الْقَسَمِ الْمَقْصُودِ بِهِ التَّعَجُّبُ ، أَيْ : أَنْ إِخْوَةَ يُوسُفَ
أَقْسَمُوا مُنْذَهَشِينَ لِاتِّهَامِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْرِقُوا ؛ وَإِنَّ الْكُلَّ قَدْ عَلِمَ عَنْهُمْ
أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِغَرَضِ الْإِفْسَادِ بِسَرِقَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، لَمْ يَسْبِقْ أَنْ
اتِّهَمَهُمْ أَحَدٌ بِمِثْلِ هَذَا الْإِتِّهَامِ .

وَهَذَا يَأْتِي الْحَقُّ سَبْحَانَهُ بِمَا جَاءَ عَلَى السَّنَةِ مَنْ أَعْلَنُوا عَنْ وُجُودِ
سَرِقَةٍ ، وَإِنَّ الْمَسْرُوقَ هُوَ صَوَاعُ الْمَلِكِ .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ مَا جَاءَ عَلَى السَّنَةِ :

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ٧٤

وهذا سؤال من مُسَاعِدِي يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة في شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا نفعل بمن نجد في رَحْلِهِ صُواع الملك ؟ وثبت كذبكم بانكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة في شريعة آل يعقوب أن يُسْتَرْقَ أو يظل في خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عممة يوسف التي أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفت في ثياب يوسف شيئاً^(١) عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقت يوسف معها ، ولم يأخذها أبوه إلا بعد أن ماتت عمته .

وكان هدف يوسف عليه السلام (أن أن يستبقى أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذي يَصْبُو إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِدُ الحق سبحانه قولهم :

﴿ قَالُوا جَرَّؤُهُ، مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَّؤُهُ،

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

وهكذا نطقوا بالحكم هم أنفسهم ، وأكذَّوه بقولهم :

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

[يوسف]

(١) هو منطقة إسحاق كان ينطق بها ، أي : يشدّها على وسطه . وكانت عنه في أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، لتستبقه عندها ولا تملكه لأبيه يعقوب ، وقد كان هذا حتى ماتت . [راجع : تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٦] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مآربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسف بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾

وكان الهدف من البدء بتفتيش أوعيتهم : وهم عشرة : قبل وعاء شقيقه ، كي ينفي احتمال ظنهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك : ليستخرج منه صواع الملك : وليطبق عليه قانون شريعة آل يعقوب : فيستبقى شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكَمًا لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۝٧٦﴾ [يوسف]

أي : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۝٧٦﴾ [يوسف]

أى : ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر :
لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نُّشَاءٍ وَفَرَّقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكاد له ، وحقق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك : ورفع سبحانه درجات عالية من العلم والحكمة .

ولم يكن الكيد بسبب أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرفعة ، فكان كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يدرون ما فى المحنة من المنع .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أى أمر صعب يقع عليه من غير رأى منه : لا بد وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أن كادوا له ، فماذا كانت نتيجة كيدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذاك علم ، فقال :

﴿ وَفَرَّقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

و (ذى علم) أى : صاحب علم . وكلاهما مُنْفَصِل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحب علم ، ولكن فرقه :

﴿ عِلْمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

أى : أن العلم ذاتى فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد يَهْتَوُوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن يتصرف إلى الأخ الذى وجدت السقاية فى رَحْلِهِ ، واخذوا يُؤَيِّخُونَهُ ؛ لأنه أخرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْتَقِ مِنْهُ معروف فى قولهم :

﴿ يُوْسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبَةٌ ۚ ﴾ (٨) [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هي « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتَلَطَّفُوا بِهِ ^(١) . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رَحَالِي هو مَنْ جعل البضاعة فى رَحَالِكُمْ .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكلر ما نزل علينا من البلاء منكم . قَرَدُ بَنِيَامِينَ : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورِدُ الحق سبحانه هنا قولهم :

(١) العصبية : الجماعة المتراخطة . والعصبة والعصابية : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب : مادة : عصب] .

(٢) ذكر القوطى فى تفسيره (٢٥٦٩/٥) أن إخوته « لما رأوا ذلك تكسوا ردوسهم ، وأقبلوا عليه قائمين : وبك يا بنيامين . ما رأينا كالיום قط . ولدت أمك » راحيل « أخوين لعين » قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى » .

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِفْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ
فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ
شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة في بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك في مجال تيرته أنفسهم ، وهكذا وَضَحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٧٧) [يوسف]

يُسَمَّى في اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية : أن حدثاً يقع بسبب حدث وقع قبله ، فهناك حدث يحدث وحده ، وهناك حدث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إن تذكر دروسك تنجح ، وهنا حدثان ، المذاكرة والنجاح ، فكان حدوث النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بد أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثاني ، وهو هنا قولهم :

﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ..﴾ (٧٧) [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ .. ﴾ (١٨٤) [آل عمران]

فكان الله يوضح للرسل ﷺ : إن كَذَّبُوكَ الآنَ فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عاتى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذى حدث فيه الشرط .

وهذا قال الحق سبحانه :

﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ .. ﴾ (٧٧) [يوسف]

أى : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للملكات المستقيمة ؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك الملكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُفْصِّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للرد .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »^(١) .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٤/٥) ، وأبو دارد فى سننه (٤٧٨٢) ، وابن حبان (١٩٧٢ - موارد الظلمات) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٧١/٨) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه و غضبه ، وَلِيُسْرِبَ جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمته التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحفظ به فى حضانتها من فَرُط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثر فيه ، ولكنه قال رآه فيهم لنفسه :

﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

لانكم أنتم مَنْ أخذتمونى طفلاً لالعب ؛ ثم ألقيتمونى فى الجُبِّ ؛ وثركتكم أبى بلا موانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتكم ابناً من أبىه .

وهو إن قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصل إليهم المعنى ، والقول ليس إلا الفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمِع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٥) [الكهف]

والكِبَرُ واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السن فهو مختلف ؛
وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. ﴾ (٧٨) [يوسف]

قد تكون ترفيقاً بالعزة ، أو ترفيقاً بالضعف .

أى : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنته
قد احتُجِرَ من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّرَ ذلك وأنت
عزيز مصر ؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومجده وعظمته ، واسترَّ
ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهْتَمٌ ، لا يحتمل
الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقد .

ثم يعرضون عَرَضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخَذُّ أَحَدِنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨) [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتِمَّ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛
وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المِيرة ، ولم يأخذ بضائعهم
ثمناً لها .

ومن يفعل ذلك : لا يضمنُ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن
يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهما الصغير .

كل هذه ترفيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألا يؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَقُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا
مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧١﴾

ويستعيز يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً مَعْنُ وَجِدَ في متاعه صُوعَ الملك ، فما ذنبه في هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنب ارتكبه غيره .

وساعةً تقرأ « إذا » مَكُونَةٌ ؛ فاعرف أن هناك جملة محذوفة ، أي : أن يوسف قال : إِنْ أَخَذْنَا غَيْرَ مَنْ وَجَدْنَا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء « التثوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٤)

[الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الروح الحلقوم ، وجاء « التثوين » عوضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذَكِّرهم أنه لا يحقُّ له أن يأخذ أحداً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وَجِدَ في متاعه صُوعَ الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة^(١) أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا بُدَّ فيها بسهولة : لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول :

﴿ فَلَمَّا أَتَيْنَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ
قَبْلُ مَا قَرِطُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي
أَبِي أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ٨٠

ويقال : « يتنس » أي : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا
الأمل فقط ، بل استياسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرَقِّقُونَ كل ألوان المُرَقَّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما
أوردوا مُرَقَّقًا ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَّدًا .

وكانهم بذلك يُلْحُونَ على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة
والجو المحيط لا يحمل أي بارقة أمل ، وكلما تبدو بارقة أمل

(١) الجريرة : الجنابة والذنب يجنيه الرجل . [لسان العرب - مادة : جرر] .

(٢) استياس : يتنس منه بعد جهد ومشقة . [القاموس القويم ٢/ ٣٦٦] .

(٣) العيثاق والموتق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَمِثَاقَهُ الَّذِي وَالَّكُمْ بِهِ .. ﴾ [المائدة] .

أي : عهده الذي عاهدكم عليه ، والزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٣٦٩] .

(٤) برج الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أي : لن أفرق أرض

مصر . [القاموس القويم ١/ ٦١] بتصريف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصداً ؛ فكانتهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيه بنيامين معهم في رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَّصُوا نَجِيًّا ^(١) ۝ (٨٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومن حوله من المُعاونين له ، وأخيهام موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسْرَّة ؛ والمَسْرَّة لا تكون إلا في أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلاحظ أن ﴿ خَلَّصُوا ۝ (٨٠) ﴾ [يوسف] هي جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ۝ (٨٠) ﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التي يتساءل فيها مَنْ لا يملكون ملكة عربية ؛ كيف يأتي القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملكة لعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ^(٢) ۝ (٤) ﴾ [التحريم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

(١) نجاه ينجوه نَجَوْا : كلمه سرّاً وخصه بالحديث. فخلصوا نجياً أى : متناجين . تناجى

الرجلان : أفضى كل منهما إلى الآخر بحديثه سرّاً . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٥] بتصريف.

(٢) الظهير : المعين المساعد كانه يستند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/ ٤١٨]

بتصريف .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

أى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » ، وكذلك كلمة « عدل » ، فحين ينظر القضاة فى أمر قضية ما ؛ فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقال : « حكم القضاة عدلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿ نَجِيًّا .. (٨٧) ﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها ، فهم حين استياسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ﴾ [يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين
رأهم قد قَبِلُوا فكرة العودة دون أخيهم الذي احتجزه عزيز مصر ؛
قال لهم رأيي الذي حذرهم فيه أن يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم
موثقاً من الله إلا أن يُحَاطَ بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقة
حين أخذوا يوسف وضيّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألا يبرح المكان ، ولن يعود إلى أبيه
إلا إن أُذِنَ له بذلك ؛ أو أن يحكم الله له بأن يُسَلِّمه عزيز مصر أخاه ،
أو أن يموت هنا في نفس البلد .

وهذا القول في ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى
أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحملون تلك المواجهة مع
الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد في الرحلة
الأولى يوسف ، وفي الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن
الكبير الذي يرأس الرحلة .

وفي هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور
مُداولة بين الإخوة في تلك المُتاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس
الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذي أوردته الآية
التالية :

﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْبَكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَأْنَا بِكَ
ابْنِكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا
لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١)

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُواع الملك في رَحْلِهِ ، ولا نعلم هل دَسَّهَا أحد له ؟ وهل هي حيلة^(١) ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذ العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوت وجود صُواع الملك في رَحْلِهِ هو السبب في كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن هناك سوابق لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم - إن كُذِّبهم - ما جاء به الحق على السنتهم :

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ (٨٢)

(١) الحيلة : الحثق في تدبير الأمور وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الواو واحتمال : طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٥٨٠/٥) : يريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قرأها نزلوا بها وامتاروا منها ، وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أى : أنك يا أبانا إن كنت تشك فى أقوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذى كنا فيه ؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجة ، وحديث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت معنا شهدت الواقعة ؛ فقد أذن مؤذن بالحادث ، وتم تفتيش العير علناً .

فإذا أردت أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العير التى كانت تسير معنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (٨٢) [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حديث من الأحداث لا بد له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يوجب ، ومن قوة تنهض به .

وفى بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيقال :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ ..﴾ (٨٢) [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبي ويوحى لك الله فسأله أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ونعلم أن العير هي المطايا ؛ سواء أكانت نياقاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البغال التي تحمل البضائع .

وحين يُقال :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شيء فوق الملابس كلها .

ومثال هذا ما كان فى موقعة بدر : فقد خرج رسول الله ﷺ ليلقى العير القادمة من الشام وهى مُحَمَّلَةٌ بالبضائع ؛ ليصدرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهاجرين التى كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِمُوا من مكة ؛ وصفهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حَدَثٍ يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبحانه ما جاء على السنة إخوة يوسف حينما عادوا ليلقوا آباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخَلَّفَ أخيهما الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفتيشهم قد تم فى مكان بعيد قليلاً عن العُمران ؛

وفحص جنود أو مساعدو يوسف امتعتهم التي عشروا فيها على صواع الملك .

وسُمي المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ! تفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :

﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿وَالْغَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجئنا بصحبته من أصحاب القوافل الأخرى .

وكررنا قولهم :

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك : لذلك أرادوا هنا أن يُثبتوا صدقهم : وحين يسأل أبوهم يعقوب : سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذب ، وأدَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ ۖ
جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٢)

الامور التى تخالف الضمير ؛ ويُستحى منها ؛ ويُخشى مغبَّتها^(١) ؛
هى أمور تستعصى على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى
تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسر لها ، ما أن تُقدم على فعل الامر
المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سَوَّلَ » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ ﴾ (٨٢) [يوسف]

أى : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس
المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظة أن جاؤوا له بقميص يوسف
وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا
تَصِفُونَ ﴾ (١٨) [يوسف]

(١) الجمال : البهاء والحُسْنُ يوصف به الحسن والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبِرْ جَمِيلٌ ۖ ﴾ .
(٢٨) [يوسف] . وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَأَصْلَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر] الذى
لا لوم معه ولا عتاب . [القاموس القويم ١/ ١٢٨] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو
الصبر المؤمن الذى يعطى أملاً .

(٢) المخبة : العاقبة . غب الامر ومغبته : عاقبته وآخره . [لسان العرب - مادة : غبب] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحد ، بل ستأتي من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر في النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خراطرها عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهاام الصبر من الله ، فهبات الفرج قد اقتربت ، فقال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٢) [يوسف]

في هذه الآية طلب الأمل الذي يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴾ (٨٢) [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسون كبير الإخوة الذي رفض أن يبرح مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد ضاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. ﴾ (٨٢) [يوسف]

ولم يقل : يأتيني بهما .

وَيُذِيلُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِقَوْلِهِ :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٣)

[يوسف]

فَاللهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَيْنَ هُمْ ؛ لِأَنَّهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَكِيمٌ فِيمَا يُجْرِيهِ عَلَيْنَا مِنْ تَصَرُّفَاتٍ .

وَيَقُولُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْغَضَ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٨٤)

وَأَعْرَضَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ ؛ فَمَا جَاءُوا بِهِ هُوَ خَيْرٌ أَحْزَنُهُ ، وَخَلَا بِنَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ بِبِشْرِيَّتِهِ تَحَسَّرَ عَلَىٰ يُوسُفَ ، فَقَدْ كَانَتْ قَاعِدَةُ الْمَصَائِبِ هِيَ اِفْتِقَادُهُ يُوسُفَ .

وَسَاعَةً تَسْمَعُ نَدَاءَ لَشَيْءٍ مُحْزَنٍ ، مِثْلُ : « وَاحْزَنْنَاهُ » أَوْ « وَاسْفَاهُ » أَوْ « وَامُصِيبَتْنَاهُ » ؛ فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ النَّفْسَ تَضِيقُ بِالْأَحْدَاثِ وَتَقُولُ « يَا هُمْ ، هَذَا أَوَانُكَ ، فَاحْضِرْ » . أَوْ أَنَّهُ قَالَ :

﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴾ (٨٤)

[يوسف]

لِأَنَّ أَخَاهُ بَنِيَامِينَ كَانَ أَشْبَهَ النَّاسَ بِهِ ؛ فَكَانَ حُزْنُهُ عَلَىٰ يُوسُفَ

(١) كَظِيمٌ : أَيْ سَكَتَ وَصَبَرَ عَلَىٰ مَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغَيْظِ ، وَبِجَوِّزِ أَنْ يَكُونَ كَظِيمٌ بِمَعْنَى مَكْثُومٍ مِنْ كَظَمَهُ الْغَيْظَ أَيْ : كَرَبَهُ وَأَحْزَنَهُ وَاسْكَنَهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ

طاقة من الهم نزلت به ، وتبعها طاقة هم أخرى ، هي افتقار بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَبْيَضُتْ عَيْنَاهُ...﴾ (٨٤)

[يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثرت حتى بدا الجزء الأسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضت عيناه من قَرط حُزنه ، الذى لا ينته لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى ! وتذرف^(١) عيناه حُزناً على موت ابنه إبراهيم : فقال له عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - : أتبكي ؟ أو لم تكن نهيت^(٢) عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيت^(٣) عن صوتين أحْمَقَيْنِ فاجرَيْنِ : صوت عند مصيبة ، خمش^(٤) وجوه ، وشق جيوب^(٥) ، ورنه^(٦) شيطان^(٧) » .

وقد قال رسول الله ﷺ :

(١) الذرف : صبّ الدمع. ذرفت العين الدمع : أسالته . [لسان العرب - مادة : ذرف] .

(٢) الخموش : الخدوش . وقد خمش وجهه : خدشه . [مختار الصحاح] :

(٣) الجيوب : جمع جيب - والجيب : إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . [تفسير القرطبي] ٤٧٦٧/٦ .

(٤) الرنة : المصيبة الحزينة . والرتين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده : « هى الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الفناء أو البكاء » . [لسان العرب - مادة : رنن] يتعزف .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبد الله . قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث فى الترمذى . ولكن فى فتح البارى (١٧٤/١٠) زيادة : « صوت عند نفثة ، لهو ولعب ، ومزامير الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ،
وأنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »^(١) .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون
جسموداً^(٢) أو يكون صخوراً لا يتفعل للأحداث ، بل يريده مُتَفَعِّلاً
للأحداث : لأن هذا لوّنٌ يجب أن يكون في إنسانيته ، وهذه عاطفة
يريد الله أن يبقيها ، وعلى المؤمن أن يعليها .

فسبحانه هو الذى خلق العاطفة ، والغريزة فى الإنسان ، ولو أراد
الله الإنسان بلا عاطفة أو غريزة لَفَعَلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة
والغريزة فى الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مهمتها ، يقول لك
المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يَهْدُبَ لك الانفعال .

والمثل الذى أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ،
يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً^(٣) .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف
ما يفيدك : ولا تستخدم هذه الغريزة فى التجسس على الناس .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٠٢) . وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١٥)
من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الجلود والطمود : الصخر ، وهى الصخرة التى تكون فى الماء القليل . [لسان العرب -
مادة : جلد] .

(٣) الشره : أسوأ الحرص . وهو غلبة الحرص . والشره : السريح الطعام الشديد الحرص
عليه . [لسان العرب - مادة : شره] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتي بالأولاد والنرية ، لكن لا تستعملها كإنطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهج الغرائز والعواطف لتبقى في إطار مهمتها .

والعاطفة - على سبيل المثال - هي التي تجعل الأب يحنو على ابنه الصغير ويسرعه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يعلى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٨٤)

[يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قدره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القرية » أى : أحكمت غلق فوهة القرية ، بما يمنع تسرب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (٨٥)

ولقائل أن يسأل : ومن الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولّى عنهم ؟

(١) فشا وفتى : زال وتحول . والمفسارح تفتوا : أى : مازلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم

علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ، [تفسير القرطبي ٣٥٨٤/٥] :

(٢) الحرص : الذى أذابه الحزن أو الحسق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرص أيضاً :

الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب - مادة : حرص] بتصريف كثير . قال القرطبي

فى تفسيره (٣٥٨٥/٥) : « أصل الحرص الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو

العشق أو الهرم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقال في الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله أنهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سن أبوك إسحاق » .

والمعنى : أنك صيرت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشمتني يوسف . فسعيتب عليه الله في هذه القولة ، وأوضح له : أنك شكريك لخالقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لي . قال : غفرتها لك ^(١) .

وقد نبه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللّٰهِ قَفَسًا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتّٰى تَكُوْنَ حَرَضًا اَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ ﴾
 ﴿٨٦﴾ [يوسف]

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الْحَرَضُ » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١ / ٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامي وعزاه لابن جرير الطبري . قال طلحة : أنبت أن يعقوب دخل عليه جار له فقال : يا يعقوب ، ما لي أراك قد أنهشمت وقنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمتي وأفنأتني من ابتلائى الله به من قَمِّ يوسف . وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أنشكركم إلى خلقي ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لي . قال : فإني قد غفرت لك . فكان يعد ذلك إذا سئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَنشَكُرُ بَنِي وَحُرِّي إِلَى اللَّهِ .. ﴾ (٨٦) [يوسف] .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَفِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبُتْ : هي المصيبة التي لا قدرة لأحد على كتمانها ، فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوع يتوحد إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبتلى ، ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد » .

والحق تبارك وتعالى يقول في كتابه :

﴿ قُلُوبًا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ (١٤٣) [الأنعام]

فساعة يأتي البأسُ ونتضرع إلى الله : يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذكر : وأعادنا إلى الله الذي لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذي يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد ، والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بمن يدعو .

وتساءل بعضهم : ولماذا لم يَقُلْ يعقوب ما علمنا إياه رسولنا ﷺ :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١٥٦) [البقرة]

(١) حقيقة البت في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها، قال الحسن : يئى : حاجتى . وقيل : أشد المزق . [راجع : تفسير القرطبي ٥/٣٥٨٦] .

ونقول : إن هذا من النعم التي اختص بها الحق سبحانه أمة محمد ﷺ : وحين دخل بعضهم على علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه وأرضاه - وكان يعاني من وعكة ، وكان يتأوه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أنتوجع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواتمها - يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حزنه وهمه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضر : لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجوده ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكذوبة أن يوسف ما زال حياً ، وأن الرؤيا التي حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ
وَلَا تَأْتِسْوَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ
اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

وتلاحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والآخر

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (٨٨) [يوسف] . أي : تقيموا أخبارهما وابحثوا عنهما

باعتناء شديدة . [الفاموس القويم ١/ ١٥٤] .

الأكبر الذى أصرَّ على ألا يبرح مصر إلا بعد أن ياذن أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكر يوسف وأخيه ، ولم يأت ذكر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صغارا ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧)

[يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحس ، والحس يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المحسنة ، وتتركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنوات المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواس أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرات كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴾ (٨٧)

[يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كي تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أطلقت على مَنْ يَتَنصَّتْ ويرى ويشمُّ رائحة الأخبار والتحركات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفى عُرْفِنا العام نقول لمن يحترق التَّقَاطُ الاخيار « شَمَّ شَمَّ لنا على حكاية الأمر الفلاني » .

وتابع يعقوب القول :

﴿ لَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحٍ ۚ اللَّهُ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧)

[يوسف]

أى : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا ونحاولنا ؛ ولم نجد خلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال الله رحمة .

والأثر يقول : « لَا كَرْبَ وَأَنْتَ رَبُّ » .

وما يَعْرِ عليك بقانونك الجا فيه إلى الله .

وقد عَلَّمَنَا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبَهُ أمر قام وصلى » (١) .

وبهذا لجا إلى ربِّ الأسباب ، وسببانه فوق كل الأسباب ، وجَرَّبُوا ذلك فى أى أمر يُعضلكم ، ولن ينسَتهى الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد خلاً لما أعضكه .

(١) الرُّوح : الرحمة، سماها روحاً لأن الرُّوح والراحة بها، وقوله : ﴿ لَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ﴾ .

(٨٧) [يوسف] أى : لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد ، يريد أن المؤمن يرجو فرج

الله . [راجع : القرطبي فى تفسيره ٢٥٨٧/٥] و [لسان العرب - مادة : روح] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) ، وابن داود فى سننه (١٢١٩) من حديث حذيفة

ابن اليمان .

وكلمة « رُوح » نجدُها تُنطَقُ على طريقتين « رُوح » و « رُوح » ،
و « الرُّوح » هي الرائحة التي تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما
يجلس إنسان في يوم قَيْظٍ^(١) ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فُروِحْ وريحانٌ وجةٌ نعيمٍ ﴾ (٨٩)

[الواقعة]

وتأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّسات حين يشتد القَيْظُ ، وتجلس
في بستانٍ ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما في البستان من
زهور .

والرُّوح^(٢) هي التي ينفخها الحقُّ سبحانه في الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذي يسير عليه
كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨٧)

[يوسف]

لأن الذي ليس له ربٌّ هو مَنْ يياس . ولذلك نجد نسبة المنتحرين
بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً
يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يهبُّه ممَّا فوق
الأسباب .

(١) القَيْظُ : صميم الصيف . والنوم الغائظ : شديد الحر . [لسان العرب - مائة : فيظ] .

(٢) الروح بالضم : بما به حياة النفس ، قال تعالى : ﴿ قُمْ سِرّاً وَتَخَوَّهِمْ مِنْ رُوحِهِ ﴾ (٢) .

[السجدة] . أى : من سر الحياة التي لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره .

بروح لا يملك نفقها في الإنسان [لا الله] . [القاموس القويم ٢٨٠ / ١] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس في حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالاسباب ويتقى الله ، وسوف يجد في لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائي للمؤمن .

وهب أنك سائر في الطريق ، وفي جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إن كان في بيتك عشرة جنيهات فحزرك يكون خفيفاً لضياح الجنيه ، ولو كان رصيدك في البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذي ضاع .

وَمَنْ لَهُ رَبٌّ ، يبذل الجهد في الأخذ بالاسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أي كرب مما هو فوق الاسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن المكبد هو الذي ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بالله ، ولو كان يؤمن بالله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كرب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبدُه ؛ إما عجزاً أو بُخلاً ، فهو في كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يؤمن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطى بالاسباب ،
وبما فوق الاسباب ؛ وهو حسين يمنع ؛ فهذا المنع هو عينُ العطاء ؛
لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

وينقلنا الحق سبحانه إلى ثقله أخرى ؛ وهي لحظة أن دخلوا على
يوسف عليه السلام في مقره بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا
الضَّرُّ وَحَشْنَا بِيَضَاعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

ولم يذكر الحق سبحانه اسم من دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ،
والضمير قى « عليه » لا بد أن يعود إلى معلوم ، وتادوه بالتفخيم
قائلين :

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ .. ﴾ (٨٨) [يوسف]

أى : أن الجوع صيّرنا إلى مُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب من
يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهم الأدنى .

ويستمر قولهم :

(١) أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره وهو ثمن قليل - قاله مجاهد والحسين وغير واحد .
[ابن كثير ٤٨٨/٢] . وقال الفرطوس (٢٥٨٨/٥) : « الإجزاء : السؤق يدفع والمعنى :
انها بضاعة تدفع ، ولا يقبلها كل احد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

[يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحصسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مدخل الترقيق والتفخيم ككُون من المكر ، فالتفخيم بنداؤه بلقب العزيز : أى : المالك المُتَمَكِّن ؛ ويعنى هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر فى متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُرْجَاة ، أى : بضاعة تُستخدم كأثمانٍ لما سوف يأخذونه من سِلْع .

وكلمة : ﴿ مُرْجَاةٍ .. ﴾ (٨٨)

[يوسف]

أى : مدفوعة من الذى يشتري أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ (٤٢)

[النور]

وكلمة « يزجى » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ .. ﴾ (٨٨)

[يوسف]

(١) الرُّكْم : جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله رُكَّاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب وتعود ذلك من الشيء المرتكـم على بعضه . وارتكـم الشيء وتراكـم (نا اجتماع) [لسان العرب - عادة : ركم] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك : جَرَّبَ هذا الأمر فى نفسك ،
وراقب كيف تدفع ثمن أى شىء تشتريه ؛ فإن كان معك نقود قديمة
ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛
وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشتري منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة
التي تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود
القديمة ؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ بِضَاعَةِ مَرْجَاةٍ .. ﴾ (٨٨)

[يوسف]

على أنها بضاعة رديئة .

فكان الضرُّ الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للميرة
التي سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التي تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على السنتهم :

﴿ فَأَرْوِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

[يوسف]

أى ؛ أنهم يرجونه أن يُوفى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إن كان ما
جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه الميرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك
الثَّوْقِيَّة فى الكَيْل صدقة .

وبذلك رُدُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة
البشر على الدَّفْع ؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى .

ولقائل أن يسأل : اليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟
 نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختص به الحق سبحانه آل
 محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن
 الصدقة لا تنبغي لأل محمد ، إنما هي أوساخ الناس »^(١) .
 وانظر إلى ما فعلته الترفيقات التي قالوها : نظر إليهم يوسف
 عليه السلام وتبسم ، ولما تبسم ظهرت ثناياه^(٢) ، وهي ثنايا مميزة
 عن ثنايا جميع من رآوه .
 وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
 إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

ومجىء هذا القول في صيغة السؤال : يدفعهم إلى التأمل
 والتدقيق : لمعرفة شخصية المتحدث .

ثم يأتي التلطف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾^(٣) [يوسف]

وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العذر بالجهل ، ولم يتحدث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٦/٤) . ومسلم في صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من حديث عبدالمطلب بن ربيعة . بلفظ : « ألا إن الصدقة لا تنبغي لمحمد ولا آل محمد ، إنما هي أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان في فمه هي : الأسنان الأربع التي في مقدم فمه : ثنان من فوق ، وثنتان من أسفل ، [لسان العرب - مادة : ثنى] .

إليهم بعزة الكبرياء ، وغرور المكانة التي وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عنهم صدمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم .

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ في حقك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالَتْ مرارتك من سلوكه ، فتذكره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طيشك ، لكذلك الآن قد وصلت إلى درجة التعقل وفهم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثره بشكواهم ، ثم تيسُّمه لهم ، وظهور ثدياه دفعهم إلى تذكره^(١) ، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء في الآية التالية :

﴿ قَالُوا أَإِذَا نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ
وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٩٠)

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ .. ﴾ (٩٠) [يوسف]

(١) كان يوسف عليه السلام إذا تيسَّم كان ثيابه اللؤلؤ المنظوم ، قال ابن عباس : تيسَّم يوسف ، فشبهوه بيوسف فقالوا له على جهة الاستفهام : ﴿ أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ .. ﴾ (٩٠)

[يوسف] . وفي هذا روايات أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره (٢٥٩١/٥) .

(٢) مَنَّ عليه : أنعم عليه وأحسن إليه .. قال القرطبي في تفسيره (٣٥٩١/٥) : أي : قد مَنَّ الله علينا بالنجاة والملك ، بصرف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريرى الذى اكّده بـ « إِنَّ » و
« اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجب بنجاحهم فى
التحسس الذى أوصاهم به أبوه .

فَرَدُّ عَلَيْهِمْ :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي .. ﴾ (٩٠) [يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكر
يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه فى النعسة ، وأن
الحق سبحانه قد أمر الاثنين .

ويجىء شكر يوسف لله على نعمته فى قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٩١) [يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذى يعرض القضية العامة التى تنفعهم
كإخوة له ، وتنفع أى سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف
عليه السلام بعد بيّنة من واقع أحداث مرّت به بدءاً من الرؤيا إلى هذا
الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع معاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف
وأخيه مما ابتليّا به واجتمعا من بعد الفُرقة ، وعُلِّل يوسف ذلك
بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ .. ﴾ (٩٢) [يوسف]

أى : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتُر
همته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصي مهما زُيِّنَتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا
بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه في الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف
في هذا الموقف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾

و « تالله » قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴾ (٩١)

[يوسف]

أى : خَصَّكَ بشيء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤثِرْك
بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من الملُك وعلو الشَّان
والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا
بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقَرَّبِينَ مثله عند أبيهم ، ولكنك
يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدِّماً عند ربِّ أبينا وربِّ
العالمين .

والشَّان والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بدُّ أن
ننتبه إلى الفرق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعريز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٩) [يوسف]

ولم يقل لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هي : « الخاء » و « الطاء » و « الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطيء هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعداها ، أما المخطيء فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرؤوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَرَبُ ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْنًا كثيفًا ؛ هذا الدهن يُسمى ثَرَبٌ .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيدًا ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَرَبُ .

والتثريب يعنى : أن اللوم العنيف قد أذاب الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينز ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسله .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إِذَا زَنَتْ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ فَتَبَيَّنَ ^(١) زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ، وَلَا يُشْرَبْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ ، وَلَا يُشْرَبْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ الثَّلَاثَةَ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَبِيعْهَا ، وَلَوْ بِحَبْلِ مِنْ شَعْرٍ » ^(٢) .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلت كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة : فإن لم ترتدع عن الفعل فليبيعها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يؤد العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

[يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك : وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت فى حدود معرفته ، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢)

[يوسف]

هو فهمٌ لحقيقة أن أى رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستمدة من رحمته سبحانه .

(١) قال التتوى فى شرحه لمسلم (٢٢٣/١١) : « معنى تبين زناها تحققه ، إما بالبينة ، وإما برؤية ، أو علم عند من يُجوز القضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطاهم القديم وعفا عنهم ؛ والله أُولَىٰ منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذي علم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٣)

وكان يوسف عليه السلام ، قد علم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فامر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذي كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السير أن أخاه الأكبر الذي رفض أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨٠)

قد قال ليوسف :

« بنايها العزيز إنني أنا الذي حملتُ القميص بدم كذب إلى أبي ، فدعني أحمل هذا القميص لأبي ، كي تمحو هذه تلك »^(١) .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥ / ٢٥٩٢) : « حكى السدي أن الذي حمل قميصه يهودا ،

قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذي أحمله الآن

لأسره ، وليعود إليه بصره ، فحمك » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝ (٩٢) ﴾ [يوسف]

و نلاحظ أنه لم يقل : « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي ۖ ۝ (٩٢) ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحثان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و .

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ۖ ۝ (٩٢) ﴾ [يوسف]

أى : يرتد إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ۝ (٩٣) ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قرأنى دقيق ، أن يحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُ بِصَلَةِ قَرَابَةٍ لَهُمْ أَوْ يَعْمَلُ مَعَهُمْ^(١) ، ولم يقل يوسف « يالكُم » حتى لا يأتوا بالاعيان فقط .

ونلاحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يَمُتُ لَهُمْ بِصَلَةِ قُرْبَى ؛ لأن فى مثل هذا الأمر - من موقع عزيز مصر - إجباراً للأب على المجيء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

(١) قال مسروق : كانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . الفرطى فى تفسيره (٢٥٩٣/٥) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾^(١)

و « فصلت » تدل على شيء كان ملتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفصلت العيرُ ، أى : خرجت من المدينة وتجاوزتها ؛ لتسير فى رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..﴾^(٢) [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فاضاف :

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾^(٣) [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخرف ، لأن التفنيد هو الخرف^(٤) .

(١) ريح يوسف : أى ريحاً تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الرائحة أى رائحته . [القاموس القويم ٢٨٠/١] .

(٢) فنَّد : ضعف رأيه من الهرم ، أو كتب عامداً ، واتى بالباطل . وفنَّد رأيه : أضعفه وأبطله ، أو بين ما فيه من الخطأ . [القاموس القويم ٨٩/٢] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكبر ، [لسان العرب - مادة : خرف] .

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صورَ المرائي والأصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُخيل للإنسان أنها تلاشت .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أي جماعة كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلت عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممّا يدلُّ على أن الصور لها نضج من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات : فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛ ويقولون : لا شيء يضيع في الكون ، بل كل ما وُجد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدربة في المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أي محاولة لتهرب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبيح الآن في كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلياً أن ندرك أن العيرَ عندما خرجت من أسوار المدينة ؛ وأخذت طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يشمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التي يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العير لحظة تواجدها في المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُختلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أي مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛ ويختلف الأمر في الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشي هبة الرائحة دون أن يعترضها شيء .

وبذلك نؤمن أن كل شيء في الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۖ كَرَامًا كَاتِبِينَ ۖ ﴾ [الانفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويرد من بقي من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد ريح يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۖ ﴾

وكانهم قد ملّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنون الضلال^(١) بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي لا علاقة لها بالتدين من محبة شديدة ليوسف ، وثقل به ، والتمنى لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقع لقائه ، وهم الذين ظنوا أن يوسف قد مات .

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحبيب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَرَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ ﴾ [الضحى].

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّن
أَلَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦١

وحين حضر البشير^(١) ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة :
ويقال أيضاً : إنه يهوذا : وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن
يأذن له والده ، أو يأتى حلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى
مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقه ، طبقاً لما أراد يوسف
ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف : فالتقاء على وجه الأب
تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفرح يعقوب فرحاً شديداً : لأنه
فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدته
قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً : وكان البكاء عليه من بعد
ذلك هو بكاء من فرط الشوق لرؤية ابنه .

(١) البشير : الذي يُبشِّرُ القوم بالخير السار . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا
أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُطعناً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدي أنه قال
لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص الثَّرحَة (الحزن) فدعوتى أذهب إليه بقميص
الفرحة . [تفسير القرطبي ٣٥٩٦/٥] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحي من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرع له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلّت انتصارات الحق والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٥) ﴾ [يوسف]

ولم يقل ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبي ، وأن الواقع قد أيد الكلام الذي قاله لهم :

﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا (١٦) مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (١٧) ﴾ [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم : إياكم أن تثقوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدركات الأشياء على قَدَرها ، وهناك أشياء فوق مُدركات العقول .

وحين يُحدّثكم معصوم عن ما فوق مُدركات عقولكم إياكم أن تُكذّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عمّا فوق مُدركات العقول .

(١) تحسس الشيء وتحمس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يٰٓبَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ (١٦) ﴾ [يوسف] . اي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بغتاة شديدة . [القاموس القويم ١٥٤/١] .

راجعته على الأصل وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ محمد السراوى المستشار بالأزهر والاستاذ عادل أبو المعاطي .